# شرح الحكم العطائية

المسمّى

# إحكام الحِكَم

تصنيف

الشيخ أبي الطيب إبراهيم بن محمود بن أحمد الأقصرائي المواهبي

المتوفى ٩٠٨ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الآفاق العربية

obeikandl.com

المو اهبي ، ابراهيم بن محمود بن احمد المواهبي ابو الطيب
1502 مـ
شرح الحكم العطائية ، المسمي احكام الحكم
تصنيف: ابي الطيب ابراهيم بن محمود الاقصراني المواهبي
تحقيق و تعليق : احمد فريد المزيدي
ط1 – القاهرة : دار الآفاق العربية 2010
312 ص ، 24 سم
تدمك : 6 - 147 – 344 – 977 – 978
1- التصوف الاسلامي
أ - المزيدي ، احمد فريد ( محقق و معلق )
ب – العنوان
ديوى : 260
رقم الإيداع :2009/14830

الطبعة الأولى
1431 هـ – 2010

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الآفـــاق العربيـــة
نشر – توزيع – طباعة
55ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر– القاهرة
تليفون : 22617339 تليفاكس : 22610164
EMIL: daralafk@yahoo . com
EMIL:selimafak@live.com

دار الآفاق العربية

obeikandi.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# المقدمة

الحمد لله الحمد لله الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، الذي أودع قلوب أوليائه طرائف الحِكم، ورفع عنها كثائف أستار الظلم، وأنارها بنور معارف قدسه، وفاتحها بفتح خطابه وأُنسه، لذلك كانت علومهم من فيض المواهب لا من تعنت البحث وتعب المكاسب.

فسبحان من وهب في لمحة من شاء كيف شاء، لأنه تعالى إذا شاء أنشأ، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

أحمده على ما وهب من إفضاله، وأشكره على جزيل نواله.

وأشهد أن لا إله إلا الله جواد غمر بجوده جميع الكائنات، وعمَّر بسره السرائر فكانت به أوسع من الأرضين والسموات.

وأشهد أن سينا محمدًا عبده ورسوله ﷺ بحر المعارف الربانية ومنبع العلوم اللدنية.

صلى الله عليه وآله صلاة أزليَّة ذاتية، تليق بقدس كماله الأقدس، وتصلح لكبير مقام جلاله الأنفس، وتتحف قائلها بشهود جماله الأنس، بمعارف تفوق أُنس ظناء الحي في المكنس.

ورضي الله عن أصحابه سيوف الحق وعيون الحقائق، وعقود الطرف ونجوم الطرائق، وعن التابعين لهم في التخلق والموافقين للأخلاق ما اكتسب مكتسب ووهب ذلك الخلاَّق.

**أما بعد** ... فهذا شرح من أجل الشروح الصوفية

هذا وقد قمت بالتحقيق والتخريج والعزو والتوثيق، وإضافة لمهمات التعليق على بعض المواضع.

وأصل هذا الكتاب: نسخة دار الكتب المصرية، والنسخة الثانية التي طابقنا بعض الفروق اليسيرة عليها، حيث إن هذه النسخة الخطية التي هي أصل الكتاب أتم نصًا من الثانية.



obeikandi.com

وإنه لحري بي أن أُورد قصة تحقيقي لهذا الكتاب:

بعد انتقال شيخي وسيدي مصطفى عبد السلام الملواني - قدس سره- بأيام معدوات رأيته في المنام ما حاصله يأمرني بتحقيق كتابين في الحكم، وذلك بدعوة من الشيخ أبو المواهب الشاذلي وتلميذه الشيخ الأقصرائي المواهبي، وحثهما لي على ذلك على يدي شيخي.

ولم يكن عندي وقتها الكتابين، حتى شاء الله بعد الرؤيا بيومين أحصل على قوانين حكم الإشراق للشيخ أبي المواهب، ثم الحصول على النسخة الخطية – مصورة- من أحد مكتبات بعض إخواننا في الطريق من تلامذة شيخنا- قدس سره- فسارعت بالتحقيق، حتى كان التأخر العجيب في إخراج الكتاب لتخرج هذه النسخة مميزة وتامة مباركة إن شاء الله.

والشاهد أن الأمر بتوجيهه هكذا للفقير كان منحة من الله تعالى، وما أرجو إلا رضا الله ورسوله والسادة الكُمَّل- قدست أسرارهم.

وآخرًا نتقدم بالشكر والدعاء بالخير والفلاح في الدنيا والآخرة لكل من ساهم في إخراج مثل هذا التراث لساداتنا ذوي الفضل الأئمة الأكياس.

والله من وراء هذا القصد، وهو ولي التوفيق والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كثيرًا.

***

obeikandl.com

# ترجمة الإمام سيدي ابن عطاء

هو الإمام سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الشيخ تاج الدين أبو الفضل الجذامي، ثم السَّكندري الشاذلي إمام تاج علمه مرتفع وشمل فضله مجتمع، وخبر نعته مشتهر، ودر حكمه منتشر، ومصنفاته مفيدة، وحلل ذكره على مر الأيام جديدة.

هجر النوم وقلاه، ولو لم يكن له غير كتاب التنوير لكفاه.

توفي بمصر سنة ٧٠٩ هـ.

قال التاج السبكي: أراه كان شافعيًّا، وقال غيره أي: ابن فرحون في الديباج المذهب كان مالكيًا، إمام في التفسير والحديث والأصول، متبحر في الفقه، له وعظ يعذب في القلوب ويحلو في النفوس.

قال ابن العماد في «شذرات الذهب»: قال الذهبي: كانت له جلالة عظيمة، ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي .. إلى آخر ما قاله.

وله اليد الطولى في العلوم الظاهرة، والمعارف الباطنة، إمام في التفسير والحديث والأصول، متبحر في الفقه، وله وعظ يعذب في القلوب، ويحلو في النفوس.

وكان قد تدرب بقواعد العقائد الشرعية، وهذبته العلوم، فاستدل بالمنطوق على المفهوم، فساد بذلك العصابة الصوفية، فكان له من الرياسة شرب معلوم، وهو صاحب كتاب الحكم الذي من تأمله قال ما هذا منشور، إن هذا إلا لؤلؤ منثور، كل سطر منه جنة قد حُفت بالثمار، وأحدقت بأنوار الأزهار، وكل شطر من سطر لو يباع بثمن بخس لاشتري بألف دينار.

صحب العارف المرسي، وأخذ عنه جمع من الأعيان، وانتفع به خلق كثر، منهم شيخ الشافعية التقي السبكي.

وأصله من الإسكندرية، ثم قطن مصر، وصار يعظ الناس ويرشدهم، وله الكلمات البديعة المفردة بالتدوين.

ومن نظمه:

obeikandi.com

أَعِنْـدُكَ عَـنْ لَـيْلَى حَـدِيثٌ مُحَـرَّرُ ... لاَ يَـرَاهُ يُحْيِـي الـرَّمِيمِ وَيَنْـشُرُ

فَعَهْـدِي بِهَـا الْعَهْـدُ الْقَـدِيمُ وَإِنَّنِـي ... عَـلَى كُـلِّ حَـالٍ فِي هَوَاهَـا مُقَـصِّرُ

مات سنة تسع وسبعمائة، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا قدس الله أسرارهم.

ومن **كراماته** أن الكمال بن الهمام زار قبره، فقرأ عنده سورة هُود حتى وصل إلى قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وأجابه من القبر بصوت عال: يا كمال، ليس فينا شقي. فأوصى بأن يُدفن هناك(١).

ومنها أن رجلاً من تلامذته حج، فرأى الشيخ في المطاف، وخلف المقام، وفي المسعى، وفي عرفة. فلما رجع سأل عن الشيخ: هل خرج من البلد في غيبته إلى الحج؟ قالوا: لا.. فدخل إليه وسلم عليه، فقال له: من رأيت في سفرك هذه من الرجال؟ قال: يا سيدي، رأيتك.. فتبسم وقال: الرجل الكبير يملأ الكون، لو دُعِيَ القطب من جحر لأجاب.

**مؤلفاته:**

١ - القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد «**الله جل جلاله**» (طبع كثيرًا).

٢- تاج العروس الهادي «**أو الحاوي**» لتهذيب النفوس، ويسمى أيضًا «**تاج العروس وقمع النفوس**» و «**الطريقة الجادة إلى نيل السعادة**» (طبع كثيرًا)، وأحدث طبعاته بدار الكتب العلمية – تحقيق الشيخ أحمد المزيدي.

٣- التحفة في التصوف وهو نفسه «**رسالة في التصوف**»، وكلاهما المتقدم.

٤- تنبيه في طريق القوم.

٥- التنوير في إسقاط التدبير (طبع كثيرًا).

---

(١) وضريحه الشريف بمسجده قرب مسجد السادة الوفائية، وبجوار سيدي ابن أبي جمرة، وابن سيد الناس، وابن دقيق العيد.

٦- الحكم «طبع عدة طبعات مفردة ومع شروحه» مثل شرح زروق، وابن عجيبة، والشرقاوي، والأقصرائي والبيومي (أربعتهم تحقيق المزيدي).

٧- رسالة في السلوك.

٨- رسالة في القواعد الدينية.

٩- عنوان التوفيق في آداب الطريق، وهو شرح قصيدة: «ما لذة العيش ..» للإمام أبي مدين التلمساني ت ٥٩٤هـ وقيل: صحة نسبته لابن علان أحمد بن إبراهيم.

١٠- لطائف المنن في مناقب الشيخين الشاذلي والمرسي. (طبع كثيرًا).

١١- المرقى إلى القدس الأبقى، وذكره في هدية العارفين باسم: «المرقى إلى القدير الأبقى».

١٢- تحفة الخلان في شرح نصيحة الإخوان.

١٣- ثلاث مكاتبات لإخوانه وجواب عن مسألة وهي ملحقة بالحكم العطائية وجعلت تكملة لها.

١٤- مواعظ.

١٥- وصية كتبها لإخوانه في الله تعالى.

١٦- تفسير آية ٥٤ من سورة الأنعام ومن أول حزب البر للإمام الشاذلي. (طبعت مع شرح الفاسي لحزب البر).

١٧- حزب المناجاة.

١٨- حزب التنوير.

١٩- حزب النجاة.

٢٠- أدعية.

obeikandi.com

٢١- بعض قصائد شعرية.

٢٢- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، وقال في هدية العارفين: «**مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح**» [كتابنا هذا].

٢٣- أصول مقدمات الوصول (ذكره في هدية العارفين).

٢٤- الطريق الجادة في نيل السعادة (ذكره في هدية العارفين.

٢٥- أنس العروس (ذكره بر وكلمان في تاريخ الأدب العربي).

وانظر: الكواكب الدرية للمناوي ترجمة ٦١٢، طبقات الشافعية للسبكي (٩/ ٢٣)، طبقات الشعراني (٢ / ٢٠)، شذرات الذهب لابن العماد (٦ / ١٩) وغيرها.

obeikandl.com

## ترجمة الشارح

هو سيدي إبراهيم بن محمود بن أحمد بن حسن الأقصرائي الأصل، القاهري، الشاذلي الوفائي، الحنفي الشافعي (برهان الدين، أبو الطيب).

المشهور بالمواهبي.

أحد أتباع الشيخ محمد المغربي، والشيخ أبي المواهب.

كان حسن الخلق والخلق، سالكًا من الزهد والورع أوضح الطرق، ومع ذلك كان ينفق نفقة الملوك ويلبس ملابسهم، ولا يعلم له جهة يأتيه منها بعض ذلك.

وقال السخاوي: كان تلميذًا لأبي المواهب ابن زغدان- الشاذلي الوفائي- وقبله صحب الشيخ محمد بن عمر المغربي.

وهو حنفي أخذ عن إينال باي الفقه.

وذكره لي المحب بن جرياش بما أعرضت عن ذكره وأن أباه كان من المقطعين وقد جاور بمكة غير مرة منها في سنة ثلاث وتسعين وزار المدينة النبوية أشهراً وانتمى إليه جماعة ووصفوه بالعارف.

وقد أرسل إلي بولده محمود في رجب سنة خمس وتسعين فعرض علي الأربعين للنووي والمجمع لابن الساعاتي ثم إنه جاور في سنة ثمان وتسعين وكان يقصدني بالسلام ويقول: قد استجيبت دعوتكم في إجازة الولد بجمع الشمل بهذا الحرم الشريف ولم أر منه إلا الأدب والتواضع وأثنى عليه عندي القاضي خير الدين السخاوي قاضي المالكية بطيبة والله الموفق.

وقال المناوي فيما يُحكى عنه:

ولما أراد الشيخ دمرداش السفر إلى الشيخ عمر الروشني، شيخ طريق العصابة الخلوتية من مصر، أعطاه الشيخ إبراهيم المواهبي كيسًا وقال: ادفعه للشيخ، فأعطاه إياه ففتحه،

فإذا فيه مسمار أعوج ولوح وقصعة، قال: أتدرون ما أراد؟ أما المسمار فيقول إن قلبه في صلابتة وقسوتة واعوجاجه.. وقد ليناه وقومناه، وأما اللوح فيشير به إلى خلو قلبه من المعارف وقد نقشناه، وأما القصعة فيقول إن وعاءه فارغ وقد ملأناه، فكلمه وبينهما مسيرة نحو نصف عام.

وقد ارتبط علمًا ونسبة وطريقة لشيخه محمد بن أحمد بن محمد أبو المواهب بن الحاج. التونسي ثم القاهري المالكي، ويعرف بابن زغدان - بمعجمتين فمهملتين ونون - اليزلتيني، نسبة لقبيلة (يزلتين) ، صوفيٌّ خيِّر، كلامُهُ مسموع، وحديثٌ قدره مرفوع، إمامُ الورعين، علمُ الزاهدين، كنز العارفين.

ولد سنة عشرين وثمانمائة بتونس، فحفظ القرآن، وكتبًا أخر، وأخذ العربية عن أبي عبد الله الرملي وغيره، والفقه عن البرزالي وغيره، والمنطق عن الموصلي، والأصلين والفقه عن إبراهيم الأخضري، ثم قدم مصر، فأخذ الحديث عن ابن حجر، والتصوف عن يحيى ابن أبي الوفا، وصار آيةً في فهم كلام الصوفية، وكان له اقتدار تام على التقرير، وبلاغة في التعبير.

وكان جميل الصورة والملبس والتعطر، وأغلب أوقاته مستغرق مع الله، سكن درب الأتراك بباب الجامع الأزهر، وله خلوة بسطح الجامع، موضع المنارة التي عملها.

وكان يغلب عليه سكر الحال، فيتمايل في صحن الجامع، فيتكلم الناس فيه بحسب ما في أوعيتهم حسنًا وقبحًا.

وكان أولاد بني الوفا لا يقيمون له وزنًا، لكونه ضاهي دواوينهم، وصار كلامه ينشد في الموالد والمحافل، والمساجد والزوايا على رءوس العلماء والصلحاء، ويطربون من عذوبته، وما خلا جسدٍ من حسد، وكان هو معهم في غاية الادب، وهم معه على غاية الأذى، تعرضوا له مرة وهو داخل يزور السادات، فضربوه حتى أدموا رأسه وهو يبتسم ويقول: أنتم أسيادي وأنا عبدكم.

وله تصانيف منها: «مراتب الكمال في التصوف» ، و«شرح الحكم» لم يتم ولا نظير له في شروحها، وكتاب **«قوانين حكم الإشراق إلى صوفية جميع الآفاق**[1]**»**.

---

(١) طبع بتحقيقنا، دار الكتب العلمية.

قال الشعراوي: ولم يؤلّف في الطريق مثله، وقال في موضع آخر: بديع يشهد لصاحبه بالذوق الكامل في الطريق، وأطنب فيه، ولعمري أنه كذلك وفوق ذلك، وواهب المعارف وغير ذلك.

وكان داعية إلى الشيخ ابن عربي، شديدًا في المناضلة عنه والانتصار له.

وله مؤلف في حل سماع العود.

ومن كلامه ما قال: من الأولياء من ينتفع به مريده بعد موته، أكثر من حياته.

وقال: إذا بلغ الفقير كمال العرفان صار غريبًا في الأكوان، لا يعرفه إلا من أشرف مقامه؛ إذ أعماله كلها قلبية.

وقال: حكم الملك القدوس ألاّ يُدخل حضرته أحدًا من أهل النفوس.

وقال: ما اعترض أحد على أهل الطريق فأفلح.

وقال: إنما نزلت سورة «ألم نشرح» عقب «وأما بنعمة ربك فحدث» إشارة إلى من حدث بالنعمة، فقد شرح الله صدره، كأنه قال: إذا حدثت بنعمتي ونشرتها، شرحت صدرك. قال: فاعقلوه، فإنه لا يسمع إلا من رباني.

وقال: قد يصلح حال العبد بالوقوع في المعصية، ليسد بها ثلمة تحدث في دينه من نحو عجيب أو كبر.

وقال: كنت أرى المصطفى كثيرًا، فانقطع ذلك، فتوجهت بقلبي لشيخي، ليشفع لي عنده، فحضر الرسول ﷺ فقال: «ها أنا»، فنظرت فلم أره فقلت: ما رأيت، فقال: «غلبت عليك الظلمة»، وكنت اشتغلت بإقراء جمع في الفقه، وجرى بيننا جدال في إدحاض حجج بعض العلماء. فتركت ذلك فرأيته، فقلت: الفقه من شرعك قال: «بلى، لكن يحتاج إلى أدب مع العلماء».

وقال: إذا أراد أحدكم أن يهجو إخوان السوء فليهجو قبل ذلك أخلاقه السوء، فإن النفس أقرب الأقربين إلى العبد، والأقرب أولى بالمعروف.

وقال: العارف كلما علا في المقام صغر في أعين العوام.

وقال: ثم من يدخل مقام البقاء قبل الفناء، بحكم الإرث للأنبياء. وقليل ما هم.

وقال: في معنى قول ابن الفارض «وكل بلاء أيوب بعض بليتي» أي لأن بلاء أيوب كان في الجسد دون الروح، وبلاء العارف فيهما معا.

وقال في قول بعضهم «حدثني قلبي عن ربي» المراد: أخبرني عن ربي بطريق الإلهام الذي هو وحي الأنبياء، ولا إنكار إلا على من قال: كلمني، وفرق بين من قال: أخبر وتكلم، يا من أنكر وتوهم.

وقال: كل وارد لا يوافق ميزان الشرع، فهو ظُلمة.

وقال: الوارد لا يستجلب ولا يدفع.

وقال: اتباع شهوات النفوس تنكس الرءوس.

وقال: من رام مزاحمة أهل العناية وقع في العناء والتعب، ولا يقضى له أرب.

وقال: إذا رأيت نفسك قليل العمل فتمسك بأهل الحسب يلحقوك بأهل الأعمال.

وقال: إساءة الأدب على أهل الرتب توجب العطب.

وقال: من العجب ذكر الله وهو حاضر قريب، فما بقي للذكر سلطان إلا على وجه التعليم، أو حال غيبة الذاكر عن المذكور.

وقال: من كان للناس أرضى فهو لربه أرضى، ومن على الناس تعالى لا يقال له تعال.

وقال: إذا رأيت لنفسك في النوم مشيدة، فلا ترضى عنها، حتى تعرف رضى الله عنها.

وقال: رب شخص يُزار حمّل الزائر الأوزار، وعكسه، فتفقدوا نفوسكم عند قدوم الزائر عليكم.

وقال: من حمل الفقير ما ورد عليه من النكد، فكأنه بال عليه إذا ورد.

وقال: الفقيه من ارتضع بلبن حي الصدور، دون قديد ميت السطور.

وقال: من علامة المرء إجابته عن نفسه إذا أضيف إليه نقص وتنقيص، صلحاء زمنه إذا ذكروا، والفقراء يراءون بالأحوال، والفقهاء بالأقوال.

وقال: من طلب الشهرة بين الناس، فمن لازمه أن يرضيهم بما يغضب ربه.

وقال في معنى قولهم: «يصل الولي إلى حد يسقط عنه التكليف»، المراد به سقوط كلفة العبادة، بدليل «أرحنا يا بلال بالصلاة[١]».

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٩٦)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤).

وقال: إذا رأيت من رُزِقَ العلوم، وفتح له خزائن الفهوم، فلا تحاججه بنقل الطروس، ولا تجادله بعزة النفوس، فإن المواهب تفوق المكاسب، ومن كان كثير التكبر، فهو فاقد للتنوير.

وقال: من علامة من أذن له في الكلام كثرة قبول الناس له، ومن ادعى أنه بر، فلا يؤذي الذر.

وقال في قول بعضهم «ما فعلت كذا إلا بإذن»: مراده بالإذن، نور يقع في القلب، ينشرح له الصدر، وليس بحجة لفقد العصمة، فما كل واقع للفقير حق.

وقال: الكون كبيت الصدى، ما قلته فيك ورده عليك، ومرآة يتجلى فيها ما بدا منك إليك.

وقال: علم اليقين يحصل عن قاطع البرهان، وعين اليقين يحصل بشهود العيان، وحق اليقين تحقيق صورة العيان، مثاله ما استفيد بالعلم المتواتر، علم يقين، وفوقه عين اليقين، والحلول فيه حق اليقين.

وقال: الوارد كالعطاس، لا يُرد إذا وَرد، ولا يُستجلب بحيلة.

وقال: من شهد باطن الأواني، نال أسرار المعاني.

وقال: ظهور الأخبار بغير اختيار، ومن رام مزاحمة أهل العناية وقع في شرك العناء والتعب، ولا يقضي له أرب.

وقال: الإسرار بالذكر شأن الخواص لا المريدين؛ لأن المريد يذكر ليستنير، والمراد وجه النور قبل الذكر، ومن العجب ذكر الحاضر للقريب.

من مصنفاته الشيخ الشارح:

- موشحات، وديوان من نظمه.

- شرح الحكم، (كتابنا هذا) ليس على طريقة الشروح بل هو فوائد مجموعة بمعزل عن شرح الكتاب، وحكايات عن الصالحين، ونحو ذلك.

- كشف الجليل عن سر التهليل.

obeikandl.com

- بيان مشاهد يا مولاي يا واحد.
- البارق الأسنى بسر الكني.
- الأذكار والدعوات.
- التفريد وضوابط عقائد التوحيد.
- شرح الرسالة السنوسية. زبدة التغريد من نبذة التوحيد.

ولما احتضر أتاه الشيخ محمد المغربي فقال له: ما تشهد؟ قال: وحدة مطلقة. قال: هنيئًا لك؟ فصعدت روحه فورًا.

توفي سنة ٩٠٨ هـ.

- الضوء اللامع (١/ ١٠٨).
- الكواكب الدرية (٧٤٢).
- معجم المؤلفين (١/ ١١٠).
- الأعلام للزركلي (١/ ٧٣).

obeikandl.com

## بعض من صنفوا في الحكم والوصايا

- ابن عطاء الله السكندري: أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن عطاء الإسكندراني تاج الدين الشاذلي الصوفي توفي بمصر سنة ٧٠٩ هـ. له: الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة (أصل كتابنا هذا).

إبراهيم بن محمود بن أحمد بن الحسن الأقصرائي الرومي ثم القاري برهان الدين أبو إسحاق المعروف بالمواهبي الحنفي الشاذلي توفي بمصر سنة ٩٠٨ هـ. له: إحكام الحكم بشرح الحكم لعطاء الله الأسكندراني، (كتابنا هذا).

- محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي الشاذلي، المتوفى سنة ٧٩٢ هـ شرح الحكم العطائية.

- إبراهيم بن السيد علي الطرابلسي الحنفي نزيل بيروت توفي برجب سنة ١٣٠٨ هـ. له: تفصيل اللؤلؤ والمرجان في فصول الحكم والبيان في الحكم والآداب والنصائح. منظومة اللآل في الحكم والأمثال.

- أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرلسي شهاب الدين أبو العباس المعروف زروق الفاسي المالكي الصوفي ولد سنة ٨٤٦ وتوفي في طرابلس الغرب سنة ٨٩٩ هـ: الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية.

- أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز بن شعيب الهروي، كان زاهداً توفي في ربيع الأول من سنة ١٠١٣ هـ، له: شرح الحكم العطائية.

- أبو بكر بن السيد أحمد الجورومي الحنفي الرومي المتوفى سنة ١٢٠٣هـ. له: الحكم السوابغ في شرح الكلم النوابغ للزمخشري.

- السيد جعفر بن الحسين بن قاسم بن محب الله ابن قاسم بن المهدي الموسوي الأصبهاني، المتوفى بها سنة ١١٥٨ هـ، له: منظومة في الحكم المرعية والآداب الشرعية.

- الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد بن حكيم العسكري، أبو أحمد البغدادي اللغوي ولد سنة ٢٩٣ وتوفي سنة ٣٨٢ هـ. صنف: الحكم والأمثال.

- حسن بن موسى الباني الكردي نزيل دمشق الشافعي الصوفي توفي سنة ١١٤٨ هـ. له: شرح الحكم للشيخ محيي الدين. (بتحقيقنا)، بيروت.

- المشالي: خلف بن محمد بن محمد المصري المشالي الشافعي الشاذلي زين الدين أبو محمد الصوفي المتوفى بقوة سنة ٨٧٤ هـ. له: شرح الحكم العطائية.

- الوراق الحظيري: سعد بن علي بن القاسم بن علي الأنصاري الخزرجي أبو المعالي الوراق الحظيري الأديب الحنفي توفي سنة ٥٦٨ هـ. له: صفوة الصفوة في الحكم.

- الغرناطي: سليمان بن موسى بن سالم بن إبراهيم ابن صافي الكلاعي الحافظ أبو الربيع الغرناطي الأندلسي المالكي توفي سنة ٦٣٤ هـ. له: الامتثال بمثال المبتهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال.

- شيخي الكوستنديلي: سليمان بن حسن الكوستنديلي من مشايخ النقشبندية، ولد سنة ١١٤٣ وتوفي سنة ١٢٣٢ هـ. له: نكات الحكم. رسالة في الوصايا.

- المرجاني: شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني الحنفي ولد سنة ١٢٢٣ هـ. له: جوامع الحكم وذراع النغم من مقولات علي بن أبي طالب.

- عبد الله بن يزيد القسمي المعروف بالهيتمي المحدث الشافعي المتوفى سنة ٥٢٦ هـ. روى كتاب بدائع الحكم والآداب في الحديث.

- الفارسي المكي: عبد الله بن علي بن يوسف المكي الملقب بالفارسي .. له: فاتحة السالك لمولاه الحكم بشرح نظم كتاب الحكم العطائية.

obeikandi.com

- الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنقي الوانجني الجزائري المالكي من كبار أساتذة الطريقة الخلوتية الشهير المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ. له: الحكم الحفيظية على منوال الحكم العطائية.

- ابن النجار: عبد الرحمن بن علي بن عبد الخالق بن علي بن الحسن الدمشقي الحنفي المتوفى في حدود سنة ٧٠٠ هـ، له: جوامع الكلم ولوامع الحكم.

- السيوطي جلال الدين: عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري الشافعي ولد سنة ٨٠٩ وتوفي سنة ٩١١ هـ. له: درر الكلم وغرر الحكم.

- العيدروسي: عبد الرحمن بن السيد مصطفى بن شيخ بن مصطفى بن علي بن زين العابدين التريمي وجيه الدين الحسني الأديب اليمني العلوي مولى الدويلة شافعي المذهب الوفائي النقشبندي، توفي بمصر سنة ١١٩٢ هـ له: تمشية القلم ببعض أنواع الحكم.

- سامي باشا: الوزير عبد الرحمن باشا ابن الشيخ أحمد الرومي الحنفي، المتوفى بالأستانة سنة ١٢٩٨ هـ، له: رموز الحكم في الاعتقادات الدينية ومراسم الآداب الإنسانية. تركي مطبوع.

- الكيلاني: سيدي عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست ابن أبي عبد الله بن يحيى الزاهدي بن محمد بن دادة محيي الدين أبو محمد الجيلي البغدادي العارف بالله الصوفي الحنبلي ولد سنة ٤٩١ وتوفي سنة ٥٦١ هـ. له: يواقيت الحكم.

- الشرنوبي: عبد المجيد بن... الشرنوبي الأزهري المالكي، له: شرح الحكم العطائية.

- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الإمام أبو منصور الثعالبي الأديب اللغوي ولد سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٤٢٩ هـ، له: جواهر الحكم.

- الجلياني: عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني حكيم الزمان أبو الفضل الأندلسي، توفي بدمشق سنة ٦٠٣ هـ ديوان الحكم وميدان الكلم.

- الآمدي: القاضي ناصح الدين أبو الفتح عبد الواحد بن القاضي محمد بن عبد الواحد التميمي، توفي في حدود سنة ٥٥٠ هـ. له: جواهر الكلام في شرح الحكم والأحكام من قصة سيد الأنام عليه الصلاة وَالسلام. الحكم والأحكام من كلام شيد الأنام ﷺ. غرر الحكم ودرر الكلم من كلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

- الكسروي: علي بن مهدي بن علي بن مهدي الكسروي الأصبهاني الأصل البغدادي أبو الحسين الفقيه الشافعي من أصحاب أبي موسى الأشعري توفي في حدود سنة ٣٣٠ هـ. له: كتاب الخصال في الحكم والأمثال.

- البيهقي: علي بن أبي القاسم زيد بن محمد بن الحسين ابن سليمان أبو الحسن البيهقي الأديب ولد سنة ٤٩٩ وتوفي سنة ٥٦٥ هـ، له: أسرار الحكم.

- عبد الله الشبراوي الشافعي الأزهري، المتوفى ١١٧٢هـ، له: مجموع نصائح في الحكم.

- على بن عبيدة المتوفى سنة... له: جواهر الكلم وفرائد الحكم.

- محمد بن مصطفى الأماسى الخلوتي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ. الحكم الإلهية في الكلمات الإنسانية.

- نور الدين على بن محمد الأندلسي المعروف بالقلصادي، شرح الحكم العطائية.

- المشالي أبي محمد خلف المصري، شرح الحكم العطائية.

- الخطيب العمري محمد أمين بن خير الله بن محمود الموصلي، ديوان الحكم والأمثال.

- عبد الله بن يوسف المكي الملقب بالفارسي، له: الحكم في التصوف، فرغ منها بمكة سنة ١٢٦١هـ.

- زين العابدين بن عبد الرءوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين بن يحيى الحدائي المناوي المصري الشافعي توفي سنة ١٠٢٢ هـ له: فتح الحكم بترتيب الحكم العطائية، لم يكمل.

- الخطيب العمري: محمد أمين بن خير الله بن محمود بن الشيخ موسى العمري الحنفي المعروف بالخطيب الموصلي، توفي سنة ١٢٠٦ وقيل سنة ١٢٠٣هـ، له: الفريدة العمرية في الحِكم العربية.

- أبو عمرو كلثوم بن أيوب الثعلبي العتابي الشامي الشاعر الكاتب ببغداد، المتوفى في حدود سنة ٢٢٠ هـ، له: فنون الحكم.

- **محمد بن عبد الملك الفارقي المتوفى سنة... له: الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية.**

- أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون التجيبي المالكي المتوفى في حدود سنة ٧٤٠ هـ، له: كمال الحافظ وجمال اللافظ في الحكم والوصايا والمواعظ.

- السيد أحمد ماهر بن الحافظ محمد سعيد بن نور الدين محمد القسطموني الرومي، من علما القرن الثالث عشر، له: المحكم في شرح الحكم العطائية- تركي نظمًا ونثرًا وإيضاحًا.

- الشيخ أحمد بن أبي القاسم الشعبي المغربي، المتوفى ١٠١٣ هـ له: مطالع الأنوار السنية في بعض معاني الحكم العطائية.

- **شيخ الإسلام الأستاذ مصطفى بن كمال الدين البكري، المتوفى ١١٦٢ هـ له: الموارد البهية في الحكم الإلهية على الحروف المعجمة الشهية. (طبع بتحقيقنا لأول مرة)، بيروت.**

- **ابن المرزبان محمد بن سهل البغدادي، توفي بعد الثلاثمائة، له: نفائس الحكم.**

- ابن عجيبة: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، له:

استشهد بالطاعون عام ١٢٢٤ هـ، له: إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية.

- ابن باعشن: شهاب الدين أحمد بن عبد القادر، من علماء الثاني والثالث عشر، له: البيان والمزيد شرح حكم سيدي أبي مدين الغوث (طبع بتحقيقنا لأول مرة بيروت).

- ابن علان: أحمد بن إبراهيم بن علان الصديقي النقشبندي الشافعي، المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ، له: شرح الحكم الغوثية- لأبي مدين الغوث- قدس سره، طبع بتحقيقنا لأول مرة بالقاهرة.

- محمد بن محمود بن علي الداموني الحنفي، كان حيًا سنة ١٢٠٩ هـ، له: روح الكبريت الأحمر على حكم الشيخ الأكبر (طبع بتحقيقنا لأول مرة- بيروت).

- سيدنا الرواس: محمد مهدي بهاء الدين الصيادي الرواس- قدس سره- توفي سنة ١٢٨٧ هـ، له: الحكم المهدوية. (طبع بتحقيقنا بيروت).

❁❁❁

obeikandl.com

# شرح الحِكم العطائية

المسمى

إحكام الحِكم

تصنيف

الشيخ أبي الطيب إبراهيم بن محمود بن أحمد الأقصرائي المواهبي

المتوفى ٩٠٨هـ

تحقيق وتعليق

**الشيخ أحمد فريد المزيدي**

obeikandl.com

obeikandl.com

من ... ذلك ... قدر عليك اقول
سوا كان ذلك ما تقدم بيانه من غفلتك عن واجب معرفته
المؤدية الى ... في مشاهدة وجدته او عدم صدقك في
عبوديتك لربوبيته او ما يكون من مخالفتك له من الذنوب
التي تتوهم بها ... ذلك ... لامر لك بسبب وقوعك فيها
من ما لك فلا يكن ذلك سببا يؤيسك من حصول روح الله لك
باستقامتك مع ربك يقينا منك بترتب عليه حصول الروح
به فقد يكون ذلك الذنب اخر ذنب قدر عليك فكم اسدى
من احسان اليك وطال وكم ابديه من اساءة معه تعود
عليك فاقول فلا تقنط برؤيتك واسمع ما اقول
اذا اردت ان يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه اليك
واذا اردت ان يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك
اليه اقول يا احسن حالك ايها المؤمن ان يكون خوفك
ورجاؤك ... لا ذلك الشيء في حكمه على ما يحصل به ذلك
ان لم يكن ... يحصل به ترجيح احدهما على الاخر ان رجح رجحان
مفرطا يفضي الى فساد حالك كرجحان الخوف الى القنوط او رجحان
الرجا الى التفريط الحاصل به السقوط ثم ان لو ... الراجح
الخوف المخل فعليك بما اهداه اليك ... باب
الرجا بمفتاح شهود ما من الله اليك مما لا يحصى من النعم وان كان
ذلك الراجح الرجا المخل فعليك بفتح باب الخوف ولا ... بمفتاح
شهود ما منك اليه من التقصير في الحقوق ... لا

الى الاخرى احدهما والا فلا فشهود ما منك ومنه يوجب الخوف
والرجا والحكم برجحان القبض والبسط والقبض والبسط من
ما ... الجلال والجمال ولكل منهما منال ولذا ...
... افادك في ليل القبض ما لم يستفد في اشراق نهار
البسط لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا اقول
اعلم ان القبض والبسط من مواد تجلي جلاله وجماله فان عليك
بتجلي ... الباسط كتعاقب الليل والنهار فيفيدك المتجلي
بهما ما ... فاذا شاء افادك من القبض ما تستفيده من البسط
وبالعكس كشهودك له بهما وكظهور العلم والارادة والقدرة
لك منهما الى غير ذلك واذا شاء افادك من القبض مفادا اخر
وهو ما تستفيده من البسط كالانس والمحبة منها لتحقق
... لك بهما وبالعكس كالهيبة والجلال وربما افادك
من ليل القبض ... الخاصة به من الجلال والاجلال الباعث
على القيام بحقوق العبودية للربوبية الذي لم تستفيده في اشراق
... والبسط ... الخاصة به المقابلة للجلال والاجلال
لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا فتحفظ ... منهما لاصلاح القوالب
والقلوب ... الاسرار ... مطالع شموس الكمال المنبه عليها بما
... مطالع الانوار القلوب والاسرار اقول
الانوار ها هنا على ... اختلاف المطلعين الاول طوالع التجليات
الصفاتية تطلع ومطالعها من مطالع القلوب المعنوية والثاني
طوالع الانوار التجليات الذاتية ... ومشاهدها مطالع ...

والجود والكرم والالوهية وصفاتها والربوبية وتجلياتها واسمائها
العبودية وثبوت نسبة العبدية والسيادة وحقها والعادة
وخرقها وظهور الجلال والجمال والكمال والنزاهة والكمال
والحكمة والنظام والاستيلاء والدوام والنعمة والانعام والاتحاد
بالتدبير والتوحيد في التأثير والتعريف والتكليف والتعود
التقريب والاشهاد والعطف والامداد والتلطف والابتداء
والاعادة والاسعاد بالسعادة والخلود والعبور والازل والتسيير
والاولية والاخروية والباطنية والظاهرية والاعلام والعالمية
والاشهاد والشاهدية لمشهود كلي او جزئي في غيب غيبك
او في غيب علمك او جبروتك او ملكوتك او ملكك وحولك وحولك
بمددك بذلك ومن ذلك وفي ذلك عندك اجلك وجدك عندك
لك الملك والحمد بلا منتهاك ومن مظاهر تعرفاتك حسب مدارك
المتعرف بها لخواصك وعوام عبادك وما استاثرت به منها
في ذاتك وما ادخرته من عروس حضرتك ومخصوص نظرك وعين
رحمتك ومنبع العطيات وباحكامك ومجلى سر شهود وجود وجودك
تعرفاتك باسمائك وصفاتك الدال على كمالك بك والمعرف
ما لا يدرك كنهه منك الا انت صل اللهم افضل واشمل واكمل
صلاتك التي هي لك منك بك عليه وسلم سلامك الارضي
الذي ترضاه منك اليه ما دامت صفاتك لازمة لذاتك وتجلت
منها بانواع تعرفاتك ورضي الله كذلك عن الصحابة والتابعين والحمد
لله رب العالمين تم شرح الحكم المنسوبة للعارف بالله تعالى الشيخ

١٢٦

تاج الدين ابن عطاء الله السكندري مع اسمه مما شرحها مولانا الدرف
بالله تعالى مزيل المريدين سيدنا الشيخ برهان الدين ابراهيم
ابن محمود بن حسن الاقصرائي السنجاري المواهبي
ادام الله النفع به بمحمد وآله وكتب ذلك
من نسخة مكتوب بآخرها اجازات
مولانا الشارح المشار
لمولانا الشيخ عبد الله
الزالحي وعليها خط
بطلب الاجازة له
وبيده ابي البقا
الاحمدي
وبيده [illegible]
الحمد الله
القطان
وعدوك
الشارح
خط
صحيح ذلك
كتبه ابراهيم
ابن محمود بن
حسن
المواهبي
الاقصرائي

[illegible]

١٩٧

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال: الشيخ أستاذ العارفين، وعمدة المحققين، وقدوة المتقين، مربي السالكين، مخرج الأرواح من الأشباح لحضرة رب العالمين، أبو الطيب إبراهيم بن محمود بن أحمد بن حسن الأقصرائي الشاذلي المواهبي الحنفي عرفنا وجميع أحبتنا بعرفانه، ومتعنا بوجود جوده وإحسانه.

أحمد من أنبع من أعين قلوب من أخلص في الحُكم ينابيع الحِكم، وأحكم أحكامها على مناطات شرائع التجريد والتوحيد والتفريد، وحكم ونفذ بقضاياها ما أثبته بها من الأنوار الإلهية الزائل بأشعتها ما في القلوب من الظلم، والثابت بها لما سواه الحدوث والعدم، وله ما هو محقق من وحدة الوجود والقدم حمدًا منزهًا عن شوائب البطلان، وعوارض الإمكان ما دام التعرف للبيان في مجال الحسان من حضرات الإحسان على بساط الإيمان، شاملاً لأنواع المحامد العامة والخاصة على لسان كل حامد، وما استأثر به لنفسه في نفسه المحمود الواحد، وأشكره به كذلك فالشكر منه إليه عائد.

وأشهد أن لا إله إلا هو إله جلا شموس تجلياته في أُفق سماوات مظاهر تعرفاته، فاهتدى بها من لها بها عن سنائها إلى عروش مشاهداته في حضرات غيوب ذاته.

وأشهد أن مفيض هذا المدد من أزل الآزال إلى أبد الأبد محمده، ومحموده الأحمد، ومحبه ومحبوبه الأوحد، ورشيده والمرشد إليه الأرشد صلِّ اللهم وسلم عليه ما دامت الذات متحلية ومتجلية بالصفات، ورضي الله كذلك عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد... لما كان كتاب الحِكم للشيخ القدوة العارف، صاحب الأنوار والتنوير، المستنير من بحار أنوار المنن واللطائف، كاشف الغطاء، أبي الفضل تاج العارفين في الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الجذامي السَّكندري المالكي الشاذلي، المتوفى بالقاهرة سنة تسع وسبعمائة ﷺ وأرضاه، ورضي عنا به، وجعل الحضرة مثواه، من أجل كتب التوحيد، وأدلها على معاني أحكام التجريد لكل سالك نحرير طالب نفسه في صدق عبوديته بالتحرير؛ لأن كل حكمة من الحكم معه كمقياس يقيس بها على نفسه لزوال

الالتباس، فإن ظهر حقٌّ أتاه أو باطل أباه.

وإن كان صغر حجمها فكثير [نفعها](١) بحيث قيل: إنه لما صنفها وكملها بين يدي شيخه سيدي أبي العباس ﷺ تمثل بها؛ ليتأملها.

فلما تأملها، ورأى ما اشتملت عليه من كمال الإفادة، وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد «الإحياء» وزيادة، ولذلك تعشقها أرواح أرباب الأذواق الواجدين للحق لما رق من معانيها وراق، وبسطوا القول فيها لما يظهر لهم من بواطنها على ظواهرها من العبارة التي من فيها مع بروق شَنب أنوار نبراسها. ونفاسة طيب أنفاسها المسكرة للعقول الصاحية بالنقول المكملة للقلوب بلحظاتها بتكليم انفتح لها به أبواب غيوب حضراته، فلحظة العيون من تلك الألحاظ غزلاً، فنسجت من رقيق إبريسم(٢) غزلها للأرواح، وبالأسرار حللاً مطرزة بإبريز كنوزها، وشيًا وشي القلوب والمقلا، حين راحت الأرواح إلى حيِّها بحبها، فأصبحت بجمالها فيه قتلاً.

وأنا أعلم أني لست من أهل هذا المقام، ولا من أبناء هذا الغرام، ولا من ندماء هذا المدام للبعاد، وعدم الاستعداد، وقلة التوجه للإمداد، والإفلاس من الصناعة، واتخاذ التكاسل والجهالة بضاعة إلا ما يكون ممن يقول للشيء: «كن فيكون».

ومع هذه الأوصاف الوضيعة طلب مني جماعة من الأحباب الأتقياء والمحبين الأزكياء بمكة المشرفة المنيعة سنة ثلاث وتسعمائة من الهجرة الرفيعة بالصفا معدن الجود والوفاء أن أقيد ما أتلمحه بالذوق من أسرار أنوار هذه الحكم البديعة، وما يلتحق بها من تتمات هي بها شريعة، وبتأدية المراد منها سريعة، تقييدًا مجردًا عن الدليل والمطولات من الحكايات، والتعليل رغبة في الإيجاز عن التطويل، والانحياز للإفادة بلا تحويل لاستحلائهم ذلك على لساني من الله لا مني، واستجلائهم له عن الله لا عني، واستخلائهم بعرائس أبكار لطائف المعارف، فهي تكون بحسب ما يفتح الله به من عنده

---

(١) في نسخة أخرى: «علمها».

(٢) الأبريسم بفتح السين وضمها، قال ابن برى: ومنهم من يقول: أبريسم بفتح الهمزة والراء، ومنهم من يكسر الهمزة ويفتح السين: الحرير، وخصَّه بعضهم بالخام، أو معرب أبريشم. تاج العروس (٧٦١٩/١).

على عبده من علمه اللدني، لما رأوه وقع لمحق من التطويل كالولي ابن عباد الشارح الجليل وأستاذي سيدنا وشيخنا صفي الدين أبي المواهب صاحب الباع الطويل، ولمبطل طفيلي على القوم دخيل حمله على ذلك حب الرئاسة، ومزاحمة أهل الإرشاد والسياسة، وتكشف أحوالهم إذا رأيت أقوالهم لمن هو عارف، ومعه موازين المعارف، وإلا فهو وزّان بلا ميزان، محجوب واقف، فأجبتهم وبالله المستعان بأن أجمع لهم من طرق أسواق معارف أذواقي مرقعة للتخليق يستتر بها المغلوب من أهل الطريق من غير أن أراجع من كتب القوم عبارة كتاب اعتمادًا على ما يفتح به الله الملك الوهاب، فتكون نزهة بين ما وشاه الأستاذون من حُلل التحقيق، فيظهر تمييز الجُل بها فتنتشر وتعم حُلل القلوب بما اشتملت عليه من أنواع الخروق المفتحة لبيان طريق الحق وطرق الحقوق على نسق في المواضيع، ومناسبة في الترقيم حتى كأنها منطوية على متنها ومنشور هو بها في طي [رمزها](١) مع أنها بعض مدلوله، وأدنا مفهومه من منقوله الحاوي المعروف، وزينته الأفنان بفنون العبارات الرائقة الرشيقة، ونور عيونها الإشارات الفائقة الرقيقة، المزمّلة بزَوَامِل أعباء الشريعة والطريقة، وهواتف أنوار أسرار الحقيقة، وكأنها مع أصلها لا فصل بينه وبينها إذا تأملتها في ابتدائها ومعادها، واستغفر الله مما لم يطابق الحق في ذلك من مرادها وإيرادها، وما لا يشاكل المتن منها، ويبعده عنها، وعلى المنة لذائق شائق لربه ولذلك معاف من الهوى والتعصب، يصلح ما هنالك بحق وصدق، راجيًا لثوابها وثواب المسترشدين بها.

أقول: فليكن على علمك أيها الأخ أن ما تضمنه هذا الكتاب من العلوم، وذكر حقائق، وبيان منازل وطرائق، وتفقه في أحوال النفوس الجلية، وما علق بها من العلائق، وخفي منها ودقّ من الدسائس والدقائق، والإرادة لتلك الحقائق بالمحبة التي لا صبر عنها معها تعلق بالوقوف على معرفة كل حقيقة منها على ما هي عليه من حيث هي، هي يقينًا تحقق، والتلبس بها عملاً أو شهودًا بالاعتناء بها والمعاناة لها، وقد يقضي إيجادها في المتلبس بها، وربما تغيب بها عنه تخلق.

وكلٌّ من التعلق والتحقق والتخلق له علم يدل عليه، وعمل يهدي إليه، وما كل متعلق متحقق، ولا كل متحقق متخلق، وموضوع غالب كتب القوم التعلق والتحقق دون

---

(١) في نسخة أخرى: «بطنها».

التخلق إلا ما كان منه تنسكًا بالأعمال البدنية، وتخلقًا بالأخلاق الزكية القلبية لا ما كان من الحقائق إلا بمعرفة للحضرات المحمودية الموجودة في اصطلاحهم الذي بينها لحقائق لها منه مقامًا إلا بمعرفة طريق التخلق بها وتطبعها تطبعًا ينفي به ما عداها فناء يترقى السالك به فيها مع الشهود بكيفيات ذلك الترقي لا أن يفنى عن نفسه، وعنه في المشهود للبقاء به في حضرة وحدة الوجود المستفادة من العبد وإلى العبد وإلى العبدين من السطور في الورود غيرة عليها من المبطلين، وخشية أن يظن بها أنها تعلم فقط كعلم العالمين، فينطق بها من يعلمها بالوصول فيلتبس بمن يعلمها بالفضول، فيقع الغلط في الواصل إليها بالمستشرق عليها، وهذا موجب الكتمان يعلم ذلك أهل الذوق والعرفان، ولذلك اشترط الامتحان للزاعمين طلب هذا الشأن ليميز الخبيث فيعطى الحرمان من الطيب فيعطى العيان.

ثم ما صدر به من حكمه فوضع حكيم أحكم الأحكام في غاية الإحكام، كافتتاحها بالإسلام ثم المحاسبة للنفس على تحرير الآثام، ثم التوبة منها ليلا يستوجب العذاب والملام، ثم الأعمال المطلوبة المقربة من الله السلام وجواره في دار الجزاء والإكرام، فإن العمل لا يكون عملاً إلا مع التوبة، والتوبة بعد المحاسبة لمعرفة المتاب منه، والمحاسبة فرع الإيمان بالله والإسلام لله اللذين من لوازمهما الاعتماد عليه دون كل ما سواه فضلاً عن الأعمال، وكل ذلك ضمن الحكمة المبتدأ بها إذا تأملت صورة لفظها المفتتح به الحِكم وهي ما قال ﷺ:

**١ - «من علامات الاعتمادِ على العملِ نُقصان الرجاءِ عندَ وجودِ الزَّللِ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الاعتماد على الشيء هو الاستناد عليه والركون إليه والعمل حركة الجسم أو القلب فإن تحرك بما يوافق الشريعة سمي طاعة، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمي معصية.

والأعمال عند أهل الفن على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة وعمل الطريقة وعمل الحقيقة، أو تقول: عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان، أو تقول: عمل العبادة وعمل العبودية وعمل العبودية؛ أي: الحرية، أو تقول: عمل أهل البداية وعمل أهل التوسط وعمل أهل النهاية، فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر. أو تقول: الشريعة لتطهير الجوارح من لوث الهفوات، والطريقة من تطهير القلوب من الغفلات، والحقيقة تطهير الأسرار من الفترات، وإصلاح الجوارح بثلاثة

أقول: من علامات تعويل العامل على أعماله الصالحة، تخليًا كانت كالتوبة، أو تحليًا بما يتلبس به عند الأوبة، نقصان ظنه الجميل بالله عند وجود معصية منه أو تركه العمل المسنون أو نقصه، وذلك لقطع العامل أو حسن ظنه بأن عمله ينجيه، ويرده أنه ﷺ لما سئل: «هل يدخل الجنة أحدٌ بعمله؟ قال: لا، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»(١).

---

أمور: بالتوبة والتقوى والاستقامة، وإصلاح القلوب بثلاثة أمور: بالإخلاص والصدق والطمأنينة، وإصلاح السرائر بثلاثة أمور: بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة.

أو تقول: إصلاح الظواهر باجتناب النواهي وامتثال الأوامر، وإصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، وإصلاح السرائر وهي هنا الأرواح بذلها وانكسارها حتى تتهذب وترتاض بالأدب والتواضع وحسن الخلق.

ولا يعتمد المريد في سلوك هذه المقامات على نفسه، ولا على عمله ولا على حوله وقوته، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته وتسديده، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله، وعلامة الاعتماد على الله أنه لا ينقص رجاؤه إذا وقع في العصيان، ولا يزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان، أو تقول: لا يعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لا يزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظة قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام لأن خوفه ناشئ عن شهود الجلال، ورجاؤه ناشئ عن شهود الجمال، وجلال الحق وجماله لا يتغيران بزيادة ولا نقصان فكذا ما ينشأ عنهما بخلاف المعتمد على الأعمال، إذا قل عمله قل رجاؤه وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربه وتحققه بجهله ولو فني عن نفسه وبقي بربه لاستراح من تعبه وتحقق بمعرفة ربه ولا بدَّ من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك فالشيخ الكامل هو الذي يريحك من التعب لا الذي يدلك على التعب من دلك على العمل فقد أتعبك ومن دلك على الدنيا فقد غشك ومن دلك على الله فقد نصحك.

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٧٣)، رقم: (٦١٠٢)، ومسلم (٤/ ٢١٧١)، رقم: (٢٨١٨)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٧٣)، رقم: (٢٦٣٨٦)، وابن ماجه في «سننه» (١٢/ ٣٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ١٩١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢/ ٢٨٥).

ومن العلامات أيضًا رجحان رجائه بالتحلي بالعمل أو رجحانه أو ترقيعه ، بل ينبغي له ألا يتعلق رجاؤه بها عند الحق دونه، ولا أن يعمل لأجل ما عنده دونه، فإن ذلك مما يخدش العبودية؛ لأن حق الرب على العبد أن يعمل له لا لشيء أصلاً لا فصلاً ولا وصلاً، ويدخل في هذا الشكر أيضًا؛ لأن متعلقه إنعام الله تعالى لا نفس النعمة، وما ذكره في الحكمة إنما يتعلق بغير المعصوم، والكامل لنزاهة المعصوم عنه وجوبًا، والكامل جوازًا؛ لأن المعصوم إذا أجرى الحق عليه ما صورته مقتضية لزيادة الخوف لحكمة ما في علمه زاد معه رجاؤه بقدر ذلك على ما كان عليه؛ لئلا يفوته لمحة الاعتدال للكمال الناتج عن معرفة شهود الجلال والجمال المفاض على الكل من أتباعه، الشاهد به قول بعض السلف: «لو اتزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا» والتعويل والعمل لغير الله المذكوران من آفات النظر إلى الأعمال المحصلة بالتجريد غالبًا؛ ولذا قال ﷺ:

٢ - «**إرادتُك التَّجرِيد مع إقامة الله إيَّاك في الأسباب من الشهوة الخفيَّة**»[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التجريد في اللغة هو التكشيط والإزالة تقول: جردت الثوب أزلته عني وتجرد فلان أزال ثوبه وجردت الجلد أزلت شعره وأما عند الصوفية؛ فهو على ثلاثة أقسام: تجريد الظاهر فقط أو الباطن فقط أو هما معًا؛ فتجريد الظاهر: هو ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد الجسمانية. والتجريد الباطني: هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية. وتجريدهما معًا: هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية، أو تقول: تجريد الظاهر: هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله. وتجريد الباطن: هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله. وتجريدهما: هو إفراد القلب والقالب لله. والتجريد الكامل في الظاهر: هو ترك الأسباب وتعرية البدن من معتاد الثياب وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم وتحليته بكل وصف كريم. وأما من جرد ظاهره دون باطنه فهو كذّاب كمن كسى النحاس بالفضة: باطنه قبيحٌ وظاهره مليحٌ، ومن جرد باطنه دون ظاهره إن تأتَّى ذلكَ فهو حسنٌ كمن كسى الفضة بالنحاس، وهو قليل؛ إذ الغالب أن من تنشب ظاهره تنشب باطنه ومن اشتغل ظاهره بالحس اشتغل باطنه به والقوة لا تكون في الجهتين، ومن جمع بين تجريدي الظاهر والباطن فهو الصديق الكامل وهو الذهب المحرر الصافي الذي يصلح لخزانة الملوك وللتجريد. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: آداب الفقير المتجرِّد أربعة: الحرمة للأكابر والرحمة للأصاغر والإنصاف من نفسك وعدم الانتصار لها، وآداب الفقير المتسبب أربعة: موالاة الأبرار ومجانبة الفجار وإيقاع الصلاة في الجماعة ومواساة الفقراء والمساكين بما يفتح عليه وينبغي له أيضًا أن يتأدَّب بآداب المتجردين إذ هو كمال في حقه.

أقول: طلب قلبك للانسلاخ عن حاصل وسبب واصل مع تيسير الله إياها لك دون ما أراد الحق من الشهوة الخفية، أما كونها شهوة فلمباينة مراد الله الظاهر فقط إذا لم يقصده لشرفه، أو لما يتجه من الخوارق لمن وصف به، وإلا فللمباينة مع ما قصده، وأما كونها خفية، فلظهورها في المظاهر المرضية، فإن ظننت أن الأسباب بها الاحتجاب والشغل عن الجناب، فذلك من جهلك بالله من ظهوره وتعرفاته وتفرقاته بنوره فإقامته إياك فيها لما أودع فيها، فاترك المراد تشهد المراد، والزم الآداب، فلكل أجل كتاب سابق في أزل الآزال؛ ولذا قال:

٣- «وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمَّة العليَّة»(١).

=

ومن آداب المتسبب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها على لسان شيخه إن كان أو بإشارة واضحة كتعذرها من كل وجه، فحينئذ ينتقل للتجريد فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له في الأسباب من الشهوة الخفية؛ لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ولم يكن لها من اليقين ما تحمل به مشاق الفاقة، فإذا نزلت بها الفاقة تزلزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب فيكون أقبح لها من الإقامة فيها، فهذا وجه كونها شهوة، وإنما كانت خفية؛ لأنها في الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل وهو مقام شريف وحال منيف، لكنها في الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين. وفاتها أيضًا الأدب مع الحق حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج وعدم العوائق القاطعة له عن الدين وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوف إلى الخلق والاهتمام بالرزق فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد. قال في التنوير: «والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق تعالى هو الذي يتولى إخراجك كما تولى إدخالك وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب». وأما المتجرد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة الدنيَّة أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «وإرادتك الأسباب» أي: التسبب والاكتساب «مع إقامة الله إياك في التجريد» أي: بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب، وجعل نفسك مطمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها، ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات «انحطاط عن الهمة العلية» لإرادتك الرجوع إلى الخلق بعد التعلق بالحق، ولو لم يكن إلا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه لكان كافيًا في دناءة الهمة.

فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه، ويرضى به حتى يتولى الله إخراجه منه، ولا يخرج بنفسه وإرادته وتسويل الشيطان، فيقع في بحر القطيعة، والعياذ بالله تعالى.

**أقول**: طلب قلبك الأسباب أيها الواصل مع تيسير الله لك التجريد دون ما أراد لك الحق، وهذا تنزل عن الهمة العلية المتعلقة بالحق الظاهر إلى الأسباب وهي المظاهر، وما كل من أراد المظاهر سلم من احتجابه بها عن الظاهر، ولا شك في الفرق بين المظاهر والظاهر، فاثبت على مراده دون مرادك؛ ولتستعن به لا بهمتك، وتبرأ من حولك وقوتك في كل حال من الأحوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٤ - «سَوابِقُ الهممِ لا تخرقُ أسوارَ الأقدارِ»**[١].

**أقول**: الهمم السابقة دنيوية كانت أو أخروية لا تغير أقضية النوازل المبرمة الظاهرة في الأبد على وفق الأزل، ولا تؤثر في القسم والحكم، وما به حكم، فضلاً عن المسبوقة من النسم؛ لأنه ليس للخلق السقيم تأثير مع الواحد القديم، وكفاك شاهدًا إذا تأملته قول ذي الجلال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] ولذا قال ﷺ:

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: السوابق جمع: سابقة وهي المتقدمة، والهمم جمع: همة والهمة قوة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به، فإن كان ذلك الأمر رفيعًا كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همة عالية، وإن كان أمرًا خسيسًا كطلب الدنيا وحظوظها سُمِّيَتْ همة دنِيَّة، وسوابق الهمم من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: الهمم السوابق لا تخرق أسوار الأقدار؛ أي: إذا اهتم العارف أو المريد بشيء وقويت همته بذلك؛ فإن الله تعالى يكون ذلك بقدرته في ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله. وكان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول: المريد الصادق إذا كان فانيًا في الاسم مهما اهتم بالشيء كان وإن كان فانيًا في الذات تَكَوَّن الشيء الذي يحتاجه قبل أن يهتم به أو كلام هذا معناه وهو صحيح. وقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ يقول: نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة واحدة وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات وذلك لتحققه بمعرفة الله، قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وقد يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصًا كما يقع للعاين والساحر عن خبثهما أو لخاصية جعلها الله فيها إذا نظرا لشيء بقصد انفعل ذلك بإذن الله وهذا كله أيضًا لا يخرق أسوار الأقدار بل لا يكون إلا ما أراد الواحد القهّار. قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:١٠٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠]. وقال ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ حتَّى العجزُ والكيسُ» أي: النشاط للفعل وأَشْعَرَ قوله: «سوابق» أن الهمم الضعيفة لا ينفعل لها شيء وهو كذلك في الخير والشر وفي استعارته الخرق والأسوار ما يشعر بالقوة في الجانبين لكن الحاصر قاهر فلا عبرة بقوة العبد القاصر وإذا كانت الهمة لا تخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار.

٥-**«أَرِحْ نفسَكَ مِنَ التَّدبيرِ فَمَا قَامَ بِهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لنفسِكَ»**(١).

**أقول**: أمرك بترك النظر في مصالحك الذي هو الراحة التي عينها تجري من بحر العبودية التي مقتضاها عدم التدبير مع الربوبية؛ لأن الحق المالك القادر الغني الجواد قام بمصالحك عنك من الأزل، ولم يكلك إلى حولك وقوتك علمًا منه بعجزك عنها حين وجودك فيما لا يزال، ولذا قال ﷺ:

٦- **«اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لك وتقصيرك فيما طلب منك دليلٌ على انطماسِ البصيرةِ منكَ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التدبير في اللغة: هو النظر في الأمور وأواخرها، وفي الاصطلاح: هو كما قال الشيخ زروق ﷺ: تقدير شئون يكون عليها في المستقبل بما يخاف أو يرجى بالحكم لا بالتفويض فإن كان مع تفويض وهو أخروي فنية خير أو طبيعي فشهوة أو دنيوي فأمنية. انتهى.

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام: قسم مذموم، وقسم مطلوب، وقسم مباح؛ فأما القسم المذموم: فهو الذي يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينيًّا أو دنيويًّا لما فيه من قلة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب؛ إذ ما قام به الحي القيوم عنك لا تقوم به أنت عن نفسك، وغالب ما تدبره لنفسك لا تساعده رياح الأقدار، وتعقبه الهموم والأكدار، ولذلك قال أحمد بن مسروق: «من ترك التدبير؛ فهو في راحة» وقال سهل بن عبد الله: ذروا التدبير والاختيار؛ فإنهما يكدران على الناس عيشهم، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله جعلَ الرَّوْحَ والرَّاحةَ في الرِّضا واليقينِ»، وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لا تختر من أمرك شيئًا واختر ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨ ]. انتهى.

وأما القسم المطلوب: فهو تدبير ما كلفت به من الواجبات وما ندبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر للقدرة، وهذا يسمى النية الصالحة، وقد قال ﷺ: «نِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عمله». وهذا القسم هو مفهوم قول الشيخ: «فما قام به غيرك» إذ مفهومه أن ما لم يقم به عنك وهو الطاعة لا يضرك تدبير. ولذلك قال إبراهيم الخواص ﷺ: العلم كله في كلمتين لا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت فقوله: لا تتكلف ما كفيت هو القسم الأول المذموم، وقوله: ولا تضيع ما استكفيت هو القسم الثاني المطلوب.

وأما القسم المباح: فهو التدبير في أمر دنيوي أو طبيعي مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة غير معول على شيء من ذلك، وعليه يحمل قوله ﷺ: «التدبير نصف العيش» بشرط ألا يردده المرة بعد المرة، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى، وهذا هو التدبير بالله وهو شأن العارفين المحققين.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الاجتهاد في الشيء استفراغ الجهد والطاقة في طلبه، والتقصير هو التفريط

**أقول**: إن كُلاًّ من جهدك بالتدبير فيما ضمنه لك القدير بالقيام به من غير محض كرمه الضمان الذي لا يخلف كما هو معلوم، ومن تقصيرك فيما طلبه منك من المعرفة والعبودية بسبب تدبيرك أو غيره دليل على تغطية نور قلبك بغلبة الرَّان على ما فيه من الخصال الموجبة لفقد الأدب في السؤال، ولذا قال ﷺ:

**٧- «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاحِ في الدُّعاءِ مُوجِبًا ليأسِكَ»**(١).

---

=

والتضييع والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، فالبصيرة لا ترى إلا المعاني والبصر لا يرى إلا المحسوسات، أو تقول البصيرة لا ترى إلا اللطيف، والبصر لا يرى إلا الكثيف أو تقول البصيرة لا ترى إلا القديم والبصر لا يرى إلا الحادث أو تقول البصيرة لا ترى إلا المكون، والبصر لا يرى إلا الكون، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله في الظاهر بخدمته، وفي الباطن بمحبته، فكلما عظمت المحبة في الباطن والخدمة في الظاهر قوي نور البصيرة حتى يستولى على البصر، فيغيب نور البصر في نور البصيرة فلا يرى إلا ما تراه البصيرة من المعاني اللطيفة والأنوار القديمة.

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله في الظاهر بخدمة الأكوان وفي الباطن بمحبتها، فلا يزال كذلك حتى ينطمس نور بصيرته فيستولى نور بصره على نور بصيرته فلا يرى إلا الحس ولا يخدم إلا الحس، فيجتهد في طلب ما هو مضمون من الرزق المقسوم ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم، ولو كان بدل الاجتهاد استغراقًا وبدل التقصير تركًا لكن بدل الطمس عمي وهو الكفر والعياذ بالله؛ لأن الدنيا كنهر طالوت لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده لا من شرب على قدر عطشه؛ فافهم قاله الشيخ زروق ﷺ.

وقال الشيخ الشرقاوي: ولذا قال: «اجتهادك فيما ضمن لك» أي: تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلاً منه وإحسانًا، قال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[العنكبوت:٦٠] إلى غير ذلك من الآيات، «وتقصيرك فيما طلب منك» وهو العمل الذي تتوصل به عادة إلى مولاك من أذكار وصلوات وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإلحاح في الشيء هو تكرره من وجه واحد، والدعاء: طلب مصحوب بأدب في بساط العبودية لجناب الربوبية والموجب للشيء ما كان أصلاً في وجوده واليأس قطع المطامع.

واعلم أن من أسمائه تعالى القيوم، وهو مبالغة في القيام؛ فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه وعين لكل مظهر وقتًا محدودًا وأجلاً معلومًا ولكل واحد شكلاً معلومًا ورزقًا مقسومًا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فأرجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة.

وإن كان ولابدَّ من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لا طلبًا للحظ فإن تركت الحظوظ صبت عليك الحظوظ

**أقول:** إذا كنت طالبًا من ربك مطلبًا وتأخر وقت العطاء لما سبق من الحكم والحال أنك ملحٌ في سؤالك، فلا يكن التأخر موجبًا ليأسك من الله في مطلوبك، فإنه منافٍ للعبودية، ومباين لحقيقة العبدية، فإن مقتضاهما دوام الطلب من غير منازعة للرب، وهو لا يخيب من لجأ إليه، وطلب ما يُرجى من الآمال، ولذ قال ﷺ:

**٨-«فهو ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لكَ لا فيما تختارُ لنفسكَ، وفي الوقتِ الذي يريدُ لا في الوقتِ الذي تُريدُ».**

**أقول:** قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فضمانه للإجابة قد يكون على إطلاقه بـ«لبيك عبدي» حين قولك: «يا رب» وأما في كل مطلب، فغير ظاهر من صورة حال الوجود وهو مشهود، فلا يكون إلا فيما يريده هو، وهو ما سبق في علمه مما هو لك، والعلم لا يحتمل تبديلاً ولا تغييرًا ولا تقديمًا ولا تأخيرًا، فلا يكون إلا في الوقت الذي في علمه فيراد، وتتعلق القدرة بإيجاده على وفق ما في العلم، وسر خفاء ذلك عنك أيها العبد ظهور العبودية بالطلب الدائم، وفي كل وقت ملازم؛ لأنك لو علمت ما الذي لك عنده لم تسأله إلا فيه آيسًا من سواه، وكذا لو علمت بالوقت الذي تُعطى فيه مطلبك لم تطلب إلا فيه تاركًا لمح العبودية فيما سواه.

**قلت:** وكذا إبهام الواسطة والسبب في الطلب ليقصد من كل باب من أبوابه؛ لئلا يستغنى أحدٌ لحظة عن جنابه، بل افتقار الكل إليه بكل وجه ومن كل وجه في كل حال؛ ولذا قال ﷺ:

**٩- «لا يُشَكِّكَنَّكَ في الوعدِ عدمُ وقوعِ الموعودِ وإنْ تعيَّنَ زمنُهُ لِئَلا يكونَ ذلكَ قدحًا في بصيرتِكَ وإخمادًا لنورِ سريرتِكَ»(١).**

---

=

وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئًا ثم تأخر عنك وقت العطاء فيه فلا تتهم الله في وعده حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ولا تيأس من نواله ورفده؛ فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنعك لطفًا بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التشكيك في الشيء: هو التردد في الوقوع وعدمه، والوعد: الأخبار بوقوع الشيء في محله والموعود: المخبر به والقدح في الشيء: التنقيص له والغض من مرتبته والبصيرة:

أقول: لا يرددنك في القطع بالوعد ممن لا يجوز عليه خلف، ولا في قوله شك عدم حصول الموعود به، لما له من مطلق التصرف في ملكه، وما هو في سابق علمه مما خفي عليك سببه وحكمته، وإن تعين لك مما يوجب عندك القطع به سببه كقول الله تعالى في آية وعد فيها بوعد معلق على اتصاف بوصف أو زمنه كأن يعينه قول نبي في يقظة، وقد فرغ منه أو في منام، أو قول ولي، أو هاتف، أو إشارة تحقق صدق تجربتها، أو منام تكرر صدق رائيه، أو خاطر رحماني يتحقق بعلامته، وهي أن يثلج له الصدر إذا وقع في القلب، فارجع إلى ما له من كمالاته التي تكون سبب حصول إيمانك الذي به سعادتك، ومعرفتها المفيدة

=

القوة المهيئة لإدراك المعاني والسريرة: القوة المستعدة لتمكن العلم والمعرفة.

واعلم أن النفس والعقل والروح والسر شيء واحد لكن تختلف التسامي باختلاف المدارك فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النفس وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل وما كان من مدارك التجليات والواردات فمدركه الروح وما كان من مدارك التحقيقات والتمكنات فمدركه السر والمحل واحد وإخماد الشيء خفاؤه بعد ظهوره.

وقال الشيخ الشرقاوي: «لا يشككنك في الوعد» الذي وعدك به مولاك في منام أو على لسان ملك أو بإلهام روحاني «عدم وقوع الموعود وأن تعين زمنه» أي: وأن كان زمنه معينًا بأن ألهمت أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح أو يحصل في العام رخاء أو غير ذلك «لئلا يكون ذلك» الشك «قدحًا في بصيرتك وإخمادًا لنور سريرتك»، فمن وعده مولاه شيئًا وإن كان معين الزمان، ثم لم يقع ذلك الموعود، فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقًا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها، ومن هذا القسم ما يقع لبعض الأولياء أن يخبر به بأنه يحصل في هذا العام كذا ثم لا يحصل، فيقع بعض الناس في إعراضهم.

ولهذا السر الخفي كان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد فلا يزول اضطرارهم ولا يكون مع غير الله فرارهم بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠] وقول سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي: في ملة الكفر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:٨٩].

وقضية نبينا ﷺ يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه، وقال: **«اللهم عهدك ووعدك اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد بعد اليوم»**، فقال له الصديق: حسبك يا رسول الله! فإن الله منجز لك ما وعدك فنظر المصطفى ﷺ، أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ووقف الصديق مع الظاهر فكل على صواب، والنبي ﷺ أوسع نظرًا وأكمل علمًا.

بمعرفة أضدادها المستحيلة عليه تعالى التي منها الشك في وعده بسبب عدم الموعود به، فإن ذلك قدح في بصيرتك التي هي منبع أنوار هدايتك ورشدك، وإطفاءً لنور سريرتك التي تشاهد به كمال ربك؛ لترددك في إطلاق ما لا يجوز إطلاقه عليه وتوقفك على الكمال المحقق لديه المتعرف به لمن أعرض عما لا يليق به وتوجه بكمالاته إليه للإجلال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٠ - «إذا فَتح لك وِجهةً من التعرف؛ فلا تبالِ معها إن قلَّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أنْ يتعرف إليك، ألم تَعلم أن التعرف هو مُورِده عَليك، والأعمال أنت مُهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورده عليك»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: «فتح» هنا بمعنى هيأ ويسر، والغالب استعماله في الخير فأشعر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة، والوجهة: هي الجهة والمراد هنا الباب والمدخل والتعرف: طلب المعرفة تقول تعرف لي فلان إذا طلب مني معرفته والمعرفة تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحل والمبالاة المهتم بفوات الشيء.

قلت: إذا تجلى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار، وفتح لك منها بابًا ووجهة لتعرفه منها فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرته فالتزم الأدب معه بالرضا والتسليم وقابله بالفرح والسرور، ولا تبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية فإنما هي وسيلة للأعمال القلبية؛ فإنه ما فتح هذا الباب إلا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب ألم تعلم أن التعرفات الجلالية هو الذي أوردها عليك لتكون عليه واردًا، والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلاً، وفرقٌ كبيرٌ بين ما تهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة وبين ما يورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية. فَطِبْ نفسًا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية ومثل ذلك كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وأذية الخلق، وغير ذلك مما تكرهه النفوس فكل ما ينزل بك من هذه الأمور فهي نعم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوة صدقك إذ بقدر ما يعظم الصدق يعظم التعرف: «أشدُّكمْ بلاءً الأنبياءُ فالأمثلُ فالأمثلُ» والصدق متبوع.

وإذا أراد الله أن يطوي مسافة البعد بينه وبين عبده سلط عليه البلاء حتى إذا تخلص وتحرر صلح للحضرة كما تصفي الفضة والذهب بالنار لتصلح لخزانة الملك، ومازالت الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها في كسب المواهب كان شيخ شيوخنا سيدي على العمراني ﷺ يسميها ليلة القدر، ويقول: كل الخيرة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وذلك لأجل ما يجتنيه العبد منها من أعمال القلوب التي الذرة منها أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

obeikandl.com

**أقول**: إذا فتح لك الحق بابًا من أبواب وجهة من مواجهاته لأحبابه المتعرف لهم منها ليتعرف إليك كذلك بالأسماء والصفات تجليًا لذاته بهما لتعرفه من حيث يتعرف لك كما عرفوه بالمعرفة المؤدية لشهوده تعالى على وفق ذلك التعرف، فلا تتأثر إن قل عملك الحسي لاشتغالك بعملك المعنوي الذي هو قبولك بالشهود لمواجهة وجهة تعرفه لك بأنوار تجلياته وحقائق صفاته، ولا مرية أن العمل الكثير مع الحجاب قليل، والعمل القليل مع الشهود والكشف كثير، وإذا تأملت رأيت أنك أبدًا عامل، وأن حسي عملك بمعنويته الأرفع مستبدل، فإنه ما فتح لك هذه الوجهة إلا وهو يريد لك به المعرفة للوصلة والمشاهدة على أنه لم يقل: العمل المحسوس المهدى منك إليه بالنسبة إلى ما كان إلا لبدايتك في مواجهة العرفان الوارد عليك؛ وإلا فإذا اتسع التعريف استغرق الحق المكلف والتكليف في ذاته وأبقاه به مع صفاته، فيكثر ولا يقل لشهوده حينئذ أن كل عمل هو لشمس الحقيقة ظل لظهوره عنها وقيامه بها، والكثرة قيام بزيادة الشكر على هذه النعم، ولذلك قام ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له في ذلك فقال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**(١)، ففي بداية التعريف نشتغل به عن التكليف فيقل، وفي نهايته يزيد لتكون الشمس بالظل والزوال؛ ولذا قال ﷺ:

**١١ - «تَنوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ بتنوُّعِ وارداتِ الأَحْوَالِ»**(٢).

---

=

واعلم أن هذه التعرفات الجلالية هي اختبار من الحق ومعيار للناس، وبها تعرف الفضة والذهب من النحاس؛ فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار: من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

وكان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول: العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله، ويحرص عليها فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره. ويقول: ما هي إلا حقيقة واحدة إن شربتها عسلاً وجدتها عسلاً وإن شربتها لبنًا وجدتها لبنًا، وإن شربتها حنظلاً وجدتها حنظلاً فاشرب يا أخي المليح ولا تشرب القبيح. انتهى والله تعالى أعلم.

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٩٢)، ومسلم (١٣/ ٤٤٠)، والترمذي (٢/ ١٨٧)، والنسائي (٦/ ١٢٥).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: تنويع الشيء تكثيره، والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم، والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب، فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب لكن ما دام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطرًا، وإذا انقطعت عنه الخواطر

أقول: اختلاف أنواع الأعمال ما بين تَرك وإتيان قلبي وبدني قولي وفعلي، إسلامي وإيماني، إحساني وعَياني، تجريدي وتفريدي؛ لاختلاف الأحوال الواردة التي لا دوام لها، وهي معان ترد على القلب من غير كسب، واختلافها لاختلاف مصادرها من الأسماء حسب تجلي المسمى بما يقتضيه ظهوره من بطونه بالعامل والمعمول، والقابل والمقبول، فتنطبع فيه صور تلك الأنواع بظهورها من غيب الجبروت الإلهي في الملكوت المعنوي والملك الحسي القائم بالأعمال، فهي كما قال ﷺ:

**١٢- «الأعمالُ صورٌ قائمةٌ وأرواحها وجود سرِّ الإخلاصِ فيهَا»**(١).

=

الظلمانية سمي ما يخطر فيه واردًا أو حالاً، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان، فإن دام ذلك سمي مقامًا.

قلت: قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة أو تقول أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون، وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أي تأخر، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره، وهو كد وتعب وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص، وإن ورد على القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود إلى غير ذلك من الأحوال وما ينشأ عنها من الأعمال، وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلون الظاهر في أعماله وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضًا في الغالب، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: «**إنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه ألا وهيَ القلبُ**». قلت: ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية: فمنهم عباد، ومنهم زهاد، ومنهم الورعون والمريدون والعارفون. قال الشيخ زروق ﷺ: في فواعده: قاعدة: النُّسُك الأخذ بكل مسلك من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك، فإن رام التحقيق في ذلك أي: النسك فهو العابد وإن مال للأخذ بالأحوال فهو الورع وإن آثر جانب الترك طالبًا للسلامة فهو الزاهد وإن أرسل نفسه في مراد الحق فهو العارف، وإن أخذ بالتخلق والتعلق فهو المريد. انتهى المراد منه.

وحاصل ذلك أن تنوع الأوراد في حق المريدين الصادقين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم، فينبغي لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم، ولا يعمل بمقتضى وارد غيره، ولا يتعرض على ذلك الغير في عدم اشتغاله بما اشتغل به هو.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعمال هنا عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية، والصور جمع: صورة وهو

**أقول:** المراد أن الأعمال المتقدم تفصيل ذكرها وبيان أصلها ومصدرها صور موجودة لا يقيمها الحق عبودية محضة للربوبية إلا بأرواحها التي هي حصول عين سر الإخلاص فيها، والإخلاص الذي أراده الحق من العموم تجريد عملهم مع إثبات أنيتهم عما يسقطه أو يخدشه لينالوا ما وعدهم وسر الإخلاص الذي أراده تعالى من الخواص تجريد عملهم مع محو أنيتهم عن شائبة شهود غيره ترديهم إلى تدنيس شهودهم؛ لينالوا ما أحبه لهم من فنائهم فيه وبقائهم به.

وكلا الحالين لا ينال غالبًا إلا بالتربية المستفادة من المربي المتحصل منها النتائج

---

=

ما يتشخص في الذهن من الكيفيات، والروُح السرُّ المودع في الحيوانات، وهو هنا عبارة عما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال، والإخلاص إفراد القلب لعبادة الرب وسره لُبُّهُ وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة إذ لا يتم إلا به وإن صح دونه إذ الإخلاص نفي الرياء والشرك الخفي وسره: نفي العجب وملاحظة النفس والرياء قدح في صحة العمل والعجب قدح في كماله فقط.

قلت: الأعمال كلها أشباح وأجساد وأرواحها وجود الإخلاص فيها فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة كذلك لا قيام للأعمال البدنية أو القلبية، إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لا عبرة بها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢]. وقال ﷺ حاكيًا عن الله تعالى يقول: «**أنا أغني الشركاءَ عنِ الشركِ من أشركَ معيَ غيري تركتُهُ وشريكَه**».

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه سئل عن الإخلاص فقال: «**حتَّى أسألَ جبريلَ فلما سألَهُ قالَ: حتَّى أسألَ ربَّ العزة فلما سأله قال له: هو سِرٌّ من أسراري أُودِعُهُ قلبَ من أحببتُ من عبادي لا يطَّلع عليه مَلَكٌ فيكتبُهُ ولا شيطانٌ فيُفْسِدُهُ**»، قال بعضهم: هو مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

**والإخلاص على ثلاث درجات:** درجة العوام والخواص وخواص الخواص؛ **فإخلاص العوام:** هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور. **وإخلاص الخواص:** طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. **وإخلاص خواص الخواص:** إخراج الحظوظ بالكلية فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية أو محبةً وشوقًا إلى رؤيته. وقالت رابعة العدوية: «**ما عبدتك خوفًا من نارك، ولا طمعًا في جنتك**» فنسبت العبادة إليه، وإخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم في ذلك حولاً ولا قوة، فلا يعملون العمل إلا بالله لا بحولهم ولا قوتهم، وهذا أرفع مما قبله. **والحاصل:** لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدًا، والله تعالى أعلم.

المستنبتة من طينة الإخلاص التي هي مدفن وجود العاملين للأعمال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٣ - «ادفِن وجودَكَ في أرض الخُمول، فما نبتَ مما لم يُدفن لا يتمُّ نتاجُهُ»**[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الدفن هو التغطية والستر، والخمول سقوط المنزلة عند الناس ونتائج الشجرة ثمرتها أستعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التي يجتنيها العبد من المعرفة بالله وذلك عند موت نفسه وحياة روحه. قلت: استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه ويكون عندها أحلى من العسل، ويصير الظهور عندها أمر من الحنظل فإذا دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك نتاجها وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص، وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيرًا سائلاً أو سارقًا صائلاً.

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب كالأرض. انتهى. وقال بعض العارفين: كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماء سماء وقال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعثٍ أغبرٍ ذي طِمرين لا يؤبه به، تَنبُوا عنه أعْيُنُ النَّاسِ لو أقسمَ على الله لأبرَّه في قَسَمِهِ». وفي مدح الخمول أحاديث كثيرة وفضائل مشهورة ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافيًا. وقال بعض الحكماء: الخمول نعمة والنفس تأباه والظهور نقمة والنفس تهواه. وقال آخر: طريقتنا هذه لا تصلح إلا بقوم كنست بأرواحهم المزابل.

قال الشيخ زروق ﷺ: وكما لا يصح دفن الزرع في أرض رديئة لا يجوز الخمول بحالة غير مُرضِيَّة، وقياس ذلك بالغصَّة لا يصح؛ لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجبًا ومندوبًا، وتفويتها مع إمكان إبقائها محرم إجماعًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] بخلاف الخمول لا يفوت به شيء من ذلك إنما يفوت به الكمال وهو نفي الجاه والمنـزلة وأصله الإباحة. انتهى. وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية فأولى أن يجوز لفوت الحياة الدائمة وهي المعرفة فتأمله، وقصة لص الحمَّام تشهد له، والله تعالى أعلم.

ولقد سمعت شيخنا ﷺ يقول: الفقير الصديق: يقتل نفسه بأدنى شيء من المباح، والفقير الكذاب: يقع في المحرم ولا يقتلها وكان كثيرًا ما ينهى عن الأحوال الظلمانية، ويقول: عندنا من المباح ما يغنينا عن المحرم والمكروه، وأما السؤال فإنما هو مكروه أو حرام لقصد قوت الأشباح مع الكفاية أما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام.

وقال الشيخ زروق ﷺ: في قواعده قاعدة حكم الفقه عام في العموم؛ لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته وحكم التصوف خاص في الخصوص؛ لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك، فمن ثَمّ صح إنكار الفقيه على الصوفي، ولم يصح إنكار الصوفي على الفقيه،

**أقول**: اخف - أيها العامل - ذاتك التي هي مصدر صدور أفعالك التي يقع بها التظاهر بين أقرانك في غيب أرض الخفاء؛ لتنتج في سلوكك، فإن ما لم يخف تحت أطباق الخفاء لا كمال له. كما أن النابت بنفسه لا يتم له الفلاح، والمستنبت بغيره يتم دخوله تحت تصرف الفلاح.

وسر ذلك ثبوت حكمة الواسطة في ظهور النتائج بها من السابقة إلى اللاحقة رحمة ذي الجلال من دعوى النفس النتيجة بالاستقلال، فاستقص بحسم مواد القطيعة ومواد الطبيعة المسدية للقلوب بالصدأ المانع للعبد عن مطالعة جمال المحبوب؛ لعدم الاشتغال بذكره واسترواحه في عجائب صنعه بفكره في دار الاعتزال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٠ - «ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزلةٍ يدخل بها مَيدانَ فِكْرَةٍ»**(١).

=

ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه في الأحكام لا في الحقائق. انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النفع: إيصال الفائدة والقلب القوة المستعدة لقبول العلم، والعزلة: انفراد القلب بالله، وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس، وهو المراد هنا؛ إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القالب، وميدان بالفتح والكسر في الميم: مجال الخيل استعير هنا للأفكار؛ إذ تردُّدها في مواقعها كتردد الخيل في مجالها، والفكرة: سير القلب إلى حضرة الرب، وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان على ما يأتي.

قلت: لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة؛ لأن العزلة كالحِمْيَةِ والفكرة كالدواء فلا ينفع الدواء من غير حِمْيَةٍ ولا فائدة في الحمية من غير دواء فلا خير في عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها؛ إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة والمقصود من اشتعال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب وتمكين العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته وهو الذي سماه الله القلب السليم. قال الله تعالى في شأن القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨- ٨٩] أي: صحيح.

واعلم أن في الخلوة عشر فوائد: **الأولى**: السلامة من آفات اللسان؛ فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم وقد قال ﷺ: «**رحم الله عبدًا سكت فسَلِم أو تكلَّم فغنم**»، ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من آثر الخلوة على الاجتماع.

**الفائدة الثانية**: حفظ البصر والسلامة من آفات النظر؛ فإن من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١] فتمنع بذلك النفس من التطلع

**أقول:** أنتج استعداد تخلق يتقرب به للرب أو عمل يعمله القلب انفراد، بتجرد يؤدي إلى سروح فكره في ميدان بدائع صنع ربه الظاهر عنه تعالى من حضرة أسمائه وتجليات أنوار صفاته القائمة بذاته بشروق أنوارها في مرائي القلوب بتخليها عما سوى المحبوب، وإلا فهي صادية الصقال؛ ولذا تعجب، فقال ﷺ:

**١٥ - «كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في مِرآتِهِ؟»(١) أمْ كيفَ يرحلُ إلى الله**

---

=

إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها.

**الفائدة الثالثة:** حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض. قال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا.

**الفائدة الرابعة:** حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله، وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: **«ازهدْ في الدنيا يحبُّك الله وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُّك الناسُ»** انتهى. وقد روي عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى؛ فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون في الدنيا الراغبون فيها.

**الفائدة الخامسة:** السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم؛ ففي بعض الأخبار: **«مَثَلُ الجليسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إذا لم يُحرِقْكَ بشررِهِ عَلِقَ بكَ من رِيحِهِ»**.

**الفائدة السادسة:** التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر ولا شكَّ أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلة من يشغله عن ذلك.

**الفائدة السابعة:** وجدان حلاوة الطاعات، وتمكن لذيذ المناجات لفراغ سره، وهذا مجرب صحيح.

**الفائدة الثامنة:** راحة القلب والبدن؛ فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم، وإن كان في ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم وهو جمع القلب في حضرة الرب.

**الفائدة التاسعة:** صيانة نفسه ودينه من التعرض لشرور والخصومات التي توجبها الخلطة؛ فإن للنفس تولعًا وتسارعًا للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها.

**الفائدة العاشرة:** التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخَلْوَة. وفي الخبر: **«تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سبعينَ سنةٍ»**، وكان عيسى عليه السلام يقول: «طوبى لمن كان كلامه ذكرًا وصمته تفكُّرًا ونظره عبرةً، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت».

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: جعل الله سبحانه قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها، وليس لها إلا وجهة واحدة، فإذا أراد الله عنايته عبد أشغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته، ولم يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان

**وهو مُكَبَّلٌ بشهواته النفسية؟ أمْ كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حضرةَ الله وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَةِ غفلاته؟ أمْ كيفَ يَرْجُو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هفواته».**

**أقول**: كيف يضيء بأنوار التجليات قلب معنوي انطبع في مرآته صدأ صور الكائنات، والانطباع تمكن المنطبع بمكثه في مرآة القلب بقبولها له لبساطتها وشفافة لطافتها، وسبب ذلك ما يتطرق إليها منه بواسطة توجهها له، فيتطرق إليها من طرق المدارك وهي الحواس، والصداء أمثلة صور الأكوان المتطرقة من الحواس وهي كالصور حسية ومعنوية، فكلما قابل الحواس شيء من صور المحسوسات وتلقته بمواجهة وجه مرآة القلب المعنوي القابل تطرق من الحواس أمثلة ما يقابلها إلى مرآة القلب، فتشتغل المرآة به ضرورة إما حالاً وهو عدم استقرار صور الأمثلة بتعاقبها وتخللها بغفلات ساذجة عنها وعن الله، أو مقامًا وهو تمخض وجودها متراكمًا للغفلة بها عن الله.

وهذه الصور المشار إليها المتطرق أمثلتها على قسمين:

**أحدها**: ما له صورة مرئية كذات الفاعل على اختلاف صورها، وهي الحسية.

**والثاني**: ما له صورة تعقلية كأفعاله على اختلاف معانيها وهي المعنوية.

---

=

والإحسان وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان؛ أي: وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه في كل شيء، فيصير قلبك قطب فلك الأنوار فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان، **وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان، فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها، فلا ترى إلا الحس ولا تتفكر إلا في الحس، فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية فتنكر وجود النور من أصله، وهو مقام الكفر والعياذ بالله ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها فتقر بالنور ولا تشاهده، وهو مقام عوام المسلمين وهم متفاوتون في القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه كل على قدر يقينه وقلة تعلقاته الدنيوية وعوائقه الشهوانية وخيالاته الوهمية.**

وفي الحديث: «**إنَّ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ وإن الإيمان يَخْلَقُ** ـ أي: يبلى ـ **كما يخلق الثوب الجديد**...» وفي حديث آخر: «**لكل شيءٍ مَصْقَلَةٌ ومصْقَلَةُ القلوبِ ذكرُ الله**» وقال أيضًا ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نُكتةٌ سوداء؛ فإن هو نزع واستغفر صَقُلَتْ وإن عاد زِيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الرَّان الذي ذكر الله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]».

وكلها حجب وأصدية للقلوب عن مطالعة المحبوب؛ ولكن:

منها ما هو أفظع من حيث مذمة الشرع، إما بالحرمة أو بالكراهة.

ومنها ما أثني عليه بالوجوب أو الاستحباب.

ومنها ما سكت عنه، وهو المباح من الصور والأعمال الشاملة لما يعوقه من الشهوات؛ ولذا تعجب، فقال ﷺ:

* «أمْ كيفَ يرحلُ إلى الله وهو مُكَبَّلٌ بشهواته النفسية»(١).

**أقول:** المراد بالرحلة السير المعنوي والتكبيل كذلك وهو أشمل من التكتيف لاشتمال التكبيل على جميع الأعضاء، واقتصار التكتيف على الكتفين خاصة، والمكبل به عن الرحلة إلى الله، وهو اشتداد قماط الهوى الشهواني والمعنوي كذلك، وهو ما تقدم بيانه مفصلاً من أمثال الصور المعنوية وغيرها المتطرقة إلى القلب الذي بصلاحه صلاح الجوارح، وبفساده فسادها القاضية إما بالوقوع وإما بالولوع، فارتحاله إلى الله في موطن

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الرحيل هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكون أو من الملك إلى الملكوت أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب أو من وطن الغفلة إلى اليقظة أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله، أو من حال الغفلة إلى حال الذكر أو من عالم الأكدار إلى عالم الصفاء، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى، أو من الجهل إلى المعرفة، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، أو من عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من مقام السائرين إلى وطن المتمكنين، والمكبل هو المقيد والمراد بالشهوات كل ما تشتهيه النفس وتميل إليه.

قلت: الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان، فمادام القلب محبوسًا بالميل إلى شيء من هذا العرض الفاني، ولو كان مباحًا في الشرع، فهو مقيد به ومكبل في وطنه، فلا يرحل إلى الملكوت ولا تشرق عليه أنوار الجبروت، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها، وعلى تقدير النهوض معها تكون مثبطة له عن الإسراع بالميل إليها وعلى تقدير الإسراع، فلا يأمن العَثَار معها لأُنس النفس بها ولذلك ترك الأكابر لذتها حتى قال بعضهم: لدغ الزنابير على الأجسام المُقَرَّحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. انتهى.

قال الشيخ زروق ﷺ قلت: هذا إن تعلق القلب بطلبها قبل حصولها وإلا فلا لعدم تعلق القلب بها، وقد تقدم في حقيقة التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة. وكان شيخنا ﷺ يقول: إن شئتم أن نقسم لكم لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علقة. انتهى.

شهواته لتكبّله بها بارتكابها أو بتصورها ممتنع ضرورة لعدم مقابلة الحق بما لا يرضاه من الامتثال، ولذا تعجب أيضًا فقال ﷺ:

* «أَمْ كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حضرةَ الله وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَةِ غفلاته؟»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: «الحضرة» هي حضور القلب مع الرب، وهي على ثلاثة أقسام: حضرة القلوب، وحضرة الأرواح، وحضرة الأسرار؛ فحضرة القلوب للسائرين، وحضرة الأرواح للمستشرفين، وحضرة الأسرار للمتمكنين، أو تقول: حضرة القلوب لأهل المراقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة، وسر ذلك أن الروح ما دامت تتقلب بين الغفلة والحضرة كانت في حضرة القلوب، فإذا استراحت بالوصال سميت روحًا وكانت في حضرة الأرواح، وإذا تمكنت وتصفت وصارت سرًّا من أسرار الله سميت سرًّا وكانت في حضرة الأسرار، والله تعالى أعلم.

قلت: الحضرة مقدسة منزهة مرفعة، لا يدخلها إلا المطهرون فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة، وجنابة القلب غفلته عن ربه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣] أي: لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا، وشهود السوي حتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون في حضرة الملك ولا جنبًا من جماع الغفلة، وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها.

الطهارة الأصلية وهي الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك، فانتقل للطهارة الفرعية التي هي العبادة الظاهرية، أو تقول وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التي هي الطهارة الباطنية، فانتقل للطهارة المجازية التي هي الطهارة الظاهرية، أو تقول وإن لم تقدر على طهارة المقربين فانتقل لطهارة أهل اليمين، أو تقول: وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة: قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠] فطهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضا وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعِيان وهذا هو تصوف أهل الظاهر.

وأما تصوف أهل الباطن، فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق، وهو الذي عبر عنه الناظم بماء الغيب فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن، فهو من أهل التيمم فإن كان مشغولاً بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما، فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح، وإن كان مشغولاً بالعبادة الخفية، كالزهد والورع ونحوهما، فهو

أقول: يتعجب ممن يرجو متطمعًا الولوج من الباب المقدس إلى المحاضرة للجناب الأقدس وهو بجنابة غفلاته عنه مدنس، والغفلة الغيبة عن المطلوب إما به، وهو غير المراد هاهنا، وإما بما منه مباينًا له من حيث ذاته وهو المراد، أعني بالصور المرئية للحواس أو بأمثلتها المترائية في القلوب أو بالصورة الفعلية التعقلية، أو بلا شيء أصلاً وهو المشار إليها بالساذجة.

ومن كان هذا أو بعضه حاله صدق عليه الغفلة وهي الغيبة عن الله، والغائب عن ربه متسترة عليه طرق معرفة قربه ما لم يتيقظ من الإغفال؛ ولذا تعجب أيضًا، فقال ﷺ:

* «**أَمْ كيفَ يَرْجُو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هفواته**»[1].

أقول: إن الطمع فيما يكون من النتائج مع عدم وجود مقدماتها يستعجب منه ولذلك كان ذلك في كل ذلك حتى ذكر موجب تقدر كل نتيجة، وهو فقد مقدمتها ليعلم الطالب أنه إن حصلت منه، حصلت إن شاء الله، وإلا فلا، وإذا كانت الهفوات وهي

---

=

كالمتيمم بالصخر لعدم ظهورها في الغالب، كعدم ظهور أثر الصخر، وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس، فهم دقائق الأسرار وملئ بالمواهب والأنوار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الرجاء: تمني الشيء مع السعي في أسبابه وإلا فهو أمنية والفهم حصول العلم بالمطلوب، ودقائق الأسرار غوامض التوحيد، والتوبة الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد، وهذه توبة الخواص، والهفوات جمع هفوة وهي الزلة والسقطة.

قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت شيخي أبا سليمان الداراني ﷺ يقول: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا. قال أحمد بن حنبل: صدقت يا أحمد وصدق شيخك ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليَّ من هذه من عمل، بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وقيل للجنيد ﷺ: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، فقيل له: بماذا يصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد. انتهى.

فإذا انفرد القلب بالله وتخلص مما سواه فهم دقائق التوحيد وغوامضه التي لا يمكن التعبير عنها، وإنما هي رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها ولا تفشى إلا لهم، وقليل ومن أفشى شيئًا من أسرارها مع غير أهلها، فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه، وهذه الأسرار هي أسرار الذات وأنوار الصفات، التي تجلى الحق بها في مظهر الأكوان.

الأصغر من صغائر الذنوب تسد مجاري فهم دقائق أسرار العلوم والحِكم فكيف بالصغائر؟ أم كيف بالكبائر؟ فالعلوم لها المعلومات، والأسرار لها الإشراقات، ودقائق الأسرار لها خفيات الحكم المقفلات، فالتائب من الكبائر له من العلم إدراك المعلومات بقدر تقواه، والتائب منها ومن الصغائر له من الأسرار الإشراقات بقدر تقواه، والتائب منهما ومن أصغر الصغائر له من الدقائق شهود غوامض المقفلات بقدر تقواه، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] ومن وجد من نفسه ظهور نتيجة من ذلك مع عدم تقواه الذي هو مقدمة لها فهو مستدرج بذلك لا محالة بشهادة الذوق، ومن وجدها بمقدمتها فمفاده الشهادة الحالية له بصحة تقواه، وشهود سره وجهره بوقوع ذوقه على صفحات مطالعتها من مظاهرها، فيتمتع بالحق من حيثية ظهوره تعالى بها في ظُلم الأكوان المنورة بظهور ذي الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦ - «الكونُ كلُّه ظلمةٌ وإنَّما أنارَه ظهورُ الحقِّ فيه(١)، فمَنْ رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده؛ فقد أعوزه وجود الأنوار وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسحبِ الآثارِ(٢)».**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الكون ما كونته القدرة وأظهرته للعيان، والظلمة ضد النور، وهي عدمية والنور وجودي، و«أناره» أي: صيره نورًا، وظهور الحق تجليه.

قلت: الكون من حيث كونيته، وظهور حسه كله ظلمة؛ لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، ولأنه سحاب يغطي شمس المعاني لمن وقف مع ظاهر حس الأواني، فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة، وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه حسًّا ظلمانيًّا، ومن نفد إلى باطنه رآه نورًا ملكوتيًّا. قال الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] فتحصل أن قول الشيخ: «الكون كله ظلمة» إنما هو في حق أهل الحجاب لانطباع ظاهر صور الأكوان في مرآة قلوبهم، وأما أهل العرفان فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق، فرأوا الكون نورًا فائضًا من بحر الجبروت فصار الكون عندهم كله نورًا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] أي: من نور ملكوته وأسرار جبروته أو من أسرار المعاني القائمة بالأواني. وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله احتجب عن أهلِ السماء كما احتجبَ عن أهلِ الأرضِ وإنَّ أهلَ الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم وأنه ما حلَّ في شيءٍ ولا غابَ عن شيءٍ**» انتهى. وهذه المعاني إنما هي أذواق لا تدرك بالعقل، ولا بنقل الأوراق، وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق؛ فسلم ولا تنتقد.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرّد وقوع بصرهم على الكون، فهم يثبتون

أقول: العالم كل أجناسه وأنواعها وأجرامه وأفرادها وكلياته وجزيئاتها، وحسياته، ومعنوياته، دُنيا، وبرزخًا، وأُخرى ما يكون مما لا يتناهى؛ لعدم تناهي الخالقية، وما كان عدم وهو كل ما سوى الحق، وإن ظهر فإنما ذلك بأنوار تجليات ظهور الحق في أحكامه الإمكانية المتعينة في علمه تعالى على وفق تعيينه إظهارها بأسمائه وصفاته ظهورًا متحققًا متمايزًا لم يخرجها عن عدمها بنفسها ولا عن وجودها بالحق سبحانه، فمن رأى هذا العالم بعقله، وبصره، فحق عليه أن يشهد ببصيرته وذوقه أن الحق هو الظاهر به في أحكام تعيناته بما تقدم بيانه من أنوار التجليات وأحكام تعاقبها بالأسماء، وتوارد الصفات مع تنزهه تعالى عن توهم الحلول، ووجود الظرفية إلى غير ذلك من لوازم الممكنات.

أو يشهده بذلك كذلك عند وجود العالم ظاهرًا بالإحاطة، والقدرة، والتصاريف

---

=

الأثر بالله ولا يشهدون بسواه، إلا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوط، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة، أو عندها بلا تقديم ولا تأخير، ولا ظرفية ولا مظروف.

وقال الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ﷺ لأبي الحسن ﷺ: يا أبا الحسن حدِّدْ بصر الإيمان تجِدِ الله في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريبًا من كل شيء، ومحيطًا بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته وعد عن الظرفية والحدود وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو هو هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان انتهى. وقال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه ولم أره حديثًا، وإنما هو من قول بعض العارفين؛ فأهل السير من المريدين يشهدون الكون، ثم يشهدون المكون عنده وبأثره فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرفين وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الخلق، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلاً إذ لا ثبوت له عندهم؛ لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة، فانون عن الحكمة، غرقي في بحر الأنوار، مطموس عليهم الآثار. وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان، إنما يشهدون الكون، ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين قد أعوزهم؛ أي: فاتهم وجود الأنوار ومنعوا منها، وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها، لكن لابدَّ للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، ثم احتجابه تعالى في حال ظهوره مما يدلك على وجود قهره.

المقدرة التي ظهورها لم يخرج عما تقدم من تظاهر الصفات التي لا مرية فيها أو يشهده سبحانه وتعالى بذلك، كذلك قبل ظهور وجود العالم قديما بأوليته التي لا افتتاح لها المباين تعالى بها جميع أوليات العالم المسبوقة بالعدم ليعرف به تعالى العالم ، أو يشهده تعالى بذلك، كذلك بعد عدم العالم باقيًا بالآخرية التي لا اختتام لها المباين تعالى جميع أُخريات العالم الملحوقة بالعدم؛ ليعرف به تعالى العالم.

ومن لم يكن له ذلك كذلك، فقد أعوزه ـ أي: أحوجه ـ وجود الأنوار الصفاتية، والتجليات الربانية باستتاره عنه إلى كل هذه المشاهد المحقق من فقدها انطماسه بالبعد الشديد عن هذه المعاهد، وأنها محتجبة عنه شموس المعارف المؤدية ذلك لمن شاء الله من مُحق سَالك بسبب غلبة الأنا المبعدة لمن لم يعرف طريق الاستدلال بها على شهود وجود المؤثر التي سر وجودها شهوده تعالى فيها كما بين، أو عندها بما يبديه فيها ومنها، أو معرفتها به بعد شهوده، أو معرفته بها لشهوده على كل حال؛ لأن مؤدي المعرفة شهود المعروف الذي لا وجود على الحقيقة لسواه؛ ولذا قال ﷺ:

**١٧ - «مما يَدُلُّكَ على وجودِ قهرِهِ سبحانِهِ أن حجبكَ عنه بما ليس بموجود معه»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من أسمائه تعالى القهَّار، ومن مظاهر قهره احتجابه في ظهوره وظهوره في بطونه وبطونه في ظهوره، ومما يدلك أيضًا على وجود قهره إن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب بعيد في قربه قريب في بعده احتجب عن خلقه في حال ظهوره لهم، وظهر لهم في حال احتجابه عنهم، فاحتجب عنهم بشيء ليس بموجود وهو الوهم، والوهم أمر عدمي مفقود، فما حجبه إلا شدة ظهوره، وما منع الأبصـار من رؤيته إلا قهاريَّة نوره فتحصل إنفراد الحق بالوجود وليس مع الله موجود.

وقال الشيخ الشرقاوي: «مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه» خطاب لعامة الناس «بما ليس بموجود معه» اتفقت مقالات العارفين وإشارتهم ومواجيدهم على ما ذكر من أن ما سوى الله، عدم محض من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله تعالى. قال بعض العارفين: «أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية».

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] واسـم الفاعـل حقيقـة في الحال، وقال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾

**أقول:** من الدلالات التي تدلك على وجود قهره لك أن حجبك بغلبة قهارية ظهوره، فتوهمت ذلك سواه، فحجبت وما ذلك الحجاب إلا به قام لو عرفت أو بغلبة قهارية بطونه المباينة عندك لكل ظهوره المتنكر به عليك، وليس غيره أو بتجبيره لك حيث بينهما أوقفك غير ناف ومثبت، فلو قهرك برحمانيته لأدخلك تحت قهر كمال سلطان عالميته، فتدكدكت منك جميع جبال أوهامك، وعرفت من ذلك أنه الأول الآخر الباطن الظاهر، وشهدت البطون عين الظهور، والظهور عين البطون، فلا تحير، وعلى علم له أثبت، ولما سواه نفيت ومحقت، وهو ما توهمت وما حجبك عن شهود ظهوره في بطونه، وبطونه في ظهوره إلا عدم معرفتك به من حيث تنوعات مراتب نوره، فاحتجابه بها سواه لا يتوهم بخيال، ولذا تعجب، فقال:

١٨ -**«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي أظهرَ كلَّ شيءٍ؟»**[١].

**أقول:** تصور الحجاب له بما هو مقهوره ومقدوره من المحال، والعجاب ممن يتصوره مع عدم خفاء أن الموجد قاهر لا مقهور لما يوجد، فكيف يحجبه تعالى ما يوجده؟ وذلك من المحال في حق ذي الجلال، ولذا تعجب وقال:

* **«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهرَ بكلّ شيءٍ»**[١].

---

=

[الأنفال:١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠].

وقال ﷺ: يقول الله تعالى: «يا عبدي! مرضت فلم تعدني؛ فيقول: يا رب! كيف أعودك، وأنت رب العالمين، فيقول الله: إما أنه مرض عبدي فلان فلم تعده؛ فلو عدته لوجدتني عنده، ثم يقول: يا عبدي! استطعمتك فلم تطعمني، ثم يقول: استسقيتك فلم تسقني...» فدل الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها؛ فهي أشبه شيء بالظلال، ولا يفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات، وحسب من لم يبلغ لها فهمه ولم يحط بها علمه أن يُسَلِّمَ ويَكِلْ فهمها إلى أربابها، وليعتقد كمال التنـزيه وبطلان التشبيه؛ لأن هذه المعاني أذواق لا تنال إلا بصحبة أهل الأذواق.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الظاهر هو الباطن، ما بطن في عالم الغيب هو الذي ظهر في عالم الشهادة فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت، انظر جمالي شاهدًا في كل إنسان، الماء يجري نافذًا، في أُس الأغصان، تجده ماء واحدًا، والزهر ألوان. يا عجبًا! كيف يعرف بالمعارف من به عُرِفَتِ المعارف، عَجِبْتُ لمن يبغي عليك شهادة، وأنت الذي أشهدته كل شاهد.

**أقول**: إن سبب التعجب:

**الأول**: تصور محال احتجابه مطلقًا فضلاً عن ما أظهره مجلاً لشهود صفات جنابه.

**والثاني**: تصور محال احتجابه بعين ظهوره بكل شيء من حضرة أفعاله، فإنها أبلغ مراتب الظهور المتحقق منها محو توهم الستور إلا عند من لم يتعرف الحق له بمدد النور وذلك لجهله به من حيث ظهوره بصور أسماء تجلياته الظاهرة بأنواع تعرفاته في نوره وأوسط مراتب الظهور ما ظهرت بها هذه المرتبة متنوعة عن تنوعاتها، وهي حضرة صفاته وأرفعها حضرة ذاته المتظاهرة والظاهرة بجميع حضراته الظاهرة فيها بلا زوال، ولذا تعجب أيضًا وقال ﷺ:

*** «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهرَ في كلّ شيءٍ»(٢).**

**أقول**: كل شيء فعله أظهره بقدرته وظهر به في ظهوره من غيب حضرته وظهر فيه بما يتعرف به منه له، ولمماثله، وهو ما يشاهد عينه مما هو ظاهر به عن المكونات، ومن المكونات من ظهور آثار صفاته ومقابلها التي تعرف صفاته وتشهد بها لكل من غير إشكال، ولذا تعجب أيضًا وقال ﷺ:

---

=

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أي: تجلَّى بكل شيء فلا وجود لشيء مع وجوده، فكيف يحجبه شيء والغرض ألا شيء. وقال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء» حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] وذلك لأن الأثر يدل على المؤثر ويعرف به، فهذا مقام المستدلين الضعفاء.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: بقدرته وحكمته القدرة باطنة والحكمة ظاهرة أو تقول: بجمعه وفرقه الجمع باطن والفرق ظاهر؛ فالوجود كله بين قدرة وحكمة وبين جمع وفرق. وقال الشيخ الشرقاوي: «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء» بذاته كما يقوله أهل الشهود، أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقول أهل الحجاب، فالأشياء كلها مجالي ومظاهر لظهور معاني أسمائه التي هي تفاصيل معاني صفاته، فيظهر في أهل العزة كونه معزًا، وفي أهل الذلة كونه مذلاً، وفي الأحياء معنى اسمه المحيي، وعند سلب الأرواح معنى اسمه المميت، وعند العطاء معنى اسمه الكريم، وعن إجابة الدعاء معنى اسمه المجيب، وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معنى اسمه الضار النافع... إلى غير ذلك.

obeikandl.com

* «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهرَ لكلّ شيءٍ»(١).

**أقول**: ظهوره للكل به اقتضى وجود الكل ثم معرفتهم وشهودهم له به من كل من الكل، فتمتع الكل به على هذا الوجه من حيث الكل حسب قسط كل من الكل المتعين له منه تعالى في سابق علمه.

فمنهم من تجلى عليه بالنور الكاشف له ذلك، ومنهم من لم يظهر فيه بذلك، فتوهم احتجابه بالكشف وبُعده بالوصال، ولذا تعجب وقال ﷺ:

* «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الظاهر قبل وجود كلّ شيءٍ»(٢).

**أقول**: من العجب أن يتصور مع ما علم فيما مر وفهم واستقر أن ظهوره منحصر بظهوره الذي علم وشهد بإظهاره المكونات وبها وفيها ولها، وهو الظاهر قبلها بذاته في ذاته لذاته أزلاً وأبدًا بلا افتتاح ولا اختتام يلزم منهما سبق تعطيل ظاهرية اسمه الظاهر وغيره ولحوقه بها بواسطة طي سجل المكونات ودار الدنيا فإنه محال، ويدفعه ما هو مشهود في الحالة الراهنة والماضية والآتية من طيه لها ونشرها وأمثالها مع الآنات والساعات، والأيام، والشهور، والسنين، والقرون، والدهور، وهو ظاهر في إعدامها كما هو ظاهر في إيجادها سبحانه، فهو على ما هو عليه في كل حال فلا يحجبه شيء؛ ولذا تعجب وقال ﷺ:

* «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو أظهرَ من كلّ شيءٍ»(٣).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أي: المتجلي لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، ولما تجلى لكل شيء، وعرفه في الباطن كل شيء، وسبح بحمده كل شيء فلم يحجبه شيء عن شيء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] يقول بلسان حاله: سبحان المتجلي لكل شيء الظاهر بكل شيء يفقهه العارفون ويجهله الغافلون.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: كل ما ظهر فمنه وإليه؛ فكان في أزله ظاهرًا بنفسه ثم تجلى لنفسه بنفسه فهو الغني بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاجَ إلى من يعرفه غيره فالكون كله مجموع والغير عندنا ممنوع.

وقال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء» لتحقق هذا الاسم له أزلاً وأبدًا، فظهوره تعالى ذاتي له، غير مكتسب ولا مستفاد ولا معلول، وظهور الأكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور، فكيف تكون حاجبة له؟!.

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: إذ لا وجود للأشياء مع وجوده، ولا ظهور لها مع ظهوره وعلى تقدير ظهورها فلا وجود لها من ذاتها فلولا ظهوره في الأشياء ما وقع عليها أبصار؛ فالعبد في حالة

**أقول**: الأشياء ظاهرة موجودة بإيجاده وإظهاره، فعينها وفعلها ليس إلا ظهوره الذي هو أظهر منها به، فهو أظهر من كل شيء بظاهريته لعدم كل شيء بنفسه، ووجوده، وبطونه، وظهوره به، فكان هو الأظهر من كل ذلك بكل ذلك في كل مظهر ظاهر أو متظاهر ، أو باطن أو متباطن أو أبطن إلى غير ذلك مما يقال، فلا شيء معه يحجبه، ولذا تعجب وقال ﷺ:

* **«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الواحد الذي ليس معه شيءٌ»**(١).

**أقول**: هو الواحد الذي ليس معه إلا صفاته وأفعاله، فلا يتصور وجود غيرهما فضلاً عن أن يكون ذلك الغير حاجبًا لما تقدم وهما المتظاهر بهما تعرفًا ناشئًا عن حبه تعالى حين إتيان ظهور اختياره بما يشاء أن يتعرف به في مرتبة العالم المسمى بما سواه، وتأمل معنى: «**كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان**»(٢) أي: لا شيء معه بنفسه أزلاً ولا أبدًا، وإن تكن معية بما اقتضته صور الأسماء من وجود آثار صفات المسمى، فليس شيء من ذلك معه أزلاً وأبدًا، وإنما هو مع كل شيء لسلطانه على كل شيء، فلا تضاف المعية إلا له تعالى كما استفيد من نص قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] ﴿**وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**﴾ [النساء:١٠٨] إلى غير ذلك، فافهم ما في ذلك من العلم وجميل الخصال المحقق لأقربيته، فلا شيء يحجبه، ولذا تعجب وقال ﷺ:

---

=

الحجاب تكون نفسه وجودها عنده ضروريًا ووجود الحق تعالى عنده نظريًا، فإذا عرف الحق، وفني عن نفسه، وتحقق بـزوالها صار عنده وجود الحق ضروريًا، ووجود نفسه نظريًّا بل محال ضرورة.

قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا عن الدليل والبرهان، وأنا لا نري أحدًا من الخلق؛ فهل في الوجود أحد سوي الملك الحق؟ وإن كان ولا بدَّ فكالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا. انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لتحقـق وحدانيته أزلاً وأبـدًا كان الله ولا شيء معـه، وهـو الآن على ما عليـه كان: ﴿**أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النمل:٦٣] ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ**﴾ [إبراهيم:١٠] فكل ما ظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمن؛ فالحق تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء معه. قال الشيخ الشرقاوي: «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء» إذ كل شيء سواه عدم لا وجود له على التحقيق، فليس ثم شيء يحجبه، إذ الوجود الحقيقي كله له، ولا شيء منه لغيره.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩).

* «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو أقرب إليك من كلّ شيءٍ»(١).

**أقول:** حقيق التعجب من تخيل احتجاب من لا يجوز عليه ذلك بشيء هو ظاهر به لتحقق معرفته وقربه منه ومن كل شيء مما جعله من اللوازم التي منها افتقاره، وكل شيء إليه تعالى بالإيجاد والإمداد في كل آن إلى غير ذلك، فالظهور شامل للمتوهم للحجاب على نفسه ولغيره لصحة إطلاق الشيئية عليه ودخوله في عموم كل المشار إليها من قوله: «أقرب إليك من كل شيء» يعني: هو أقرب إليك، وإلى كل شيء من نفسه قربا لا يمكن شهوده إلا بالتحقق بالعدم في حقيقة ذلك القرب، فعند ذلك تراه به أقرب إليك وإلى كل شيء ومن كل شيء، فلا يحجبك عنه شيء أظهره لتشهد به شهودًا بلا مثال، ولما كان ذلك له؛ لذا تعجب وقال ﷺ:

* «كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ ولولاه ما كان وجود كلّ شيءٍ»(٢).

**أقول:** وجوب وجوده وصفاته التي منها ما اقتضى وجود كل شيء دنيا وأخرى بمحض اختياره في إيجاد ما يشاء أن يوجده من العالم تعين به كل شيء، ووجد ومدَّ، فشهدَ وهو عموم تعلق القدرة والإرادة بكل شيء على وقف العلم بالحق جل وعلا، ولولا ذلك

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ تبصرون﴾ [الواقعة:٨٥] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] وقربه تعالى قرب علم وإحاطة وشهود لا قرب مسافة، إذ لا مسافة بينك وبينه، وتقدم في الحديث: «وإنَّ الله ما حلَّ في شيءٍ ولا غاب عن شيء»، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء إذ لو كان من شيء لكان مخلوقًا ولو كان فوق شيء لكان محمولاً ولو كان في شيء لكان محصورًا ولو كان تحت شيء لكان مقهورًا. انتهى. وقال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: قيل لي: يا علي بي قل وعليَّ دل وأنا الكل. انتهى. هذا كما في حديث البخاري، يقول الله تعالى: «يسب ابنُ آدمَ الدَّهرَ وأنا الدَّهرُ بيدي الليلُ والنهار».

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]؛ فكل ما ظهر في عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب، وكل ما برز في عالم الملكوت؛ فهو فائض من بحر الجبروت فلا وجود للأشياء إلا منه ولا قيام لها إلا به ولا نسبة لها معه إذ هي عدم محض وعلى توهم وجودها؛ فهي حادثة فانية ولا نسبة للعدم مع الوجود ولا للحادث مع القديم.

ما كان بالحق أصلاً، وترجيح وجود الأشياء على عدمها حاصل به على مقتضى ظهورات أسمائه، وتجليات صفاته على ما يليق به من الكمال لا ما يتوهم من لم يفهم، ولذا تعجب من ذلك، وقال ﷺ منادیًا:

**١٩- «يا عجبًا كيف يظهرُ الوجودُ في العدمِ؟ أمْ كيف يثبتُ الحادثُ مع من له وصفُ القِدَمِ؟»**(١).

**أقول:** حقيق أن يستصرخ مبالغًا في التعجب مما يتخيل من لم يفهم مما تقدم من العبارات، والإشارات التي لا يتهم قائلها لرسوخ قدمه في التحقق، فتحمل على ما لا يليق بالحق من أن الوجود الواجب الحقيقي يظهر في وصف العدم الذي هو عبارة عن لا شيء، وهو حقيقة كل شيء سواه بالذات، أو يظهر في من عرض له منه الوجود من الممكنات،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الوجود والعدم ضدان لا يجتمعان والحادث والقديم متنافيان لا يلتقيان، وقد تقرر أن الحق واجب الوجود، وكل ما سواه عدم على التحقيق، فإذا ظهر الوجود انتفي ضده وهو العدم فكيف يتصور أن يحجبه، وهو عدم فالحق لا يحجبه الباطل قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢] فلا وجود للأشياء مع وجوده فانتفى القول بالحلول إذ الحلول يقتضي وجود السوي حتى يحل فيه معنى الربوبية، والفرض أن السوي عدم محض فلا يتصور الحلول، والقديم والحادث لا يلتقيان فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم. فقد تقرر أن الأشياء كلها في حيز العدم؛ إذ لا يثبت الحادث مع من له وصف القدم، فانتفى القول بالاتحاد، إذ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحادث فيتحدان حتى يكونا شيئًا واحدًا، وهو محال إذ هو مبني أيضًا على وجود السوى ولا سوى؛ فتحصل أن الحق سبحانه واحد في ملكه قديم أزلي باقٍ أبدي منـزه عن الحلول، والاتحاد مقدسٌ عن الشركاء والأضداد كان ولا أين ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان.

وسُئل أبو الحسن النوري ﷺ: أين الله من مخلوقاته؟ فقال: كان الله ولا أين والمخلوقات في عدم فكان حيث هو وهو الآن حيث كان؛ إذ لا أين ولا مكان، فقال له السائل: وهو علي بن ثور القاضي في قصة محنة الصوفية: فما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال: عز ظاهر وملك قاهر ومخلوقات ظاهرة به، وصادرة عنه لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه فرغ من الأشياء، ولم تفرغ منه؛ لأنها تحتاج إليه، وهو لا يحتاج إليها قال له: صدقت فأخبرني ماذا أراد الله بخلقها؟ قال: ظهور عزته وملكه وسلطانه، قال: صدقت فأخبرني ما مراده من خلقه؟ قال: ما هم عليه، قال: أو يريد من الكفرة الكفر؟ قال: أفيكفرون به وهو كاره؟ ثم قال: أخبرني ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل؟ قال: أراد إبلاغ قدرته وبيان حكمته وإيجاب لطفه وظهور عدله وإحسانه. انتهى.

فإن الحال لا يخلوا أن تقول: ظهور الوجود في العدم مقبول عقلاً، وذوقًا، وشرعًا أو لا، فإن قلت: لا وما الحكم؟ أقول لك: أحسنت.

واعلم أن ظهور وجود الحق إنما هو في ذاته بأحكام ممكناته التي لا وجود لها معه في أبده إلا على مقتضى تعيناتها في أزله وهو منزه عن ما لا يليق به من لوازمها، وصفاتها، فإن قلت: نعم، الوجود يظهر في العدم، أقول لك: أخطأت لأن العدم ليس محققًا ليكون مظهرا لظهور شيء فضلاً عن موجد كل شيء، بل ولا من تحقق وجوده به تعالى يكون محلاً له تعالى أن يحل في شيء أو يحل فيه شيء، وإنما إذا ظهر تجلي وصف قدمه رجع كل حادث إلى وصف عدمه، فتحصل من مجموع، فتلك معرفة العدم الذي ليس بشيء، ولا يقبل وجود شيء، ومعرفة معدوم ترجح وجوده على عدمه، فصار شيئًا بمرجح ليس كمثله شيء، ومعرفة المرجح الذي هو منزه عن لوازم كل شيء ليس معه سواه، ولا شهده إلا إياه وما يحقق صدق الشهود لذلك إلا قبول كلما يرد هنالك من الأحكام والأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

٢٠- «**ما تركَ من الجهلِ شيئًا مَنْ أرادَ أن يحدث في الوقت غير ما أظهرهُ الله فيه**»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الجهل هو ضد العلم، وقيل: هو عدم العلم بالمقصود، وهو على قسمين: بسيط ومركب؛ فالبسيط: أن يجهل ويعلم أنه جاهل، والمركب: أن يجهل جهله، وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته، قلت: من آداب العارف الحقيقي أن يقر الأشياء في محلها ويسير معها على سيرها، فكلما أبرزته القدرة للعيان؛ فهو في غاية الكمال والإتقان. وقال أبو الحسن النوري ﷺ: مراد الله من خلقه ما هم عليه فإذا أقام الله عبدًا في مقام من المقامات، فالواجب على العارف أن يقره فيه بقلبه كائنًا ما كان فإن كان لا تسلمه الشريعة رغَّبه في الخروج عنه بالسياسة وينظر ما يفعل الله. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]. وفي بعض الأخبار: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ لم يرضَ بقضائي، ولم يَصْبِرْ على بلائي؛ فليخرجْ من تحتِ سمائي وليتَّخِذْ ربًّا سِوايَ». وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ في كتابه: من عرف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما في أيديهم ولا يمنع خيرهم قطعًا، ومن عرف أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حال العارف بالله يجمع بين خير الفرقتين يصطحب معهما جميعًا، وكل فرقة يتلون على لونها كشيخ شيوخنا ﷺ سيدي أحمد اليماني - نفعنا الله به - كان ﷺ ممن لا ينكر حالاً من أحوال الخلق أهل الظاهر يتلمذهم في ظواهرهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها وأهل البواطن يتلمذهم في بواطنهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها فحصل له خير الفرقتين بما رزقه الله من المعرفة والحكمة قيل: إن الولي الكامل يتطور بجميع الأطوار يقضي جميع الأوطار انتهى.

**أقول**: مصداق هذا الشهود علامة تشهد لك بذلك، **وهي**: الوقوف عند الحدود فيما يتجلى به عليك مما يتعرف به لديك، فيلزمك عدم إرادة ظهور غيره من وجوه هي لك شواهد على أنك للحق واجد، متهافت الإرادة، معه عبودية منك، **ومنها**: شهودك له من حيث أشهدك، **ومنها**: تحقيق العلم فيك النافي للجهالة لمعرفتك ما للوقت من المتعرف به لك، إلى غير ذلك.

ومن لم يكن هنالك كذلك، فما ترك من الجهل شيئًا أيها السالك؛ لأن من عرف الحق عرف كل شيء، ومن جهله ما ترك من الجهل شيئًا، ولا خفا أنك إن كنت كذا فمحتاج إلى الرجوع لأصول الطريق؛ لتصحيح البداية التي بها تصح النهاية على التحقيق للوصال بواسطة الأعمال المستدركة أمنا؛ ولذا قال ﵁:

**٢١- «إحالتُكَ الأعمالَ على وجودِ الفراغِ من رُعونَاتِ النّفوسِ»**[(١)].

**أقول**: للنفوس الأبية والتي بقي عليها من الشكوك بقية رعونات، **وهي**: عبارة عن

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإحالة على الشيء هو: تسليطه وإغراؤه عليه، والمراد هنا توقف الأمر عليه بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده والفراغ من الشيء خلوه منه وفراغ القلب خلوه مما يشغله وفراغ الجوارح خلوها من الأشغال والرعونة نوع من الحمق، ومن آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن، ومن علامة العقل انتهاز الفرصة في العمل ومبادرة العمر من غير تسويف ولا أمل إذ ما فات منه لا عوض له وما حصل لا قيمة له. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ألا وإنَّ من علامةِ العقلِ التَّجَافِي عن دارِ الغرورِ والإنَابَةِ إلى دارِ الخلودِ والتَّزَوُّد لسُكْنَى القبورِ والتَّأَهُّبُ ليومِ النُّشُورِ»**. والكيس هو العاقل ودان نفسه حاسبها، **وفي صحف إبراهيم** ﵇: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه ﷿ وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله ﷻ وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث: تـزوّدْ لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة من غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه مقبلاً على شأنه حافظًا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه انتهى. فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب، أو القالب من علامة الرعونة والحمق وهو غرور، ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر وعلى تقدير وصولك إليه لا تأمن من شغل آخر يعرض لك وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله ﷺ: **«نعمتان مَغْبُونٌ فيهما كثيرُ من الناسِ: الصحةُ والفراغُ»** أي: كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما إذ كثير منهم لا تجده إلا مشغولا بدنيا أو مفتونًا بهوًى أو مريضًا مبتلى.

اختلال عقل يقضي بحصول ما لم يعلم حصوله، أو وصوله من مرغوب يحمل صاحبه على ترك ما للوقت من مطلوب.

منها: ما أشار إليه؛ يعني: إحالة العامل العمل المطلوب من ترك وإتيان من صاحب النفس الأبية، وتوجه وعيان من صاحب البقية على تفرغ من عمل غير مطلوب في آن لم يعلم إدراكهما له، فربما فات به المطلوب بالمات، أو بعارض في الحياة، وذلك من أسباب الحسرة والندامة في الدنيا والقيامة.

**ومنها:** إهمال يوهم استغناء بحال أو شهود حاصل في الحال، وهو لا يعلم بماذا يختم، وكيف يكون في المآل؟.

**ومنها:** شهود النفس في مقام بواسطة ما تيسر له فيه من الكلام، أو يظنه نفسه في ذلك المقام، أو بظن بعض العوام، أو بظن من لا يفرق بين الحال والمقام، برؤيا رآها أوريت له في المنام.

**ومنها:** عدم القبول للنصائح الإيمانية ممن يعتبره أو لا يعتبره، وهو عند الله مقبول.

**ومنها:** أن يكون جهله مركبًا ألبسه الحق ذلك، فكان ينقص عقله منكبًا إلى ما يطول استقصاؤه، وتخرج عن عرض الإيجاز استحصاؤه، وإنما هو بحسب الوقائع بمطالعة المطالع، فلا تترك حق الوقت وقم به فيه، فربما فات بتأخره بغيره يا نبيه، وما كل حال موجود مقام، ولا كل ما يطلبه الطالب مرام، واسمع يا أخا الكمال تحقيقه مما قال ﷺ:

**٢٢- «لا تطلبْ منهُ أن يخرجَك من حالةٍ ليستعملَكَ فيما سِواها فلوْ أرادَكَ لاستعمَلَكَ من غيرِ إخراجٍ»(١).**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من آداب العارف الاكتفاءُ بعلم الله، والاستغناءُ به عما سواه فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال، فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة، ويستعمله فيما سواها لاستعمله من غير أن يطلب منه أن يخرجه بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق هو أن تخرج منه بالله، وهذا هو الفهم عن الله وهو من علامة تحقق المعرفة بالله فالعارف بالله إذا كان أعزب لا يتمني التزويج، وإذا كان متزوجًا لا يتمنى الفراق، وإذا كان فقيرًا لا يتمنى الغنى، وإذا كان غنيًا لا يتمنى الفقر، وإذا كان صحيحًا لا يتمنى المرض، وإذا كان

**أقول**: الحال ما يتملك به قلوب الرجال، ويحملهم على المراد منه من الأعمال، وهو أثر لتجل بصورة اسم لصفة تجلت بها الذات المقدسة على وفق علمها تعرف بظهورها فيه لما بينا أن يعرف به في عينه ومنه، وهذا المشهد قوام مطلق جميع عوالم الدنيا، والبرزخ، والمحشر والمقر، فإذا عرفته فلا تحتجب عنه بسحائب جهل من غمائم قصور الإدراك له، وإذا استولت عليك حالة، فاعلم أصلها مما تقدم ولا تطلب من المتجلي فيها أن يطويها عنك بتجلي صورة حال سواها كما يتجلى عليك بها وهي غير مراده الآن، فإن عدم طلبك غير ما ظهرت به الربوبية هو سر العبودية، وطلبك لغيره مناف لها؛ لأنه المتعين ظهوره الآن طبق علمه ومراده الآن، ويرضى له هذا إذا كانت الحالة الحاصلة مرضية شرعًا، ولو كان طلبك مرضيًا آخر أعلى أو أدنى؛ فإنه لو أرادك لها استعملك فيها بتجليه عليك بمادتها الظاهرة في صورة اسم الصفة المتجلي بها من غير إخراجك من الأولى، وأما إن كانت الحالة الحاصلة غير مرضية شرعًا، فيجب طلبك للخروج عنها والدخول فيما هو مطلوب الشرع، وإن كانت مباحة قاطعة عن الله فملحقة بذلك.

---

=

مريضًا لا يتمنى الصحة، وإذا كان عزيزًا لا يتمنى الذل، وإذا كان ذليلاً لا يتمنى العز، وإذا كان مقبوضًا لا يتمنى البسط، وإذا كان مبسوطًا لا يتمنى القبض، وإذا كان قويًا لا يتمنى الضعف، وإذا كان ضعيفًا لا يتمنى القوة، وإذا كان مقيمًا لا يتمنى السفر، وإذا كان مسافرًا لا يتمنى الإقامة، وهكذا باقي الأحوال ينظر ما يفعل الله به ولا ينظر ما يفعل بنفسه لتحقق زواله بل يكون كالميت بين يدي الغاسل أو كالقلم بين الأصابع. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠]. وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «جِفَّ القلمَ بما أنت لاقٍ»، وفي حديث آخر: «جَفَّتِ الأقلامُ وطُويَتِ الصحف».

وقال شيخ شيوخنا سيدي أحمد اليماني ﷺ: حين سأله أصحابه عن حقيقة الولاية؟ فقال لهم: حقيقة الولاية هو إذا كان صاحبها جالسًا في الظل لا تشتهي نفسه الجلوس في الشمس، وإذا كان جالسًا في الشمس لا تشتهي نفسه الجلوس في الظل انتهى. وهذا كله مع الاختيار دون الأمر الضروري.

قلت: فإذا تجلى في العارف شيء من هذه الأمور؛ أعني: الانتقال من حال إلى حال فليتأنّ، وليصبر حتى يفهم أنه من الله بإشارة ظاهرة، أو باطنة أو هاتف حسي أو معنوي ولينصت إلى الهواتف، فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعلو وهذا أمر مجربٌ صحيح عند العارفين حتى أنهم لا يتصرفون إلا بإذن من الله ورسوله؛ إذ لا فرق عند أهل الجمع ـ جعلنا الله منهم آمين ـ وهذا كله إذا كان الحال الذي هو فيه موافقًا للشريعة وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن.

obeikandl.com

ويشهد لذلك ما تقدم من قوله: «إحالة الأعمال» أي: المطلوبة على الفراغ من غير المطلوبة رعونة، ومفاد ما نبهنا عليه في هذه الحكمة معرفة أصول ظهور حالات العوالم، ومصدرها الذي لا يقدح في شهوده طلب الخروج عما لا يجوز إلى ما يجوز، وعما يشغل عن الله تعالى إلى ما لا يشغل عنه، وعما لا يريده من الحالة المتجلي بها إلى ما يريده من ذلك وإن عم ظهوره، فإن إرادتك الخروج والدخول من حيث أمره لا بك، ويكون ذلك مع عدم القطع بالوقوف عنده يا عبده، فإن ذلك ليس حده تعالى جده المتعال؛ ولذا قال ﷺ:

٢٣- «**ما أرادتْ همّةُ سالكٍ أن تقفَ عندما كُشِفَ لها إلا ونادتهُ هواتف الحقيقة الذي تطلب أمامَك، ولا تبرَّجتْ ظواهرُ المكوِّناتِ إلا ونادتـهُ حقائقُهَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾** [البقرة:١٠٢]»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: همة السالك: هي القوة الباعثة له على السير ووقوفها مع الشيء هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية، وهواتف الحقيقة: هي لسان حال الكشف عن عين التحقيق وتبرج الشيء ظهوره في حال الزينة لقصد الإمالة، وظواهر المكونات: هو ما كساها من الحسن والحكمة وتزيُّنُهَا هو خرقُ عوائدها له وانقيادها لحكمه وحقائقها نورها الباطني وهو تجلي المعنى فيها.

قلت: السالك هو الذي يشهد الأثر فإن كان يشهده في نفسه فهو سالك فقط وهو في حالة السير وإن كان يشهده بالله؛ فهو سالك مجذوب، والمقامات التي يقطعها ثلاث: فناء في الأفعال وفناء في الصفات وفناء في الذات، أو تقول: فناء في الاسم وفناء في الذات وفناء في الفناء، وهو مقام البقاء ثم الترقي إلى ما لا نهاية له فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال، وذاق حلاوته وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء، في الصفات الذي تطلب أمامك وإذا ترقى إلى مقام الفناء في الصفات، وكشف له عن سر توحيد الصفات واستشرف على الفناء في الذات وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء في الذات الذي تطلب أمامك، وإذا ترقى إلى الفناء في الذات، وكشف له عن سر توحيد الذات وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء، أو حقيقة البقاء الذي تطلب أمامك وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]. وقد قال ﷺ: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**». وقال الشيخ الشرقاوي: «**ما أرادت همة سالك**» أي: سائر إلى الله تعالى «**أن تقف عند ما كُشِفَ لها**» في أثناء السلوك من المعارف والأسرار والأنوار بأن يرى أن ما وصل إليه من المعرفة وذوق الأحوال ومنازلة المقامات، هو الغاية القصوى والنهاية، فتقف همته عنه، ويتعشقه ويحبه، أو يرى أن ما فوقه أعظم منه، لكنه يقنع بذلك، ويرى أن فيه الكفاية فلا يرق

**أقول**: همم السالكين صدق توجهاتهم إلى مرادهم الحق الذي لا نهاية له، ولا لما يبديه، وذلك مشهود ظاهر دنيا، وبرزخًا، وأخرى، فلا نهاية لشهود شاهديه، ولا معرفة عارفيه، فما أرادت همة سالك منهم غير متقهقر، وواقف أن تقف بقصور عرفانها عندما أظهر لها التجلي من حضرة من حضرات شهوده **العلمية**؛ كالرقيب، والعليم، والمحيط، والحاضر، أو **العينية**: كالظاهر، والخالق، والمصور إلا وألهمته الحقيقة المتجلية له بذلك معربة مبلغة على أنها ما تريد تبليغه من إلقاء في القلب، أو إشارة، أو حالة ما تفهمه بها المقصود أن الذي تطلبه من شهود وحدة المتجلي أمام تعدد أنواع أنوار ظهورات التجلي، فإن كنت صادقًا في طلبه، فتقدم إلى حضرة عدمك فيه به، فإنه لا نهاية لطالبه إلا بالعدم في مشارقه ومغاربه؛ المشرق منها بتزين ظواهر رقوم، وشتى صور المكونات فتنة تؤدي إلى فتنتين، فما تبرجت في عين سالك استحسنها استحسانًا يوافقه عما وراءها، وما يخرج عن الأحكام المرضية إلى سواها إلا وصاحت عليه حقائقها المتظاهرة عنها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٠٢] وقوف السالك عن من أظهرنا مخبرًا له بنا، وظواهرنا فتنة وقوعه في خلاف المرضي له أن بعين نفسه أبصرنا، فلا تستر عين عقلك بتزين ظواهرنا عما حده فتخالفه ولا عين قلبك، وسرك بمحاسن تنوعنا فتحتجب بنا عنه، فإن منا ما أفتن النُّهى، وأضَلهم كما أن من ظواهرنا ما فتن الدُّنا، وهداهم، وهو الهادي إليه من الضلال، الرشيد الميسر لكل ما خلق له؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٤- «طلبُكَ منه اتِّهامٌ له وطلبُكَ له غيبةٌ منك عنه وطلبُكَ لغيره لقلَّةِ حيائِكَ منه وطلبُكَ من غيره لوجودِ بُعدِكَ منه»**[1].

=

بهمته، أو يري قصور هامته عن الرقي لما فوقه «إلا ونادته هواتف الحقيقة» أي: الهواتف التي تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الإلهية، ويحتمل أن المعني: إلا ناداه لسان الحقيقة التي كشفت له: سِرْ وَجِدَّ فِي السَّير، ولا تقف، فإن الذي تطلب وهو وصولك إلى المولى، وعدم ركون قلبك إلى شيء سواه «أمامك»؛ فلا تقف عند ما كشف لك.

يقول السياجي غفر الله له: من المناسب لجملة القول هو تقسيم قول المصنف ﷺ في قوله: «إلا ونادته هواتف» أي: هواتف تهتف بالسالك من إلهامات، وفواتح تقول له: «الحقيقة أمامك» فاجتهد في سلوكك إليها، واصبر وتحمل معاناة الطريق، فقد بان مطلبك، وتجلت لك الحقائق».انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: طلبك منه يكون بالتضرع والابتهال وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال

أقول: الطلب أيها العبد له متعلقات أربع:

متعلق: يرجع إلى الحق فيما للحق مما قسمه لك من مطلوب ما طلبا متعمدًا عليه قاطعًا المنال به، فطلبك له تهمة لربك أنه ما يعطيك إلا هكذا، أو نسيك. وهو محال عليه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] أو أهملك وهو أيضًا محال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦].

ومتعلق: يرجع إلى الحقِ نفسه لغيبتك أيها الطالب عنه بالخَلق الذين هم مظاهر نوره، وأنت منهم لجهلك به من حيث ظهوره.

ومتعلق: يرجع إلى غير الحق، وهو الذي ما خلقه إلا لك، وما خلقك إلا لحضرته ـ

---

=

وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال، وحاصلها أربعة: طلب الحق، ومنه طلب الباطل، وكلها مدخولة عند المحققين أما طلبك منه فلوجود تهمتك له؛ لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو يغفل عنك، فإنما هو ينبه من يجوز منه الإغفاء وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤] ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]. وقال ﷺ: «مَنْ شغله ذِكري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين» فالسكون تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال.

قلت: وإذا ورد منهم الدعاء؛ فإنما هو عبودية وحكمة لا ضنًا للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك ولو سألته أن يمنعكَهُ ما أجابك.

وفي المسألة خلاف بين الصوفية هل السكوت أولى أو الدعاء؟ والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه وأما طلبك له، فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره، وأما طلبك لغيره أي لمعرفة غيره، فلقلة حيائك منه وعدم أنسك به أما وجه قلة حيائك منه فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملك والملك مقبلٌ عليه ثم يجعل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره؛ فهذا يدل على قلة حيائه وعدم أعتنائه بالملك فهو حقيق بأن يطرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب. وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تبارك وتعالى: «إذا أنزلت بعبدي حاجة فرفعها إليّ أعلم ذلك من نيته، لو كادته السموات السبع والأرضون السبع لجعلت من أمره فرجًا ومخرجًا وإذا أنزلت بعبدي حاجة، فرفعها إلى غيري أضحت الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه وقطعت الأسباب فيما بيني وبينه». أو كما قال لطول العهد به؛ فتحصَّل آن الآدب هو الاكتفاء بعلمه الله والتحقق بمعرفة الله والاستغناء به عما سواه، والله تعالى أعلم.

سبحانه ـ فلقلة حيائك منه طلبك ما قدره لك قبل وجودك متشاغلاً بذلك عنه تعالى، وأنت له وفي حضرته، فكيف الطلب لما لم يقدره!.

ومتعلق: يرجع إلى ما هو من غيره الذي لا وجود له معه، ولا موجود، ولا جود؛ وذلك لتحقق وجود بُعدك عنه من حيث إثبات وجود الغير معه، وإثبات موجود مملوك لذلك الغير يطلب منه، وإثبات جود به يجود على من سأله، وسؤالك له دون الحق، ولا مالك مع الحق سواه، فأين أنت من الوفاء ببعض حقوقه في الآجال؟ ولذا نبه على أنات ذلك فقال ﷺ:

٢٥- **«ما مِن نفَسٍ تُبديه إلا وله قدرٌ فيك يُمضيهِ»**(١).

**أقول:** أقوال الأنفاس خزائن الأقدار، والأقدار آثار، والآثار أفعال، والأفعال صفات، والصفات تجليات، والتجليات باطنها تجليات، وظاهرها تجليات، والكل في تعاقبه لذاته في تجليه من حيث هو، فما من نفس إلا وهو مشتمل على كل ذلك.

**فمن السالكين:** من شهد ذلك مع تجدد الأعراض التي هي في الأنفاس فضلاً عن الأنفاس.

**ومنهم:** من شهده في الأنفاس.

**ومنهم:** من شهد البعض منها.

**ومنهم:** من شهد الجميع ودام له شهوده من ذلك.

**ومنهم:** من لم يدم له ذلك، فافهم وتنبه، ولا تحيل هذا العمل وغيره على فراغ ما هنالك من ظهور آثار المالك الفعال، واسمع ما قال ﷺ:

٢٦- **«لا تترقبْ فروغَ الأغيارِ فإنَّ ذلكَ يقطعُكَ عن وجودِ المراقبةِ له فيما هو**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النفَس ـ بفتح الفاء ـ عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع، وهو أوسع من الطرفة، والطرفة أوسع من اللحظة، وهي رمق البصر ورده، والقدر هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر وهو أعلم أوقاتها، وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها، وما يعرض لها من الكيفيات، وما ينـزل بها من الآفات، فإذا علمت أيها الإنسان إن أنفاسك قد عمها القدر ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه وجرى به قلمه لزمك أن ترضى بكل ما يجري به القضاء، فأنفاسك معدودة وطرفاتك ولحظاتك محصورة؛ فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك، وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات وغير ذلك من التصرفات.

مُقِيمُكَ فيه»[1].

أقول: الأغيار ما تراه من ظهور الآثار، والآثار أفعال، والأفعال صفات لا تعطيل لها.

ومنها: ما أقامك فيه، فلا تشتغل عن مراقبتك له تعالى فيما أقامك فيه بترقب فروغ آثار محال فروغها، بل وراقبه فيما تترقب فراغه، بل وفي جميع الآثار، فإنه تعالى الظاهر بها في أفعاله، اللهم إلا أن يكون بجلا مرآة القلب منها باستيلاء شهود تجلي حقائق الصفات المؤثرة لها، فتغيب عنك فيها بغلبة تجليات الصفات كما تغيب التجليات أيضا بغلبة المتجلي بها حكمًا مع ثبوت وجودها تلازمًا، فافهم.

فإن كنت كذلك واتسع شهودك في هذا المجال إلى هنالك، فاسمع ما قال ﷺ:

٢٧- «لا تستغربْ وقوعَ الأكدارِ ما دُمتَ في هذهِ الدَّارِ، فإنها ما أبرزتْ إلا ما هو مُسْتَحَقُّ وصْفِهَا، وواجبُ نعتِهَا»[2].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الترقب هو الانتظار، والأغيار جمع غير بكسر الغين، وهو ما يغير القلب عن حاله والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص، وعند الصوفية: كل ما يشغل عن الحضرة ويغير القلب عنها فهو غير، والمراقبة هي العَسَّةُ على القلب؛ لئلا يخرج من حضرة الرب، والمراد بها في كلام الشيخ مُطلق العسة فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم، وتصدق بمراقبة الروح وهي عسها على دوام الشهود وبمراقبة السر وهي عسته على دوام الترقي والأدب.

قلت: إذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحس فيها كما إذا أقامك في شغل دنيوي في الظاهر لا محيد لك عنه، فجاهد قلبك في العسة عليه في الحضور لئلا تسرقك الغفلة أو جاهد روحك في العسة عليها في دوام الشهود لئلا يسرقك الحس أو جاهد سرك في استمداد الموهب والعلوم لئلا يحصل في ذلك فتور، ولا تترقب ـ أي: تنتظر ـ فراغ شغل يدك من تلك الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك، فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها فيكون في حقك سوء أدب، وفيه أيضًا تضييع ذلك الوقت، وخلوه من معاملة الحق وصرف لأوقات لا يمكن قضاؤها. ولقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ: كان إذا رأى أصحابه في شُغل وخاف عليهم أن يسرقهم الحس نادى عليهم بأعلى صوته: أنت أنت تنبيهًا لهم وإيقاظًا من شهود الحس. وقد ذكر الشعراني في العهود عن بعض أشياخه أنه كان لا يغيب عن الله ولو في حالة الجماع، وهذا شأن أهل الاعتناء من العارفين وهذا هو جمع الجمع، والله تعالى أعلم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الاستغراب: تصيير الشيء غريبًا حتى يتعجب منه، والأكدار: كل ما يكدر

Obeikandl.com

أقول: الأكدار من الآثار التي بينت وبُيِّن أصلها، ولها أربع محال[1]: الدنيا، والبرزخ، والمحشر، والمقر التي لا تتناهى فيه، وهي على قسمين يرجعان إلى وصفين لتجليين: تجلي جلال منه الضراء، وتجلي جمال جلال منه السراء، وهما متعاقبان على المتجلى له في دار الدنيا، والمحشر متغالبان، يبطيء تعاقبهما تارة، ويسرع أخرى، ويتمحض كل منهما لمستحقه في آن استحقاقه في البرزخ والمقر، فلا يستغرب ظهور أثر صفة ظهر في محله لأهله على وفق سابق علم المتجلي به في أنه المستحيل تعطيل صفة من صفاته أبدًا خصوصًا في

=

على النفس ويؤلمها ومستحق وصفها ما تستحق أن توصف به وواجب نعتها ما يجب أن تنعت به.

قال بعضهم: الوصف يكون بالأمور اللازمة والنعت يكون بالعوارض الطارئة؛ فالأمور اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر والعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك، والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه، كالموت والأمراض وما يقع كثيرًا وبالنعوت ما يقل وقوعه في العادة، كالفتن والهرج والزلازل؛ لأنهم يقولون الأوصاف لوازم والنعوت عوارض، وقيل: شيء واحد وهو الأصح.

وقال: من آداب العارف ألا يستغرب شيئًا من تجليات الحق، ولا يتعجب من شيء منها كائنة ما كانت جلالية أو جمالية فإن نـزلت به نوازل قهرية أو وقعت في هذه الدار أكدار وأغيار جلالية، فلا يستغرب وقوع ذلك؛ لأن تجليات هذه الدار جلُّها جلالية لأنها دار أهوال ومنـزل فرقة وانتقال.

وقال الجنيد ﷺ: لست أستبشع مما يرد علي من العالم؛ لأني أصلت أصلاً، وهو أن الدار دارهم وغم وبلاء وفتنة، وأن العالم كله شر، ومن حكمه أنه يتلقاني بكل ما أكره فإن تلقاني بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول. قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد جوعٌ قليل وعريٌ قليل وذلٌ قليل وصبرٌ قليل، وقد انقضت عنك أيام الدنيا. انتهى.

فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار ما دمت مقيمًا في هذه الدار؛ لأنها ما برز فيها من التجليات الجلالية إلا ما هو مستحق أن تتصف به وواجبٌ أن تنعت به، فلا تستغرب شيئًا ولا تتعجب من شيء بل الواجب عليك أن تعرف الله في الجلال والجمال والحلوة والمرة، وأما إن كنت لا تعرفه إلا في الجمال فهذا هو مقام العوام والمعرفة في الجلال هو السكون والأدب والرضا والتسليم؛ فينبغي للفقير أن يكون كعشب السمار إذا جاءت حملة الوادي حنى رأسه، وإذا ذهبت رفع رأسه وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث لا تحزن، ولا تخف ولا تجزع كذلك لا تتعجب من وقوع المسار وهو الجمال بحيث لا تفرح ولا تبطر، فإن الجلال مقرون بالجمال والجمال مقرون بالجلال يتعاقبان تعاقب الليل والنهار.

(١) المحل بالكسر: المكان، وجمع المَحَلِّ: مَحَالُّ. لسان العرب (١١/ ١٦٣).

الدار الدنيا، فإنها فيها مشهوده بالعيان، وأقرب شاهد للبيان؛ ولذا نص عليها المصنف ﷺ، وفيما سواها الآن مشهودة بأعين الإيمان، فإن كل موطن ما يبرز إلا ما هو مستحق ما أودعه فيه الحق تعالى مما أوجبه فيه من واجب نعت يليق بها شاء من الخلق، ولا شك أن المحشر أشد كدرًا؛ لشدة إظهار المنتقم القهار؛ لفصل القضاء. فتبرأ من النفس لله، وأسأله اللطف فيه بالرضى إنه مجيب السؤال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٨- «ما تَوَقَّفَ مطلبٌ أَنْتَ طالبُهُ بربِّكَ، ولا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ»(١).**

**أقول:** ما لك من الله محتوم من مطلبك مقسوم لا يتوقف لما هو عنده معلوم من أنك إنما تطلبه بربك مُتبرئًا من حولك، وقوتك، وأعمالك، وحسن توجهك ناظرًا إلى فضله بفضله، فانيًا عن طلبك فيه باقيًا له به شهودًا لا علمًا، وذلك أعظم أسباب التيسير، ولا يتيسر إذا طلبه بضد ذلك، وهو أعظم أسباب التفسير، ولا يفوت. ولكن أنت فيه

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التوقف الحبس والتعذر والمطلب ما يطلب قضاؤه والتيسر التسهيل.

قلت: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضي لك سريعًا، فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها، ولا يتوقف ويُحبسُ أمرٌ طلبته بربك ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك.

قال تعالى حاكيًا عن سيدنا موسى ﷺ: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] فكل من استعان بالله، وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه كل ما أهمه.

وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه فإذا جاء وقته تكون بإذن الله، وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه فإذا تعذر عليه انقبض وتغير عليه، فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنىً وإن لم تقض حسًا ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته وإن قضيت نهمته وحاجته.

والحاصل: إن تصرفات العارف كلها لله وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت بالله فالعمل بالله يوجب القربة والعمل لله يوجب المثوبة، العمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأحباب، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب، العمل بالله من أهل التحقيق والعمل لله من أهل التشريع، العمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

محال على ما من نفسك، وعليها موكول إليها، فيأتي بعد عسر؛ لأنه لك، وما لك لا يفوتك.

ولا يفهم كلام المصنف على إطلاقه، فإن كثيرًا ممن طلب بربه بإذن ربه؛ لقيام دين ربه، ولمرضاته من رؤوس الخلائق المتقدمين والمتأخرين، ومن عموم المسلمين في كل الأوقات ظهر توقف مطلبه؛ لعدم سبق وقوع ذلك في علم ربه، وقد قيل: لرأس الرؤوس فيمن أحب: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] وطلبهم لما ليس بواقع للامتثال، أو العبودية، أو لعموم الدعوة، أو لإقامة الحجة، أو لكل ذلك فيمن له ذلك، فالفالح من يرجع إلى الله لا لشيء يعود عليه من الله في كل حال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٩- «من علامات النُّجحِ في النِّهاياتِ: الرجوعُ إلى الله في البداياتِ»**[1].

**أقول:** من أعظم علامة هي سبب نجاح أحوال السالك في النهايات عوده من صور كل شئونه إلى مبدئها الظاهر بها من معانيها في البدايات إما توفيقًا، وإما تحقيقًا، فإن كان توفيقًا، فمقدمة عناية التحقيق المترجى به شهود الحق، وإن كان تحقيقًا؛ فمقدمة عناية شهود الحق المترجى به دوامه له، واتساعه.

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النُّجح في الشيء هو بلوغ القصد، والمراد فيه ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب ونهاية الشيء تمامه وبدايته أوله. قلت: إذا توجهت همتك أيها المريد إلى طلب شيء أي شيء كان، وأردت أن ينجح أمره وتبلغ مرادك فيه وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة، فارجع إلى الله في بداية طلبه وانسلخ من حولك وقوتك، وقل كما قال ﷺ: «إن يكن من عند الله يمضه فلا تحرص عليه ولا تهتم بشأنه فما شاء الله كان وما لم يشأ ربنا لم يكن فلو اجمعت الأنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقدره الله عليك لم يقدروا على ذلك جفت الأقلام وطويت الصحف» فإذا طلبت شيئًا وكنت فيه معتمدًا على الله ومفوضًا أمرك إلى الله تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجح نهايتك وحصول مطلبك قضيت في الحس، أو لم تقض؛ لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك قد انقلبت حظوظك حقوقًا لا تشتهي إلا ما قضى الله ولا تنظر إلا ما يبرز من عند الله قد فنيت عن حظوظك وشهواتك، وإن طلبت شيئًا بنفسك معتمدًا على حولك وقوتك حريصًا على قضائها جاهدًا في طلبها كان ذلك علامة على عدم قضائها وخيبة الرجاء فيها وعدم نجح نهايتها، وإن قضيت في الحس وُكِّلَتْ إليها فتعبت بسببها ولم تعن على شئونها ومآربها وهذا كله مجربٌ صحيح عند العام والخاص وهذه الحكمة تتميم لما قبلها وشرح لها، والله تعالى أعلم.

والنهايات: جمع «نهاية». بدايتها تعقل الرجوع إلى الخلق من الحق من غلبة شهوده؛ لكمال معرفته في أطوار حدوده، فإن ذلك سر الإيجاد، وظهور الإمداد، ونهايتها عدم الغلبة بين الوجوب، والإمكان: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠] وبينهما مقامات يتفاوت فيها أولوا النهايات.

والبدايات: جمع «بداية». بدايتها التوبة من كل ما لا يرضى من الندم والإقلاع، والعزم على ألَّا يعود، ثم التوبة من العادات، ثم التوبة من رؤية العبادات، وما يترتب عليها، بل ومن كل ما سوى الله.

ونهايتها مع ذلك تفعل رجوعه إلى الحق من الخلق من غلبة شهودهم عليه؛ ليفر مما سواه إليه فرارًا لا وقفة فيه، ولا تقهقر بحيث يجد نفسه أرجح من كل نفس، وهذا هو السالك الصادق في طلب الوصال، ويشهد له ما قال ﷺ:

٣٠- «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»(١).

**أقول:** «الإشراق» هو: ظهور النور، والنور المشرق على قسمين: قسم حسي، وهو

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إشراق البداية هو الدخول فيها بالله، وطلبها بالله والاعتماد فيها على الله مع السعي في أسبابها والاعتناء في طلبها قيامًا بحق الحكمة وأدبًا مع القدرة ويعظم السعي في السبب بقدر عظمة المطلب فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن المجذوب ﷺ: لا تحسبوها رخيصة رآه وأكل المعشوق غالي، ما تنحصد صابت الصيف، إلا ببرد الليالي، فمن رأيناه في بدايته جادًا في طلب الحق معرضًا عن الأنس بالخلق مستغرقًا في خدمة مولاه، ناسيًا لحظوظه وهواه، علمنا أن نهايته مشرقة وعاقبته محمودة، ومآربه مقضية ومن رأيناه مقصرًا في طلب مولاه، لم يخرج عن نفسه وهواه، علمنا أنه كاذب في دعواه فنهايته الحرمان، وعاقبته الخذلان، إلا أن يتداركه الكريم المنان، هذا في طريق الوصول إلى حضرة الحق، وأما إشراق البداية في طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلاً. فهو بالزهد فيها، والإعراض عنها والاشتغال بالله عنها.

قال الشيخ أبو الحسن: كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة، ونقول في هذا الشهر يفتح الله علينا، في هذه الجمعة يفتح الله علينا، فوقف علي باب المغارة رجل عليه سمات الخير؛ فقال: السلام عليكم فرددنا عليه السلام، وقلنا له: كيف أنت فنهض علينا، وقال: كيف يكون حال من يقول في هذا الشهر يفتح الله في هذه الجمعة يفتح الله لا فتح ولا فلاح هلا عبدنا الله كما أمرنا ثم غاب عنا ففهمنا من أين أخذنا فرجعنا على أنفسنا باللوم ففتح الله علينا انتهى بالمعنى. ذكره في «التنوير» فمن طلب الخصوصية كان عبد الخصوصية وفاته حظه من الله حتى يتوب ومن كان عبد الله نال حظه من العبودية وأدركته الخصوصية من غير التفات إليها ولا طلب، والله تعالى أعلم.

المشهود المحسوس صورته الذي يضيء به ظواهر الوجود، ومدركاته، ومدركاته المحسوسة، وهي تتنوع بتنوعها، ومنه الشمس وغيرها. **وقسم معنوي**: وهو المشهود بإشراقه المدرك للعقول الكلية، والقلوب، والأسرار، وبه تدرك حقائق العلوم، والمعارف، والأنوار، وهو المراد.

**فسالك له**: ومن المجموع إشراق في البداية يليق بها ثم وإشراق في النهاية يليق بها لسالك، **وسالك**: بعكسه، **وسالك** له إشراق النهاية فقط، وهو العقيم، **وسالك** له إشراق البداية فقط وهو القاصر ، **وسالك** ليس له شيء، وهو الذي لا حظ له إلا في صور الأنوار المشرقة دون معانيها، وما اشتملت عليه من حقائق تجليات الأسرار، فحظه من التوفيق أن ينتهي به إلى مرسوم الطريق مع الحجاب له عن رؤية الأحباب بالأطلال، ولا يخفى ذلك كله من المخصوصين به؛ ولذا قال ﷺ:

٣١- **«ما استُودِعَ في غيبِ السَّرائرِ، ظهرَ في شهادةِ الظواهرِ»**(١).

**أقول**: ما تقدم بيانه من تقسيم الخصائص في المخصوصين من رب العالمين مغيب في غيب سرائرهم، وهو لا يخفى باعتبار ظواهر شواهده على ظواهرهم من مطاوي ضمائرهم، **والظواهر** منها ما هو **حسي**: كأجسادهم التي هي مظاهر ظهور ما يليق بها من ذلك الخصائص السرية الغيبية، ومنها ما هو **معنوي**: كأفعالهم الصادرة من أجسادهم التي هي مظاهر ظهور ما يليق بها من ذلك، والسرائر بواطن قلوبهم الغيبية التي هي مظاهر

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أو شر من نور أو ظلمة من علم أو جهل من رحمة أو قسوة من بخل أو شح أو كرم وسخاء وقبض وبسط ويقظة أو غفلة ومعرفة أو نكران أو غير ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة، لا بدَّ أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب وسكون وطمأنينة ورزانة وبذل وعفو أو طيش وقلق وغضب، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القالبية.

قال ﷺ: «من سَرَّ سريرةً كساهُ الله رِدَاءَها»، فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بها سواه، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن كما تقدم في قوله: «تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال»، فالأسرة تدل على السريرة، والكلام صفة المتكلم، وما فيك ظهر على فيك وكل إناء بالذي فيه يرشح وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره، والله تعالى أعلم.

ظهور ما يليق بها من ذلك، والخصوصية المبسوطة على هذه الظواهر والسرائر علم بالآثار يستدل بها على المؤثر الحق، وعلم بالمؤثر الحق يستدل به على شهوده، وشهود صفاته، وشهود آثاره، ولا يخفى الفرق بينهما إلا على الأطفال؛ ولذا قال ﷺ:

٣٢- «شتَّانَ بينَ من يَستدِلُّ به أو يَسْتَدِلُّ عليه، المُستدِلُّ به عَرَفَ الحقَّ لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلالُ عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟ ومتى بعد حتى تكونَ الآثار هي التي تُوصِلُ إليه؟» .

وورد: «أعظم الناس جذبًا، الأنبياء والمرسلون».

**أقول:** لا شك في البون البعيد بين مظهر ظهر الحق فيه بالعلم به من حيث ذاته،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي، فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها، واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها، فلما فرغت القدرة نورها في مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة رداء الصون فصارت الأكوان كلها نورًا في حجاب مستور.

ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق على قسمين، وفرقهم فرقتين: قسم اختصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته، ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب، فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته، وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته أسدل عليهم حجاب الوهم وغيب عنهم نور العلم والفهم، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور فسبحان من أخفى سره بحكمته وأظهر نوره بقدرته.

فأمَّا أهل المحبة وهم أهل الولاية والعرفان من أهل الشهود والعيان؛ فهم يستدلون بالنور على وجود الستور فلا يرون إلا النور وبالحق على وجود الخلق، فلا يجدون إلا الحق وبقدرته على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته وحكمته عين قدرته، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق؛ إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور وبالخلق على وجود الحق غابوا عنه في حال حضوره وحجبوا عنه بشدة ظهوره.

قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «شتان» أي: بُعد ما بين من «يستدل به» على الأشياء، وهم المرادون المجذوبون إليه الذين هم من أهل الشهود، إما ابتداء وإما بعد السلوك وهم العارفون، فإنهم لا يشهدون غير مولاهم ويستدلون به على الأشياء، «أو» بمعني الواو «يستدل عليه»، وهم المريدون السالكون إلى الله تعالى؛ فأهل الله تعالى على قسمين: مريدون، مرادون، وإن شئت قلت: مجذوبون، وهم أهل الشهود، والسالكين. قال بعض العارفين: أثبت الله تعالى للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق انتهى.

وصفاته، وأفعاله، وتجلياته بأول وهلة من توجهه؛ لوجود قابليته مستدلاً به عليه في إثبات وجوده به، ومفعولاته يميز وصله لكمال تعرفاته، وبين مظهر ظهر فيه بالعلم بالآثار، والمفعولات مستدلاً بها على الفاعل المؤثر.

فالمستدل به به لا بـشيء سواه في علمه، وعمله القلبي، والبدني عرف الحق الذي لا شك فيه من مظهرية وجوده في شهوده بما ظهر به الحق سبحانه من صفاته، وأنواع تجلياته القاضي شهوده بعدم شاهده من مشهوده مثبتًا الحق لأهله من التجليات المتجلي بها الحق من حيث أصله العلمي الفياض عنه به تعالى على مقتضى تنوع صفاته بقيومية قدرته، وتخصيص إرادته.

والمستدل عليه استدلاله شاهد بعدم وصوله إليه، وعدم الوصول إليه؛ لعدم العلم به الذي لو حصل له وصل إليه به في عينه، فرآه ظهر من ظهوره به، فإنه تعالى متى غاب الغيبة المستحيلة في حقه حتى يستدل عليه، وأين الدليل، والمستدل به لديه؟ ومتى بعد، والبعد كذلك محال في حقه حتى تكون الكائنات المقتضية ذواتها للمسافة هي التي توصل إليه، وهي به قائمة، وبوجوده محققة دائمة. فالمستدل به به عرفه، والمستدل عليه بقي عليه إظهار قسم بأنوار حكم، وظهور نعم ظهر بها النوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٣٣- ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق:٧] الواصلون إليه[١]، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق:٧] السائرون إليه[٢]».**

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما الواصلون إليه فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان، أو تقول: لما عَرَجَتْ أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم وفتحت لها مخازن الفهوم، فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم المكنون ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون، فاتسع لهم ميدان المجال وركبوا أجياد البلاغة وفصاحة المقال، فما أسرع الغنى لمن واجهته منهم العناية، وما أعظم فتح من لَحَظَتْهُ منهم الرعاية إن لله رجالاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا وهم أهل السر والحال.

(٢) عقب الشيخ ابن عجيبة بقوله: أما السائرون إلى الله فلأنهم باقون في ضيق الأكوان وفي عالم الأشباح مسجونون في سجن الوهم لم يفتح لهم شيء من مخازن الفهم مشغولون بجهاد نفوسهم ومعاناة تصفية قلوبهم مضيق عليهم في العلوم ومقتر عليهم في سائر الفهوم، فإن جدّوا في السير وصلوا وانتقلوا من ضيق الأكوان ورحلوا وتبختروا في رياض العلوم ورفلوا، فظفروا بما أملوا واستغنوا بعدها إن ملّوا وإن رجعوا من الطريق أو قصروا فقد خابوا وخسروا.

obeikandi.com

أقول: لما كان أهل الإرادة والتوجه أهل جمع، وهم الذين تأبى هممهم أن تقف مع ما سوى الملك الحق، وأهل فرق: وهم الذين لا تتعدى هممهم دائرة الخلق، فاقتضى ذلك أن يكون لكل منفق عليه ينفُق عليه علوم ما يوصل نصيبه إليه مما جعله الله لديه.

فالأول: المستدل به به وصل، وتوصل إليه منفق من سعته كمال مراد الحق من خلقه لمستحقه.

والثاني: هو المستدل بآثاره عليه السائر من الكون إليه من قدر عليه رزقه منفق بقدر بعض مراد الله من خلقه لمستحقه، وكل بما قدره الله له في سابق علمه من الآزال؛ ليهتدوا إليه بمحض كرمه؛ ولذا قال ﷺ:

**٣٤- «اهتدى الراحلون إليه بأنوار التَّوجُّهِ، والواصلون لهم أنوار المواجهة. فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيءٍ دونه»(١) ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي**

=

تنبيه: إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق فمادمت متكلاً على كنز غيرك لا تحفر على كنزك أبدًا، فاقطع عنك المادة وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أنوار التوجه: هي أنوار الإسلام والإيمان، وأنوار المواجهة: هي أنوار الإحسان، أو تقول: أنوار التوجه: أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة، وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة، أو تقول: أنوار التوجه: أنوار الشريعة والطريقة، وأنوار المواجهة: أنوار الحقيقة أو تقول: أنوار التوجه: أنوار المجاهدة والمكابدة، وأنوار المواجهة: هي أنوار المشاهدة والمكالمة. وبيان ذلك: إن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولاً بنور حلاوة العمل الظاهر وهو مقام الإسلام، فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأُنس بالله، والتوحش مما سواه فيهتدي إليه ويفنى فيه ويذوق حلاوته ويتمكن من المراقبة، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة وهو عمل الروح وهو أول نور المواجهة، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكرة فإذا سأفاق من سكرته وصحا من جذبته وتمكن من الشهود، وعرف الملك المعبود ورجع إلى البقاء كان لله وبالله، فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور؛ لأنه صار عين النور فصار مالكًا للأنوار بعد إن كانت مالكة له لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها، فلما وصل صار عبدًا لله حرًا مما سواه ظاهره عبودية وباطنه حرية، والحاصل: إن المريد مادام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجه مفتقرًا إليها لسيره بها؛ فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى شيء؛ لأنه لله لا لشيء دونه.

﴿خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]».

**أقول:** هداية الحق أسٌّ لاهتداء الخلق بصرف وجهة قلوبهم إلى محبوبهم ارتحالاً منهم إليه، إما بإنارة المشرق منها أنوار علوم الدلالة المقبولة لقوابل أنوار علوم توجهاتهم التي لا حصر لكيفياتها لعجز العقول عن حصر أسباب الوصول. وإما به مواجهة منه بأنوار تجلياته، وحقائق صفاته، وغيب أحدية ذاته من غير توجه سابق للمواجهة بل فطرة شهود أبقت الشاهد بالمشهود، فكان عينًا من عيون الحق ناظرة بالحق للحق، وهم الواصلون حقيقة.

فالأولون لأنوار توجهاتهم، وأنوار دلالاتهم مملوكون مقهورون تابعون، وهؤلاء لأنوار ظهورات المواجهة بذاته، وصفاته، وأفعاله مالكون متبوعون؛ لأنهم طلبوا فيه له، وصلوا لا لشيء من مفعولاته حتى لها يستدلوا، ويتوصلوا، ولشهودهم معنى هذا البيت:

لَساءَلتُ عَنهُم رَسمَها فَأَجابَني ... أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ ذاهِبُ[1]

ومشتغل بالغير لا الحق لاعب، ودعي لهذا الحال بهاء المحبوب قال ﷺ:

* «﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]»[2].

**أقول:** قوله: ﴿قُلِ﴾ أمر الله، والمأمور بذكره منه هو ذكر ذاته المستجمعة لجميع صفاته، فذكرك لها إما لفظًا تاركًا به كل لفظ، وإما محققًا لشهوده تغيب به عن كل مشهود، وموجود، ثم ذر من سواك، فيما سوى ذلك يخوض فيه مع الخائضين يلعب بلعب أشخاص المكونات مع اللاعبين.

**فالأول:** للسائرين. **والثاني:** للواصلين، والسائرون على الحقيقة الصادقون في

---

(١) البيت لأبي إسحاق الألبيري، والقصيدة من بحر الطويل.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: فالراحلون وهم السائرون للأنوار لافتقارهم إليها وفرحهم بها وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله فهم لله وبالله لا لشيء دونه، ثم تلا الشيخ هذه الآية على طريق أهل الإشارة ﴿قُلِ اللهُ﴾ بقلبك وروحك وغب عما سواه ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي: الناس؛ أي: اتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] أي: يخوضون في السوى لاعبين في الهوى، وقد اعترض بعض المفسرين على الصوفية استشهادهم بهذه الآية ولم يفهم مرادهم، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠].

سيرهم هم الذين لا يقدمون على رحلتهم من كونهم، وأخلاقهم الذميمة شيئًا؛ لأنها لا تليق بحضرة ذي الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

**٣٥- «تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ من العيوب خيرٌ من تشوُّفُكَ إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوبِ»**(١).

**أقول**: العيوب أعم من الذنوب، وما خفي منها هو المراد والمطلوب زواله دون ما ظهر لزواله، والعيوب أعم من المطلوب، فإن منها ما لا يتعلق بمطلبك، والمطلوب ما غاب عنك شهوده بجهلك من مشاهد تجليات المحبوب، وغيره مما بعد إدراكك له في جهة من الكون تقيدًا بالعادة، وما انطوت عليه سرائر المخلوقات، والقلوب.

فترقب عين قلبك إلى ما خفي عنك من عيوبك في صورة طاعة منك تتخلى عنها تأهلاً للحضرة الإلهية خير لك من تلفت باطنك إلى ما حجب عنك من عيوب الشهود، وأنت على ما لا يليق بحضرة الحق المشهود فضلاً عن ترقب خاطرك، لما غيِّب عنك من الكون في الكون الذي أنت به محجوب، ومقتضاه الفناء والزوال، ولذا قال ﷺ:

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة وهَم الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية، وغير ذلك من العيوب والبحث عنها والسعي في التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد، وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلة وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له؛ لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول، وقد يكون سببًا في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس.

اعلم أن العيوب ثلاثة: عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح؛ فعيوب النفس: تعلقها بالشهوات الجسمانية كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح وشبه ذلك، وعيوب القلب: تعلقه بالشهوات القلبية كحب الجاه والرئاسة والعز والكبر والحسد والحقد وحب المنزلة والخصوصية وشبه ذلك مما يأتي إن شاء الله في أوصاف البشرية، وعيوب الروح: تعلقها بالحظوظ الباطنية كطلب الكرامات والمقامات والقصور والحور وغير ذلك من الحرف.

فتشوف المريد إلى شيء من ذلك كله قادح في عبوديته مانع له من القيام بحقوق ربوبيته، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية وسعيه في التطهير من جميع ذلك أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب، كما تقدم وبالله التوفيق.

obeikandi.com

**٣٦- «الحقُّ ليس بمحجوبٍ عنكَ، وإنما المحجوبُ أنتَ عنِ النَّظرِ إليه؛ إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبَهُ، ولو كان له ساترٌ؛ لكان لوجوده حاصرٌ، وكل حاصرٍ لشيءٍ، فهو له قاهرٌ. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]»(١).**

أقول: تعالى الحق سبحانه أن يحجبه شيء، وكيف يكون ذلك، وهو الظاهر الذي ظهر بكل شـيء؟ وما ظهر به لِيُشْهَد لا يكون حجابًا للمتجلي له عنه يصد، وإنما هو منه تعالى تعرف وودّ، والمصدود والمحجوب أنت عن النظر إليه؛ لعدم اكتحال عين قلبك بأنوار معرفته كما تعرَّف لك به فجهلته من حيث ظهوره، وتعرفاته بنوره؛ لجواز الحجاب عليك، واستحالته عليه، فإن الحاجب ساتر ما حجب، والساتر حاصر، والحاصر قاهر. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

فيا أيها المعهود بغلبة الظهور، وجهالة ما أنت مستور إن أردت أن تعرف ما يوصلك إلى هذا الحال، وتشهد هذا النوع، فانظر إلى ما قال ﷺ:

**٣٧- «اخرُجْ من أوصافِ بشريَّتِكَ عن كلِّ وصفٍ مُناقِضٍ لعبوديَّتِكَ؛ لتكونَ لنداءِ الحقِّ مُجيبًا، ومن حضرته قريبًا»(٢).**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الحق تعالى محال في حقه الحجاب فلا يحجبه شيء؛ لأنه ظهر بكل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء، فلا ظاهر معه ولا موجود في الحقيقة سواه، فهو ليس بمحجوب عنك، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه لاعتقادك الغيرية وتعلق قلبك بالأمور الحسية، فلو تعلق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى لنظرت إلى نور الحق ساطعًا في مظاهر الأكوان، وصار ما كان محجوبًا عنك بالوهم في معد الشهود والعيان؛ فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون وكلهم في البحر ولا يشعرون، وسمعت شيخنا ﷺ يقول: والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم والوهم أمر عدمي لا حقيقة له. انتهى.

إذ لو حجبه تعالى شيء حسي لستره ذلك الحجاب ولو كان له ساتر حسي لكان لوجوده حاصر؛ إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره وكل حاصر لشيء فهو له قاهر كيف، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] أي: لأنهم في قبضته وتحت تصريف قدرته وتخصيص إرادته ومشيئته والفوقية عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان كما يقال: السلطان فوق الوزير والسيد فوق عبده والمالك فوق المملوك وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفي سمات الحدوث، والله تعالى أعلم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف البشرية هي الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية ومرجعها إلى

obeikandl.com

**أقول**: المراد من الأمر بالخروج التخلي عن بعض أوصاف البشرية التي هي أعم مما يناقض العبودية، والمناقض بها إتيان ما يباين المطلوب الشرعي. والتخلي عنه محقق: لتحصيل العبودية العامة، وما يحصل العبودية الخاصة التخلي عن إثبات آنيتك مؤثرة مع الله تأثيرًا يناقض المطلوب من العبيد، وهو المترتب عليه إثبات ما ليس لها من الصفات كالتكبر، وعدم الرضا، والمنازعة للقاضي فيما يقضي به وقضى، وعن إضافة كل ما يظهر منها محمودًا إلى حولها، وقوتها، ورشدها إلى غير ذلك مما يثبت للصفات من صفاتك ثبوت

---

=

أمرين: **الأول**: تعلقُ القلب بأخلاق البهائم، وهي شهوة البطن والفرج وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

الثاني: تخلُّقه بأخلاق الشياطين كالكبر والحسد والحقد والغضب والحدة، وهي القلق والبطر، وهي خفة العقل والأشَرُّ وهو التكبر وحب الجاه والرئاسة والمدح والقسوة والعطاء والفظاظة والغلظة، وتعظيم الأغنياء واحتقار الفقراء وكخوف الفقر وهم الرزق والبخل والشح والرياء والعجب وغير ذلك مما لا يُحصى حتى قال بعضهم: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات، وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي كتابًا في عيوب النفس وأدويتها ونظمه الشيخ زروق في نحو ثمانمائة بيت.

ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج إلى شيء سوى الاستماع والاتباع، فإذا خرج المريد من أخلاق البهائم تخلق بأخلاق الروحانيين كالزهد والورع والقناعة والعفة والغنى بالله والآنس به، وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلق بأخلاق المؤمنين أو بأخلاق الملائكة كالتواضع وسلامة الصدور والحلم والسكينة والرزانة والطمأنينة والسهولة والليونة والخمول، والاكتفاء بعلم الله والشفقة والرحمة وتعظيم الفقراء والمساكين وأهل النسبة وجميع الأمة والكرم والسخاء والجود والإخلاص والصدق والمراقبة والمشاهدة والمعرفة، فإذا تخلّق العبد بهذه الأخلاق وتحقق بها ذوقًا بعد أن تخلص من أضدادها كان عبدًا خالصًا لمولاه حرًّا مما سواه وكان لندائه مجيبًا، ومن حضرته قريبًا فإذا قال له ربه: يا عبدي! قال له: يا رب! فكان صادقًا في إجابته لصدق عبوديته بخلاف ما إذا كان منهمكًا في شهواته الظاهرة والباطنة كان عبدًا لنفسه وشهواته، فإذا قال: يا رب كان كاذبًا إذ من أحب شيئًا، فهو عبد له وهو لا يحب أن تكون عبدًا لغيره وإذا تخلص من رق الشهوات والحظوظ كان أيضًا قريبًا من حضرة الحق بل عاكفًا فيها إذ ما أخرجنا عن الحضرة إلا حبُّ هذه الخيالات الوهمية.

قال الشيخ الشرقاوي: واعلم أن التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم، ولا يتم ذلك إلا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات؛ لأن من عرف ذلك منها، لا يزال متهمًا لها، مسيئًا ظنه بها، آخذًا حذره منها، وإلا وقع فيما يسخط مولاه من حيث لا يشعر.

منها محمودًا إلى حولها، وقوتها، ورشدها إلى غير ذلك مما يثبت للصفات من صفاتك ثبوت ذاتك المطمس عين بصيرتك عن شهود عبوديتك المطلوبة منك التي هي شهود احتياجك أبدًا في كل حاجاتك، وضرورياتك إلى الله.

وأخص الخاصة من العبودية شهود قيامك، وما يظهر منك بالله لا بك، ولا بشيء منك متبرئًا من توهمك مشاركة الحق في صفة من صفاته تبرءًا يحقق عندك عدمك بنفسك، وقيامك، وكل ما منك بربك حتى معرفتك بما من ذلك من حيث هو ظاهر من الأسماء والصفات، وما منه موافق مرضي تأتيه، ومناقض غير مرضي تجتنبه، ولهذا الشهود أوجد العالم، وأوجدك الحق المعبود، وبه تكون لندائه مجيبًا بمطابقتك للمراد على الوفق الذي هو سبب الوجود، وبه تكون من حضرته قريبًا، وله مجيبًا وحبيبًا، بخلاف من كان مع بشريته متصفًا منها بما يناقض عبوديته. وقد نبه عليه، وعلى أصل كل منه؛ لئلا يكون من العثار غير فعال، فقال ﷺ:

**٣٨- «أصلُ كلِّ معصيةٍ، وغفلةٍ، وشهوةِ الرِّضا عن النفسِ، وأصلُ كُلِّ طاعةٍ، ويقظةٍ، وعِفَّةٍ عدمُ الرِّضا منك عنها»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ابحث أيها المريد! عن مساوئك، واتهم نفسك ولا تستحسن شيئًا من أحوالها؛ فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر. قال أبو حفص الحداد: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلي مكروهها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها؛ فقد أهلكها وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣] انتهى.

وقال السري السقطي: من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يروح ويغدو في لاش، والعاقل عن عيوبه فتّاش، انتهى. قال الشيخ الشرقاوي: «أصل كل معصية» أي: مخالفة لما أمر الله به ونهى، «وغفلة» للقلب عن حضرة الرب، «وشهوة» نفسانية، وهي التعلق بما يشغل عن الله، «الرضا عن النفس»، بإجماع العارفين وأرباب القلوب؛ لأن الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساوئها، ويصير قبيحها حسنًا، فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة عن الله، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور عليه حينئذ دواعي الشهوة وتغلبه، إذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة.

obeikandi.com

**أقول**: السخط والرضا عن النفس فرع إثباتها المترتب عليه وجود الصفات التي تظهر بواسطتها ما يوجبها، فالرضا منك عنها أصل ارتكاب المخالف من المعصية، والغفلة، والشهوة التي هي أعم من المخالف المناقض لكل من العبودية العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة، والمترتب عليه سخط الحق، والسخط منك عليها أصل الإتيان بالموافق من الطاعة، واليقظة، والعفة لما يناقض العبوديات المتقدم ذكرها، ويوافقها، وإذا كنت هكذا اتصفت بنور التجلي عن المناقض، وبنور التجلي بنقيضه.

فما **يناقض العبودية العامة**: المعصية الظاهرة البدنية، والباطنة القلبية، **وما يناقض الخاصة**: الغفلة الظاهرة عما يجب من الحدود، والباطنة عن شهود واجب الوجود، **وما يناقض خاصة الخاصة**: الشهوة الجلية والخفية، والتي لا ينال الخروج عنها بالتمام إلا بنسيان النفس بل باضمحلالها في الله، وفيما لا يناقض الطاعة، واليقظة، والعفة؛ لإجابة نداء الحق التي من متعلقاتها المشاهدة لتجلياته به من حيث ظهور تعرفاته بأسمائه، وصفاته.

فتأمل نصح المصنف في بيان أصل فصل السالك، ووصله، وما هو متممه في بيانه من تعرف سبب كل ذلك، وهو صحبة الرجال، وأدناهم ما إليه أشار حيث قال ﷺ:

**٣٩- «ولأنْ تصحَبَ جاهِلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحبَ عالِمًا يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالمٍ يرضى عن نفسِهِ؟، وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسِهِ؟»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: وكان شيخ شيخنا يقول: لعنة الله على من ظهرت له عورة فلم يفضحها، وكان أيضًا كثيرًا ما يوصي بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم؛ إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم، ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص، وقال: إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض لتحققه بالإخلاص فيسري ذلك في الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص ويصير من جملة الخواص، وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض ولو كان أعلم أهل الأرض؛ لأن الطباع تسرق الطباع إذ الجهل الذي يقرب للحضرة أحسن من العلم الذي يبعد عن الحضرة. ولذلك قال بعض العارفين: أشد الناس حجابًا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد؛ لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم والجهل الذي يوصل إلى الله علم على الحقيقة والعلم الذي يحجب عن الله جهل على الحقيقة، وقال: إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقها فصار عبدًا حقيقة لله فحينئذ أحبه سيده واصطفاه لحضرته واجتباه لمحبته وأطلعه على مكنون علمه

**أقول**: قد تقدم بيان ما يترتب على الرضا عن النفس، وعدمه مما هو مبعد عن الله، ومقرِّبٌ إلى الله، وكل منهما لا يحصل على الغالب إلا بالمصاحبة للصاحب، فالمصاحبة لعالم عَلِمَ مَا عَلِمَ، وهو راضٍ عن نفسه تكسب المصاحب له ما له، فبرضاهما عنها كل منهما هالك لمرتبات ذلك المبسوط هنالك؛ لأن الطبع لص، والفارق له تختص، فأي علم له، وهو لم يسلك، ويسلك بعلمه مسالك النجاة من المهالك التي لا يغنيه عنها ما حازه من العلم.

والمصاحبة لجاهل بما علمه هذا العالم لكنه غير راضٍ على نفسه يشرق بها في وجود من صحبه ماله، ويترتب على عدم رضاها عنها ما تقدم أيضًا بسط علمه هنالك، فأي جهل عنده، وهو لم يزل عبده، وعلى عهده، وحاضر، وقريب منه وعنده؟ ومن كان كذلك شهد استنارة وجوده من أنوار سيده، ومعبوده، ولتحقيق الاستعداد هذا الحال، قال ﷺ:

**٤٠- «شُعاعُ البصيرةِ يُشهدُكَ قربَهُ مِنكَ، وعينُ البصيرةِ تُشهِدُكَ عَدَمَكَ لوُجُودِهِ، وحقُّ البصيرةِ يُشهدُكَ وجودَهُ لا عدمَكَ ولا وجودَكَ»**(١) **«كان الله، ولا شيء معه، وهو الآن**

=

فكان أعلم خلقه والله تعالى أعلم. وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته قُرِّبَ من حضرة ربه لصحة قلبه وإشراقه بنور ربه ثم امتحى وجوده في وجود محبوبه وشهوده في شهود معبوده.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، فالبصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية والبصر يرى المحسوسات الكثيفة الظلمانية الوهمية، ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعاني اللطيفة على خمسة أقسام: قسم: فسد ناظرها فعَمِيَتْ فأنكرت نور الحق من أصله، وهذه بصيرة الكفار قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقسم: صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه؛ فهي تقر بالنور لكنها لا تقوى على مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها وهي لعامة المسلمين، وقسم: صح ناظرها وقوي شيئًا ما حتى قرب أن يفتح عينه لكن لشدة الشعاع لم يطق أن يفتح عينه، فأدرك شعاع النور قريبًا منه وهو العامة المتوجهين ويسمى هذا المقام شعاع البصيرة، وقسم: قوي ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطًا به حتى غاب عن نفسه بمشاهدة النور، وهذا لخاصة المتوجهين ويسمى هذا المقام: عين البصيرة، وقسم: صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها فلم تر إلا النور الأصلي، وأنكرت أن يكون ثَمَّ شيءٌ زائدٌ على نور الأصل كان الله، ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، ويسمى هذا: حق البصيرة. قال بعضهم: «ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه» فعند ذلك تذوب النفس وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها، وسكون

على ما عليه كان»[١].

أقول: البصيرة قوة باطنة هي للقلب كعين الرأس عندما يكشف حجابه، فيشاهد بها باطن الأمور كما تشاهد عين الرأس ظواهرها، وبها يتخلص من الحيرة فيما يتجلي عليه في المشاهد، ويثبت بها يقينه في شهود ما يتعرف به له منه ومن غيره الحق الواحد، ولها شعاع هو نور معنوي علمي ينبسط على سطح قلبك المعنوي، فيشهدك قرب ربك منك على ما يليق به، وتسعه منه، وهو إشراق علمي استعدادًا؛ لإشراق عيني يحصل بسبب التخلي والتجلي المتقدم بيانهما على الغالب، وبواسطة الأستاذ على الغالب أيضًا، وظهوره في مظاهره مقول بالتشكيك لتشكك القوابل، وما هو سابق لها في التعيين، فهو كعلم اليقين، وهو نتيجة العبودية العامة.

ولها عين في استعداد عيني يشهدك به لا بك تجليات أسماء الإحاطة من أسماء هوية المتجلي بأربع من التجلي محيطة بكل تجلي، والمتجلي بها هو، وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، فتشهد بها عدمك؛ لمحض شهود وحدة وجوده تعالى، فيقرب في ذلك كعين اليقين، وهو نتيجة للعبودية الخاصة.

=

وهجها وغبارها، وبين المصنف ﷺ أن الذي ينكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك ونتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، والذي ينكشف بالثاني عدمية كل موجود في وجود الحق تعالى، فيشهد الأكوان عدمًا فلا يعبأ بها، ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية، والوجود الحقيقي له سبحانه، وثمرة ذلك ألا يبقى في نظرك ما تستند إليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام، والذي ينكشف بالثالث الذات المقدسة وثمرة ذلك الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء، فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكًا في وجود سيده، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية؛ فإذا ترقى عن ذلك حل في مقام البقاء.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩).

قال الشيخ ابن عجيبة: إن عامة المسلمين عميت بصيرتهم والتحقيق هو ما تقدم من التفصيل وأنها مسدودة فقط مع صحة ناظرها بخلاف بصيرة الكفار فإنها عمياء، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك؛ لأنك مفقود من أصلك ولا عدمك إذ لا يعدم إلا ما ثبت له وجود ولم يكن مع الله موجود «كان الله ولا شيء معه» وهو الآن على ما عليه كان، وهذه الزيادة وإن لم تكن في الحديث لكن معناها صحيح إذ التغير عليه تعالى محال.

ولها حق هو أحدية جمع الظهور، بالظاهر من باطنه في جميع المظاهر من المدرَكات، والمدرِكات، والإدراكات، فتشهدك أنت به لا بك وجوده من حيث هويته الظاهرة الباطنة الأولى الآخرة لا عدمك؛ لوجودك، وظهورك، والعالم به من حيث تجلياته، وصور أسمائه، ولا وجودك لعدمك، والعالم بنفسكما «كان الله» في أزله، «ولا شيء معه» قائم بنفسه، «وهو الآن» وفي أبده لا شيء معه إلا به تعالى، ولم يزل، ولا يزال، وهو على ما كان عليه، فهو في ذلك كحق اليقين، وهو نتيجة عبودية خاصة الخاصة، وما أظهره من ظهوراته نتيجة محبة التعرف من مصادر أفعاله التي منها عبوديته، وعبودياته، ووعباداته التي مخها الدعاء الذي هو عبارة عن الطلب منه، ورفع الهمة إليه، وحق الربوبية على العبودية التي هي أعلى المقامات من ذلك.

ولذا ترجم بلسانه كمال ذله بها للمنفرد بالأفضال، فاستفتح وقال ﷺ:

**٤١ - «لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إلى غَيرِهِ، فالكريمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمَالُ»**(١).

**أقول:** «النية»: القصد، وهي صفة للقلب، والهمة: إما طلب الحق مع فقد طلب ما سواه من غير فتور، ولا توان فيه للفوت بالموت، وإما طلب لغير الحق من الحق، وعلى كلا الحالين لا تتعد همتك الحق تخرج عن الحق، وذلك؛ لأنه المالك القادر الكريم على الحقيقة وحده لا شريك له، المتكرم على كل ما سواه بما يشاء أن يتكرم به مما تتعلق به همم الطالبين،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا تعلقت همتك أيها المريد بشيء تريد تحصيله فردها إلى الله ولا تتعلق بشيء سواه؛ لأنه سبحانه كريم على الدوام ونعمه سحاء على مر الليالي والأيام والكريم لا تتخطاه الآمال، وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى الكريم: هو الذي إذا سُئل أعطى ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى وإذا جفى عفا وإذا عاتب ما استقصى؛ فهذا من كمال كرمه وتمام إحسانه وإنعامه.

قال الشيخ الشرقاوي: «لا تتعدي نية همتك» أيها السالك «إلى غيره»، بأن تتوجه إلى غيره لتحصيل حاجتك، بل اطلب حوائجك منه «فالكريم لا تتخطاه الآمال» فالهمة العالية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة إلا الله؛ إذ الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد أوفى، وإذا أعطى زاد على ما انتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا جُفي عاتب، وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، وهذه الصفات لا يستحقها حقيقة إلا هو؛ فينبغي ألا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره.

إما من شهود حقائق وجوده، وإما من كرائم نعم تفضلاته وجوده على سنن أنوار حدوده، وكيف يشاء لمن يشاء من عبيده، وليس لكل ما سواه إلا ما تفضل به وأعطاه.

ولما كان الاضطرار إلى الحق وحده من الخلق في جميع الأطوار مشتملاً على جلب المنافع، ودفع المضار؛ ليتحقق لهم شهود كماله في تجليه عليهم باسمه النافع والضار، وشهد العارف ذلك في كل حال، قال ﷺ:

**٤٢- «لا تَرْفَعَنَّ إلى غيرِهِ حاجةً هُوَ مُورِدُهَا عليكَ، فكيفَ يَرْفَعُ غَيرَهُ ما كانَ هُوَ له واضِعًا؟ مَنْ لا يستطيعُ أنْ يرفعَ حاجةً عنْ نفسهِ، فكيفَ يستطيعُ أنْ يكونَ لها عن غيرِهِ رافعًا؟»**[1].

**أقول:** رفعك قصة سؤالك في حاجة تعلقت همتك بها إلى غيره طالبًا دفع ضراء، أو جلب سراء ـ المنهي عنه في الحكمة السابقة بالمفهوم ـ وقد أوردها عليك موردها الحق المنفرد بالفعل وحده لا شريك له، غلطٌ في توحيدك، ونقص يخدش عبوديتك، فكيف يرفع غيره مع عدم تأثير قدرته، ما كان المؤثر الحق له وحده وصفًا؟ وتأمل حال من لا يستطيع لعجزه، أن يرفع ما نزل به في نفسه من مثل ذلك، أذى دنى من نفسه، فكيف يستطيع، وهو لا استطاعة لقدرته أن يكون للنازلة بك عنك رافعًا؟

فتحقق ثبوت حصر احتياجك أبدًا إلى خالقك في السراء والضراء، وسر إيجاد

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد علمتَ أن ما سوى الحق خيال ووهمي لا حقيقة لوجوده، فإذا أنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله واجعلها تحت مشيئة الله وغب عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقًا ولا تملقًا ففي الحديث: «مَنْ لَمْ يسألِ الله يغضبْ عليهِ».

وقال أبو علي الدقاق: من علامة المعرفة ألا تسأل حوائجك كلها إلا من الله، وقال: من قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنـزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره مع علمه تعالى بإحسانه وبره وعدم انفكاك لطفه عن قدره.

وقال بعض العارفين من المكاشفين ﷺ: قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لا تُبْدِيَنَّ فاقةً فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حد عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع إليَّ منها وتتضرع بها لدي وتتوكل فيها علي سبكتك بالفاقة لتصير بها ذهبًا خالصًا؛ فلا تزيغن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي وحسمت أسبابك من أسبابي طردًا لك عن بابي؛ فمن وَكَّلْتُهُ إليَّ مَلَكَ، ومن وَكَّلْتُهُ إليه هَلَكَ.

احتياجك إلى الحق محبة تعرفه بكمال تجليه من حيث كمال تعرفه لك؛ لكمال عبوديتك له في كمال الدين، فقد ورد: الدين شطران، شطر: صبر، وموجبه: تجلي الجلال، وشطر: شكر، وموجبه: تجلي الجمال، وبهما يكون الكمال، فالجمال معشوق، والجلال متعلق، والمتجلى عليه به محروق، فيهرب منه إلى الجمال عند وجوده للضعف الغالب عن سلطان شهوده، بخلاف الكمل، فإنهم يطلبون الدفع؛ لإظهار ذل العبودية للربوبية، فهم الموتى في الله الأحياء به، والأحوج إليه، والضعيف محتاج، والمحتاج سائل، والسائل بنفسه فيما لا يستحقه أن يعطاه ممن لا يجب عليه شيء قد يخال طلبه توقف مطلبه، وحسن الظن بالله واجب، فلتحقق لزوم وجوبه بالرب المتعال، قال ﷺ:

**٤٣ - «إِنْ لم تُحسنْ ظنَّك بِهِ لأجلِ حُسْنِ وصفِهِ، فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ؛ لوجود معاملتِهِ معكَ، فهلْ عَوَّدَكَ إلا حَسَنًا؟ وهلْ أسدَى إليكَ إلا مِنَنًا؟»**(١).

**أقول:** حسن الظن به تعالى واجب على العبد من لوازم العبودية بالنص لما يعود على

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الناس في حسن الظن بالله على قسمين: خواص وعوام.

أما الخواص: فحسن ظنهم بالله تعالى ناشئ عن شهود جماله ورؤية كماله فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله؛ لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرأفة والكرم والجود لا ينقطع، فإذا تجلى لهم بجلاله أو قهريته علموا ما في طي ذلك من تمام نعمته وشمول رحمته فغلب عليهم شهود الرحمة والجمال فدام حُسن ظنهم على كل حال.

**وأما العوام:** فحسن ظنهم بالله ناشئ عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه، فإذا نزلت بهم قهرية أو شدة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه فقاسوا ما يأتي على ما مضى فتلقوا ما يرد عليهم بالقبول والرضا وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكر ويقوى بقوتها بخلاف؛ الأول: فإنه ناشئ عن شهود الوصف والوصف لا يتخلف، والثاني: ناشئ عن شهود الفعل وهو يتخلف فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلف فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه فهل عوَّدك الحق تعالى إلا برًّا حَسنًا ولطفًا جميلاً؟ وهل أسدى إليك أي: أوصل إليك إلا مننًا كبيرةً ونعمًا غزيرةً. قال رسول الله ﷺ: **«أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ بِهِ من نعمِهِ وأَحِبُّونِي بحبِّ الله»**. وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: إنا لا نحب إلا الله؛ فقال رجل: أبى ذلك جدك يا سيدي بقوله: **«جُبِلَتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليهَا»**؛ **فقال الشيخ أبو الحسن:** إنا لما لم نر محسنًا غير الله لم نحب سواه. **وقال** ﷺ **أيضًا:** العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءته في إحسان الله إليه: ﴿**فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف:٦٩] انتهى.

العبد منه، وما يترتب على مخالفته، قال تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] وقال على لسان نبيه: «**أنا عند ظن عبدي بي**»(١)، فسبب حسن الظن بالله العلم بصفاته، وما هو جار من تفضلاته، وسبب عدمه الجهل بها، فإنه موصوف بصفات الغنى، والجود الذي لا يتناهى، والتكرم المطلق على الوجود من أهل الإيمان والجحود، سئل أم لا، فإن لم يتحقق الظن به منك، فيما أنت طالبه عما تعلقت به همتك مما تقدم تفصيله إلى غير ذلك؛ لذلك فتعلقه لمعاملته معك منذ خلقك إلى الآن، ولم يزل كنعمة الوجود بعد العدم، وما ترتب عليه الإيمان، ولوازمه، وما يترتب لكل مما يصير به لك. فهل عودك منه إلا إنعامًا؟ وهل أوصلك إلا إكرامًا؟ فكيف تسيء الظن مع تجريبك؟ وأسوأ منك شاركك، وحسن الظن بغيره، وكلما في الكون من خيره ثم لا تعلق حسن ظنك أو تحسنه به من أجل سواه مما أنت مفارقه من المنال، وتنبه لما قال ﷺ:

**٤٤ - «العجبُ كُلَّ العجبِ ممن يهربُ مما لا انفِكاكَ لهُ عنهُ ويطلبُ ما لا بقاءَ لهُ معهُ ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]»(٢).**

**أقول:** حقيق أن يتعجب كل العجب ممن يتعلق مطلبه بالهروب من مقدور مبرم

---

(١) رواه البخاري (٢٢/ ٤٠٩)، ومسلم (١٣/ ١٦٧)، والترمذي (٨/ ٣٩٩).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره؛ فمن أعجب العجائب: أن يفر العبد من مولاه ويتوجه بالطلب لما سواه مع أنه لا انفكاك له منه ولا محيد له عنه؛ إذ لا وجود له إلا منه ولا قيام له إلا به، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته وبالتقرب به بامتثال أمره واجتناب نهيه، ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التي إن لم تَزُل عنها في الحياة زالت عنك بالممات فاطلب ما يبقى دون ما يفنى.

أو تقول: من العجب كل العجب أن يهرب العبد مما لا انفكاك له عن قدر الله وقضائه ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ تدبيره واختياره إذ كل ما تدبره وأبرمه فسخه القضاء وهدمه، وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله أو معرفة الله ورسوله؛ فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه، ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه. وهذا كله من عدم فتح البصيرة أو عماها، ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ [الحج:٤٦] عن إدراك الحس؛ لأنها أدركته وحجبت به ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ [الحج:٤٦] عن إدراك المعنى، فلا ترى إلا الحس ولا تحب إلا إياه، ولا تطلب شيئًا سواه، نسأل الله عافيته وهداه.

وقوعه به لما سبق في العلم الذي لا يتبدل لا انفكاك له عنه، أو من موجود به قام كل ما سواه موجود من حيث قيوميته وعلمه تعالى قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] ويطلب الذي لا بقاء له معه مما هو فان، وهو ما تذروه رياح الفناء، أو مما هو باقٍ ولا دوام له معه في دار البقاء؛ لتمتعه به ثم استبداله بمثله في وصف البقاء وغيره كذلك في الصورة والمعنى؛ لتنوع التنعم بأنواع النعم، ودوام تجلي خالقية المنعم بخلاف التنعم بالمنعم من حيث ظهوره، وتعرفاته بإشراق نوره، فإنه لا انفكاك له؛ لدوام متعلقه وعدم تحيزه تعالى، فانظر بعين قلبك ما يتلى عليك من أسرار ربك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج:٤٦] المشاهدة للآثار ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] عن مطالعة الأنوار، فلو اهتدت القلوب بها لتعدت الأنوار للأبصار، وانقلبت الآثار مشارق الأسرار؛ فرحلت بها إلى الحق من غير مسافة حسية وانتقال، واسمع ما قال ﷺ:

**٤٥- «لا ترحلْ من كونٍ إلى كونٍ فتكون كحمار الرحى يسيرُ والذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتحلَ منه، ولكنِ ارحلْ منَ الأكوانِ إلى المُكَوِّنِ ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]»(١).**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السوى إلى طلب السوى، وذلك كمن زهد في الدنيا وانقطع إلى الله، يطلب بذلك راحة بدنه، وإقبال الدنيا عليه، لقوله ﷺ: «منِ انقطعَ إلى الله كفاهُ كلَّ مؤنةٍ ورزقَهُ من حيثُ لا يحتسبُ»، ولقوله ﷺ أيضًا: «من كانتِ الآخرةُ نيَّتَهُ جمعَ الله عليه أمرَهُ، وجعلَ غِناهُ في قلبه، وأتَتْهُ الدنيا وهي صاغرةٌ»، وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة في قلوب الناس، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات، أو زهد فيها يطلب القصور والحور فهذا كله رحيل من كون إلى كون، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو في موضعه، فالذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه، فمن كانت همته الحظوظ النفسانية فحاله حال حمار الساقية في السير دائم، وهو في موضعه قائم يظن أنه قطع مسافة مما طلب، ما زاد إلا نقصًا مع تعب. فينبغي لك أيها المريد أن ترفع همتك إلى الملك المجيد فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعِيان، وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢] ولا ترحل من كون إلى كون، بأن تترك حظًّا من حظوظ نفسك طلبًا لحظٍّ آخر فتكون كحمار الرحى الذي سار منه هو الذي عاد إليه وتشبيهه بالحمار دليل على بلادته وقلة فهمه؛ إذ لو فهم عن الله لرحل عن حظوظ نفسه وهواه قاصدا الوصول إلى حضرة مولاة، فلا ترحل أيها المريد من كون مخلوق إلى كون مخلوق مثلك، ولكن ارحل من الكون إلى

أقول: النهي مدلول حرفه المصدر بها، ومتعلقه ما سوى الحق مما تقدم، ومتعلق الأمر من قوله: «ارحل»: شهود من لا انفكاك له لقيام العوالم به دنيا وبرزخًا ومحشرًا ومستقرًا أبد الآبدين، فافهم؛ لئلا ترحل من الفاني إلى الفاني، أو من الفاني إلى الباقي المستبدل بمثله؛ فينفك وهو من الكون فتكون، وإن كنت رحلت عن الكون ما برحت إلا إلى الكون؛ فكأنك حمار رحى يدور في مدوره، ومنتهاه مبدأ دورته، والقصد أن يكون ارتحالك من كل ما سوى المكون إلى المكون بمراتب الإيقان، وحقائق العرفان في مقامات الإحسان، ومشاهد العيان ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩] ففهمها ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢] مما سواه ﴿الْمُنتَهَى﴾ رحلة معنوية لا بمسافة حسية؛ لنزاهة المكون عن الانحياز والحيثية ولأستاذي في معناها، وكشف معماها:

سافرت روحًا دون جسم في الهوا ... لقنص ظبي قاطن في المكنس

فاصطدته سرابا بأشراك الجوا ... والجسم جالس مني في المجلس

فعلى هذا رحلتك إليه منزهه عن الاتصال والانفصال؛ لأن مقتضاها ذلك، ورحلتك إلى ما سواه منوطة بالانتقال؛ ولذا قال ﷺ:

٤٦- «وانظر إلى قوله ﷺ: «فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١)، فافهم قوله ﷺ: فهجرته إلى ما هاجر إليه، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم»(٢).

---

=

المكون ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]. والرحيل إلى المكون يكون بثلاثة أمور: الأول: قصر همتك عليه دون ما سواه حتى يطَّلع على قلبك فلا يجده محبًّا لسواه. الثاني: الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ. الثالث: دوام اللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والاستسلام لما يورده عليك.

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (٣٥٣٠).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الهجرة هي الانتقال من وطن إلى وطن آخر بحيث يهجر الوطن الذي خرج منه ويسكن الوطن الذي انتقل إليه، وهي هنا من ثلاثة أمور: من وطن المعصية إلى وطن الطاعة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح، أو تقول: من وطن الملك إلى وطن الملكوت، أو من وطن الحس إلى وطن المعنى، أو من وطن علم اليقين إلى عين اليقين أو حق اليقين؛ فمن هاجر من هذه المواطن قاصدًا بهجرته الوصول إلى رضا الله ورسوله، أو الوصول إلى

**أقول**: أمره بالنظر في معنى الهجرة من الحديث لما تضمنه من معنى الرحلة المعنوية، والحسية، والمفارقة، والوصلة، وما يحتمله تعلقهما من الحق والخلق باعتبار الهمم والمقاصد من كل متوجه قاصد، ولابد من فارق بينهما من حيث المتعلق، وهو أن الرحلة إليه من كل ما سواه، والرحلة إلى غيره بخلاف ذلك؛ كالرحلة من الشر إلى الخير لما جاء في الحديث: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(١) وكذا تكون الهجرة من الخير إلى خير أعلى منه.

**فمن كانت هجرته من الكون إلى الله** المكون ورسوله الدال على حضرات شهوده في صلة أنوار وصوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، وهذه الرحلة تنتهي بالوصول إليه تعالى، وقد يرحل الواصل إليه منه به فيه إليه إما من الإجمال إلى التفصيل، وإما في التفصيل من تجل يتجلى في تجلي إلى تجل ، وهذه الرحلة التي لا تتناهى، وهي السير فيه بعد السير إليه.

**ومن كانت هجرته من الكون إلى** ما من الكون من دنيا فانية، وأحوال، ومقامات، وأنوار، وكرامات، وما سوى الحق من الفانيات الواقعة فيها الفانية بفنائها؛ ليصيبها أو إلى «امرأة يتزوجها» فيكف نفسه بها ليحي سنة من سننها فيفوز بالثواب، والسلامة من العقاب، أو غير ذلك من الباقيات الكونية، وهذه الرحلة التي لا تتناهى، وهي السير فيه بعد السير إليه؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه من الكون الفاني إلى الكون الباقي، فما رحل وهاجر إلا من كون إلى كون لا إلى المكون.

---

=

معرفة الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمته، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه، وغاية هجرته ما هاجر إليه، وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه؛ فافهم أيها السامع قوله ﷺ: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**». قال الششتري ﷺ: تدبر واعرضه على قلبك ونفسك، وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله، أو معرفة الله ورسوله، فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه، ولن يوصل إليه من بقي فيه بقية من حظه وهواه. وسمعت شيخنا البزيدي ﷺ يقول: إن أردتم أن تعرفوا هل رحلت أنفسكم من هذا العالم إلى عالم الملكوت أو لم ترحل، فاعرضوا عليها الأمور التي كانت تشتهيها، وتميل إليها واحدًا بعد واحدٍ فإن وجدتموها رحلت عنها وخرجت محبتها من قلبها ولم تركن إلى واحد منها، فاستبشروا فقد رحلت أرواحكم إلى عالم الملكوت، وإن وجدتموها ركنت أو مالت بالمحبة إلى شيءٍ من هذا العالم فجاهدوها وأخرجوها عنه بالكلية حتى ترحل إلى ربها. انتهى بالمعنى.

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤/ ١٥٦).

فافهم قوله ﷺ: «فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١)، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم والسلام، ولا بد للمهاجر المرتحل في سلوكه من مرافقة صديق ناقد فائق، أو أخ موافق صادق كما هو معلوم من الهجرة النبوية، ويحتاج في ذلك إلى معرفة علامات ترشده لصاحب هذه الخصوصية لاستتارها بالبشرية عسى يحظى بهذا النوال، ولذا قال ﷺ:

٤٧ - «لا تَصْحَبْ مَنَ لا يُنْهِضُكَ حالُه ولا يَدُلُّكَ على الله مقالُه»(٢).

أقول: تعلق نهيه هنا صحبة من لا حال له منهضًا إلى الله، ولا قال دالا على الله؛ لأن ذلك علة الصحبة المطلوبة من المصحوب الموصوف بذلك؛ لأم من له حال ينهض إلى غير الله مما تقدم بيانه من الكون مفصلاً، وقال: يدل على ذلك مقلقلاً فضلاً عمن لا حال له، ولا قال.

وصاحب الحال المنهض له الرتبة والتقديم على صاحب القال إذا خلا منه، وإن هو

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (٣٥٣٠).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الذي ينهضك حاله هو الذي إذا رأيته ذكرت الله فقد كنتَ في حال الغفلة فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة أو كنت في حالة الرغبة، فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد أو كنت في حالة الاشتغال بالمعصية، فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة أو كنت في حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك وهكذا، والذي يدلك على الله مقاله هو الذي يتكلم بالله، ويدل على الله ويغيب عما سواه إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب، وإذا سكت أنهضك حاله إلى علاّم الغيوب فحاله يصدق مقاله ومقاله موافق لعلمه فصحبة مثل هذا إكسير يقلب الأعيان، وهو مفهوم من قول الشيخ: «لا تصحب من لا ينهضك حاله... إلخ» أي: بل اصحب من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله والصحة في طريق التصوف أمر كبير في السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى، وحكمته حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل من لا شيخ له في هذا الشأن لا يفرح به، ومن شروط الشيخ أربعة: علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية.

فالعلم الصحيح هو ما يتقن به فرضه ولابدَّ أن يكون عالمًا بالمقامات والمنازل التي يقطعها المريد وبغرور النفس ومكائدها قد سلك ذلك على يد شيخ كامل وذاق ذلك ذوقًا لا تقليدًا، وهو المراد بالذوق الصريح، والهمة العالية هي المتعلقة بالله دون ما سواه والحالة المرضية هي الاستقامة بقدر الاستطاعة، ولابدَّ أن يكون جامعًا بين حقيقة وشريعة وبين جذب وسلوك، فيجذبه بجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء؛ فالسالك فقط ظاهري لا يجذب، ولا يحقق والمجذوب فقط لا يسير، ولا يوصل وفساد صحبته أكثر من نفعها.

خال منهما فليس المراد، يشهد لذلك ترتيب الحكمة ومفهومها، ومن المفهوم أن المريد هو الطالب، والأستاذ هو المطلوب لقولهم: للأستاذ أن يتبع ولا يستتبع لعزة الحق وطريقه وشرف المشرب وتحقيقه، فمما على الأستاذ ما ذكر مما يستدل به عليه، ويوصل به إليه محصول ثمره الوصلة بالحق دون ما سواه بكمال الاستعداد بلا مهلة، ومما على الطالب في قدرته به أن يكون يأسه ممن يحبه أشد من يأسه ممن يبغضه؛ لوفور المحبة التي من بعض لوازمها المتابعة له كما يجب، وحقيقة المتابعة رؤية المتبوع عند كل شيء، ومع كل شيء، وفي كل شيء حتى يغيب به عن كل شيء، وحاله المنهض لك ما يكون عند استرخاء همتك عن الحق إلى ما سواه من حضرة المنة بواسطة قدوتك به من توجه باطنه إليك على قدر شهودك؛ لكماله الباطن المتحجب بحجاب بشريته؛ فيردك إلى الحق من حيث أمرك بقاله الدال على ربك الكاشف لك، فلا تزال كذلك حتى لا تنفك ثمرة الحال عنك؛ ليصير مقامًا يستعد به لحال أعلى يدلك عليه، وينهضك كما تقدم إليه وهكذا.

ثم إن كنت محسنًا في سيرك معه يغيب في شمس نهاره ليل وجودك فضلاً عن أن ترى قمر إحسانك في عين شهودك، وإلا فلا، هذا بيان طرق من صحبة الأعلى للأدنى، والأدنى للأعلى، وأما صحبة الأخ للأخ فتكون مفاعلة تقتضي المناقشة بالإنصاف للاتصاف من الجانبين؛ لتتكامل لهما منهما الخلال واحذر صحبة الأدنى، لما قال ﷺ:

**٤٨- «رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فأراكَ الإحسانَ منكَ صُحْبَتُكَ إلى منْ هُوَ أسوأُ حالاً مِنْكَ»**[١].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا صحبت من هو أسوأ حالاً منك أراك؛ أي: أبصرتك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك، الإحسان منك لما ترى ما يصدر منها من الإحسان، ومن المصحوب من التقصير والنقصان، فتعتقد المزية عليه؛ لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ومشاهدة التقصير من غيرها علمًا أو عملاً أو حالاً، بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن حالاً منها؛ فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا وقليلٌ ما هم، وقال له أيضًا: لا تصحب من يُؤْثِرُ نفسه عليك فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه؛ فإنه قلّما يدوم واصحب من إذا ذكر ذكر الله فالله يغني به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد ذكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب انتهى. وحاصله: لا تصحب من تتكلف له فوق

أقول: لما بين الصحبة، وهي صحبتك للأعلى المفيدة كمال فنائك في مجاهدتك، ومشاهدتك الناتجة عن محبتك الخاصة لبقائك بمشهودك الحق، ولزمها بيان الصحبة النافعة، وهي مصاحبتك لمماثلك بالمفاعلة من الجانبين التي لا يلزم منها فناء الأينية والأين نبه على صحبة ربما رأتك مساوئك جمالاً، ونقصك كمالاً، ومحالك حالاً، وهي صحبتك أسوأ منك حالا، وإنما قال: ربما إلى آخره؛ لأنه قد تحصل بصحبته لنفسك منك عبرة لشهود المنة فيك كلما نظرت إليه نظرة كرة بعد كرة؛ فتكسبك العبرة زيادة ويقظة، وأنسًا وجمالاً، ومرة يدركك شهود خوف المكر والسلب ممن له مطلق التصرف؛ فتخشى أن يكسبك خلعته، ويكسبه خلعتك ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] عدلاً وجلالاً، فيحملك خوف جلاله وإجلاله على الزهد فيما سوى جماله وكماله؛ لتنتفع بما قل من أعمالك البارزة من عين الإفضال؛ ولذا قال ﷺ:

٤٩- «مَا قَلَّ عملٌ بَرَزَ مِنْ قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قلبِ راغبٍ»(١).

---

=

جهدك، ولا من يتكلف لك كذلك، وخير الأمور أوساطها، وهذا والله أعلم في صحبة الإخوة، وأما صحبة الشيخوخة فكل ما أمر به الشيخ أو أشار إليه أو فهمت أنه يحب ذلك فلا بدَّ أن تبادر إليه بقدر الإمكان، ولو كان محالاً عادة لأخذت في التهيؤ للفعل.

وقال سهل بن عبد الله ﷺ: احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين انتهى.، وزاد الشيخ زروق علماء الظاهر قال: لأن نفوسهم غالبة عليهم انتهى.

قلت: الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عاميًا غافلاً، وفقيرًا جاهلاً؛ لأنهم لا يعرفون إلا ظاهر الشريعة، ويرون أن من خالفهم في هذا الظاهر خاطئ أو ضال، فيجهدون في رد من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحون وهم يغشون؛ فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع فإن توقف في مسألة ولم يجد من يسأل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذر ويكون معه كالجالس مع العقرب والحية والله ما رأيت أحدًا قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبدًا في طريق الخصوص، ورحم الله أبا ذر الغفاري ﷺ حيث قال: والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين انتهى. قال هذا في علماء الصحابة الأخيار ﷺ فما بالك اليوم حين اشتغلوا بجمع الدنيا، وتزيين الملابس، وتكبير العمائم، وتحسين المآكل والمساكن والمراكب، ورأوا ذلك سنة نبوية؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الزهد في الشيء هو خروج محبته من القلب وبرودته منه، وعند القوم: بغض كل ما يشغل عن الله، ويحبس عن حضرة الله، ويكون أولاً في المال.

obeikandi.com

=

**وعلامته**: أن يستوي عنده الذهب والتراب، والفضة والحجر، والغنى والفقر، والمنع والعطاء، ويكون ثانيًا في الجاه والمراتب، **وعلامته**: أن يستوي عنده العز والذل، والظهور والخمول، والمدح والذم، والرفعة والسقوط، ويكون ثالثًا في المقامات والكرامات والخصوصيات، **وعلامته**: أن يستوي عنده الرجاء والخوف، والقوة والضعف، والبسط والقبض، يسير بهذا كما يسير بهذا أو يعرف في هذا كما يعرف في هذا ثم يكون الزهد في الكون بأسره بشهود المكون وأمره، فإذا تحقق المريد بهذه المقامات في الزهد أو جُلُّها كان عمله كله عظيمًا كبيرًا في المعنى عند الله، وإن كان قليلاً في الحس عند الناس.

وهذا معنى قوله ﷺ: «**عملٌ قليلٌ في سُنَّةٍ خيرٌ من عملٍ كثيرٍ في بدعةٍ**» وأي بدعة أعظم وأشنع من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب الذي لم يكن في زمنه ﷺ ولا في زمن الصحابة حتى ظهرت الفراعنة فبنوا وشيدوا وزخرفوا؛ فهذه هي البدعة الحقيقة فعمل هؤلاء قليل في المعنى، وإن كان كثيرًا في الحس؛ إذ لا عبرة بحركة الأشباح، وإنما العبرة بخضوع الأرواح، عبادة الزاهد بالله لله، وعبادة الراغب بالنفس للنفس، عبادة الزاهد حية باقية وعبادة الراغب ميتة فانية، عبادة الزاهد متصلة على الدوام، وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام، عبادة الزاهد في مساجد الحضرة التي أذن الله أن ترفع وعبادة الراغب في مزابل القذارات التي أذن الله أن توضع، ولذلك قال بعضهم: عبادة الغني كالمصلي على المزبلة، وما مثل عبادة الزاهد مع قلتها في الحس وكثرتها في المعنى.

وعبادة الراغب مع كثرتها في الحس وقلتها في المعنى إلا كرجلين أهديا للملك **أحدهما**: أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها ستون قنطارًا، **والآخر**: أهدى ستين صندوقًا خاوية فارغة فلا شكَّ أن الملك يقبل الياقوتة ويكرم صاحبها ويرد الصناديق ويهين صاحبها، ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك حيث أهدى له خشبًا خاوية شهرتها أعظم من منفعتها.

وسمعت شيخنا ﷺ يقول: الراغب في الدنيا غافل، ولو كان يقول: الله الله بلسانه على الدوام؛ إذ لا عبرة باللسان والزاهد في الدنيا ذاكر على الدام، ولو قلَّ ذكره باللسان. انتهى.

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: كونوا لقبول العمل أشدَّ منكم اهتمامًا للعمل؛ فإنه لم يقِلْ عمل مع التقوى وكيف يقلُّ عمل يتقبل. انتهى.

وفي بعض الأخبار أن سيدنا عيسى عليه السلام مرَّ برجل نائم والناس يتعبدون؛ فقال له عيسي عليه السلام: قم فتعبد مع الناس فقال: تعبدت يا رَوح الله، فقال له: وما عبادتك؟ قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له: نم نعمت العبادة هذه أو كما قال عليه السلام.

قال الشيخ زروق ﷺ: وإنما كانت للزهاد هذه الفضلية لثلاثة أوجه: **أحدها**: ما فيه من فراغ القلب عن الشواغل والشواغب. **الثاني**: لأنه شاهد بوجود الصدق في المحبة إذ الدنيا محبوبة لا تترك إلا بما هو أحب قال عليه السلام: «**الصدقة بُرهان**» قيل: على حب العبد ربه. **الثالث**: لأنه دليل على المعرفة بالله والثقة به؛ لأن بذل الموجود من الثقة بالمعبود ومنع الموجود من سوء الظن بالمعبود انتهى.

**أقول**: الرغبة، والزهد، **وهو**: الرهبة من صفات القلوب، **وهما** الغرض في الشيء وعدمه، ومتعلق الرغبة المعمول من أجله، **وهو**: ما تثمره الأعمال، **وهو يختلف** باختلاف الأغراض، **وهي**: عدل في الأعمال، وللعمال أمراض، والأعمال المتوسل بها في حصوله التخلي عن المحرمات والمكروهات، والتحلي بالواجبات، والمستحبات القلبيات منها، والبدنيات المتوقع بها على اختلافها من ذلك الفانيات، والباقيات للعاملين الراغبين فيها بأعمالهم التي تنعدم أو تقل عند الله، وكذا ثوابها وإن كثرت في نفسها لتعلقها بها، فإن لم يتوقع بها شيء من ذلك؛ فتكثر عنده، وإن قلت في نفسها فيكثر ثوابها بسلامتها منها فما تتعلق به همم العاملين من الفانيات منها؛ فمعدوم عند الله، وما يتعلق به من الباقيات مقلل لها عنده، وما لا يتعلق بشيء أصلاً لا فصلاً ولا وصلاً، وإنما هو عبودية عبودته محضًا من الله فضلاً، فكثير عنده، وإن كان قليلاً لسلامته من العلل مطلقًا، وهو المراد الأعظم محققًا، وبذلك يتفاوت حسن أحوال الأعمال؛ ولذا قال ﷺ:

**٥٠- «حُسْنُ الأعمالِ نتائجُ حُسْنِ الأحوالِ، وحسنُ الأحوالِ مِنَ التَّحقُّقِ في مقاماتِ الإنـزال»**[١].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة والأحوال حركة القلب بالمكابدة والمقامات سكون القلب بالطمأنينة.

**مثال ذلك**: مقام الزهد مثلاً فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً ثم يسكن القلب، ويذوق حلاوته فيصير مقامًا وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ثم يصير حالاً ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقامًا، وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل في الظاهر كخرق العوائد من نفسه ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعرفات ثم تصير حالاً، فإذا سكنت الروح في الشهود وتمكنت صارت مقامًا؛ فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب؛ يعني: إن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقامًا، فالأحوال تتحول تذهب وتجيء فإذا سكن القلب في ذلك المعنى صار مقامًا وهو مكتسب من دوام العمل، واعلم أن المقام والحال لكل واحد علم وعمل فالمقام يتعلق به العلم أولاً ثم يسعى في عمله حتى يكون حالاً ثم يصير مقامًا، وكذلك الحال يتعلق به العلم أولاً ثم العمل ثم يصير مقامًا حالاً والله تعالى أعلم.

فعلامة التحقق بمقامات الإنـزال هو حسن الحال وعلامة حسن الحال هو حسن العمل فإتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات

**أقول**: لصور الأعمال المطلوبة من العبد قبح يبطلها وهو طلب العامل بها الفانيات التي أدناها الرياء وأعلاها المشي على الماء، والطيران في الهواء إلى غير ذلك مما يبقى ببقاء مظهره في هذه الدار، وبهذا القصد يفوته كل مقصود لفقد الإخلاص لله في العمل، ولها حسن وهو ما يثبتها قليلة عند الله ، وإن كثرت تعلقه بالباقيات دون الفانيات، ولها أحسن وهو ما يكثرها عنده، وإن قلت لعدم تعلقه مطلقًا بشيء من الكائنات كما تقدم جميع ذلك في الحكمة قبلها، وذلك ناتج عن أحوال قلوب العاملين لها، وهي مراداتهم الباعثة على التخلق بها بعد التعلق من حيث ما أدركوه؛ فظهر فيهم من التحقق بمقامات الإنزال التي به تنزلت أسرار الأنوار الصفاتية، وصور دوائر الحضرات الأسمائية من سرادقات غيب الحضرة الذاتية التي بها تحقق وجود الحسنية والأحسنية وغيرهما.

ومظاهرها من الحضرة الفعلية لكل عامل بقدر تحققه بها وما يصل إلى ذكره السالك من صفاء المعرفة لها المنتجة لشهود المتجلي بها بذكره الذي هو أصل، وبه تصفية قلوب المتوجهين لما لهم من الأحوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٥١- «لا تَتْرُكْ الذِّكْرَ لعدمِ حضورِ قلبِكَ مع الله فيهِ؛ لأن غفلتَكَ عن وجودِ ذِكْرِهِ أشدُّ من غفلتِكَ في وجودِ ذكرِهِ، فعسى أن يرفعَكَ من ذكرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكرٍ مع**

---

=

الإنـزال؛ أي: التحقق بالإنـزال في المقامات، أو تقول: حُسنُ الأحوال دليلٌ على التحقق بالمقامات التي يُنـزِلُ الله عبده فيها وحسن الأعمال دليل على حسن الأحوال والتحقق بالحال والسكون في المقام أمر باطني ويظهر أثره في عمل الجوارح.

والحاصل: إن حركة القالب تدل على صلاح القلب أو فساده لقوله ﷺ: **«إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُلُّهُ ألا وهيَ القلبُ»** فإذا تحقق القلب بالزهد مثلاً وصار له حالاً أو مقامًا ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله، والاعتماد عليه وقلة الحركة عند الأسباب المحركة لقوله ﷺ: **«ليسَ الزهدُ بتحريمِ الحلالِ ولا بإضاعةِ المالِ إنَّما الزهدُ أن تكونَ بما في يدِ الله أوثقَ مما في يدكَ»**.

وقال الصِّدِّيقُ ﷺ لأبي الحسن الشاذلي في النوم: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد، وعلامة التحقق بالإنـزال في مقام التوكل السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب، وعلامة التحقق بالإنـزال في مقام المعرفة، هو الأدب ظاهرًا وباطنًا، وحسن الخلق مع كل مخلوق.

وجودِ يقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ إلى ذكرٍ مع وجود غيبةٍ عمَّا سوى المذكورِ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الذكر ركن قوي في طريق القوم، وهو أفضل الأعمال قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] والذكر الكثير ألا ينساه أبدًا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتًا مخصوصًا، وعذر العباد في غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتًا مخصوصًا قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]. وقال رجل: يا رسول الله! كثرت عليَّ شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأَوْجِزْ؟ فقال: «لا يزالُ لسانُكَ رَطِبًا بذكرِ الله». وقال ﷺ: «لو أنَّ رجلاً في حِجْرِهِ دراهمُ يقسِّمُهَا وآخرَ يذكرُ الله لكان الذاكرُ لله أفضلَ». وعن علي -كرم الله وجهه- قلت: يا رسول الله أي الطرق أقرب إلى الله، وأسهلها على عباد الله، وأفضلها عند الله تعالى؟ قال ﷺ: «يا عليُّ عليكَ بِمُدَاوَمَةِ ذِكْرِ الله» فقال علي: كل الناس يذكرون الله، فقال ﷺ: «يا عليُّ لا تقومُ الساعةُ حتَّى لا يبقى على وجهِ الأرضِ مَنْ يقولُ الله» فقال له علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال له ﷺ: «غَمِّضْ عَيْنَيْكَ واسمعْ مِنِّي ثلاثَ مَرَّاتٍ» ثم قل مثلها، وأنا أسمع؛ فقال ﷺ: «لا إله إلا الله ثلاث مراتٍ مُغَمِّضًا عينيه» ثم قالها علي كذلك ثم لقنها علي للحسن البصري ثم الحسن لحبيب العجمي ثم حبيب لداود الطائي ثم داود لمعروف الكرخي ثم معروف للسري ثم السري للجنيد ثم انتقلت إلى أرباب التربية فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر؛ فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ويبذل فيه جهده، فإن الذكر منشور الولاية ولابدَّ منه في البداية والنهاية فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور، ومن ترك الذكر فقد عزل. فبقدر ما يفنى في الاسم يفنى في الذات وبقدر ما يَتَمَتَّرُ في الفناء في الاسم يكون مُتَمَتِّرًا في الفناء في الذات فليلتزم المريد الذكر على كل حال ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه بل يذكره بلسانه ولو كان غافلاً بقلبه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره؛ لأن غفلتك عن ذكره إعراض عنه بالكلية، وفي وجود ذكره إقبال بوجه ما وفي شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية. وقال الواسطي مشيرًا إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره؛ لأن ذكره سواه انتهى. يعني: إن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضي وجود النفس وهو شرك، والشرك أقبح من الغفلة، وهذا معنى قوله: «لأن ذكره سواه» أي: لأن ذكر اللسان يقتضي استقلال الذاكر والفرض أن الذاكر محو في مقام العيان.

**أقول:** الذكر المأمور به من الأستاذ سواء كان قولك لا إله إلا الله، أو الله، أو غير ذلك بحسب ما يراه هو مفتاح لِباب لُباب شهوده، وجوده، وحده المذكور، وأصل أصول وصول الأرواح والأسرار إلى حضرات الحضور، ولا يكون أصلاً إلا بشرط استدامته للجلاء على طهارة كاملة، وتطيب بطيب رائحة امتثالاً وسنة وعبودية لا لشيء أصلاً حتى تخلص، ولا للاستجلاء فضلاً عما يرومه به من غلط في المملوك، وعدك بحظوظه خدمة مالك الملوك، فكانت إما لحظوظ دنيوية أو أخروية لا قيامًا بحق الربوبية، فإذا انطوت سريرتك أيها الذاكر باللسان ليس على البراءة من كل ذلك فإنه ليس بمطلوب، هنا فقد قمت بحق الربوبية كما يحب الرب من العبودية، فلا تترك ذكرك لعدم حضورك، مع معاني الذكر أو مع المذكور فيه، فإن كان ذلك المانع إنما هو لغلبة طبعك المستولي على القلب، فأنساك حضور الرب، فكن منسلخًا عنه تدريجًا بدوام ذكرك، منطبعًا له؛ ليصير مقامك دائمًا، لا يخلو منه لسانك، ولا من تصور رسمه جنانك، فيضمحل ما سواه في يقظتك ومنامك، فتظفر بالمدخل لمرادك، ويكون الحق به جليسك؛ لأن غفلتك عنه تعالى وعن وجود ذكره أشد من غفلتك عنه دون وجود ذكره، فإن به يصح إطلاق الذاكر به عليك، لاستعمال جارحة لسانك فيه، ولو لم تكن فيه حاضرًا مع المذكور، وعسى بتيسير ذلك لك من فضله يرفعك من أرض غفلتك عنه، في ذكره إلى سماء يقظتك فيه باستحضار معانيه، فما تأتيه إلا مستحضرًا لها فيه وهي:

**كيقظتك** لمفهوم الوجه اللائق بالعموم، وهو نفي الألوهية عما سواه بإثباتها له التي معناها المعبود بحق الثابت غناه المفتقر إليه كل ما سواه.

**أو يقظتك** لمفهوم الوجه اللائق بالسالكين المبتدئين وهو لا مقصود ولا مطلوب إلا الله.

**أو يقظتك** لمفهوم الوجه اللائق بالمتوسطين منهم وهو لا معبود إلا الله.

**أو يقظتك** لمفهوم الخواص وهو لا موجود إلا الله.

ومبدأ ذلك وهو تجلي القريب الناظر الحاضر ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] بلا أين على ما يليق به تعالى، فهي يقظة أثمرت بمعرفة أسبابها المبينة شهود حضور الذاكر مع المذكور في هذه الحضرات وما في معناها، إما كرة بعد كرة، وحال فحال، أو على الدوام

فمقام، وذلك بالاعتناء الموجد للمرام، وبالمعاناة، وهي عدم انفكاكه والسلام، وهو المقصود؛ لأنه مقدمة مفهوم الوجه اللائق بالخواص، وهو أن يرفعك من ذكرك له مع حضورك معه كما علمت إلى ذكر هو شهودك له به لا بك مع غيبتك عنك، وعما سواه فيه؛ لتحقق وحدته في حضرة أحديته، وهذه أعلى مما قبلها، والانتقال إليها وإلى ما قبلها بحسب نظر الأستاذ يا أخا الرشاد، وإن أتم لك النعمة أحضرك بأحديته في واحديته بعد أن غيبك فيها لتؤدي كل ذي حق حقه، وكل ذي قسط قسطه من مراتب الإطلاق والتقييد في البطون والظهور بالتفريد، وهو مفهوم وجه أخص الخاصة.

هذا ما تيسر بيانه على وجه الاختصار وأبين منه لمن أراده ما بسطته في كتاب «التفريد بضوابط قواعد التوحيد» وكل ذلك من نتائج استدامة الذكر الذي هو أحد الموافقات من الأعمال المطابقة لمراد الحق المرضي المطلوبة من العباد، والتي يدرك العبد الندم على فواتها؛ فيحزن على قدر حياة قلبه، وذلك علامة له على ذلك الحال في نفسه من ربه؛ ولذا قال ﷺ:

**٥٢- «من علاماتِ موتِ القلبِ عدمُ الحُزْنِ على ما فاتَكَ منَ الموافقاتِ وتركُ النَّدمِ على ما فعلتَ من وجودِ الزَّلاتِ»**[١].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا والغفلة عن ذكر الله وإرسال الجوارح في معاصي الله، وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا والاشتغال بذكر الله وصحبة أولياء الله، وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات. وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة، وصدور المعصية علامة الشقاوة؛ فإن كان القلب حيًّا بالمعرفة، والإيمان آلمه ما يوجب شقاوته وأفرحه ما يوجب سعادته، أو تقول: صدور الطاعة من العبد علامة على رضا مولاه وصدور المعصية علامة على غضبه، فالقلب الحي يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح وما يسخطه عليه فيحزن، والقلب الميت لا يحس بشيء قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية، لا يفرح بطاعة وموافقة ولا يحزن على زلة ولا معصية كما هو شأن الميت في الحس، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّتْهُ حسناتُهُ وسَاءَتْهُ سيئاتُهُ؛ فهوَ مُؤمنٌ». قال الشيخ الشرقاوي: «من علامات موت القلب» أي: قلب المريد «عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات» أي: الطاعات، «وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات» أي: من الزلات التي توجد منك وعلامة حياته بالأنوار الإلهية، وإن لم تدركها لغلظ حجابك، أما حزنك على ما فاتك من الطاعات، وندمك على ما فعلت من الزلات، فتفرح بصدور الأعمال منك فرحًا شديدًا، وتغتم على صدور المخالفات، فذلك دليل على أنك من أهل الإرادة المحبوبين لله، فجد في السير ولا تكسل.

**أقول:** موت القلب عبارة عن الانغمار عن المطلوب من التكليف، وشهود التعريف بالملاذ النفسانية على سبيل الطبع انهماكًا، وإن خفي عليك أيها الغمر، فاعلم أن له فيك شواهد لك وعلامات، منها: عدم وجود الحزن الذي هو توجع قلبك على فوت موافقات لمرضيات ربك يترتب على فواتها عدم زيادة في دينك، وتصفية لقلبك، وفقد شهود قرب ربك، ومنها: ترك الندم على ارتكابك مخالفة ربك، وهو معظم أركان توبتك مما فعلته مما هو منقص لدنيك مصد لقلبك مبعد لك عن ربك، فعدمها شاهد على موت قلبك، فكيف الفرح بموجبها ووجودهما شاهد بحياته مع ربك، وهما يتفاوتان في ذاتها وتتفاوت الحياة بتفاوتها، **فمنهما:** ما يؤدي إلى الإقلاع، **ومنهما:** ما يؤدي إلى تتفاوت تنغيصك بملذوذات الطباع، وذلك مشهود بلا نزاع وعلى كل حال لا يكون ذنبك قاطعًا لك عن ربك، واسمع ما قال ﷺ:

**٥٣- «لا يعظمُ الذنبُ عِنْدَكَ عظمةً تصدُّكَ عن حُسْنِ الظنِ بالله تعالى، فإنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ استصغرَ في جنبِ كرمِهِ ذَنْبَهُ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الناس في الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام: أهل البداية: ينبغي لهم تغليب جانب الخوف، وأهل الوسط: ينبغي لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم، وأهل النهاية: يغلبون جانب الرجاء. **أما أهل البداية:** فلأنهم إذا غلَّبُوا جانب الخوف جدوا في العمل، وانكفوا عن الزلل فبذلك تشرق نهايتهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] **وأما أهل الوسط:** فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم؛ فعبادتهم قلبية فلو غَلَّبُوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة فيعتدل خوفهم ورجاؤهم. **وأما الواصلون:** فلا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركًا فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجري به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضا فإن كان طاعة شكروا وشهدوا منة الله، وإن كان معصية اعتذروا وتأدبوا ولم يقفوا مع أنفسهم إذ لا وجود لها عندهم، وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبره أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. وتأمل قضية الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم سأل راهبًا، فقال له: هل لي من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فكمل به المائة ثم أتى عالمًا، فسأله فقال له: من يحول بينك وبينها، ولكن اذهب إلى قرية كذا؛ ففيها قوم يعبدون الله فكن فيهم حتى تموت، فلما توسط الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التي خرج إليها والقرية التي خرج منها فإلى أيها كان أقرب؛ فهو من أهلها، فأوحى الله إلى القرية

**أقول**: استعظام القلوب الذنوب له حد مطلوب، وهو ما يزعج قلبك إزعاجًا يمنعه الميل إلى الذنوب سواء كان الميل يفضي إلى تلبس الجوارح بشيء منها، أو إلى عدم الخروج عنها لا عظمة ناشئة عن جهلك بذلك، وبربك، وبصفاته، جهلاً يوقفك عن حسن ظنك به فيما ترجوه منه من العفو، والمغفرة، والرحمة؛ لقوله ﷺ: **«أنا عند ظن عبدي بي»**(١) فكيف بالمعرفة به المفيدة لليقين الذي لا يساويه الظن، ومن مؤدى معرفته معرفة صفاته التي منها رحمته التي وسعت كل شيء، وما في معناها، ومن عرفه بذلك استصغر يقينًا صفة كرمه ذنبه بل أعدمه وانمحق له به كل ما سواه في شهود تجليات سناه؛ فتحقق بغناه في جماله وجلاله، وشاهد نعوت كماله في العدل منه والإفضال؛ ولذا قال ﷺ:

٥٤- **«لا صَغِيرة إذا قابلَكَ عَدْلُهُ، ولا كبيرة إذا واجَهَكَ فَضْلُهُ»**(٢).

**أقول**: لا صغيرة معلومة شرعًا أو وصفا طلبًا للجنة، فإنها حسنة بار كالعبادة،

=

التي يريد أن تقاربي وإلى القرية التي خرج منها أن تباعدي فوجد أقرب إلى القرية التي يريد بشبرٍ فأخذته ملائكة الرحمة، والحديث في الصحيحين نقلته بالمعنى. قال في «لطائف المنن»: ومعنى كلام الشيخ هذا: إن العامة واقفون مع ظواهر الأمر فإذا خُوِّفُوا خافوا؛ إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله، وأهل الله إذا خُوِّفُوا رَجَوا عالمين أن من وراء خوفهم وما خوفوا به أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من مِنَّتِهِ، فاحتالوا على أوصاف كرمه علمًا منهم ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه، وإذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذي هو من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما ظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم هل تقف مع الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن في مشيئته فلذلك آثار الرجاء خوفهم. انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الصغيرة هي الجريمة التي لا وعيد فيها من القرآن، ولا من الحديث والكبيرة هي التي توعَّد عليها بالعذاب أو الحد في القرآن أو في السنة، وقيل غير ذلك هذا كله بالنظر لظاهر الأمر. وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه وبالنظر إلى حلمه وعدله؛ فقد يبرز خلاف ما يظن، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] إن كانت الأعمال علامات فقد تختلف في بعض المقامات فوجب استواء الرجاء والخوف في بعض المقامات والتسليم لله في كل الأوقات؛ إذ قد تمت كلمات ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته؛ فإذا قابلك الحق ﷻ بعدله وجلاله لم تبق لك صغيرة وعادت صغائرك كبائر، وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله لم تبق لك كبيرة وعادت كبائرك صغائر. قال يحيى بن معاذ الرازي ﷺ: إذا أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة، وإذا وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة انتهى.

وسيئة مقرب لكونها غير محضة لله إلا وهي كبيرة إذا قابلك عدل الحق بها لمناقشة في الحساب؛ لقوله ﷺ: «من نوقش في الحساب عذب»(١) أو بالوقوف للعقاب لا بقصد تلذذ بالخطاب، أو بالإهانة بالعذاب، أو بالبعد والحجاب؛ لوقوع الجزاء بها على قدرها لمرتكبها؛ لإجلال الحق عن أن يعصى بها، أو بمثلها، أو بأصغر فضلاً عن الأكبر منها ولمقابلة إحسانه بعصيانك، ولا كبيرة شرعًا، أو وصفًا، وهي صغيرة العارف إلا وهي معدومة أصلاً إذا واجهك فضله بالعفو أو المغفرة والرحمة، فلا هو أخذه فضلاً، فكيف إذا كنت مطيعًا، ولك في الطاعة إحسان وشهود وعيان، وذلك بالغيبة عن شهود الصالح من الأعمال مع القيام بها؛ ولذا قال ﷺ:

**٥٥- «لا عملَ أرجى للقبولِ من عملٍ يغيبُ عنك شهودُهُ ويتحَقرُ عندك وجودُهُ»(٢).**

أقول: لا عمل من الأعمال المتقرب بها إلى الله من ترك وإتيان، وزهد، وإحسان، وشهود، وعرفان إلى غير ذلك أرجى نفعًا للقلوب عند المحبوب من عمل يغيب عنك شهوده مع القيام به غيبة تغيب، أو أفعاله في ظهور الفعل الإلهي، أو الصفات، أو الفاعل الحقيقي المتعرف بذلك من حضرة الذات، فلا يظهر للشاهد في الشهود لغلبة سلطان ظهور الحق المشهود، وقد يظهر ظهورًا مستصغرًا لتعلق العبد به، وكل عبادة تحقر بالنسبة إلى الملك المعبود، وكذا عبادة عابد بالنسبة إلى من هو أعبد منه في الوجود، ومن الأعمال الورد ومنه ما ينتج الوارد وما لا ينتجه للعمال، ويشهد له مفهوم ما قال؛ ولذا قال ﷺ:

---

(١) رواه البخاري (٢٠/ ٢٠١)، وأبو داود (٨/ ٣٣٩).

(٢) قال النهرجوري رحمه الله: من علامات من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره؛ فتكون جميع أحواله عنده مرضية، ويزداد فقرًا إلى الله في قصده وسيره حتى يغنى عن كل شيء دونه. انتهى.

يقول السياجي غفر الله له: «لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده» أي: يعمل في الخفاء، فلا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، فتتجنب آفة الرياء والسمعة، وكالصلاة بالليل والناس نيام، فلا شهود على صلاتك إلا من صليت له وطرقت في أنوار السَّحر أبوابه حتى يفتح لك من أنوار قدسه، وفيوضات كراماته.

٥٦- «إِنَّما أوردَ عليكَ الواردَ لتكونَ بِهِ عليهِ وارِدًا»(١).

أقول: «الوارد» الوارد عليك لا ينتج إلا عن الورد الذي له صورة مشهودة للشاهد دون ما سواه، فما غيب الحق عنك صورة هذا الورد إلا للوارد، وما أوجد الوارد إلا لتردده عليه في الحاضر، والشاهد بمقدمة هي الورد، وبواسطة إما ملك يورث خفة وأُنسًا، وإما جان مؤمن يورث ثقلاً وخوفًا، وبلا واسطة وهو نور معنوي قاهر مفاجئ غير مقصود من الورد، ولو كان المقصود منه لامتنع الخلل في العمل بالعلل، وهو مطهر مكتسب لقلب من يرد عليه استعدادًا يرد به على الحق ورودًا معنويًا يشاهد به ما يتعرف به الحق له في منصات مجاليه شهودًا اضطراريًا بانطباع نور العرفان، ومستعذب به ذلك من التجليات في الحال والمآل، ويدل عليه ما قال ﷺ:

٥٧- «أورد عليكَ الواردَ ليَتَسَلَّمَكَ من يَدِ الأغيارِ، وليُحَرِّرَكَ من رِقِّ الآثارِ»(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الوارد نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده، وهو على ثلاثة أقسام على حسب البداية والوسط والنهاية أو تقول على حسب الطالبين والسائرين والواصلين.

القسم الأول: وارد الانتباه وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة. وهو لأهل البداية من الطالبين فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبًا لربه، فيقبل عليه بقلبه وبقالبه، وينجمع عليه بكليته.

القسم الثاني: وارد الإقبال، وهو نور يقذفه الله في قلب عبده؛ فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه فلا يزال مشتغلاً بذكره غائبًا عن غيره حتى يمتلأ القلب بالنور، ويغيب عما سوى المذكور، فلا يرى إلا النور فيخرج من سجن الأغيار، ويتحرر من رق الآثار.

القسم الثالث: وارد الوصال، وهو نور يستولى على قلب العبد ثم يستولى على ظاهره وباطنه، فيخرجه من سجن نفسه، ويغيبه عن شهود حسه.

وقد أشار إلى القسم الأول وهو وارد الانتباه بقوله: «إنما أورد عليك... إلخ» أي: إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه، وهو الوارد لتكون بسببه واردًا عليه وسائرًا إليه، ولو لم يورد عليك هذا الوارد لبقيت في وطن غفلتك نائمًا في سكرتك دائمًا في حسرتك.

(٢) قال الشيخ جمال الدين الوفائي: الواردات وارد بتنزيه الرب وتوحيده فرباني، ووارد يحرك لطاعة معينة بقوة وعزم فقلبي، ووارد يحرك لأنواع الطاعات فملكي، وربما يكون وارد الخير من القلب والملك والأكثر للأكثر من الملك، والأقل للأقل من القلب؛ لأن طهارة القلوب قليلة جدًا، والطوارق طارق يطرق القلب باضطراب، ومسارعة لمعصية فشيطاني، وطارق يطرق بقصد جهة معينة فنفساني، وربما يكون من النفس والشيطان وعنهما تتولد المعصية؛ فافهم. فإذا ورد وارد الخير

**أقول**: لما علم الحق منك أنك مملوك يد الآثار، والأغيار لغلبة سلطان استيلاء تمكن انطباعهما في مرايا القلوب، والمملوك مرقوق لمن ملكه بيد سلطانه، أورد عليك الوارد النوراني العرفاني؛ ليستملك بسلطان قهره منها؛ فتتحرر من رقها لما يقيده وجوده من شهود تعرفات تجليات الحق سبحانه المحقق شهوده بها؛ فيكون عبده عنده لا عبدها عندها، فإنها وهم وخيال، وأنت منها؛ ولذا قال ﷺ:

**٥٨- «أوردَ عليكَ الواردَ ليُخْرِجَكَ من سِجنِ وجودِكَ إلى فضاءِ شُهُودِكَ»**(١).

**أقول**: وإن حقق الحق في إيراده الوارد عليك تحقق أنوار مشاهدة لديك القاطعة ليد الأغيار، والآثار، فما ذلك منه إلا ليخرجك عنك من سجن وجودك بما له في حضرة فضاء شهودك، فإنك من أعيان الآثار، والأغيار مادمت محتجبًا به عنه من حيث ظهوره بك في أعلى أفق الأنوار، وليس لك شعور بأنوار تعرفات الحق بالأسرار، فافهم هذا الحال، واسمع ما قال ﷺ:

**٥٩- «الأنوارُ مَطَايَا القلوبِ والأسرارِ»**(٢).

---

=

عقب الطاعة فخير، وإذا طرق طارق الشر عقب المعصية فشر، وإذا جهل الفرق بين الوارد والطارق فيعرض على ما أمر به شرعًا، فإن وافق حكم الله فنور وإلا فظلمة.

الوارد يرد كفيله، العطاس لا يرد إذا ورد ولا يستجلب بالالتماس، الوارد يرد من حضرة اسمه القهّار، لهذا يمحق الأوصاف والآثار، الوارد يكون للسالك مع الأوراد، ولأهل العناية بلا اختيار ولا مراد، الوارد يكون من الملك والجان، ومن الحق في حضرة العيان، الوارد ما أفاد الفوائد، وعلم غرائب الفرائد. [انظر: قوانين حكم الإشراق ص (١٢٧)] بتحقيقنا.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما أورد عليك وارد الوصال بعد أن أهبَّ عليك نفحات الإقبال؛ ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء؛ أي: اتساع شهودك لربك فرؤيتك وجودك مانعة لك من شهود ربك؛ إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب؛ فالفناء عن النفس وزوالها أصعب من الفناء عن الكون وهدمه، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون ولم يبق له أثر، وقد يهدم الكون وتبقى في النفس بقية؛ فلذلك قدم الشيخ رق الأكوان على سجن وجود الإنسان، والله تعالى أعلم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: النور نكتة تقع في قلب العبد من معنى اسم أو صفة يسري معناها في كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصارًا لا يمكنه التخلف معه عن موجبه. قاله الشيخ زروق، والمطايا جمع: مطية، وهي الناقة المهيئة للركوب، والقلوب جمع: قلب، وهو الحقيقة القابلة للمفهومات،

أقول: هي أنوار الواردات العرفانية الإلهية الناشئة عن الورود المتقدم شهود صورته من مرآة قلب المتعبد بها منها ما يؤدي إلى ورود الوارد المفيد شهود الحضرات الإلهية، فمنه ما يؤدي القلوب إلى حضرات شهود الصفات الفعلية منها، وهو ما تغيب صورة وروده عن مرايا القلوب من غير إفنائها غيبة في أكنة الإخلاص، والصدق لورود الوارد النوراني الإلهي الذي هو مطيتها في سيرها إلى شهود الصفات الفعلية.

ومفرد القلوب «القلب» وهو: عندهم عبارة عن صورة العدالة الحاصلة للروح الروحاني في أخلاقه بحيث يصير فيها على حافة الوسط بلا ميل إلى الأطراف. ومنه ما يؤدي الأسرار إلى حضرة شهود الصفات الذاتية، والمشاهد الغيبية الأحدية، وهو ما أفنيت صورة ورده؛ لورود واردها الذي هو مطيتها في سيرها إلى ذلك، ومعرفة الأسرار السر الذي هو عندهم عبارة عن حظ كل موجود من الحق بالتوجه الإيجادي، وهو الذي يحب الحق، ويطلبه، ويعلمه؛ ليشهده به، وكل ذلك نتائج تغيب صورة الورد المتولد عنه الوارد بإفنائه المترتب عليه فناء فاعله فيما يشاهد لا وجود ما لا تغييب لصورته المترتب عليها ثبوته، وثبوت نتائج تغييب صورته في أكنة الإخلاص من غير إفناء فضلاً عن ثبوت فاعله

=

والأسرار جمع: سر وهو الحقيقة القابلة للتجليات، والسر أدق وأصفى من القلب، والكل اسم للروح، فإن الروح مادامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسًا، فإذا انـزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلاً فمازالت تتقلب في الغفلة والحضور؛ لذلك سميت قلبًا فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحًا، فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرًّا لكونها صارت سرًّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها وهو سر الجبروت.

فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أُنسه، أمده بواردات الأنوار كالمطايا فيحمل عليها في محفة العناية مروحًا عليه بنسيم الهداية محفوفًا بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرًّا من أسرار الله لا يعلمها إلا الله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] فالأنوار التي هي الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علام الغيوب، وهي أيضًا مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار فالسلوك هداية، والجذب عناية فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك ووارد الوصال حمله جذب، فالأنوار التي هي مطايا القلوب تحملهم على وجهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال فصار سلوكهم كأنه جذب، وأما الأنوار التي تحملهم على مطايا الأسرار؛ فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجًا بسلوك فيكونون بين جذب وسلوك وهذا الحمل أعظم، والله تعالى أعلم.

obeikandl.com

الذي هو به متحجب في مرآة شهود نفسه الظلمانية المنغمسة في ظلمة شهود جنود الأغيار، والآثار، فلاحظ له فيها للقلوب، وللأسرار من هذا الجمال، وافتح أذن قلبك لما قال ﷺ:

**٦٠- «النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ كما أنَّ الظُّلمةَ جُنْدُ النَّفسِ، فإذا أرادَ اللهُ أنْ يَنْصُرَ عبدَهُ أَمَدَّهُ بجنودِ الأنوارِ، وقَطَعَ عنهُ مَدَدِ الظُّلَمِ والأغيارِ»**[1].

**أقول:** «النور» مفرد: الأنوار المتقدم بيانها، فمن حيث إنها موصلة مطايا، ومن حيث إنها ناصرة للقلوب جند. كما أن جند النفوس المعينة لها على جند القلوب جند للنفوس، وهي الظلمة التي هي مأوى كل نقص، وبعد بالنسبة إلى ما يعلوه مما هو كمال

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس عن عوارض الوهم، فتوجب العمى عن الحق لتمكن الباطل من الحقيقة، فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة قاله الشيخ زورق.

وقد نظمت في ذلك قصيدة ذُكرت في غير هذا الكتاب، فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التي هي محل النفس إلى وطن النور، الذي هو القلب وما بعده، فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها، وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التي هي أصله، وفيها كان وطنه وكأنها جنود له من حيث أنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس.

وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة، والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صارت كأنها جنود لها، وهي ظلمة من حيث أنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره، فيلتحم بينهما القتال فإذا أراد الله عناية عبده ونصره أمد قلبه بجنود الأنوار، وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار، فيستولى النور على الظلمة وتولي النفس منهزمة، وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه بالأغيار، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار فيأتي المنصور بالأمر على وجهه والمخذول بالشيء على عكسه.

قال الشيخ زروق ﷺ: وأمداد الأنوار ثلاثة: **أولها**: يقينٌ لا يخالطه شك ولا ريب. **الثاني**: علم تصحبه بصيرة وبيان. **الثالث**: إلهام يجري بعد العيان. وأمداد الظلم ثلاثة: **أولها**: ضعف اليقين. **الثاني**: غلبة الجهل على النفس. **الثالث**: الشفقة على النفس وذلك كله أصله الرضا عن النفس وعدمه ومظهره الثلاث المرتبة عليه، وهي المعاصي والشهوات والغفلات وأضدادها المتقدمة في الباب الثالث، فافهم. انتهى.

ولما كان النور هو جند القلب؛ لأنه يكشف عن حقائق الأشياء، فيتميز الحق من الباطل، فيحق الحق ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بينة واضحة، وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور.

بالنسبة إليه، وهي جند حربي ممانع لجنود القلب ما أمكنه من أن تكون لها الغلبة عليه مما لا يحصر من النقائص، ويجمعها ما ينافي العبودية للربوبية ظاهرًا أو باطنًا أو هما أو ما ينقضها، فإذا أراد الله أن ينصر عبدًا أمده، ووفقه للورد، وغيبه عن شهود صورته؛ ليفتح له باب النصر على جند النفوس، وأمده بجيوش جنود الأنوار العرفانية الإلهية الناصرة للقلوب المتقدم بيانها، فقطع عنه بها مدد عدد الظلم الكونية، والآثار الإمكانية بالمشاهد الربانية في الحضرات الوجودية، فلا يشهده غيرًا لا زيدًا ولا عمرًا، وذلك مدد الكشف للرجال، وقد صرح به، فقال ﷺ:

**٦١ - «النورُ له الكشفُ، والبصيرةُ لها الحُكْمُ، والقلبُ له الإقبالُ والإدبارُ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى حسنها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل على ما يثبت حسنه ويدبر عن ما يثبت قبحه، أو تقول: يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره، ومثال ذلك: رجل دخل بيتًا مظلمًا فيه عقارب وحيات، وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا ما يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحًا رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرِّق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره، وما ينفعه وفرق بين الحق والباطل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] أي: نورًا يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢] وهذا النور الذي يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذي هو مطايا القلوب إلى علام الغيوب.

قال الشيخ الشرقاوي: «النور» الذي يفيضه الله على قلب المريد «له الكشف» أي: كشف المعاني والمغيبات كحسن الطاعة وقبح المعصية، «والبصيرة» التي هي نظر القلب «لها الحكم» أي: إدراك ذلك ومشاهدته، فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرية كسراج أو شمس؛ فإنه لا يمكن إدراك البصرية لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية، «والقلب له الإقبال والإدبار» على ما كشف للبصيرة، فإذا كشف لها عن حسن الطاعة وقبح المعصية، أقبل القلب على الطاعة وأحبها، فتتبعه الجوارح وأدبر عن المعصية؛ فلا تتلبس بها الجوارح.

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله، وأصل كل ظلمة وحجاب وبُعد هو معصية الله، ومن علامة حياة القلب؛ فرحه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية نبَّهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التي هي سبب نور القلوب، ومفاتيح الغيوب.

أقول: «النور» هو الوارد الإلهي الذي يطرد الكون عن القلب بكشفه لحقائق المكون المتجلي بها الذي لولاها لما كان من الكون شيء، ولا كان على ما هو عليه؛ لصدور الكون، ولوازمه عن مصادر الأفعال بإرادة المختار الفعال المتنوعة عن الصفات المتظاهرة بالذات كشفًا يقتضي تمتع المكشوف له به من حيث السر، والبصيرة الحاكمة على كل منكشف له، ولها من جميع ما انكشف أنه هو لا غيره، وغيره غيره لا هو بحيث لا حيرة في شهود الحقائق المتجلى بها المنكشفة له بتمييز كل منها عن كل منها؛ فيصير القلب الذي له الإقبال، والإدبار لما ميزته له البصيرة بعدالته مقبلاً على ما هو المراد المرضي مدبرًا عن ما ليس بمراد مرضي مع علمه، وكشفه، وشهوده لحقيقة كل منهما من حيث ظهور الحق بهما له رعاية بكمال عدالته؛ لظهور مراضي الحق المتجلي بالكل.

وكل ذلك نتائج التبري مما ليس لك من القال، والحال، والأعمال ،وإياك من نسبة ما ليس لك لك، وهو قد نبه عليه؛ حيث قال ﷺ:

**٦٢- «لا تُفْرِحْكَ الطَّاعةُ؛ لأنها برزتْ مِنْكَ، وافرحْ بها؛ لأنها برزتْ مِنَ الله إليكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]»(١).**

أقول: الطاعة من إتيان وترك، قلبي وبدني، وما تقتضيه مما يترتب على وقوعها حسب أنواعها ـ ومنه ما تقدم بيانه ـ ينبغي ألا تفرح بها؛ لكونها بارزة منك، وإن بها ما ترتب لك منك على زعمك وهمًا، وليس هو منك إلا على سبيل المجاز، والظهور من مظهريتك، والمظهر لهما الحق بجوده، وإيجاده، وفضله، وإمداده لا أنت ومن أنت؟، فمتى لغير ذلك توهمت بك حجبت، وعن الحق انقطعت، وافرح بهما لبروزها منه إليك، وظهور ما ترتب من فضله عليك، على سبيل الرحمة لديك، فإن ذلك شاهد عبوديتك في توحيدك،

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا تفرحك الطاعة؛ لأنها برزت منك» أي: من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك؛ فهذا فرح مذموم منهي عنه محبط لها ولكن «افرح لأنها برزت من الله إليك» أي: من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلاً، فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد وهو مقتضى شكرها، ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] فإيصال تلك الطاعة إليه وإظهارها على يده، اعتناءً من الله ﷻ فينبغي أن يفرح بها من تلك الحيثية، لا من حيثية صدورها منه وفعله لها.

ومعراج سرك في تجريدك إلى حضرة بقائك في تفريدك بجبريل حبك على براق محوك.

وقد أشار الحق إلى هذا المعنى، وقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس:٥٨] أي: بما كان بفضله من العمل الصالح باطنًا، وظاهرًا مجردًا عن النسبة لغيره سوى المظاهر، فشهود ذلك كذلك بعنايته، وبرحمته أولاً وأخرًا: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] بوهمهم أنهم الجامعون، فإن شهود ثبوت تأثيرهم لشهود ثبوت وجودهم المقتضي رؤية الأعمال والأحوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٦٣- «قطعَ السائرينَ لهُ، والوَاصِلينَ إليهِ عن رُؤْيَةِ أعمالِهِمْ، وشُهُودِ أحوالِهِمْ. أمَّا السائرونَ، فلأنَّهُمْ لم يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ معَ اللهِ فيهَا، وأما الواصلونَ، فلأنَّه غَيَّبَهُمْ بشُهُودِهِ عَنْهَا»**(١).

أقول: السائر من سار من الكون لافنائه الكون لله، والواصل من قطع الكون؛ فوصل إلى الله، فقطعهما عن أعمالهما رؤية شهود رحمة لهما حسب كل منهما. فأما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله في رؤيتهما، ومقتضى ذاته يتحقق بانتفائها ـ ولو كان دون شهود معيته ـ التي يترقون بها إلى الوصول إليه.

وقد يقال: إنما يتحقق به إذا حصل ذلك الشهود، وإلا فيكون صدقًا في الأعمال، والأحوال لا مع الله؛ إذ الصدق في الأعمال: الوفاء لله بالعمل من غير مداهنة، وفي

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «قطع» أي: حجب ومنع «السائرين له، والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم» الظاهرية، «وشهود أحوالهم» القلبية، لكن السبب في انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف؛ «أما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها»، وذلك لرؤيتهم نقصها بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها، فهم دائمًا متهمون نفوسهم في توفية أعمالهم حقها، وفي صفاء أحوال قلوبهم. فكان ذلك سببًا في البراءة من رؤيتها وشهودها، «وأما الواصلون؛ فلأنه غيبهم بشهوده عنها» أي: لأنهم نسبوها إليه تبرؤا من حولهم وقوتهم، فقطعهم عن ذلك شهودهم له في حضرة قربه، ومن شاهد لم يشاهد معه غيره، وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين، حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم، إلا أنه فعل ذلك بالسالكين كرهًا، وبالواصلين طوعًا، ولا شك أن هذا المقام أرقى من الأول، ولهذا لما سأل الواسطي أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها، قال لهم: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها! يريد بذلك ترقي همتهم إلى مقام العرفان، لا تحقير ما هم عليه، فإنه من الإحسان.

الأحوال: جمع الهم على الحق بحيث لا تختلج في قلوبهم تفرقة عنه بوجه في توجههم إليه. وأما الواصلون؛ فلأنهم غيبهم بشهوده من حيث ظهوره بأنواع أسماء تجليات وجوده المطلق؛ فتابوا به عن كل شيء فضلاً عنها، فلا يشهدون لهم شيئًا يتطمعون به في شيء؛ لغيبتهم في شهوده عن أنفسهم، وعن الأشياء بخلاف من لم يشهد، والحق وراء الأعمال، والأحوال، فإنه قد يكون برؤيته وجود ما يرى تحقق طمعه فيما يرجى بواسطتها من الله، وهو موجب ذلهم له فيها لما ينال؛ ولذا قال ﷺ:

٦٤- «ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلا على بِذْرِ طَمَعٍ»[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البسوق هو الطول قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق:١٠] أي: طويلات والبذر الزريعة والطمع تعلق القلب بما في أيدي الخلق وتشوف القلب إلى غير الرب، وهو أصل شجرة الذل فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على زريعة الطمع؛ ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق، وإنما كان الطمع هو أصل الذل؛ لأن صاحب الطمع ترك ربًّا عزيزًا وتعلق بعبدٍ حقيرٍ، فاحتقر مثله ترك ربًّا كريمًا وتعلق بعبدٍ فقيرٍ فافتقر مثله ترك رفع همته إلى الغني الكريم وأسقط همته إلى الدني اللئيم إن الله يرزق العبد على قدر همته، وأيضًا كان عبد الله حرًّا مما سواه صار عبدًا للمخلوق وعبدًا لنفسه وهواه؛ لأنك مهما أحببت شيئًا وطمعت فيه إلا كنت عبدًا له ومهما أيست من شيءٍ ورفعت همتك عنه إلا كنت حرًّا منه.

قال في التنوير: وكن أيها العبد إبراهيميًّا فقد قال أبوك إبراهيم ﷺ: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] وكل ما سوى الله آفل إما وجودًا وإما إمكانًا، وقد قال سبحانه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل ﷺ فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: فاسأله؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فانظر كيف رفع إبراهيم ﷺ همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ﷺ ومن سؤله فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله وأنعم عليه بنواله وإفضاله وخصه بوجود إقباله ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالود إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧] والغني إن أردت الدلالة عليه؛ فهو في اليأس.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧] فحسن الأعمال إنما هو الفهم عن الله والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه وتطهر من الطمع في الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحرٍ ما طهره إلا

أقول: ما طالت أعناق أغصان الطامعين، وتدلت ذلاً إلا على بذر طمع بالذال المعجمة، وهو ما يبذر، فيرجى فلاحه، وفلاحه إن وجد عاد على فلاحه، وهو محمود في الله بمعنى الرجاء من الله بثبوت ملكه، وقدرته، وصحة مطلق جوده، وفضله لكن على سبيل إظهار احتياج الموجود لواجده الذي لا وجود له معه، ولا لما منه صادر، ولا قيام في كل آن إلا بموجده المتضمن ذلك احتياج العبودة للسيادة لا على سبيل تطمعه تحكمًا، ومذموم: وهو الرجاء في غير الله من غير الله، وهو لا ملك له، ولا قدرة لما يرجى منه، وما يطمع فيه، وليس ذلك إلا لغلبة الوهم والخيال؛ ولذا قال ﷺ:

٦٥- «ما قَادَكَ شيءٌ مِثْلُ الوَهْمِ»[1].

أقول: ما قادك شيء بيد تحكمه فيك، وأنت في عالم حجابه مملوكًا بقيوده مثل الوهم الذي قيل: إنه أمر عدمي باعتبار عدم بقائه مع ظهور الحق، ووجودي باعتبار عين وجودنا في مشهد توهم الفرق وحقيقته باعتبار الوجود قوة باطنة تحل للخيال الفكري يختص بأقواها الإنسان، وبأضعفها الحيوان، فمن حيث خاصيته التي أودعها الحق فيه

---

=

اليأس منهم ورفع الهمة عنهم، وقدم عليّ ﷺ البصرة فدخل جامعًا فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصري، فقال: يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا؛ فقال الحسن: سل عما شئت؟ فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع قال: اجلس فمثلك يتكلم على الناس.

وقال أبو الحسن الوراق رحمه الله: من أشعر نفسه محبة شيء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع في شيء ذل له وبذله هلك. وقال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال الشك في المقدور؛ فلو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، فلو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. انتهى.

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «ما قادك شيء مثل الوهم» يعني: إن الوهم سبب في الطمع في الناس، وذلك كاف في قبحه؛ لأن الوهم الذي أصله شيء عدمي، إذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديري، لكن النفوس منقادة له أتم من انقيادها إلى العقل.

ألا ترى إلى الطبع ينفر من الحية لتوهم الضرر فيها، بل من الحبل المبرقش لكونه على صورتها، ولو انقادت للعقل لم تنفر؛ لأن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، فلا يسلم من الطمع في الخلق والرغبة فيما بأيديهم إلا أهل الورع الخاص، وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقط من قلوبهم علاقات الخلق، فلا يهتمون للرزق.

يدرك المعاني الدقيقة، ومن حيث حكم حجابه يحجب العبد الغير العارف، ويشوش عليه في شهود الحقيقة بترادف تخيلاته المانعة الموجبة للتردد في الحكم بين معلوم، وموهوم، أو معلومين، أو مشهودين لشاهد أحد المدارك الباطنة أو الظاهرة أنه هو لا الآخر، فتحصل الحيرة فيه، فلا يثبت معلوم؛ ليعلم أو يشهد بذاته، أو صفاته بلا شك، ومنه ما تطمع به فيما ليس لك عند المالك الحقيقي أو لك، أو تطمع أن يكون هذا أوانه، وليس أوانه، أو تطمع في منال ممن لا يملكه، ولا يملك دفعه إليك بعجزه الحقيقي عن ذلك كله إلى غير ذلك.

فالذي يخرجك من حكم حجاب هذا الوهم، وظلمة ليله، ويطوي عنك سحائب تشويشه، وسجاف ذيله طلوع نهار المعارف الكشفية، وشروق شموس ظهور الحق في أفق سماوات الأفلاك الصفاتية، فتغيب عنه بها، ولا ترى الفعل إلا للفاعل المختار في كل المراتب، والأدوار بمقدمة خرق العوائد النفسانية، ومخالفة الطباع الحيوانية للاعتدال المحصل هذا الجمال المستفاد من خدمة حضرة المكمل من الرجال فتيأس مما سوى الحق فضلاً عما ليس لك، وتغيب عما لك عنده به، وعما تتوهم مناله من خلقه، فتأمل ولا تكن عبدًا لما ينال واسمع ما قال ﷺ:

**٦٦- «أنتَ حُرٌّ مما أَنْتَ عنه آيِسٌ، وعبدٌ لما أَنْتَ فيهِ طَامِعٌ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان الإنسان حرًا مما أيس منه؛ لأنه لما أيس من ذلك الشيء رفع همته عنه وعلقها بالملك الحق فلما علق همته بالملك الحق سخر الحق له تعالى له سائر الخلق فكانت الأشياء كلها عبيدًا له ومسخرةً لأمره، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك. فمن كان عبدًا لله كان حرًا مما سواه وإنما كان الإنسان عبدًا لما طمع فيه؛ لأن الطمع في الشيء يقتضي المحبة له والخضوع والانقياد إليه فيكون عند أمره ونهيه؛ لأن حبك الشيء يعمي ويصم وهذه حقيقة العبودية.

وقال أبو الحسن ﷺ: الورع نعم الطريق لمن عُجِّلَ ميراثُهُ وأُجِلَّ ثوابُه، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم، لا يُدَبِّرُون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فهم مجموعون في عين الجمع لا يفترقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى.

وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثوابًا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث، فهو محجوب بدنيًا أو مصروف بدعوى وميراثه التعززُ لخلقه والاستكبار على مثله

أقول: محررًا أنت محرره من رق عبودية ما أنت عنه قاطع الرجاء من المطلوبات التي تطمع فيها الآمال، فتتعدى بها حد عبودية ربك التي هي سقوط مرادك معه بالوقوف عند مراده الظاهر لك في صورة الحالة الراهنة في الوقت من المقسوم لك المرضي له مما قسمه للأرواح والأشباح، فأنت حر لمراد ربك من رق مراد نفسك حرية فهي: عبودية محضة حقيقتها فناؤك في ربوبيته وعبد لغيره مما أنت له طامع فيه راج حصوله بحبك له. فإن المطموع فيه لا يخلو من أن يكون لك أولاً، وذلك مجهول، فإن لم يكن لك، فبحبك فيه صرت له طالبًا، وبطلبك عابدًا، وبعبوديتك هذه عبدًا لمملوك غيرك، وإن كان لك، فصرت بهذا التقدير مملوكًا لمملوكك الذي ملكه لك المالك الحقيقي بفضله، وهذا من أشد نكايات يثمرها الطمع المانع من الوصول إلى الحرية، ومن التحقق بحق العبودية الذي هو أتم مقام، وأعلى حال الذي لا وصول إليه إلا بإبادة الجمال أو الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

**٦٧- «مَنْ لَمْ يُقْبِلْ على الله بِمُلاطَفَاتِ الإحسانِ قُيِّدَ إليه بسلاسلِ الامتحانِ»**[(١)].

---

=

والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا لربه واحتقارًا لنفسه وتواضعًا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مُصلِحِهم، كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦]. انتهى.

قلت: هذا الورع الذي ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص، وهو الذي يقابل الطمع كما تقدم في قول الحسن البصري ﷺ: صلاح الدين الورع وفساد الدين الطمع لا ورع العوام الذي هو ترك المتشابه والحرام، فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة، وحاصله صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف اهم عليه وطمأنينة القلب به حتى لا يكون له ركون إلى شيء من السوى؛ فهذا هو الورع الذي يقابل الطمع المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد.

قال يحيى بن معاذ ﷺ: الورع على وجهين ورع في الظاهر، وهو ألا تتحرك إلا لله وورع في الباطن، وهو ألا يدخل قلبك إلا الله. قال الشيخ عبد العزيز المهدوي ﷺ: الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله في الحركات والسكون، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقي مع الله، فالحركة ظرف لما فيها كما قال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه فإذا رأيت الله ذهبت.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد قسّم الله تعالى عباده ثلاثة أقسام: أهل الشمال، وأهل اليمين، والسابقون، أما أهل الشمال فلا كلام عليهم؛ إذ لا إقبال لهم على الله أصلاً، وأما أهل اليمين فلهم إقبال بوجه ما

Obeikandl.com

**أقول**: الإقبال وصف توجه قلب المقبل على مراده ـ والمراد هنا هو: الله الذي لا يتوجه العباد إليه حق التوجه إلا بمحض الحرية مما سواه ـ الممحقق بخالص العبودية فناءً فيه بالمحبة الذاتية لعلاه، ويكون ذلك التوجه لذاته لا لمادة جماله، ولا لمادة جلاله، كما هو مقتضى الاسم المصدر به في الحكمة الجامع لجميع أسماء الصفات المسمى بها تعالى، ويكون التوجه لمادة جماله أو لمادة جلاله كما هو مقتضى الحكمة. فمن لم يكن له ذلك الإقبال، ولم يقبل على الله من حيث مادة جماله الظاهرة بملاطفات إحسانه طوعًا؛ ليكون من المقبلين عليه بها قاده بمادة جلاله الظاهرة بقيود سلاسل امتحانه كرهًا؛ ليخرجه من الشاردين عنه إليه تعالى بإرهاباتها: «**عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل**» أي: جنة الشهود

=

لكن لا خصوصية لهم؛ لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة، ولا حقيقة وقفوا مع الدليل والبرهان، ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعِيان، ولا كلام معهم أيضًا، وأما السابقون فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته، وهم في ذلك على قسمين: قسم: أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقيامًا بشكر إنعامه وامتنانه، وهم أهل مقام الشكر، وقسم: أقبل على الله بسلاسل الامتحان، وضروب البلايا والمِحَن وهم أهل مقام الصبر؛ فأهل المقام الأول أقبلوا على الله طوعًا، وأهل المقام الثاني أقبلوا على الله كرهًا، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ [الرعد:١٥].

قال أبو مدين ﷺ: سنة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون؛ لأن مراده ﷻ رجوع العباد إليه طوعًا وكرهًا انتهى.

فقوم بسط الله عليهم النعم وصرف عنهم البلايا والنقم ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية، فأدوا حقها وقاموا بشكرها وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها، فكانت مطية لهم على السير إليه، ومعونة لهم على القدوم عليه أخرجوها من قلوبهم وجعلوها في أيديهم وقليل ما هم، قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ:١٣] وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «**نِعْمَتِ الدُّنْيَا مَطِيَّةِ المؤمنِ عليها يبلغُ الخيرَ وبها يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ**» أو كما قال ﷺ.

وقد مدح الله الغني الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد فقال تعالى في حق سليمان: ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ**﴾[ص:٣٠] وقال في حق أيوب ﷺ: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص:٤٤] وكان الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ يرجح الغني الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله الترمذي الحكيم ﷺ يقول: الشكر صفة أهل الجنة والفقر ليس كذلك قاله في «لطائف المنن».

obeikandi.com

لا إلى ما سواه من جنات الوجود.

وإلى هذا المعنى يشير قوله: (قيد إليه) أي: لا لشيء سواه، وكل ذلك لظهور عنايته بعبيده، يجذبهم بها إلى حضرة شهوده مع اختلاف قوابلهم المقتضية تلون مسيرهم إليه؛ ليكون كل منهم من الشاكرين له بأطوارها بين يديه شكرًا يستلزم دوام النعم، ومزيدها، وهي نعمة تستلزم شكرًا أبدًا لا يبيدها، فإنه ما خلق الخلق إلا ليجود عليهم في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**٦٨ - «مَنْ لمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فقدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، ومَنْ شَكَرَهَا، فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى، وأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود، وقالوا أيضًا: من أعطي ولم يشكر سلب منها ولم يشعر فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ومن كفرها فقد تعرض لزوالها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] أي: أن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصي والكفر، ولذلك قال الجنيد ﷺ: الشكر ألا يُعصى الله بنعمه. وقيل الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر وتنكف عن الزواجر.

وقال في «لطائف المنن»: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان؛ فشكر اللسان: التحدث بنعم الله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] وشكر الأركان: العمل بالطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] وشكر الجنان: بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، قال الله تعالى:﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٣] ومن القسم الأول: قول النبي ﷺ: «التَّحَدُّثُ بالنِّعَمِ شُكر»، ومن الثاني: أنه ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له: أتتكلف كل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا». واعلم أن الناس في الشكر على ثلاث درجات: عوام وخواص وخواص الخواص؛ فشكر العوام على النعم فقط، وشكر الخواص على النعم والنقم، وشكر خواص الخواص الغيبة في المنعم عن شهود النعم والنقم، والنعم التي يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام: دنيوية كالصحة والعافية والمال الحلال، ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة، وأخروية كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل، وأجلُّ النعم الدينية التي يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة وشكرها هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٨].

**أقول:** «الشكر» لغة: هو الثناء على المنعم بما يدل من ذكر النعم على أن الشاكر قد عرفه، واعترف له بها، وبحسن موقعها عنده مع خضوع قلبه من أجل ذلك، وأمهات نعم الله الخاصة بعد نعمتي الإيجاد للوجود ولوازمه، والإمداد لبقائه مدة زمانه، وكذا ما يشاء الله من عوالمه ـ وهاتان النعمتان عامتان ـ العقل الذي هو موجب توجه الخطاب، والدين، ونهايته، والتوفيق إلى العلم به، والعمل القلبي، والبدني منه، والجاه الدنيوي به والأخروي به، والمآب المثاب عليه، وما يتضمنه كل ذلك مما لا يحصى من النعم.

وقيدها ذكرها بالجنان، أو باللسان، والجمع بينهما أكمل، وإلا بالجنان الذي هو سبيل المعرفة بالمنعم بها، وهي سبيل الاعتراف له، وهو سبيل الحضور معه الشاهد به الخضوع القلبي بين يديه اللازم منه القيام بالشكر الشرعي الذي هو التخلق بمطلوبات الحق الباطنة بحوائج الجنان استعمالاً لها فيما خلقت له، والظاهرة بجوارح الأبدان كذلك استعمالاً لها فيما خلقت له؛ لدوامها، والمزيد من أنواع أطوارها عبودية له لا لها، فإن لم، وإلا فقد تعرض لزوالها بعدمه، وهو حل عقالها، وإن دامت مع عدم الشكر عليها، فلا تغتر بهذا الحال، واسمع ما قال ﷺ:

**٦٩ - «خَفْ مِنْ وُجُودِ إحسانِهِ إليكَ، ودوامِ إساءتِكَ معه أن يكونَ ذلكَ استدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم:٤٤]»[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الاستدراج هو كُمون المحنة في عين المنَّة، وهو مأخوذ من درج الصبي؛ أي: أخذ في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه الدَّرَجُ الذي يُرتقى عليه إلى العلو، وكذلك المُستَدْرَجُ هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شيءٍ، وهو لا يشعر، قال الله تعالى: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم:٤٤] أي: نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم، وهم لا يشعرون. قاله الشيخ زروق ﷺ فخف أيها المريد من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق ودوام الأمداد الحسية أو المعنوية مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير، وعدم شكرك للملك الكبير أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالى، قال تعالى: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم:٤٤].

وقال ابن عطاء ﷺ: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ونَسَّيْنَاهم الاستغفار من تلك الخطيئة ثم قال الحق تعالى: **﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾** [القلم:٤٥] أي: نمدهم بالعوافي والنعم حتى نأخذهم بغتة، قال تعالى: **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾** [الأنعام:٤٤] أي: فلما غفلوا عما ذكّروا به من العقوبة والعذاب فتحنا عليهم أبواب

**أقول**: الخوف المأمور به سوط يسوق إلى الطاعة، ويعوق عن المعصية اللتين يتلبس بهما الحوائج والجوارح، فتكونان بالطاعة شاكرين، وبالمعصية للنعم كافرتين لما يترتب عليهما من الله أو لله لما يجوز له من إثابة العاصي، وتعذيب المطيع أو للهيبة إجلالاً أو خوفًا من المكر بسبب دوام النعم، وتوالي الإحسان إليك مع إساءتك معه بالغفلة عنه أو بالعصيان، وهو عدم قيامك بالشكر عليها كما تقدم، فافهم.

فحذَّر بقوله: «**خَفْ**» أن يكون ذلك مع ذلك استدراجًا لك، وهو الراجح من حيث لا تعلم، فتكون مظهرًا لرقيقة حقيقة المخاطبين: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾، والذين لا يعلمون هم الجاهلون، ولجهلهم بالحال يأتي الواحد منهم في الحال بما يجهله، وربما يكون منهم من يجهل جهله به، ويجهل ما يترتب عليه في المآل، ولجهله المركب لا يعلم أنه في محال، ويشهد لذلك ما قال ﷺ:

**٧٠- «مِنْ جَهْلِ المُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الأدَبَ، فَتُؤَخَّرُ العقوبةُ عنه، فيقولُ: لو كانَ هذا سوءَ أدبٍ؛ لقَطَعَ الإمداد، وأوجبَ الإبْعَادَ، فقد يُقْطَعُ المَدَدَ عنه من حيثُ لا يشعرُ، ولو لم يكنْ إلا منعُ المزيد، وقد يُقَامُ مقامَ البُعْدِ، وأنتَ لا تَدْرِي، ولوْ لم يَكُنْ إلا أن يُخَلِّيكَ وما تُرِيدُ»**(١).

---

=

النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا**﴾ [الأنعام:٤٤] من النعم وتمكنوا منها ﴿**أَخَذْنَاهُم**﴾ بالهلاك ﴿**بَغْتَةً**﴾ أي فجأة ﴿**فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ آيسون من كل خير، وهكذا عادة الله في خلقه أن يرسل إليهم من يُذَكِّرهم بالله، ويدلهم على الله فإذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله بسط عليهم النعم الحسية حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله، وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد في العقوبة. وقال تعالى: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [آل عمران:١٧٨] فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقًا واعتقادًا وعملاً فالنطق الحمد والشكر باللسان والاعتقاد شهود المنعم في النعمة وإسنادها إليه والغيبة عن الواسطة بالقلب مع شكرها باللسان «**مَنْ لم يَشْكُرِ النَّاسَ لم يَشْكُرِ الله**»، «**أشْكَرُكُمْ لله أشْكَرُكُمْ للنَّاسِ**» فإذا قال له: جزاك الله خيرًا؛ فقد أدى شكرها والشكر بالعمل صرفها في طاعة الله كما تقدم فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه السلب والاستدراج وهو أقبح.

(١) قال الشيخ الباني الكردي: من تأدب ظاهرًا وباطنًا مع الحق والخلق تهذب ظاهرًا وباطنًا، فإن أساء الأدب في الظاهر عوقب ظاهرًا، وإن أساء الأدب باطنًا عوقب في الباطن، فكل من الأوقات والأحوال والمقامات لها آداب، فمن ضيعها فهو بعيد ومردود، ومن لازمها بلغ غاية المقصود قال

**أقول**: المريد من أراد الله، وعمل على شاكلة طلبه بنهاية استطاعته لمطلوبه محبة لذاته لا تبقي فيه متسعًا لغيره، ولا للصبر عنه لمحة، وهو في البداية جاهل بإحكام الوصول إلى

---

=

الرسول ﷺ: «**إن الله أدبني وأحسن أدبي**» فهو ﷺ مؤدب ظاهرًا وباطنًا أصالة؛ لأن أدبه بتأديب الحق وغيره، وإن تأدب بتأديب الله تعالى فلا يكون أدبه إلا تبعًا، والأدب الظاهري ألا يرى ميزان الشريعة عن يده والباطني التجلي بمحاسن الأخلاق، بل هو عدم الغفلة طرفة عين من الملك الخلاق. وأما الآداب التي تكون مع الشيخ، فمرجعها إلى ثمانية أمور: أربعة ظاهرة وأربعة باطنة.

**فأما الظاهرة**: **فأولها**: امتثال أمره وإن ظهر له خلافه واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد. **وثانيها**: السكينة والوقار في الجلوس بين يديه، فلا يضحك بين يديه، ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام، أو يفهم عنه بقرائن الأحوال، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين، ولا يأكل معه ولا بين يديه، ولا ينام معه أو قريبًا منه. **وثالثها**: المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله، فخدمة الرجال سبب الوصال لمولى الموالي. **ورابعها**: دوام حضور مجلسه، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه؛ إذ بقدر تكرير الوصال إليه يقرب الوصال، فمدد الشيخ جار كالساقية أو القادوس، فإذا غفل عن الساقية أو القادوس تحزم وانقطع الماء إلى غيره، وأيضًا تكرير الوصول يدل على شدة المحبة وبقدر المحبة تكون الشربة.

**وأما الآداب الباطنية**: **فأولها**: اعتقاد كماله وأنه أهل للشيخوخة والتربية، لجمعه بين شريعة وحقيقة، وبين جذب وسلوك، وأنه على قدم النبي ﷺ. **وثانيها**: تعظيمه وحفظ حرمته غائبًا وحاضرًا، وتربية محبته في قلبه، وهو دليل صدقه، وبقدر التصديق يكون التحقيق، فمن لا صدق له لا سير له، ولو بقي مع الشيخ ألف سنة. **وثالثها**: انعزاله عن عقله ورئاسته وعلمه وعمله، إلا ما يرد عليه من قبل شيخه كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلي رضي الله عنه عند ملاقاته بشيخه فهي سنة في طريقه، فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية فلا بدَّ أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي. **ورابعها**: عند الانتقال عنه إلى غيره، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل شنيع، وهو سبب تسويس بذرة الإرادة، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم، ولا يحتاج إلى إذن، والله تعالى أعلم.

وقال أبو العباس: «كل سوء أدب يثمر لك الأدب؛ فهو أدب» فالنفس مجبول على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب فلا يخرج عن عهدة الأمر إلا بمخالفة النفس، ولا يمكن مخالفتها إلا بعد معرفتها بأنها مجبولة على الإساءة هذا لمن سلك الطريق البعيد المسلسل المعوج الذي يوجد الحق في نهايته، وأما صاحب الدائرة؛ فليس له نفس حتى يخالفها فلا كلام معه في كل ما يفعل إلا من أهل الإنكار والعناد والجدال [انظر: شرح حكم الشيخ الأكبر ص (٤٦٩) بتحقيقنا].

النهاية، فإن ثبت ودام في أحجار الترابي - بفتح التاء - طفلاً مرتضعًا ثدي العلم والمعرفة للأدب، وهو تُرابي - بضم التاء - لا يقع في جنابه، ولسانه أنا، ولا معي، ولا لي، ولا عندي، ولا بي، فقد استعد لغروب ليل الجهل، وشروق نهار العلم المحقق للسلامة في سفره من برٍّ وجوده إلى البر تعالى وشهوده، فيبلغ رشده، ويغلب جنده، ويكون لله وحده على علم من الله، ويصير كشمس الظهيرة حامل الأمانة منزه عن الخيانة من الشاكرين.

وإن لم يثبت سقط، وبجهله خبط، وفرط في جانب الشكر متلبسًا بالإساءة، خوانًا مع توالي النعم فضلاً وإحسانًا، إما بمخالفة الله، أو بإثبات نفسه في طاعته مع الله، أو بإثباته لها مع ما أتحف به من الله، أو بتشوق قلبه أن يعلم الناس ما عنده من فضل الله، أو بالتعجيل في إظهاره لخلق الله، أو بكشف شيء من الأسرار لمن لا يستحقه من الله، أو بقدح من طريق الله، أو بإساءة ظنه، أو أدبه مع من يدله على الله إلى غير ذلك، فتؤخر عقوبته تأخرًا مستترًا عنه بتوالي إحسان الله، فيقول باللسان مترجمًا عما قام من الظن عنده في الجنان: إنه لو كان هذا الواقع مني سوء أدب؛ لقطع وجوده عني الإمداد، أو أوجب ظهوره مني لي البعاد، وقد يكون حصل ذلك من حيث لا يشعر، ولو لم يكن حصل إلا منع المزيد حيث لم يشكر، وهو به يشعر؛ لظهور عدمه، وعدم خفاء ذلك عن علمه.

وقد تقام مقام البعد من حيث لا تدري لجهلك، واستتار ذلك عنك بتوالي البر إحسانًا ممن ليس في ملكه مالك سواه، فيكل إليه أمر عبد من العبيد، ولو لم يكن من إقامته لك في البعد أنه يخليك، وما تريد، وقد يشتمل ذلك على ما لا يرضي، فتكون به طريدًا، وعن حضرته مبعودًا، فوجودك وهم، والوهم ريب، وبواطن الأمور، وعواقبها غيب، فلا تدرك من حقائق أمورك فضلاً عما لغيرك، وإن بلغت ما بلغت إلا ما أطلعك عليه الحق، وهذا في كل حال، فتأدب، ودع ما نبهك عليه، وقال ﷺ:

**٧١- «إذا رأيتَ عبدًا أقامَهُ الله بوجودِ الأورادِ، وأدامَهُ عليها معَ طُولِ الإمدادِ، فلا تستحقِرَنَّ ما منحَهُ مولاهُ؛ لأنَّكَ لم ترَ عليهِ سماتِ العارفينَ، ولا بهجةَ المُحِبِّينَ، فلولا واردٌ ما كانَ وِرْدٌ»**(١).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «إذا رأيت عبدًا أقامه الله تعالى» أي: جعله قائمًا «بوجود الأوراد» بأن أخطرها منه «وأدامه عليها» أي: جعله مداومًا عليها «مع طول الإمداد» أي: المعونة والتيسير وصرف الشواغل التي تشغله عن القيام بها، والمراد بطول ذلك تواليه عليه مع طول الزمان، فطوله بطول الزمان الذي يحصل فيه، وهذه صفة العباد والزهاد «فلا تستحقرن ما منحه» أي: أعطاه «مولاه»

**أقول**: «الأوراد» جمع: ورد، وهو ما ورد الأمر بالتلبس به من الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو القياس؛ لتفريغ الأوقات في أنواع العبادات المطلوبة من العبد عبودية للربوبية، والإمداد إدامة أفاضه الحق بها، إما في البداية، وإما في النهاية بواسطة واردها، فإن من الوارد ما يكون عنه الورد، وهو «ما» هنا، ومنه ما يكون عن الورد، وهو المتقدم ذكره عند قوله: «إنما أورد عليك الوارد».

فإن رأيت من أمده الله بالأوراد، وأنت ممن فتح لك أبواب وجهة التعرفات به على الحقيقة المتعرف منها لأنوار تجلياته في حضرات قربه الناشئ ذلك إما عن وردك، أو عن جذبة منه لك، فلا تحقرن ما منحه مولاه، فتكون من الجاهلين بالله من حيث ما جهلت من أمره احتقارًا؛ بسبب أنك لم تر عليه سيما العارفين، ولا بهجة المحبين، فإنه إما أن يكون من الراسخين في البداية التي يترتب علي تصحيحها عملاً مثل ما لديك إلى نهاية المنتهين غالبًا.

وإما أن يكون ممن على سيما المغلوبين لأنوارهم من العارفين، وقهر أنوارهم، فغابت فيه، فلا تدرك منه لمثلك، ولا تراها عليه لوسعه وضيقك، وكذا لا تشاهد على شمائله بهجة المحبين؛ لارتفاعه عن الفناء الذي هو نهاية المحبة بقاء بالمحبوبين في حضرات واحديته بأحديته بعد فناء محبته، فإنه لولا الوارد بذلك ما كان الورد منه هنالك، وهو

=

وعلل الاستحقار بقوله: «لأنك» أي: لكونك «لم تر عليه سمات العارفين» أي: علامتهم، من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإيرادات ودوام الحضور بين يدي الله، «ولا بهجة المحبين» وهي ما يعلوهم من شواهد المحبة وآثارها، فإن محبة الله إذا تمكنت من القلب خطرت آثارها على الجوارح، كدوام ذكره والمسارعة لامتثال أمره، والنهي عن غيره، فيجتهد في خدمته، ويتلذذ بمناجاته، ويؤثره على كل ما سواه.

ثم علل الاستحقار بقوله: «فلولا وارد» إلهي أورده الله على قلبه؛ أي: تجلي إلهي «ما كان ورد» وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات كصلاة وصيام وذكر... إلى ما غير ذلك؛ أي فيكون احتقارك له بقلة الأدب معه، والحاصل: إن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين: مقربين وأبرارًا، فالمقربون هم الذين أخذوا من حظوظهم وإرادتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلبًا لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون، والأبرار هم الباقون مع حظوظهم وإرادتهم وقاموا بعبادة ربهم طمعًا في جنته وهربًا من ناره، وكل واحد منهم ممدود في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهي اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام.

الشاهد لديه فدونك ذلك، فالوارد الذي عنه الورد في البداية هو السابق على الطلب، والعمل علي شاكلته، والوارد الذي عنه الورد في النهاية المطلقة هو السابق إلى استجلاء أسرار أنوار تجليات التعريف من مشاهد أطوار إظهار تكوين التكليف؛ لظهور الحق بذلك ظهورًا، وفيه قال ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١)، وأهل الوارد الذين عن الورد فيما بين البداية والنهاية، وهو الباعث لهم على ما هم عليه من الفناء قد يغيبون به عن شهود الورد. إما مع القيام به أو لا، ومنهم الذين تحملهم سطوات حالهم على ما نبه عليه «المصنف» من النهي عن الاحتقار؛ لتنتبه بعدم احتقار عطايا ربك للرجال، فإن ذلك من الجهل بالحال، واسمع ما قال ﷺ:

٧٢- «قومٌ أقامَهُم الحقُّ لخدمَتِهِ، وقومٌ اخْتَصَّهُمْ بمحبَّتِهِ: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]»(٢).

أقول: من أقامهم لخدمته لا يخلون من محبته لكن العامة التي تكون هي المقتضية

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: العباد المخصوصون بالعناية على قسمين: قسم: وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها، وهم أنواع: فمنهم من انقطع في الفيافي والقفار لقيام الليل وصيام النهار وهم العباد والزهاد، ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين وهم العلماء والصلحاء، ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته وهم المجاهدون في سبيل رب العالمين، ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد وهم الأمراء والسلاطين.

وقسم: أقامهم الحق لمحبته واختصهم بمعرفته، وهم العارفون الكاملون سلكوا سواء الطريق ووصلوا إلى عين التحقيق، وبينهما فرق كبير؛ لأن أهل الخدمة طالبون الأجور، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب، وأهل المحبة في مناجاة الأحباب أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب، وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب، أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان، وأهل المحبة من أهل الشهود والعِيان، أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحظوظ، وأهل المحبة تصب عليهم الحظوظ أهل الخدمة محبتهم مقسومة، وأهل المحبة محبتهم مجموعة، فلذلك دام أهل الخدمة في خدمتهم، ونفذ المحبون إلى شهود محبوبهم، فلو تركوا الحظوظ وحصروا محبتهم في محبوب واحد لنفذوا إلى محبوبهم وشهدوه ببصر إيقانهم واستراحوا من تعب خدمتهم، ولكن حكمة الحكيم أقامتهم في خدمتهم فوجب تعظيمهم في الجملة، ولا يلزم منه عدم تفضيل أهل المعرفة والمحبة عليهم.

لخدمته، للإشفاق من عقوبته أو الرغبة فيما في خزائن جوده من كرامته لا الخاصة من محبته المقتضية الفناء في مشاهدته التي هي نصيب من اختصهم لمحبته، وهم أيضًا لا يخلون من خدمته بأوفى نصيب لكن له به لا لشيء أصلاً فناء في حضرته، فنسب كل إلى ما هو الغالب عليه في سره من قسمته تعالى؛ فقال: محققًا لك لزوم دوام أدبك معه إجلالاً لربوبيته، وأن المعطي ليس إلا هو، فلا تحقرن عطاياه في خلقه: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي: ممنوعًا.

ثم اعلم أنه لا ينحصر عطاء الله في صورة ما تقدم بيانه بل يجوز أن يعطي قومًا الجمع بين الحالتين، والتحقق في المشهدين؛ بحيث لا تحجبهم المجاهدة عن المشاهدة، ولا المشاهدة عن المجاهدة، فيطالعون آيات الله ظهورات الشهود في لوح وجود المعبود من مرايا أحرف الحدود، وأطوار رسوم نجوم المحدود من سماوات شهود المشهود، وحسب الواردات البارزة من عين المنة، والإفضال على الغالب؛ ولذا قال ﷺ:

**٧٣- «قَلَّمَا تأتِي الوارداتُ الإلهيَّةُ إلا بغتةً صِيانَةً لها؛ لئلا يَدَّعِيهَا العبادُ بوجوبِ الاسْتِعْدَادِ»**(١).

**أقول**: كيف يدعي ذلك، والاستعداد بالأوراد، وغيره من تصفية المراد ونحوها،

---

(١) قال القشيري ﷺ: الوارِدُ هو ما يَرِدُ على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تَحَمُّلٌ والواردات أعمُّ من الخواطر، لأن الخواطر تختصُّ بنوع خطاب، أو ما تضمن معناه والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني، وهو قريب من الحال. وقال الشرقاوي: «قلما تكون الواردات الإلهية» أي: قل حصولها «إلا بغتة» أي: غير بغتة، والمراد بها العلوم الوهبية والأسرار العرفانية التي يتحف الله بها عباده، ولا تكون في الغالب إلا بغتة؛ أي: فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرها «لئلا يدعيها العباد» أي: يرون أنهم أهل لها «بوجود الاستعداد» لها بالاجتهاد في الأوراد والعبادات تمسكًا بنحو قوله ﷺ: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به، فلا تحصل لهم معرفته الخاصة ولا واردات إلهية، وحاصله: إن الواردات هدايا من الله تعالى وفتح منه، فلا تحصل عقب العبادات الصادقة وبنورها، بل تحصل بعد ذلك بغتة، وحصولها عقب العبادات نادر قليل. وسئل الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ نفعنا الله بذكره ـ عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية، فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستعداد، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالبًا. انتهى.

وقد تبين أنه مسبوق لبعض الواردات التي هي من عين المنة، والسابق من الورد للواردات مدلل أيضًا، والتلازم بينهما غالبًا، وذلك على سبيل العادة المعتقد صحة تخلفها عند السادة، وتعرف لقوم بالحكمة، ولقوم بالفتنة، فكم من مأخوذ بوارد قهره، فلم يتق فيه بقية الورد، وكم من متمسك بورد لم يحصل له به وارد، وكم من كامل أو مكمل ظفره الله بهما، فتحكم فيهما، ولم يحكما عليه، ولو حصل موجب ذلك للتمكين إفضالاً من الله، فلا يتعد الحال المقال، ولا يبرز في المقال من الحال إلا ما أراده من الموافق للسائل والسؤال؛ فلذا قال ﷺ:

**٧٤- «مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا عنْ كُلِّ ما سُئِلَ ومُعَبِّرًا عن كلِّ ما شَهِدَ، وذَاكِرًا لكلِّ ما عَلِمَ، فاسْتَدِلْ بذلكَ على وجودِ جهلِه»**(١).

**أقول**: كل هذه الكليات المستقرة عند عموم العقول أن المتصرف بإظهارها عالم كامل لبيان إحاطته بكل ما سُئل عنه كامل التمكن في التعبير عن كل ما يشهده، كامل البصيرة في ذكر كل ما يعلمه، والصواب خلاف ذلك، وذلك دليل جهله في كل من الكل، وبيانه اختلاف حال السائل والسؤال، فيختلف كذلك الجواب أو الجواب، الله أعلم، وهو الصواب عند موجبه، فإن كل ما يُسأل عنه ويشهد له، ويعلم سنه منحصر فيما لا يجاب

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «من رأيته» من المريدين أو العارفين «عن كل ما سئل مجيب» أي: سئل عنه من العلوم التي يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التي يخص بها العارفين «ومعبرًا عن كل ما شهد» أي: شهده وذاقه بباطنه وهي تلك العلوم والمواهب، «وذاكرًا لكل ما علم» من تلك العلوم «فاستدل بذلك على وجود جهله»؛ لأن إجابته على كل سؤال تقتضي إحاطته بكل المعلومات، وذلك محال في حقه قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥] ولأنه يجب مراعاة حال السائل فقد لا تكون في بعض السائلين أهلية للمسئول عنه، فتكون إجابته مثله من الجهل وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من إفشاء السر الذي يجب كتمانه.

وقد قالوا: «قلوب الأحرار قبور الأسرار» والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة وأيضًا فالأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارة فيها إشهار لها، وفيه ابتذالها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضًا وانغلاقًا؛ لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراكها بالعبارات النطقية، وذكره «لكل معلوم له» دليل على عدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون فيها ما لا يصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والإفساد وإنكار الناس له.

عنه، ولا يعبر ولا يذكر أبدًا استتارًا، وفيما يرمز للخاصة تخصيصًا، وفيما يُبرز للعموم تعميمًا، هذه بينة الله في حضرته، فالخصوص والعموم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، فما آثر نفسه به كالخمس[1] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] وما خص به حضرة المصطفى ﷺ هو ما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠] وما بثه للعموم فمعلوم، كذلك المصطفى ﷺ له هذه الأحوال، وكذا كل مكمل ومن لم يعتبر أوزان هذه الحقائق؛ فهو جاهل بتفاوت قوابل الخلائق، ولا يصلح للدلالة على الملك الخالق، والجهل بها إما لعدم تميزها؛ لعدم وجود عرفانه، وإما لغلبة الحال، وعلى الحالين لا يلحق بأهل الكمال المجازى عليه في الدار الآخرة بأوسع نوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٧٥- «إنَّما جعلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلا لجزاءِ عِبَادِهِ المؤمنينَ؛ لأنَّ هذِهِ الدَّارَ لا تسعُ ما يريدُ أنْ يُعْطِيَهُمْ، ولأنَّه أجل أقدارهمْ عَنْ أن يجازِيَهُمْ في دارٍ لا بقاءَ لَهَا»**[2].

---

(١) المقصود بالخمس: الخمسة أشياء المذكورة في الآية وهي كاملة: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: لا شكَّ أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغُرور، وحكم عليها بالهلاك والثبور؛ فهي دار دَنِيَّةٌ دَانِيَةٌ زائلةٌ فانيةٌ، فلذلك سميت الدنيا إمَّا لدنوها، وإما لدناءتها فهي ضيقة الزمان والمكان، ووسم الآخرة بدار القرار ومحل ظهور الأنوار، وانكشاف الأسرار، محل النظرة والحبور، ودوام النعمة والسرور، محل شهود الأحباب، ورفع الحجاب، نعيمها دائم، ووجودها على الدوام قائم، فلذلك جعلها الحق تعالى محلاً لجزاء عباده المؤمنين، ومقعد صدق للنبيين والصديقين، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم في دار لا بقاء لها ضيقة الزمان والمكان ومحل الأكدار والأغيار والذل والهوان؛ لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم؛ أي: لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زمانًا ولا مكانًا؛ لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات فكيف بأعلاهم! قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].
وقال ﷺ: يقول الله تبارك وتعالى: «أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ» ولأنه ﷻ أجل؛ أي عظم أقدار عباده المؤمنين والمقربين أن يجازيهم في دار لا بقاء لها فعمارتها خراب، ووجودها سراب، ففي بعض الأخبار لو كانت الدنيا من ذهب يفني والآخرة من خزف يبقي لاختار العاقل الذي يبقي على الذي لا يبقي. انتهى.

**أقول**: إذا كان الجزاء من الباقي باقيًا لبقاء فلا يكون إلا في الباقي من المواطن؛ ولأن الفاني منها لا يسع الباقي إجلالاً لقدر العطاء، والمُعْطَى من المُعْطي الحكيم الذي رتبت حكمته مراتب المصنوعات، ونظامها في كل عوالمها على أبدع الصفات، وإعطاء كل مرتبة ما تقتضيه الحكمة من المناسبات.

**فإن قلت**: لم ينحصر جزاؤه في المآل دون الحال قلت: جل جزاؤه عن الحصر في المآل دون الحال، ومنه ما هو مشهود في الحال، لكن جزاء مناسب لا يحول كما يحول، **فلا يعتبر ما يزول بما لا يزال، ودل على عدم حصره في المآل أيضًا ما قال ﷺ**:

**٧٦- «منْ وجدَ ثمرةَ عملِهِ عاجلاً فهو دليلٌ على وجُودِ القَبُول آجلاً»**(١).

**أقول**: إن العمال أهل فرق، وهم المشغولون عن الله بما سواه مما يرضاه، وأهل جمع وهم المشغولون بشهود الله عما سواه مع ما يرضاه، وكل لعلمه ثمرة عاجلة وآجلة؛ **فالآجل** له المجازاة بها في الدار الآخرة التي لا يسعها غيرها، **والعاجلة**: هي التي في هذه الدار، وهي من دلالات صحة حصول الإجابة، والمحقق عنها القبول لأعمال أهل الفرق، والإقبال على وجه توجهات أهل الجمع في الحق؛ وهي لأهل الفرق ما يقع لهم من الخرق من أنفسهم، ومن الله في دائرة الخلق، ولأهل الجمع ما يوحشهم مما سوى الله، ويحققهم

---

=

لاسيما بالعكس، فالآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى، فلا يختارها إلا من حكم الله عليه بالشقاء والعناء، والخزف بالخاء والزاي والفاء المحركات: الطين المصنوع للبناء وهو الأجُر، وفي حديث آخر: « **ألا وإنَّ السعيدَ منِ اختارَ باقيةً يدومُ نعيمُهَا على فانيةٍ لا يَنفَكُّ عذابُهَا، وقدَّم لما يَقدم عليه مما هُوَ الآنَ في يدِهِ قبلَ أنْ يُخَلِّفَهُ لمن يسعدُ بإنفاقِهِ، وقد شقيَ هو بجمعِهِ واحتكارِهِ**». انتهى.

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «من وجد» من المريدين «ثمرة عمله» أي: من الحلاوة فيه والنعيم به «عاجلاً فهو دليل على وجود القبول» أي: قبول الله له.

قال أبو تراب: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله، وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل، وذاك علامة وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة كما سيأتي، وإذا وجد تلك الحلاوة لا ينبغي أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذا لا ينبغي أن يقصد بعملها حصولها لما فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بها لتكون ميزانًا لأعمال وتصحيحًا لأحواله فقط.

بفنائهم في الله، ويشهدهم تجليات صفاته وأسمائه؛ فيستأنسون به في حضرات بقائه فذق يا فهيم، وتأمل هذا التقسيم، وانظر أنت بأيهما تهيم، وخذ علم المآل من الحال تعلم أين منزلك من الإنزال، وأيد هذا المصنف هذا الملَحْظَ حيث قال ﷺ:

**٧٧- «إنِ أردتَ أنْ تعرفَ قَدْرَكَ عنده فانظر في ماذا يُقِيمَكَ فيه؟»**(١).

**أقول**: أراد مطلق مقام يقيم الحق فيه عباد في هذه الدار مما تقدم بيانه، واتضح لك برهانه، ومن مخالفة المتخلى عنه بالتخلي، والتحلي للتجلي في مقام الجمع والفرق الذين هما وصفان لأهل الحق من الكمال للكامل منهم الجامع لما على الحق الذي لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه الحاكم المتمكن بالله، وهذه نعمة معجلة من الله دالة جامعة له الكمال عند الله، وكذا من يليه له بقدره إلى أدنى الحال الذي من استغنى عنه، وعن أعلاه بالله يكون منعمًا عليه كما قال ﷺ:

**٧٨- «مَتَى رزقَكَ الطاعةَ والغِنَى به عنها، فاعلمْ أنَّه قد أسبغَ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً»**(٢).

**أقول**: متى رزقك من تلك المقامات الإقامة في مقام مع الوقوف ظاهرًا وباطنًا عند الحدود لا تخالفها، ورزقك مع ذلك الغنى به شهودًا له بفنائك عنك، وعنها في حضراته، فلا ترى معه شهودًا سواه؛ فقد أسبغ عليك نعمه بذلك باطنة لشهودك له به منك، ومنها: من حيث تجلياته التي لا يخرج شيء عنها، وقيوميته بها، وظاهرة بإجراء صور أطوارها

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «إن أردت أن تعرف قدرك عنده» هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء «فانظر في ماذا يقيمك» من طاعة أو ضدها؟ فمن كان من أهل السعادة والقبول استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات، ومن كان من أهل الشقاوة استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات وهذا يناسب العامة، وأما الخاصة، فيقال فيه: إن أردت أن تعرف قدرك ـ أي: منزلتك ـ عنده، هل أنت من المقربين أو لا، فانظر في ماذا يقيمك؟ أي: يورده على قلبك من إدراك جلالته وعظمته. قال ﷺ: «**من أراد أن يعلم منـزلته عند الله؛ فليعلم منـزلة الله من قلبه**».

(٢) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «متى رزقك الله الطاعة» أي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي في ظاهرك، «والغنى به عنها»، بألا تركن إليها في نيل مطلوبك، بل تعلق قلبك بمولاك، وغيب عن كل شيء سواه «فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة» وهي تلك الطاعة، «وباطنة» وهي معرفتك التي أوجبت لك الغيبة عنها وعدم رؤيتها.

عليك منه به في مظهريتك لك ولأمثالك، فهي مرآة مرضية يتراءى لك منها بما يقومُهَا من الأسماء والصفات وأنواع التجليات التي تتجلى بها الذات، فأنت بذلك من مظاهر الكمال وهو المطلوب منك، ومن أحرار الرجال؛ ولذا قال ﷺ:

٧٩- «خيرُ ما تطلبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالبُهُ مِنْكَ»(١).

أقول: أعظم مطلوباتك منه عندك الذي يطلبه هو منك، وهو المتقدم بيانه وغايته فناؤك في مجاهدته ومشاهدته؛ لتكون حرًا بذلك عبدًا له باقيًا أبدًا فيك، وفي شؤونه الظاهرة به لك من حيث أنت، وبه له من حيث هو، ودونها مراتب بحسب تخصيص إرادته وظهور قدرته على وفق ما في علمه، وذلك ظاهر بطلب الطالبين من خلقه مشهود ظهور رجحانه لما شاء منهم ممن سبق له بالوسائط والأسباب التي منها النهوض للاكتساب دون الانجذاب، فمن لم يجده وآسف على نفسه، ولم ينهض لبلوغه مراتب الأبطال لما قال ﷺ:

٨٠- «الحزنُ على فقدانِ الطاعةِ معَ عدمِ النهوضِ إليها من علامات الاغْتِرَارِ»(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «خير ما تطلبه منه» أي: أفضل الأشياء التي تطلبها منه «ما هو طالبه منك» من الاستقامة على سبيل العبودية له، فهذا أخير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، دنيوية كانت أو أخروية، فإن في ذلك حظًا لنفسك.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الحزن هو التحسر على شيء، فإن لم تحصله وندمت على تحصيله أو التوجع على شيء منعت منه ولم تقدر على تحصيله، فإن كان حزنك على شيء منعت منه ونهضت إلى أسبابه الموصلة إليه، فهو حزن الصادقين.

قال أبو علي الدقاق ﷺ: يقطع صاحب الحزن في شهر ما لا يقطعه غيره في سنين، وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين، وإن كان على ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين، وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين، وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: ليس البكاء بتعصير العيون، إنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي عليه، وقيل: لا يغرنك بكاء الرجل. فإن إخوة يوسف ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:١٦] وقد فعلوا ما فعلوا. انتهى.

فالحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إلى استدراك ما فات منها، أو إلى تحصيل ما حضر منها من علامة الاغترار؛ أي: الغرور وهو الركون إلى ما لا حقيقة له؛ فالاغترار قبول الغار، والانقياد إلى غروره وخدعه، فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حزن الكاذبين، والصادقين، والصديقين السائرين.

فحزن الكاذبين: هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات، وحزن الصادقين: هو الحزن

**أقول:** الحزن الذي هو توجع القلب أسفًا على فقدان المجاهدة بالوقوف عند الحدود والمشاهدة بالفناء في المشهود من غير اقترانه بالنهوض إليها، وإلى الأسباب المعينة عليهما والوسائط الموصلة إليهما اغترار موجب للحرمان، وللاحتجاب عن العيان والقطيعة عن أهل العرفان، وإن نهضت فانهض إلى حضرات الرجال العارفين أولي الكمال تبلغ المنال، واحذر التباسهم عليك لما قال ﷺ:

**٨١- «ما العارفُ منْ إذا أشارَ وجدَ الحقَّ أقربَ إليه من إشارتِهِ بل العارفُ منْ لا إشارةَ له لفنائِهِ في وُجودِهِ، وانطوائِهِ في شُهودِهِ»**(١).

---

=

المصحوب بالجد والاجتهاد والتوسط في العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقي من الأوقات لاستدراك ما فات، **وحزن الصديقين من السائرين:** هو الحزن على فوات الأوقات أو حصول شيء من الغفلات أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات، إلا أن حزنهم لا يدوم؛ إذ لا يقفون مع شيء ولا يقبضهم شيء، وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] إذ الحزن إنما يكون على فقد شيء، أو فوات غرض وماذا فقد من وجد الله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

وفي هذا المقام ينقطع البكاء؛ إذ لا بكاء في الجنة، وقد رأى الصديق قومًا يقرأون ويبكون، فقال: كذلك كنا ثم قست القلوب، فعبر بالقسوة عن التمكين أدبًا وتسترًا؛ لأن القلب في بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال، فإذا استمر معها، وتصلب لم يتأثر بشيء ويكون كالجبل الراسي ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

(١) **قال الشيخ ابن عجيبة: الإشارة أرق وأدق من العبارة، والرمز أدق من الإشارة، فالأمور ثلاثة:** عبارات وإشارات ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح والإشارة تلوح والرمز يفرح؛ أي: يفرح القلوب بإقبال المحبوب، وقالوا: علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي؛ أي: خفي سره؛ أي: فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب كذكر سلمى وليلى، وذكر الخمرة والكيسان، والنديم وغير ذلك مما هو مذكور في أشعارهم وتغزلاتهم وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع، وكذكر البحار والإغراق، وغير ذلك مما هو مذكور في اصطلاحاتهم.

وأما الرموز فهي إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم، ومنها في القرآن فواتح السور، ومنها في الحديث كقول رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**أريدُ أنْ أدْعُوكَ لأمرٍ قالَ: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو ذاك**»؛ فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما، وقال له أيضًا: «**يا أبَا بكرٍ أتعلمُ يومَ يومَ**» بتكرير لفظ يوم «**قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير**» فهذه رموز بين الصديق وحبيبه. قال

أقول: **الإشارة هي**: مستودع ألطف المعاني التي تضيق عن حملها العبارة، وليس العارف الكامل من إذا أشار بإشارة المسترشد وجد الحق أقرب إليه منها فضلاً عن من يشير فيجد الحق قريبًا منها، أو من يشير فيجد الحق عندها لما تضمنته الإشارة من التعدد الذي يقتضي مشيرًا، وإشارة ومشار إليه؛ بل العارف الكامل من لا إشارة له أصلاً إما لفنائه في وجود الحق وانطوائه في شهوده غيبة عن الخلق، وإما لبقائه بالحق ونوره وانتشاره به في مراتب ظهوره، فإن أشار فلا إشارة له لبقائه به بعد فنائه فيه، وإنما هو لله في جميع أموره سواء كان الحق أقرب إليه منها، أو قريبًا، أو عندها لأكملية مجموعتيه فتتنعم به جميع

---

=

الشيخ زروق ﷺ في شرح الحزب الكبير: وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالعلماء؟ فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف يطمع في حقائق رب العالمين؟ انتهى.

وأما الإشارات فيدركها أربابها من أهل الفن، والناس في إدراكها وعدمه على أقسام، فمنهم من لا يفهم منها شيئًا، ولا يعرف إلا ظاهر العبارة وهم الجهال من عموم الناس، ومنهم من يفهم المقصود، ويجد الحق بعد الإشارة أي بعد سماع الإشارة وهم أهل البداية من السائرين، ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته وهم أهل الفناء في الذات قبل التمكين. ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم، أكثر مما يتواجدون عند الذكر؛ لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة، بخلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم فاستغنوا عن الإشارة والمشير، ولذلك قيل للجنيد ﷺ: ما لك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشيء؟ قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]. انتهى.

وهذا هو العارف الذي لا إشارة له لفنائه في وجود الحق وانطوائه في شهوده، أو تقول لتحقق وصوله وتمكنه في شهوده، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده في وجود محبوبه، وانطواء ذاته في ذات مشهوده، أو تقول لـزوال وهمه وثبوت علمه فتحققت الوحدة وامتحقت الغيرية.

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد ﷺ في وصف العارف: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه أحرقت قلبه أنوار هدايته، وصفا شرابه من كأس وده تجلى له الجبار عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن سكت فمن الله، وإن تحرك فبإذن الله، وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله. انتهى.

فهذه صفات العارف الحقيقي الراسخ المتمكن قد كلّ لسانه عن التعبير، واستغنى عن الإشارة والمشير، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير، وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتُحمَل على هذا القصد.

obeikandi.com

المراتب؛ لإعطاء كل قابلية ما تسعه، فهو بالله لله منتشر عنه، وكذا ما منه، والكل من تجليات بطون الحق، فإن أشرق لراج مُسَتَرْشِدٍ في عمره مرشد هاله شمس هذا الكمال؛ فليلزمه عاملاً مع رجائه لما قال ﷺ:

٨٢- «**الرَّجاءُ ما قارنه عملٌ، وإلا فهوَ أمْنِيَّةٌ**»(١).

**أقول**: إن الرجاء لا يكون رجاء إلا مع مقارنة الأعمال الصالحة التي منها الأدب مع الأستاذ المنجحة التي هي عبادة مستورة عن النفس مُظْهرة لجوهرها، مزيلة للبس، وما لم

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا، وقد قال معروف الكرخي ﷺ: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق. وقيل: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقير، ووقد النار من البحر صحيح، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم وفتح مخازن الفهوم فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين، مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢] فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلاً، وإلا كان باطلاً وبقي جاهلاً. والذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول، ويشرح الصدور، ويوسع المعقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبين وأذواق العارفين فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح نفسه، والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع الذل والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله، وليلتـزم الصمت والعزلة وليحسن ظنه بالله، وبعباد الله، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده ﴿**إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ**﴾ [الأنفال:٧٠]، قال في القواعد قاعدة: طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية مِنح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك، وهو ثلاث: **أولها**: العمل بما علم قدر الاستطاعة. **الثاني**: اللجأ إلى الله على قدر الهمة. **الثالث**: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة، فيجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح. وقد أشار الجنيد إلى ذلك بقوله: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال، أو كما قال، وفي الخبر عنه ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أورثَهُ الله علمَ ما لم يَعْلَمْ**»، وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا انتهى. فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجح مطلبه، وكان رجاؤه صادقًا، ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية؛ أي: غرورًا وحمقًا.

يقترن بالرجاء، وإلا فهو أمنيته وهي تمني الخيرات مع الراحات، وعدم المجاهدات فكيف مع فعل السيئات قال ﷺ: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»**(١)، فالصادق في الرجال عامل على شاكلة صدقه بنهاية ما يمكنه لمطلوبه في الحال للمآل؛ ولذا قال ؓ:

٨٣- **«مطلبُ العارفينَ منَ الله تعالى الصدقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحقوقِ الرُّبُوبِيَّةِ»**(٢).

**أقول:** لأن العبودية علة وجود العالم وبالصدق قوامها، وقوام كل عالِم عَامل، ونجاح حاله في حاله ومآله، وقد تقدم بيانها وهي لوازم العبدية، والصدق فيها القيام بها حقًا للربوبية غير معللة بعلة إلا الامتثال، والمتابعة للشارع على مناط التشريع وما اقتضاه عرفان العارفين من شهود الحق فيها للكمال، فطلبوا الصدق فيها؛ لأنها أعلا مظاهر صفاته وأتم مجالي تجلياته؛ لأنها المرضيات منها فلذا غابوا في الصدق عن الصدق فيها مستجلبين ذلك منها كل على قدره مما أفيض له عنها ومنها: **﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾** [البقرة:٤٥] والخاشعون لله هم العارفون به من حيث ما به يتجلى حلت لكل منهم، فتملى ودخل إلى حضرة الكمال من باب: **«أرحنا بها يا بلال»**(٣) وذلك ببسط شهود تعريفه من

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٨/ ٤٩٩)، وابن ماجه (١٢/ ٣١٢).

(٢) قال الشرقاوي: «مطلب العارفين من الله تعالى» أعلى من مطلب غيرهم، سواء كان عابدًا أو زاهدًا أو عالمًا؛ لأن مطلبهم هو «الصدق في العبودية» وهو التزام آدابها والتخلق بأخلاقها، والقيام بحقوق الله فيها، كالشكر على ما أولاه والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وترك الاختيار عليه، والتدبير معه، ودوام المراقبة له، والوقوف ببابه لابسًا ثوب التواضع والذلة، باسطًا يد الفقر، ماسكًا حبل الرجاء، مرتديًا برداء الخشية إلى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها، فمن صدق في ذلك كان موفيًا بما عاهد الله عليه، «والقيام بحقوق الربوبية» في ظاهرهم بالطاعة، وفي باطنهم بالمراقبة له، ودوام الحضور معه أي: أنهم لا يطلبون منه إلا هذين الأمرين من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس، بخلاف من عداهم، فإنه لم يفارق الحظوظ والأغراض في مطلبه، فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب.

قال أبو مدين ـ قدس سره ـ: «شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور».

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٩٥).

obeikandl.com

مظاهر أطوار تكليفه؛ ولذا قال ﷺ:

**٨٤- «بَسَطَكَ كي لا يُبْقِيكَ مع القبضِ، وقَبَضَكَ كي لا يَتْرُكَكَ معَ البَسْطِ، وأخرجَكَ عنهما كي لا تكونَ لشيءٍ دُونَهُ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البسط فرح يعتري القلوب أو الأرواح، إما بسبب قرب شهود الحبيب أو شهود جماله أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله وتجلي ذاته، أو بغير سبب والقبض حزن وضيق يعتري القلب، إما بسبب فوات مرغوب، أو عدم حصول مطلوب، أو بغير سبب وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار؛ فالعوام إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا، وإذا غلب عليهم الرجاء انبسطوا، والخواص إذا تجلى لهم بوصف الجمال انبسطوا، وإذا تجلى لهم بوصف الجلال انقبضوا، وخواص الخواص استوى عندهم الجلال والجمال، فلا تغيرهم واردات الأحوال؛ لأنهم بالله ولله لا لشيء سواه، فالأولون مَلَكَتْهُم الأحوال، وخواص الخواص مالكون الأحوال، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار، ودفعك إلى حضرة الأسرار، فإذا أخذك القبض وتمكن منك الخوف، وسكنت تحت قهره، وأنست بأمره أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك ويذوب جسمك، فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنست بجماله قبضك لئلا يتركك مع البسط، فتسيء الأدب وتجر إلى العطب؛ إذ لا يقف مع الأدب في البسط إلا القليل، هكذا يسيرك بين شهود جلاله وجماله، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت، وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت.

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب أو إلى سياسة الدواب؛ فمن آداب القبض الطمأنينة والوقار والسكون تحت مجاري الأقدار، والرجوع إلى الواحد القهار، فإن القبض شبيه بالليل، والبسطَ شبيه بالنهار، ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون والحنو، فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط؛ إذ لابد لليل من تعاقب النهار ولابد للنهار من تعاقب الليل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦].

هذا أدب القبض الذي لا تعرف له سببًا، وأما إن عرفت له سببًا فارجع فيه إلى مسبب الأسباب، ولُذْ بجانب الكريم الوهاب، فهل عودك إلا حسنًا وهل أسدى إليك إلا مننًا، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار فالذي أنـزل الداء هو الذي بيده الشفاء، يا مهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت، فما تجده القلوب من الأحزان فلأجل ما منعته من الشهود والعِيان.

ومن آداب البسط: كف الجوارح عن الطغيان، وخصوصًا جارحة اللسان، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت، فربما تنطق بكلمة لا تلقي لها بالاً فتسقط في مهاوي القطيعة بسبب سوء أدبها، ولذلك كان البسط مزلة أقدام، فإذا أحس المريد بالبسط، فليلجم نفسه بلجام الصمت، وليتحل بحلية السكينة والوقار وليدخل خلوته وليلتـزم بيته، فمثل الفقير في حالة البسط والقوة كقدر غَلَى

**أقول:** بسطك في حال احتجابك عنه بظهوره من تعريفه بتعرفات تجليات جماله كيلا يبقيك في تكليفه بمحض تجليات جلاله، فتكون مغبونًا، وقبضك بها كيلا يتركك بمحض البسط فيفضي بك إلى إفراط فيه، فتكون غير متأدب في حضرته مفتونًا، وأخرجك عنهما شهودًا له بكمال تعرفه لك بهما؛ كي تكون به كاملاً لا بهما في شهودك له، ولا لهما، ولا لشيء من أنواره وصفاته وأفعاله وتجلياته في تعرفاته دونه، فإنك له لا لسواه، وكل ما سواه لك بالإفضال، ولما كان تعاقبهما مع ذلك موجودًا في الكمّل مع الرجال، وفي البسط ما يقتضي التحرز، قال ﷺ:

٨٥- **«العارفون إِذا بُسِطُوا أخوفُ منهم إذا قُبِضُوا ولا يقِفُ على حُدودِ الأدبِ في البَسْطِ إلا قليلٌ»**(١).

**أقول:** لما كان الكمال للكمّل في المعرفة سجيتهم المقتضية أنهم يكونون به له لا لشيء دونه، وأنهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] اقتضى ذلك أنه إذا بسطهم هو بتجليات جماله انبسطوا بإبساطه لا غير، وكانوا هم في ذلك أخوف منهم إذا قبضهم هو بتجليات جلاله لما يخشونه من غوامض كوامن الآنية النفسانية والاستدراجات المكرية التي يمكن طيها في بساط البسط وخفاؤها عليهم به؛ ولذا هم فيه أخوف بخلاف تجليات الجلال فمطمئنون بها آمنون من ذلك وأمثاله بواسطة ما يقضي به الجلال من اليقظة والأدب والحذر والخوف المطلوب، وإن لم يخف عليهم، وأيضًا فلا يقف على حدود أدب الأقوال والأفعال والأحوال في البسط إلا قليل؛ لأن الوقوف على الحدود شكر نعمة المعرفة بالله التي من لوازمها الخوف منه بقدرها وأهل ذلك قليل. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ

---

=

وفار، فإن تركه يغلي إهراق إدامه وبقي شاحتًا، وإن كفه وأخمد ناره بقي إدامه تامًا كذلك الفقير في حالة القوة والبسط، يكون نوره قويًّا وقلبه مجموعًا، فإذا تحرك وبطش وتتبع قوته برد ورجع لضعفه، وما ذلك إلا لسوء أدبه، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «العارفون إذا بسطوا أخوف منهم» أي: أكثر خوفًا من أنفسهم «إذا قبضوا»، وذلك لملائمة البسط لهوى نفوسهم، فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات وغيرها، وربما كان في ذلك الطرد والبعد، وأيضًا قد يصدر منه في ذلك الوقت كلام لا يليق بحضرة الرب جل جلاله، وحينئذ فيتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمر عسير في هذا الحال.

﴿مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] فتنبه يا أخا الكمال لذلك واسمع ما أيده به، وقال ﷺ:

**٨٦- «البسطُ تأخُذُ النفسُ مِنْهُ حظَّهَا بوجودِ الفرحِ، والقبضُ لا حظَّ للنفسِ فيهِ»**(١).

**أقول:** هذا تأكيد ما تقدم بعلامة ظاهرة في النفس، وهي وجدان حظ الفرح المحقق في البسط، وعدمه في القبض، فالعاقل يرى في القبض عطاء؛ لعدم حظ النفس فيه، وفي البسط منعًا؛ لوجود حظ النفس فيه، والغافل بضد ذلك، وذلك حالة الجهال، فانظر كيف هو منقذهم من ظلمة جهلهم بها قال ﷺ:

**٨٧- «رُبَّمَا أعطاكَ فمنعَكَ ورُبَّمَا مَنَعَكَ فأعطاكَ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرْقاوي: «البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه» في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط من الأمر اليسير، فلذا كان لا يقف عند حدود الأدب فيه إلا القليل بخلاف القبض، فكأنه يقول: إنما كان كذلك؛ لأن النفس تأخذ منه حظها، ومن شأن النفس إذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق والدعوى بإظهار ما عندها من العلوم والفهوم والأحوال والأسرار والتحدث بالخصوصية والتلذذ بنسبة الخوارق، والإشارة إلى الكرامات وإدراك المقامات، كل على حسب حاله، وكل ذلك مناف للعبودية، بخلاف القبض، فإنه لا حظ للنفس فيه، فلا تتمالك أن تظهر شيئًا من ذلك، فهو أقرب للسلامة، ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية، ولذا آثره العارفون على البسط.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الغالب على النفس الأمارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء تنقبض بالمنع؛ لأن في العطاء متعتها وشهوتها فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها ولاشكَّ أنها تنقبض بذلك وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع، كما يأتي، فافهم أيها الفقير عن مولاك، ولا تتهمه فيما به أولاك فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها. ربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح، وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح، وربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق، ربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم، وربما منعك من كثرة العلوم وأعطاك الأنس بالحي القيوم فأحطت بكل مجهول ومعلوم، ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، وربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة، ربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق، وربما أعطاك خدمة الكون

**أقول**: ربما أعطاك الفرح من البسط، فأفرطت فيه، فمنعك الوقوف على الحدود التي بها تصلح لحضرات الشهود، وربما منعك إياه فأعطاك ما فات من فرحه به، ورضاه، أو ربما أعطاك دنياه، فمنعك أخراه، ومنعك دنياه فأعطاك أخراه، أو ربما أعطاك شهود ما سواه، فمنعك شهود تجليات علاه، ومنعك شهود ما سواه، فأعطاك شهود تجليات علاه، أو ربما أعطاك اصطلامًا(١)، فمنعك أن تكون للناس إمامًا، ومنعك إياه، فأعطاك التكميل والكمال إلى ما لا ينحصر من الحال؛ ولذا قال ﷺ:

٨٨- **«متى فَتَحَ لكَ بابَ الفهمِ في المنعِ عادَ المنعُ عينَ العَطاءِ»**(٢).

**أقول**: لأنه يصير لك تجليًا؛ لوجود أسرار الحكم المترتب عليها ما به تتملى خواص الأمم، وتحيط علمًا بما يكون من ذلك عدلاً وفضلاً، فتعمل على شاكلة ما من ذلك الباب تهيلى رسمًا وشكلاً، فتفقه عن ربها، وتعلم منزلة قربها؛ فترضى حيث لا غيرها بواسطة عدم فتح باب الفهم له يرضي، وكيف لا يكون هذا المنع عين العطاء، وبه كشف الغطاء، فسبحان من أخفى أسرار حكمه عن عموم النواظر في بواطن الظواهر، وأطلع عليها قلوب الخواص من الرجال تخصيصًا يشهد له ما قال ﷺ:

---

=

فمنعك من شهود المكون، وربما منعك من خدمة الكون وأعطاك شهود المُكَوِّن، وربما أعطاك التصرف في الملك ومنعك دخول الملكوت، وربما منعك من التصرف في الملك ومنحك شهود الملكوت، وربما أعطاك أنوار الملكوت فمنعك الترقي إلى بحر الجبروت، وربما حجب عنك أنوار الملكوت فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت، وربما أعطاك القطبانية ومنعك التمتع بشهود الفردانية، وربما منعك القطبانية ومتعك بشهود سر الوحدانية إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب.

قال الختم ابن العربي الحاتمي ﷺ: إذا منعت فذاك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، فاختر الترك على الأخذ انتهى. وشاهده قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء.

(١) كُلُّ شيءٍ اصْطُلِمَ: لم يبقَ منه شيءٌ. تاج العروس (١/ ١٠١٠).

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «متى فتح لك باب الفهم في المنع» بأن فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك، ولولا يعلم أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما آنزله بك «عاد المنع» أي: صار «عين العطاء» ومن الفهم في المنع ما سيأتي قوله: «ومتى منـ لك أشهدك» قهره.. إلخ.

**٨٩- «الأكوانُ ظاهِرُهَا غِرَّةٌ وباطنُها عِبْرَةٌ، فالنفسُ تنظرُ إلى ظاهرِ غِرَّتِهَا، والقلبُ ينظرُ إلى باطنِ عِبْرَتِهَا»(١).**

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الغِرة بكسر الغين وقوع الغرور وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين:

أحدهما: ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة وحسن المنظر وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات وكثرة الأموال والبنين، وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها، فانكب جُلُّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها الليل والنهار والشهور والأعوام، حتى هجم عليهم هادم اللذات فأعقبهم الندم والحسرات، ولم ينفع الندم، وقد جف القلم سافروا بلا زاد وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد ولأجل هذا حذر الله سبحانه من غرورها وزخرفها والوقوف مع ظاهرها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤] ثم قال: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧] أي: لنختبرهم أيهم أزهد فيها، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١] لنفتنهم فيه. وسئل رسول الله ﷺ عن: ﴿أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] فقال: «الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه خلقت الدنيا في قلوبهم فلم يجددوها وخربت بنيانهم فما يعمرونها وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها، فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها ليشتروا بها ما يبقي لهم، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فما يرون أمانًا دون ما يرجون، ولا خوفًا دون ما يحذرون» انتهى. فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان وهي الدنيا وما اشتملت عليه ظاهرها فتنة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان مغرورًا، ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبرورًا، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها، فغرتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلة بقائها، فاشتغلوا بجمع الزاد، وتأهبوا ليوم المعاد أولئك الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكان السلف الصالح إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين.

الوجه الثاني: إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غِرَّةً تغطيةً لسرِّه، وإظهارًا لحكمته، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلى في مظاهر خلقه غطى سره بظهور حكمته، أو تقول: الأكوان ظاهرها ظلمة، وباطنها نور، فمن وقف مع الظلمة كان محجوبًا، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفًا محبوبًا، أو

**أقول**: الأكوان هي ما تكونت عن فعل الفاعل المختار، وهي: فانية وباقية، حسية ومعنوية، وظواهرها ما تبرقش منقرشًا متبرجًا، وهو ما يغر النفوس الأمارة المحظوظة برونق رسوم أسطحة الجسوم المستميلة للطباع منها حسبما أودع فيها من غرائز الطباع النفسانية؛ فتنجذب به إليها بواسطة نظرها، أو خيرها فتميل إليه الميل المفضي إلى الفتنة بالولوع، أو الوقوع وبواطنها ما يلوح من مبدئها ومعادها، وما بينهما من اختلاف أحوالها في حال وجودها وتنقلاتها في أطوارها المحقق منها فناء أوطارها إلى حين فنائها، وما بعد معادها من حشرها، وما يئول إليها في مستقرها من تصاريف بارئها فيها، وهو عبرة لأعين القلوب التي هي صور الاعتدالات الحاصلة للروح الروحانية في أخلاقه، فتنظر إليها بعين عبرتها، وتترقى بها إلى شهود ما قام بكل ذلك من التجليات الموجودة منها الممدودة بفيض حقائقها المختلفة لاختلافها، الظاهر بتنوع أسمائها التي هي أعلام على صفاتها القائمة بذاتها، فما كان من النفوس فمن غريزة حكم الطبع، ومتعلقات نظرها من ظواهر المكونات، فهو فان في الحال، وما كان من القلوب فمن غريزة حكم الإيمان والشرع، ومتعلقات نظرها من بواطن المكونات فهو باقٍ في المآل والحكم للغالب منهما، فإن يكن الغالب متعلق القلوب ففيه العز في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**٩٠- «إنْ أردتَ أن يكونَ لكَ عِزٌّ لا يفنَى، فلا تَسْتَعِزَّنَّ بعزٍ يفنى»**[١].

**أقول**: العز ما يكون به العزيز عزيزًا، وهو ذاتي وعرضي، **فالذاتي**: لله واجب لذاته، **والعرضي**: إعزازه تعالى لمن يشاء مما سواه بما يشاء؛ فيرتفع عن مقامه وأقرانه، إما ارتفاعًا فنائيًا، وإما ارتفاعًا بقائيًا، وذلك باعتبار أسبابها، فالفاني سببه الحال والمآل، ورسوم

=

تقول: الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى، فمن وقف مع الحس كان جاهلاً، ومن نفذ إلى المعنى كان عارفًا، أو تقول الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت، فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين، ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقربين. والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى» بأن تستغني بها مع الغيبة عن مسببها؛ لأنها فانية، فيكون تعلقك بها عزًا لا يبقي بل يزول بزوالها، فإن اعتززت بغيره من مال أو جاه أو نحوهما بأن ركنت إليه وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك، فلا بقاء لعزك؛ إذ لا بقاء لمن أنت به تعتز، ولذا سمع بعض العارفين شخصًا يبكي فقال له: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟.

العلوم والأعمال، وخوارق الأحوال التي لا ثبوت لها في المآل لعلل في الحال، فإن لم تكن معلومة؛ فالكمال فيها عدم التعزز بها، وإن كان مقتضاها العز الذي هو الارتفاع عن المقام والأقران، إما لفنائها وإما لعدم الكمال به فيها، وانظر قول من فضله الله على الرسل تفضيلاً حين خير فاختار أن يكون عبدًا شكورًا رسولاً، فليس إرادته لما لذلك، فإذا أردت ولا بد فكن كذلك، والباقي سببه العز بالله وبالإيمان به وبرسالته وبالقيام بطاعته عبودية محضة للربوبية قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] فكن عما يفنى معرضًا، ومقبلا بإرادتك على ما لا يفنى، وملاك كل ذلك بالغيبة عن الفاني بالباقي للكمال؛ ولذا قال ﷺ:

**٩١- «الطيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِي مسافةَ الدنيا عنكَ حتَّى تَرى الآخرةَ أقربَ إليكَ مِنْكَ»**[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الطي هو اللف والضم بحيث يصير الطويل قصيرًا والكبير صغيرًا، يقال: طويت الثوب؛ أي: ضممته، وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام: طي الزمان، وطي المكان، وطي الدنيا، وطي النفوس. فأما طي الزمان: فهو أن يقصر في موضع ويطول في موضع آخر كمن مرَّ عليه سنون في موضع، وفي موضع آخر ساعة أو يوم، كالرجل الذي خرج يغتسل في الفرات يوم الجمعة قرب الزوال، فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه فسلك طريقًا حتى دخل مصر فتزوج فيها، وولد له أولاد وبقي سبع سنين، ثم ذهب يغتسل يوم الجمعة بنيل مصر، فلما فرغ فإذا ثيابه الأولى فسلك طريقًا فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة من ذلك اليوم الذي خرج فيه والحكاية مطولة للفرغاني في «شرح التائية». وأما طي المكان: فمثاله أن يكون بمكة مثلاً، فإذا هو بغيرها من البلدان وهذا مشهور لأولياء الله. قال الشيخ أبو العباس ﷺ: والله ما صار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلاً مثلنا، فإذا لاقوه كان بغيتهم. وأما طي الدنيا: فهو أن تطوي عنك مسافتها بالزهد فيها، والغيبة عنها وحصول اليقين التام في قلبك حتى يكون الآتي عندك واقعًا أو كالواقع، وسيأتي للشيخ: لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها، وسيأتي تتمة الكلام على هذه الحكمة ثَمَّ إن شاء الله. وأما طي النفوس: فهو بالغيبة في الله عنها، ولذلك يتحقق الزوال وتمام الوصال، وقد ذكره الشيخ بقوله فيما يأتي: ليس الشأن أن تُطْوَى لك الأرض، فإذا أنت بمكة، أو غيرها من البلدان، إنما الشأن أن تُطْوَى عنك أوصاف نفسك، فإذا أنت عند ربك انتهى. وهذا هو الطي الحقيقي المعتبر عند المحققين لا طي الزمان أو المكان، إذ قد يكون استدراجًا أو مكرًا أو تخيلاً وسحرًا، فالطي الحقيقي هو أن تُطْوَى عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك، وحتى ترحل

**أقول: الطيُّ**: ضد النشر، وهما من صنيع الحق، وقد تكرم بهما على من يشاء من الخلق، فينسبان إليه خرقًا للعادة، وأمارة تحقق الفضل بالسعادة، وهو حسي ومعنوي، **والمعنوي**: مجازي وحقيقي، **وحقيقة الحسي**: ما يتداخل به المطوي في نفسه كطي الجرم الكبير؛ فيصير صغيرًا، **وأما المعنوي**: فهو ما ينعدم به المطوي في سواه، وهو إما فان في فان، وإما باق في باق، وإما باق في المبقي.

**فالفاني في الفاني** كطي النقص في الكمال والذمائم في المحامد من الخصال والعادات في العبادات، والمحالات في الحالات، إلى غير ذلك من الفانيات، وهذا هو المجازى؛ لتعلقه بما يفنى، **وأما الحقيقي**: فهو طي الفاني في الباقي؛ كطي حارثة حيث طوي بحقيقة إيمانه في الدار الآخرة مسافة الدنيا الحادثة حتى كأنه قطع كل ممر واستقر، وحديثه صحيح مشهور، وهو المراد من الحكمة بالطي الحقيقي؛ لتعلقه بما يبقى لا ما يصير به المكان البعيد قريبًا، والزمان الطويل قصيرًا، ونحو ذلك لتعلقه بما يفنى، فإن كنت هنا فغب به عما يفنى، ومنه أنت فإن أفنيت حتى فنيت عنك رأيت من فنيت فيه بعينك أقرب إليك منك بإقبالك عليه، وإدبارك عنك.

**وأما طي الباقي في المبقي شهودًا**: فهو إفناء جميع الكائنات في ظهور آثار التجليات، والتجليات في الصفات، والصفات في الذات، وقد يراد بالطي المجازي ما يشهد فاعله المجازي نسبته إليه نسبته إليه؛ لبقاء آنيته، وبالحقيقي ما يشهد نسبته للفاعل الحقيقي لفناء

---

=

عنها بالكلية فلا تبقى فيك منها بقية هنالك ترحل إلى عالم الملكوت، وتُكشف لك أسرار الجبروت، وقد قيل: في قوله ﷺ: «الدُّنْيَا خُطْوَةُ مُؤْمِنٍ» بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها، وقال بعضهم: لا تتعجبوا ممن يدخل يده في جيبه فيخرج ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع يده في جيبه ولم يجد شيئًا، ولم يتغير.

وكان شيخ شيخنا ﷺ يقول: لا تفرحوا للفقير إذا رأيتموه يصلي كثيرًا أو يذكر كثيرًا أو يصوم كثيرًا أو يعتزل كثيرًا حتى تروه زَهِدَ في الدنيا ورحل عنها، ولم يبق له التفات إليها، فحينئذ يُفْرَحُ به ولو قلت صلاته وصيامه وذكره وعزلته. قلت: ومثل هذا تقدم في قوله: ما قل عمل برز من قلب زاهد، وكذلك قال في «التنوير»: لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال وتزكوا الأحوال. انتهى.

آنية فاعله المجازي، ومفاد الطي غيبة المطويات المعينة؛ لئلا يحتجب بها، فيقف عندها شاهدًا ما يجريه الحق منها لها لا له؛ فيحرم شهود المنة له دون ما سواه في النوال؛ ولذا قال رضي الله عنه:

٩٢- «العطاءُ منَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ، والمَنْعُ مِنَ الله إِحْسَانٌ»(١).

**أقول:** شهود نسبة العطاء منهم مثبت للملك لهم بعد إثبات وجودهم؛ فبذلك يحصل حرمان شهود وحدة وجود الحق، ووحدة ملكه، ووحدة فعله في العطاء، وشهود المنع من الله إحسان لاقتضائه تَوَحُّد الفعل له، والمِلك في الموجود المعطى حال المنع يشهده

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان العطاء من الخلق حرمانًا لثلاثة أوجه: **أحدها:** ما في ذلك من حظها وفرحها والتوصل إلى شهواتها وحظوظها وفي ذلك موت القلب وقسوته.

**الوجه الثاني:** ما في ذلك من نقص الدرجات، والغض عن كمال المراتب والمقامات، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] وقد يتعرض المريد للسؤال لأجل موت نفسه وحياة روحه، فإذا كثر عليه العطاء من الخلق فرحت النفس وأنست فلا تموت به سريعًا بخلاف ما إذا واجهه المنع، فإنها تموت سريعًا إذ لا حظَّ لها فيه؛ فالجهاد الذي لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذي فيه الغنيمة، فقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا خرجتْ طائفةٌ للغزوِ فجَاهَدُوا وغَنِمُوا فقد تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِم وإذَا لم يَغْنَمُوا رَجَعُوا بِأَجْرِهِمْ كامِلاً»** أو كما قال ﷺ.

**الوجه الثالث:** ما في ذلك من الركون إليهم، وميل القلب بالمحبة لهم؛ إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها فتسترق لهم، وتكون أسيرة في أيديهم. وفي وصية سيدنا علي كرم الله وجهه: لا تجعل بينك وبين الله مُنْعِمًا وعُدَّ نعمة غيره عليك مغرمًا. قال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبينا مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه لأبي الحسن رضي الله عنه: يا أبا الحسن أهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خيرٌ من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك. انتهى.

وإنما كان المنع من الله إحسانًا لوجهين: **أحدهما:** ما تقدم من أن الله سبحانه ما منعك بخلاً، ولا عجزًا، وإنما هو حُسْنُ نَظَرٍ لك؛ إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك في الوقت، وأخرَه لوقت هو أولى لك وأحسن أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك. **الثاني:** ما في ذلك من دوام الوقوف ببابه والّلياذ بجنابه، وفي ذلك غايةٌ شرفك ورفعٌ لقدرك، وفي الحديث: **«إذا دعا العبدُ الصالحُ يقولُ الله تعالى للملائكة: أخِّرُوا حاجَتَهُ فإنِّي أُحِبُّ أنْ أسمعَ صوتَهُ وإذا دعا الفاجِرُ قالَ للملائكة: اقضُوا حاجَتَهُ فإنِّي أكرهُ صوتَهُ»**، أو كما قال عليه السلام لطول العهد به.

الصديق من أهل العرفان، فهو آية تعطى في كل حال؛ ولذا قال ﷺ:

٩٣- «جَلَّ رَبُّنَا أنْ يُعَامِلَهُ العبدُ نقدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً»(١).

**أقول:** جل؛ أي: عظم، وربنا: أي: مُرَبينا ببره وإحسانه أن يعامله العبد على زعمه أنه شيء، وله شيء بالتوجه إليه، والإقبال عليه بعبوديته لربوبيته نقدًا حاضرًا، ويجازيه تعالى بنسيئة غائبة، بل الرب هو الذي عامل العبد بقدرته، وفضله، فأوجد، وربَّى، وبر، وأحسن، وعطف، وأكرم، وصور، وحسن، وأسمع، وأبصر، وأذاق، وأنشق، وأفهم، وهدى إلى غير ذلك مما لا يحصى مقدمًا معجلاً، وأمهل حتى بلغ فخاطب، وكلف فضلاً، ووفق، وأيقظ، وأرشد، وأقام، واستعبد فعبده العبد به، وبفضله مع لزوم افتقاره إليه تعالى أزلاً وأبدًا، فلم يف العبد بما أسلفه له فضلاً عما هو منقذه له أبدًا إلى ما لا يتناهى من المنال، وكل ما يصدر من العبد وينسب إليه في الحال أو المآل لله وليس له؛ ليجازى عليه، ولو كان له من طريق الكسب لم يف بواحدة من النعم التي منها ما أشار إليه صاحب الكمال حيث قال ﷺ:

٩٤- «كَفَى مِنْ جزائِهِ إيَّاكَ على الطاعةِ أنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً»(٢).

**أقول:** هذا إذا كنت محجوبًا بنفسك مثبتًا لآنية حسك بأن شهدت لك مع الحق وجود أو عملاً ثابتًا لك مشهودًا، وغفلت عن عجزك عنك من حيث أنت، وعن عجزك عن العمل أيضًا، فإن لم تكن كذلك لم تر نفسك ولا مجازا عليه فضلاً عن الجزاء لفنائك في المجازي، والله إن جعلك أهلاً لذرة منها كثير، فكيف بجعلك أهلاً لها بتمامها مع ما يظهر

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «جل ربنا أن يعامله العبد نقدًا» أي: حالاً بأنواع الطاعات «فيجازيه نسيئة» بألا يعطيه شيئًا من جزاء عمله في الحال، فإن ذلك ليس شأن الكريم القادر، فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة، ربما أظهر الله منه لبعض أوليائه شيئًا في الدنيا يحملهم على الاجتهاد في الأعمال ويتحققون به قبولها.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «كفى من جزائه» أي: مجازاته «إياك على الطاعة أن رضيك أهلاً لها» أي: توفيقك لها وأقدارك عليها، وإلا فصفتك الذاتية للتكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها، فإذا وفقك مولاك للقيام بها، كان ذلك معجلاً لك في الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى، وأيضًا فأنت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك، فكونه قربك لخدمته ورضيك أهلاً لها، نعمة عظيمة منه عليك.

لك في الحال، ومنه المُنبه عليه بما قال ﷺ:

**٩٥- «كَفَى العاملينَ جزاءُ مَا هُوَ فَاتِحُهُ على قُلُوبِهِمْ في طاعتِهِ، ومَا هُوَ مُورِدُهُ عليهِمْ منْ وُجُودِ مؤانستِهِ»(١).**

**أقول:** ساق كل ذلك تنبيهًا للغافلين بآنيتهم المحجوبين بكونيتهم من العالمين السالكين بزعمهم المنطوية طويتهم على طلب ما يزيد على الفضل الحاصل بطاعتهم، والجود الواصل منها مع جعلهم لها أهلاً ومحلاً؛ لئلا يستمروا على غفلتهم عن ذلك الجهل وما معه، وفي غيره يطمعوا لا يكفيهم مع التأمل لها ما هو فاتحه على قلوبهم منها من الصدق والإخلاص واليقين، وعلمه وعينه وحقه وحقيقته، وما هو مورده من فضله بها عليهم من وجود الأنس به في حضرات قربه ومشاهدته، ومتى عللت العمالُ الأعمال بشيء من هذا الإفضال، بطل العمل، وصار العامل منحطًا عن درجة الأبطال؛ ولذا قال ﷺ:

**٩٦- «مَنْ عَبَدَهُ لشيءٍ يَرْجُوهُ منْهُ أو ليدفَعَ بطاعتِهِ وُرُودَ العُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه المؤانسة التي يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام: مؤانسة ذكر وهو لأهل الفناء في الأفعال، ومؤانسة قرب وهو لأهل الفناء في الصفات، وهم أهل الاستشراف، ومؤانسة شهود وهو لأهل الفناء في الذات، فالأول لأهل الإسلام، والثاني لأهل الإيمان، والثالث لأهل الإحسان؛ فمؤانسة الأول: توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم، ومؤانسة الثاني: توجب القرب لهم على حذر منهم، ومؤانسة الثالث: توجب الصحبة لهم ومخالطتهم؛ لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه، فالأول لا تليق به إلا العزلة لضعفه، والثاني تليق به الصحبة مع العفة ليتعلم القوة، فهو يشرب منهم ولا يشربون منه لبعده منهم بقلبه، والثالث لا تليق به إلا الصحبة لتحققه بالقوة، فهو يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، ومؤانسة الذكر توصل لمؤانسة القرب، ومؤانسة القرب توصل لمؤانسة الشهود، فمن صعد عقبة أفضت به إلى راحة ما بعدها.

قال بعض العارفين: ليس شيء من الطاعات إلا ودونه عقبة كئود يحتاج فيها إلى الصبر فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى، ثم والله مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم؛ أي: ثم تكون لذة الطاعة وتنعم المعرفة، ثم ينبغي لك أيها المريد ألا تقصد شيئًا من هذه الأمور التي يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة؛ فإن ذلك نقص في إخلاصك، وناقض لصدق عبوديتك.

**أَوْصَافِهِ»**(١).

**أقول**: الرجاء والخوف من لوازم العبدية، فمن عبد الله لشيء مما يتعلق به الرجاء والخوف فما قام في أوصاف عبوديته بحق أوصاف ربوبية الله، فحق الربوبية على العبد الطاعة؛ امتثالاً لعظمته وإجلالاً لا لشيء أصلاً، لا فصلاً ولا وصلاً ولا فضلاً ولا عدلاً، وكفاه أن جعله لها دون ضدها أهلاً ومحلاً، فإنه لا يُسْئل عما يفعل إن شاء أعطى وإن شاء منع، وإن شاء وصل، وإن شاء قطع، وإن شاء فرق، وإن شاء جمع، بلا قيد تنحصر به الأفعال معللة به لإطلاق الكمال، ولما خفي سر ظهور الحق بما يشاء من ذلك على عموم العبيد نبه عليه، وقال ﷺ:

**٩٧- «متى أعطاكَ أشهدَكَ بِرَّهُ ومتى منعَكَ أشهدَكَ قهرَهُ؛ فهُوَ في كُلِّ ذلِكَ مُتعَرِّفٌ إليْكَ، ومُقْبِلٌ بوجودِ لُطْفِهِ عليكَ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «من عبده تعالى لشيء يرجوه منه» وهو الثواب «أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة» أي: حصولها في الدار الآخرة، وقوله: «عنه» متعلق بـ«يدفع» «فما قام بحق أوصافه» بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب، بخلاف ما إذا عبده لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها؛ إذ من كان كذلك يستحق أن يخدم بالعبادة، فإنه حينئذ يكون قائمًا بحق أوصافه؛ أي: موفيًا لها حقها. فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إن أود الأدواء إليَّ من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها»، وفي الحديث: «لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير إن لم يعط الأجرة لم يعمل».

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: من أسمائه تعالى «اللطيف والرحيم» فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم وسواء بسطهم أو قبضهم فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم بره وإحسانه، فعرفوا أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد محسن فتعظم محبتهم فيه، ويكثر شوقهم واشتياقهم إليه، ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم، وفي هذا ما لا مزيد عليه من البر والإحسان والجود والامتنان، وإن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم، وقلَّت ذنوبهم ومحيت مساوئهم واضمحلت خطيئتهم، فوردوا يوم القيامة خفافًا مطهرين فرحين مبهجين؛ إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين فمن أخافه في الدنيا أمَّنه يوم القيامة ومن أمنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما في الحديث.

فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء؛ فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته وكرمه فعرفت بذلك أنه بر كريم رءوف رحيم فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره، فتتحرر من رقِّ الطمع ويذهب عنك

أقول: العطاء: مظهر لتعرف تجلي البر بالبر، والمنع: مظهر لتعرف تجلي القهار بالقهر إلى غير ذلك من عموم الأفعال الظاهرة بأسماء الفعال، وعموم الخلق محتجبة عن شهود تعرفه الشامل لكل شيء بصور تعرفه بكل شيء، وذلك هو الذي عمل أهل العرفان المأذون لهم على البيان لما هو عيان، وسبب خفائه الكتمان إباحه بسر التعريف المستغرق للمكلف والتكليف؛ ليكون في حضرة الحق شهيدًا، قتيل الفناء بالبقاء سعيدًا، فمتى لاحت له المظاهر باحت له بشهود ما فيها من الباطن، وهو ظاهر، فإن يك ذلك عطاء فهو مظهر تعرف المعطي البار، وإن يك ذلك منعًا فهو مظهر تعرف المانع القهار، فهو المعطي لكل شهود تعرفه فيهما، ومقبل عليك بوجه ظهوره بهما، ويفوتك منه بقدر ما يفوتك منهما، فإياك وفوات الكمال وعلامته في وجوده وعدمه، تظهر لك منك فيك بما قال ﷺ:

---

=

الغم والجزع وتتخلق أيضًا بوصف الكرم والرحمة والإحسان فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه، وفي الحديث: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ الرَّحمنِ» وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن والقرآن فيه أوصاف الرحمن؛ فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمن إلا أنها احتشمت الحضرة، وتأدبت مع الربوبية. ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبرياءه، فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك وحياؤك منه، فلا جرم أن الله يعظمك ويكرمك ويحفظك ويستحيي منك كما استحييت منه، فإن الله ينـزل عبده على قدر منـزلته منه وإنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه فهو سبحانه في كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرف إليك أي طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه، وما من اسم من أسمائه تعالى إلا اقتضى ظهور ما يطلبه؛ فاسمه «الكريم» اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر في خلقه، واسمه «المانع» اقتضى ظهور المنع فظهر في عباده أيضًا، واسمه «المنتقم» اقتضى ظهوره في قوم وجههم لمخالفته، واسمه «القهار» اقتضى ظهوره في قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره وظهر قهره أيضًا في عباده بالموت؛ فهو من مقتضى اسمه القهار وهكذا كل اسم يقتضي ظهوره في الوجود وكلها في بني آدم فإذا تحققت هذا في حالة الإعطاء والمنع علمت أيضًا أنه تعالى مقبل بوجود لطفه وإبراره عليك إذ هو متعرف إليك في كل شيء ومقبل عليك في كل وجه فاطلب أيضًا أنت معرفته في كل حال واعرف منته عليك في الجمال والجلال وأقبل عليه بكليتك واستسلم لقهره بروحك وبشريتك تكن عبده حقًّا وهو ربك حقًّا وصدقًا، والله تعالى أعلم.

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوة الروحانية التي هي المعرفة في الجلال والجمال لا على قوة البشرية لأن بمنعه يحصل للعبد الكمال، وبالله التوفيق.

٩٨- «إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ المنعُ لعدمِ فهمِكَ عنِ اللهِ فيهِ»(١).

**أقول:** التألم من المنع الواقع لك مع طلبك الكمال أولاً شاهد بعدم الكمال في المعرفة والعبودية؛ لجهلك بشهود تعرفه لك في المنع باسمه المانع الظاهر باسمه الظاهر من القادر بالمريد من العليم بالحي إلى غير ذلك من الصفات المتجلية بها الذات للخصوص، وإن أنت منهم في زعمك ولجهلك بما يتضمنه التعريف من كمال العبودية للعموم مما يقتضي جلب مصالحهم، ودفع مضارهم، وذلك كله على سبيل الفضل منه، والجود لكمالك في العبودية والشهود، فإنك لو فهمت عنه شيئًا من ذلك لما تألمت، وتنعمت بها هنالك للخصوص أو للعموم من المشهود أو المفهوم، ثم إن مفهومك وفهمك من فضله، وكذا كل الأعمال المطلوب بها المنال مما عنده أو الوصال إن قبلها وإلا فقد تُنالُ بها لا يتوهم به المنال من أسباب البعد والانفصال؛ لنزاهة العطاء عن التقييد بالاعتلال؛ ولذا قال ﷺ:

٩٩- «رُبَّمَا فَتَحَ لكَ بابَ الطاعةِ ومَا فَتَحَ لكَ بابَ القَبُولِ، وربما قَضَى عليكَ بالذَّنْب

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال والمنع والعطاء والقبض والبسط، وأما إن كان لا يعرفه إلا في الجمال فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم فإن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون وأيضًا من ثمرات المعرفة التسليم، والرضا لما يجري به القضاء ومن ثمرات المحبة والهوى الصبر عند الشدائد والبلوى، فلا يكون المحب صادقًا في محبته ولا العارف صادقًا في معرفته حتى يستوي عنده المنع والعطاء والقبض والبسط والفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم والفقد والوجد والحزن والفرح فيعرف محبوبه في الجميع كما قال القائل: حبيبي ومحبوبي على كل حالة، ويرضى ويسلم له في الجميع فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدعي مرتبة العشق والهوى فيعرف قدره، ولا يتعدى طوره، ولا يترامى على مراتب الرجال من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

وقال إبراهيم الخواص ﷺ: لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خَصلتان إحداهما: الثقة بالله، والأخرى: الشكر لله فيما زُوي عنه مما ابتلِيَ به غيره من الدنيا، وقيل لبعضهم: ما الزهد عندكم؟ قال: إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا فقال هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، فقال: وما الزهد عندكم أنتم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد فقد عد الفقد نعمة والفاقة غنى لما يجد فيها من المواهب والأسرار، ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار ولو لم يكن إلا التفرغ من الشواغل والأغيار وبهذا تزكوا الأحوال، وتعظم الأعمال، ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال وإلا فلا عبرة بصور وجودها مع عدم قبولها.

سببًا في الوُصُولِ»[١].

**أقول**: فتح باب الطاعة بالترك والإتيان ظاهر بتيسيره، وعدم فتح باب القبول لها باطن به يكاد يفهم بقرائن تحريره، هذا إن قيده من لا يسأل عما يفعل من النص بتقريره كالإتيان به لشائبة منال، ولو كان الوصال فضلاً عن ما لا يخالـله من الخلل بالرياء، والعجب المثبت للنفس، وشهود الأعمال وانتقاص غيره من العمال إلى غير ذلك، فلا تكون الطاعة بشيء من ذلك محض عبودية للربوبية، وقد يقبلها به لاستغنائه، وإن لم يكن شيء من ذلك، ولم يقبل فعدم القبول محض تصرف ممن ليس لأحكامه إذا شاء توقف كما في المنال منه من أدنى ما ينال إلى الوصال قد يجازي به على اليسير أو المعلول من الأعمال، أو على الكثير بالنسبة إلى العمال أو بلا شيء يصدق في حقه القبول.

وأبلغ منه أن قد يقضي بالذنب، ويجعله سببًا للوصول لاستغناء صاحب الطاعة، وإدلاله بها عليه، وافتقار صاحب المعصية وإذلاله بها بين يديه؛ لأن مهر تجليات عرائس الأبكار الفاقة والذل والانكسار، فتأمل سبب هذا النوال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٠٠ - «ربَّ مَعصيةٍ أورثتْ ذلاً وافتقارًا خيرٌ منْ طاعةٍ أورثتْ عزًّا واستكبارًا»**[٢].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول كما لا عبرة بالسؤال حيث لم يحصل به مأمول إذ الطاعة إنما هي وسيلة لمحبة المطاع، وإقباله على المطيع بحيث يفتح في وجهه الباب، ويرفع عن قلبه وجود الحجاب ويجلسه على بساط الأحباب، فإذا فتح لك باب العمل وبلغت في تحصيله غاية الأمل غير أنك لم تجد له ثمرة، ولم تذق له حلاوة من الأنس بالله والوحشة مما سواه، ومن الغنى به والانحياش إليه والاكتفاء بعلمه والقناعة بقسمته؛ فلا تغتر بذلك أيها المريد فربما فتح لك باب طاعته وأنهضك إلى خدمته، ولم يفتح لك باب القبول ومنعك بها من الوصول حيث اعتمدت عليها وركنت إليها وأنست بها وأشغلتك حلاوتها عن الترقي إلى حلاوة شهود المنعم بها.

ولذلك قال بعضهم: احذروا حلاوة الطاعات؛ فإنها سموم قاتلة لأنها تقبض صاحبها في مقام الخدمة ويحرم من مقام المحبة، وفرق كبير بين من شغله بخدمته وبين من اصطفاه لمحبته واجتباه لحضرته فإجراء الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التي تكون سبب الحجاب.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: العبد إذا كان سائرًا لمولاه قاصدًا لوصول حضرة حبيبه ورضاه قد يحصل له كلل أو يصيبه ملل أو يركبه كسل، فسلط الحق عليه ذنبًا أو تغلبه نفسه، فيسقط فإذا قام من سقطته جد في سيره ونهض من غفلته ونشط من كسله، فلا يزال جادًّا في طلب مولاه غائبًا عما سواه حتى يدخل حضرته ويشاهد طلعته، وهي الحضرة التي هي تجليات الحق وأسرار ذاته، ومثال ذلك:

أقول: لذلك كان العمل المنسوب بهما غير مقبول، والذنب بذلك القيد قد يكون سببا للوصول، بياناً لمحض الفضل في العطاء، وتحقيقًا لإطلاق التصرف حتى في كشف الغطاء؛ لئلا ييأس العبد بمعصيته، ولا يدل علما لسيد بطاعته، ويعلم أن المقصود من الوجود الذل، والفقر، والمسكنة للمعبود، وإذا كان ذلك في المعصية قد تكون به سببًا في الوصول، فكيف إذا كان ذلك في العمل المطلوب على لسان الرسول؟ ويتحقق أن كلا من القابل والمقبول وجوده بجود الله من الآزال وجوده من فيض وجوده تعالى ولا يزال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٠١- «نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بدَّ لكلِّ مُكوَّن منهما: نعمةُ الإيجادِ**

---

=

رجل مسافر أصابه في الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر فإذا قام ذهب كسله وجد في سيره، وفي الحديث: «رُبَّ ذَنْبٍ أدخلَ صاحِبَهُ الجَنَّةِ» قالوا: وكيفَ ذلكَ يا رسولَ الله؟ قال: «لا يزال تائِبًا فارًّا منه خائفًا من ربه حتَّى يموتَ فيدخلَ الجَنَّةَ» أو كما قال ﷺ، وقال ﷺ في شأن الطاعة التي لم تقبل: «رُبَّ صائمٍ ليسَ لَهُ منْ صيامِهِ إلا الجوعُ، وقائِمٍ ليس له من قيامِهِ إلا السهر» فمثل هذه الطاعة المعصية التي يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير.

وقال أيضًا: إنما كانت المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار؛ لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني، واتصفت بأضدادها فالمعصية التي توجب هذه المعاني، وتجلب هذه المحاسن أفضل منها؛ إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ ولا إلى أعمالِكُمْ وإنَّما ينظرُ إلى قلوبِكُمْ» فثمرة الطاعة هي الذل والانكسار وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق صارت الطاعة معصية والمعصية طاعة.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل إساءة أدب تثمر أدبًا فليست بإساءة أدب، وكان ﷺ كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان ﷺ يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالي به، وربما دخل عليه عاص فأكرمه؛ لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله وذلك العاصي دخل بكثرة معصيته وذلته ومخالفته.

وقيل للجنيد ﷺ: أيزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] لكن معصية الولي حدها الظاهر، ولذلك قال ابن عطاء الله: ليت شعري لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله؟ لقال: لا.

**ونعمةُ الإمدادِ»**(١).

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما نعمة الإيجاد: فهي الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح أو من عالم القدرة إلى عالم الحكمة أو من عالم التقدير إلى عالم التكوين، وأما نعمة الإمداد: فهي قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها، وهاتان النعمتان عامَّتان واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدين وهما النور والظلمة واللطافة والكثافة فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم في عالم القدم لم تتمتع بنعمتين نعمة الأشباح ونعمة الأرواح، ولو تجلى فيك بوجهة واحدة لكنت ناقصًا في شهود المعرفة؛ لأن مَزِيَّةَ الآدمي في المعرفة أعظم إذ بقدر المجاهدة يكون الترقي في المشاهدة لما فيه من الكثافة واللطافة فكلما لطف من كثافة ترقى في مشاهدة ربه ولما فيه من النور والظلمة فكلما انتفت الظلمة قوي النور بخلاف غيره من الجن والملائكة غير المقربين. ومما يدلك على أن تجلي الآدمي أعظم اختصاصه بالجنة والنظر، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥] والكلام إنما هو مع الخواص فخواص الآدمي ـ أعني: الأنبياء ـ أعظم من خواص الملائكة، وخواص الملائكة ـ أعني: المقربين ـ أعظم من خواص الآدمي ـ أعني: العارفين ـ والعارفون أعظم من عوام الملائكة وعوام الملائكة أعظم من عوام بني آدم، والله تعالى أعلم. قال في «التنوير»: اعلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك في كل ذلك بوجود أبرارك فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأحزاب:١٧٢] ومن حسن تدبيره لك أن عرفك به فعرفته، وتجلى لك فشهدته، واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته؛ فوحدته ثم أنه جعلك نطفة مستودعة في الأصلاب تولاك بتدبيره هنالك حافظًا لك وحافظًا لما أنت فيه موصلاً لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم ثم قذفك في رحم الأم فتولاك بحسن التدبير وجعل الرحم قابلة لك أرضًا يكون نباتك ومستودعًا تعطي فيها حياتك ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبنيٌّ على سر الازدواج. ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيئة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه ثم بعد العلقة مضغة ثم فتق سبحانه في المضغة صورتك، وأقام فيها بنيتك ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ثم غذاك بدم الحيض في رحم الأم، فأجري عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ثم أبقاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك، واشتدت أركانك ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك، وليبرزك إلى دار يتعرف فيها بفضله وعدله إليك ثم لما أنزلت إلى الأرض علم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم، وليس لك أسنان ولا أرحى تستعين بها على ما أنت طاعم فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف، ووكل بهما مستحث الرحمة التي جعلها في قلب الأم، فكلما وقف اللبن على البروز استحثته الرحمة التي جعلها لك في الأم مستحثًا لا يفتر، ومستنهضًا لا يقصر ثم أنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك

أقول: نعمة إيجاد وجود الموجود الممكن فيض تجلي إفاضة واجب الوجود بالمبديء لتكوين من ظهور القدرة في الخالقية بتخصيص الإرادة على وفق العليم بالحي، ولولا ذلك ما تعين، وتكون كل كون، ونعمة إمداد باستمرار وجوده مدة بقائه في عوالم أطواره من لدن تعينه في العلم إلى تكوينه إلى ما ينتهي من النشأة الأولى، وإلى ما لا يتناهى من النشأة الأخرى بتكرار الإيجاد مثل ما تقدم من آثار التجليات بالمعيد الذي مقتضاه الإعاة لما يجوز على الممكن من الوجود والعدم المتعاقبين في كل عرض منه، فلا يبقى زمانين إما بمماثلهما، وإما بالمتقارب منهما؛ لدوام افتقاره إلى المُوجد ابتداء ودوامًا، ولزوم عدم تعطيل تجليه تعالى إلزامًا، وليس هاتان النعمتان الفائضتان عن التجليات اللتان لم يخرج مكون كان أو سيكون عنهما، ولا بد لهما منهما نهاية ما تعطيه التجليات، وإنما هما من فيضهما أصليتان في ثبوت الموجود لما يشاء أن يتجلى به الحق فيه منها، ومن غيرها من الصفات للتعريف منعمًا به لتتنعم بشهوده في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

١٠٢ - «**أنعمَ عليكَ أولا بالإيجادِ وثانيًا بتوالِي الإمدادِ**»(١).

أقول: إنعام الحق عليك، **أولاً**: بالإيجاد تعرف لكل مما تقدم بيانه مما أنت به من

---

=

والرأفة عليك والرحمة والنظر بعين المودة منها إليك، وما هي إلا رأفته ساقها للعباد في مظاهر الآباء والأمهات تعريفًا بالوداد، وفي حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته، وما حضنتك إلا ألوهيته ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ، وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان تكمل الأفهام، وذلك عند الاحتلام ثم إلى أن صرت كهلاً لم يقطع عنك نوالاً، ولا فضلاً ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ثم إذا قدمت عليه ثم إذا حشرت إليه ثم إذا أقامك بين يديه ثم إذا سلمك من عقابه ثم إذا أدخلك دار ثوابه ثم إذا كشف عنك وجود حجابه وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٥-٥٤] فلأيِّ إحسانه تشكر؟ ولأيِّ أياديه تذكر؟.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «أنعم عليك» أيها الإنسان «أولاً بالإيجاد، وثانيًا بتوالي الإمداد» فإذا علم العبد أن ابتداء وجوده من الله ودوام وجوده كذلك، علم أن فاقته ذاتية، وإنه لا غنى له عن مولاه لافتقاره بعد وجوده في كل وقت إلى الإمداد، ثم هذه الإمدادات المتوالية عليه منها ما يكون قوتًا لشبحه تقوم بنيته به كالأقوات، ومنها ما يكون قوتًا لمعناه وروحه كالإيمان والعلوم والمعارف؛ فإن الإنسان شيئان: روح وجسد، والإمداد الأول عام بالمؤمنين والعارفين كنعمة الإيجاد، والثاني بالمؤمنين خاصة.

صفاته متعين متكون؛ لتشهده بها منك، ومن أمثالك فتراك معدومًا بك موجودًا بها منه، وثانيها: بتوالي تعرفه بها من إمداده به لا بك ثبت، ودمت في عوالم أطوارك، وتنقلات أوطارك لما به لك منها مما لا يتناهى من التعرفات المتعاقبة التي من مواد جلاله وجماله وكماله، فتراك به لا شيء لك من وجودك، ولا من ثبوتك، ولا بما يتعاقب عليك، ومن ذلك تقف بإيقافه على حد افتقارك وافتقار وما سخر لك من عوالم الدنيا والآخرة في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**١٠٣ - «فاقتُكَ لكَ ذاتيَّةٌ وورودُ الأسبابِ مُذَكِّرَةٌ لكَ بِمَا خَفِيَ عليكَ منها والفاقةُ الذاتيَّةُ لا تدفعُهَا العوارِضُ»**(١).

**أقول:** فاقتك لما تعينت به فتكونت، فما ثبت به فدمت، وما توارد عليك مما له

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الفاقة الذاتية هي الأصلية الحقيقة والأسباب المحركة لها هي العوارض الجلالية، وهي كل ما يقهر النفس، ويزعجها عن حظوظها، وتصرفاتها العادية، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة؛ لأن نشأتنا مركبة من حس ومعنى ولا يقوم الحس إلا بالمعنى، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء فأشباحنا مفتقرة في كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد ولا الحكمة إلا بالقدرة ولا البشرية إلا بالروحانية، والروح سر من أسرار الله، قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] فالبدن قائم بالروح والروح أمر من أمر الله، وكل شيء قائم بأمر الله؛ فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام. قال تعالى في نعمة الإيجاد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد ثم قال في نعمة الإمداد: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦] وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد، وقال تعالى في افتقار بقية العالم: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] فالكون كله قائم بأمر الربوبية مظهر من مظاهرها لا قيام له بدونها. والمراد بالوجود: ظهور الحس وعين الجود هو المعاني اللطيفة القديمة؛ يعني: إن الحق تعالى مستبد؛ أي: قائم بنفسه، وظهور تجلياته مستمدة من باطن صفاته، ومادة الأشياء كلها من عين الجود وهي نعمة الإيجاد والإمداد، فإذا انقطعت المادة أي مادة المعنى من الحس اضمحل الحس واضمحلت الأكوان، فلو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ففاقتك؛ أي: افتقارك أيها الإنسان لك ذاتية؛ أي: أصلية حقيقية لكنها خفية وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة، وهي الشدة والحيرة وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفي عنك منها؛ يعني: إن فاقتك لا تفارقك إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود في الساعة الثانية إلا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما، والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهي الصحة والعافية، فمادام العبد في العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلا العارفون؛ لأنه لا يزول اضطرارهم فإذا قام عليه جلال أو محرك ظهر افتقاره، وتحقق اضطراره مع أنه دائم في الفاقة حسه ومعناه، والله تعالى أعلم.

أشهدت، فقدرت، وملكت، وتصرفت ذاتية، فإن أنت لذاتك حقيقة أضفته، ولما أثبته أو شيئًا منه خفي عليك به من فاقتك بقدر ما منه لك أرجعته، وورود الأسباب من المسبب الحق عليك التي هي لعجزك عن مطلوب مفقود، وفقدك لمحبوب موجود، أصل فيك أو في غيرك لا تستطيع دفعه، وخفض كذلك لا تستطيع رفعه إلى غير ذلك مذكرات لك عنه، خفي عليك من فاقتك بما من الحق لترجع إليها منه مثبتاً ذلك له وحده، فإن فاقتك لك ذاتية، وما من آثار تجليات تعرفات الحق عرضية، وما كان لك بالذات لا تدفعه عنك العوارض من التفضلات، فلا تفك شهود فاقتك في كل وقت عن البال، وتنبه لما قال ﷺ:

**١٠٤ – «خيرُ أوقاتِكَ وقتٌ تشهدُ فيهِ وجودَ فاقتِكَ وتردُ فيهِ إلى وجودِ ذلَّتِكَ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقاتك لوجهين: أحدهما: ما في ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكماله؛ إذ بقدر تحقيق العبودية في الظاهر يعظم شهود الربوبية في الباطن أو تقول: بقدر العبودية في الظاهر تكون الحرية في الباطن أو تقول: بقدر الذل في الظاهر يكون العز في الباطن أو تقول: بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ونظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى فما خاطبهم إلا بالعبودية، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء:١] ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ﴾ [ص:١٧] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١] وقد اختارها نبينا ﷺ حين خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا فدلَّ على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية فبقدر ما يتحقق بها في الظاهر يعظم قدره في الباطن، ومهما خرج منها في الظاهر بإظهار الحرية أدبته القدرة وردته القهرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ماله وعليه. الوجه الآخر: ما في الفاقة من مزيد المدد، وطلب الاستمداد: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ الْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك كما يأتي إن شاء الله، وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلة وتحقيق الضعف والقلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥] وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام فأدبهم الله بإظهار الحرية لكن عمت الفتنة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية، والله تعالى أعلم.

ولقد سمعت شيخنا اليزيدي ﷺ يقول: العجب من الإنسان يرى الخير أو الفتح واصلاً إليه وقادمًا عليه ثم يقوم يبادر بسد الباب في وجهه، وهو أن يرى الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التي تقطعها

**أقول**: لأن الفاقة الذاتية وصف لازم لما سوى المعبود، وشهودها قيام بعبادة هي روح علة إيجاد الوجود، وخير أوقاتك وأسعدها أيها المسعود؛ وقت تشهد فيه هذا الشهود، وترجع فيه عن عوارض صفاتك إلى ذاتك الذاتية؛ لوجود ذلك الذي تراه أيضًا معارًا لك في كل آن، وأنت به موجود وبذاتك مفقود.

فما دمت واقفًا عند هذه الحدود، فأنت آمن من كل آفة، وسوء أدب يوجب البعد والصدور، وبردِّ الأمانات إلى أهلها أنت المفقود، وهو الموجود وبه عابد، وهو المعبود، وبه شاهد، وهو المشهود، وعلامة بداية شهود هذا الحال ما أعلمك به حيث قال ﷺ:

**١٠٥ - «متى أوحشكَ من خلقِهِ؛ فاعلمْ أنّه يريدُ أن يفتحَ لكَ بابَ الأُنسِ بِهِ»**(١).

---

=

عنه قبل وصولها فقد كان الربح واصلاً إليه فقام فرده أو ما هذا معناه وخير أوقاتك أيضًا وقت تشهد فيه وجود ذلتك كما تقدم؛ لأنه سبب عزك ونصرك، إذ الأشياء كامنة في أضدادها العز في الذل والغنى في الفقر والقوة في الضعف والعلم في الجهل؛ أي: في إظهار الجهل إلى غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥] وقال تعالى في حق الصحابة ﷺ حين كانوا في حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٥] ومما جرت به العادة الإلهية أن الفرج علي قدر الضيق فبقدر الفقر يكون الغنى وبقدر الذل يكون العز وبقدر العسر يكون اليسر والحاصل بقدر الجلال يكون الجمال عاجلاً وآجلاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥٦] ولن يغلب عسر يسرين كما في الحديث حيث قال ﷺ لابن عباس ﷺ: «**واعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العسرِ يُسرًا**». انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه سنة الله تعالى في خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره، ويتحفه بمعرفته أوحشه من خلقه وشغله بخدمته وألهمه ذكره حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار، وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار رده إليهم رحمة لهم؛ لأنه حينئذ لقوته يأخذ منهم ولا يأخذون منه، ومثاله في الحس كفتيلة شعلتها فمادامت ضعيفة لا بدَّ أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية، فإذا اشتد نورها وأشعلتها في الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال، فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها كذلك الفقير ما دام في البداية لا يليق به إلا الوحشة من الخلق والفرار منهم، فإذا تمكن في الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم؛ لأنهم لا يضرونه فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم في قلبك، فاعلم أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته فقد كان ﷺ حين قرب أوان النبوة والرسالة حبب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء.

أقول: إذا وقفت لخدمته وأتقنت الوقوف على حدود طاعته مخلصًا له في محبته، ربما يختارك لغيب حضرته، وشاهد ذلك لك فيك منه نفور قلبك عن خليقته الذي هو إعلام لك بإرادته فتح باب لباب الأنس به؛ فتنفر من المظاهر إلى المظهر الباطن؛ لعدم تعرفه لك بالظاهر، فكن بذلك شاعرًا، ولا تقف عند هذا النوال، واطلب الكمال في الاضمحلال للشهود، واستدل على الإجابة بما قال ﷺ:

١٠٦ - «**متى أطلقَ لسانَكَ بالطلبِ؛ فاعلمْ أنَّه يريدُ أنْ يُعْطِيَكَ**»(١).

أقول: الطلب رغبة القلب، واللسان ترجمان يعرب عن احتياج الطالب إلى ما تعلق به الطلب من المطلب؛ لظهور الاحتياج إلى الله في أظهر مراتبه، فإذا أطلق اللسان به فقد تم المقصود من إظهار مخ علة إيجاد الوجود، وذلك علامة تعلم إن شاء الله بالجود حسب ما في علمه مما به يجود، طابق ما في نفس الطالب أو لا، فإن كل ما منه فضل لا ينتهي أصلاً؛ لدوام ظهور تجلياته التي به قوامها، وكل مفعولاته لافتقارها على الدوام، ولذا كان التفضل بالتجليات وبآثارها عامًّا لاقتضائه وجود العالم وبمعرفتها وبشهودها خاصًّا لمن هو بالله عالم، فمن تعلق طلبه بآثارها حُجب بها عنها، وعن فقره الدائم إليها، ومن تعلق طلبه بها كان ذلك عن معرفته بها، وشهود افتقاره أبدًا إليها، وربما أدى إلى شهودها في كل حال؛ ولذا قال ﷺ:

---

=

وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار والمواهب، فإذا تطهر من الأكدار مُلِئَ بالأنوار فأشرقت فيه شموس العرفان وتمكن من حضرة الشهود والعِيان، فهذه سنة الله في أوليائه وأصفيائه يفرون أولاً من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس ثم يردهم الحق إليهم رغمًا على أنفهم لمقام الدلالة والإرشاد فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «متى أطلق لسانك بالطلب» أي: بأن حل عنه عقدة الصمت التي أوجبها الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الافتقار، فإذا حل عنه هذه العقدة بأن أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت؛ إذ ذاك داعيًا بلسان الاضطرار «فاعلم أنه يريد أن يعطيك» أي: يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد بإجابة الدعاء من المضطر، والله لا يخلف الميعاد، ولقوله ﷺ: «**من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة**» أي: إما بعين المطلوب أو بغيره عاجلاً أو آجلاً.

قال بعضهم: هذا إذا كان الدعاء صادرًا عن اختيار وقصد، أما إذا جرى على لسانه من غير قصد، فإن الإجابة بعين المطلوب لا تكاد تتخلف.

**١٠٧- «العارفُ لا يزولُ اضطرارُهُ ولا يكونُ مع غيرِ الله قرارُهُ»(١).**

**أقول**: العارف من عرفه الله به معرفة أشهده بها نفسه في حضرات غيب تجلياته، وتعرفات ظهور صفاته التي قام وظهر وثبت بها عين كل مكوناته قيامًا يتحقق من شهوده بها جهله أو علمه فقط، أو علمه مع غيره من شهود لزوم دوام افتقاره، والكل إليه تعالى ابتداء ودوامًا، فلا يزال مع الله شهودًا، واضطراره المحقق شهود عدم الكل بأنفسهم، وشهود قيامهم بأنواره، فكيف يكون مع غيره قراره ولا غير في شهوده؛ لأن الظواهر والبواطن أسراره ومجالي يتجلى فيها أنواره، فتأمل حال العارفين من الرجال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٠٨- «أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارِهِ، وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافِهِ؛ لأجلِ ذلكَ أفلتْ أنوارُ الظواهرِ ولم تأفلْ أنوارُ القلوبِ والسرائرِ»(٢).**

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «العارف لا يزول اضطراره» أي: احتياجه، بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة، ولمعرفته بنفسه وما هي عليه من الفاقة، وتحققه بذلك في كل نفس بخلاف غيره، فإنه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار، وذلك أن اضطرار العامة بمثيرات الأسباب لغلبة الحس على مشهدهم، فإذا زالت زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة، لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم، «ولا يكون مع غير الله قراره» أي: لا يركن ولا يستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الأشياء، ونفوره بقلبه منها، كما تقدم، فكأنه يقول: إن ما تقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: أنوار الظواهر هي ما ظهر على تجليات الأكوان من تأثير قدرته، وإبداع حكمته كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس وما فيها من أبداع الصنع وتمام الإتقان، وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه، وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيه من عجائب الصنعة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٦] فهذه أنوار الظواهر وأنوار الأوصاف هي العلوم والمعارف والأسرار، والمراد بالأوصاف أوصاف الربوبية كالعظمة والعزة والجلال والجمال والكبرياء والكمال، وغير ذلك من أوصاف الذات العلية والذات لا تفارق الصفات، فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات؛ فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات للتلازم الذي بين الصفات والذات. ثم الناس في شهود هذه الأنوار الباطنة التي هي أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام: قسم: يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الإسلام، وقسم: يشهدونها على القرب وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان، وقسم: يشهدونها على الاتصال، وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان

ولذلك قيل:

إنَّ شمسَ النهارِ تغرب بالليـ ـل وشمس القلوبِ ليستْ تغيبُ

**أقول**: أنار فأوجد وأظهر الظواهر والبواطن من المكونات في إيجاده لها من ظلمة عدمها، فكانت الظواهر منها بأنوار آثار أفعاله المتعاقبة للظهور بأمثالها أو بأضدادها أو بما يقرب منها من لزوم الافتقار الدائم؛ لدوام تعرفه بأوصافه في الخالقية وما انطوت عليه من التجليات الأسمائية، فلأجل ذلك أفلت، ولم تزل هكذا، وآثار السرائر منها، فكانت بأنوار أوصافه الثابتة بإثبات ذاته، فثبتت ولم تأفل، وهي باطن كل آثر معنوي أو صوري منها، وهي التي لا قيام لتلك الآثار إلا بها؛ لأنها الرابطة والرقيقة التي يحصل بها الإمداد مع الأنات لها، ولما هو آفل عنها بمثله وبغيره، وهي التي تفهم معنى الأسماء الإلهية من خلقها وتميزها بحسب ظهور قوة نور التجلي الظاهرة، وهي إدراكها به من حضرة تخصيص إرادة المتجلي بها، فلم تأفل بواسطة هذا الإظهار أنوار القلوب والأسرار الفائضة عنها، ولذلك استشهد بما قيل:

إنَّ شمسَ النهارِ تغرب بالليـ ـل وشمس القلوبِ ليستْ تغيبُ

أي: شمس نهار ظهور نور الآثار تغرب بليل عدمها لإظهار مثلها أو غيره، وشموس أنوار أوصاف المتجلي للقلوب والأسرار ليست تغيب؛ لثبوتها بثبوت ذاته، ولما

=

فأهل مقام الإسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم، وأهل مقام الإيمان أنوارهم متوسطة كنور القمر، وأهل مقام الإحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس؛ فتحصل أن أنوار الباطن ثلاثة: نجوم الإسلام وقمر التوحيد وشمس المعرفة. وقال الشيخ ابن عجيبة أيضًا: النور عبارة عن اليقين الذي يحصل في القلب يثمر حلاوة العمل، فإذا قوي اليقين قوي النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود، فيغطي حلاوة العمل فلذلك يقلّ عمل الجوارح عند العارف؛ إذ حلاوة الشهود تغني عن كل شيء ليس الخبر كالعيان. وفي بعض الأحاديث: «سُئِلَ رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلمُ بالله» قالوا: يا رسول الله سألناك عن العمل، قال: «العلم بالله» ثم قال في الثالثة: «عملٌ قليلٌ كافٍ مع العلمِ بالله» وحقيقة النور في الأصل كيفية تنبسط من النيرين على سطح الجسم، فينكشف ما عليه بواسطة البصر ثم شبه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من الشبه في كشف حقيقة الأشياء وتمييزها، فالنور الحسي ينقطع بانقطاع أصله والنور المعنوي الذي هو نور القلوب لا ينقطع أبدًا.

كان الترقي لشهود تجلي الأوصاف من باب شهود تجلي الأفعال قال ﷺ:

**١٠٩- «ليخفف عنك ألَمَ البلاءِ علمُكَ بأنَّه سُبْحَانَهُ هوَ المُبْلِي لكَ، فالذي واجهتْكَ منه الأقدارُ هو الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ»(١).**

**أقول:** أتى من الأفعال المترقى منها إلى شهود الصفات المتوصل بها إلى حضرة الذات بالفعل الظاهر بالبلاء المؤلم تقديمًا لما يثقل على النفس احتماله لإيلامه على الملائم الخفيف، فليخفف عليك ثقله علمك أن الله هو مبليك به؛ ليتوحد في شهودك لتوحد المتجلي بهما، أو لتكون من الصابرين صبرًا ينفذ بك إلى رضاه، قد يأخذك من علمك أنه هو

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة أو نزلت بك بلية في بدنٍ أو أهلٍ أو مالٍ فاذكر من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم، وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علام الغيوب لكفى، فهل تعودت منه إلا الإحسان؟ وهل رأيت منه إلا غاية المبرة والامتنان؟ فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، فالذي واجهتك منه أحكام قهره هو الذي عودك تمام إحسانه وبره، فالذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليك بواطن المنن، فالذي واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا هو الذي أتحفك بأنواع الكرامات والهدايا.

قال الجنيد ﷺ: كنت نائمًا بين يدي السريّ فأيقظني وقال لي: يا جنيد رأيت كأني وقفت بين يديه، فقال لي: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الآخرة أخذتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا: إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت هؤلاء عبادي حقًّا. قال في «التنوير»: وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا، وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره، وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه، وإن شئت قلت: إنما يصبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود إجماله، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار، وإن شئت قلت: إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره. انتهى.

المبلي إلى شهوده في بلائه، فتتلذذ في إيلامه به، فالذي واجهتك منه هذه الأقدار المستجلي منها وجوه أنوار هذه الشموس والأقمار هو الذي عودك منه فضلاً حسن الاختيار بها منها كشف لك من العلوم والأسرار لطفًا منه بتعريف الجمال من مرآة الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

١١٠ - «مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عنْ قدرِهِ فذلكَ لقُصُورِ نَظَرِهِ»(١).

أقول: ذلك محرر يقينًا قطعيًا مما تقرر لمن طول النظر، وتبصر في مرآة البلاء المؤلم المقدر، فيطالع منها ما هو لازم لها من مرآي لطف الجمال الأظهر، وإن كان الحكم لها، فتغيب هذه المرآة الجلالية فيه، كما يغيب جرم المرآة فيما يشاهد فيها من الصور، وكذلك عكس القضية لمن تدبر ظهور أنواع آثار ذلك في المحسوس المشهود، فيراه لا يحصر من الألطاف اللازمة لكل قضاء وقدر مقدر، أدرك ذلك أو لم يدرك للبصيرة والبصر، وطرق إدراكه تلتبس أو تختلف باختلاف استعداد قابلية كل مظهر بسبب الاعتدال أو ما يقرب منه للنوال والانحراف المسفر عنه غلبة الهوى للنكال؛ ولذا قال ﷺ:

١١١ - «لا يُخَافُ عليكَ أن تلتبسَ الطرقُ عليكَ، وإنَّما يُخَافُ عليكَ من غلبةِ الهوى عليكَ»(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه، وبهذا حكم النقل والعقل، أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها، وقد وجد ذلك فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة، فاذكر من هو أعظم منك بلاءً فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع! وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى! وكم من إنسان مطروح في الفنادق لا يجد من يبريه إلا من ابتلاه! وكم من إنسان أعمى أو مقعدًا أو محموم إلى ما لا يتناهى! نسأل الله عافيته الدائمة في الدارين.

وأما من جهة النقل: فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة، وآيات قرآنية في مدح الصابرين منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥] ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] إلى غير ذلك، وقوله ﷺ: «مَا يُصيبُ المؤمنَ من وصبٍ ولا نصبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتَّى الشوكةُ يُشاكُهَا وحتَّى الهمُّ يُهِمُّهُ إلا كَفَّرَ به سيئاتِهِ» وورد في الحمى أحاديث كثيرة وإن حمى ساعة تكفر سنة إلى غير ذلك.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: لا شكَّ أن الله سبحانه بيَّن لنا طريق الوصول على لسان الرسول ﷺ، فبين لنا أعلام الشريعة ومنار الطريقة وأنوار الحقيقة، فقرر لنا شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ومقام الإحسان، فما ترك ﷺ شيئًا يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه ولا شيئًا يبعدنا عنه إلا حذرنا منه لم يألُ جهدًا

obeikandi.com

**أقول**: المخاطب بذلك السالك، والطرق المخاطب بها المسالك الحق المختلفة إما باختلاف حال منه الإلقاء أو من يتلقى، وهو مع ذلك هدي وصدق حقًا، ولذلك لا يخاف عليك أن تلتبس عليك حقيقة بحقيقة منها، بعيدة بقريبة فيها، سهلة بشطيطة لها؛ لاتحاد غاية كل ذلك في رجوعه إلى الحق المالك من حيث مطلوبه المعلوم من أحكام حدوده لأهل الفرق بفضله وجوده، ومنها ومن كمال المعرفة به وشهوده لأهل الجمع في وجوده.

وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك المخرجة لك عن كل ذلك بتلبيس المهالك بالمسالك المحررة الموزونة بموازين الشريعة التي السلامة بها مضمونة، فكل ما منك لك فمهلك، وكل ما منه لك بوسائطه فمسلك، فلا تستقل تضل، وإن يكن لك بإلهام وهواتف فساقط ما لم يصح بموازين الحق والوسائط، ومن ذلك تلبيس السواقط اللواقط تشبههم بالأئمة الهداة الوسائط مزاحمة بغير حق في الرئاسة، وتشبهًا بغير صدق بأهل السياسة مجسمين بباطنهم على أتباعهم مادة طرق الحق، مجسمين محللين عُقدةَ عقد عقده، محلِلين لا يردهم عن الحرام نهيه، ولا يرجعهم إلى الواجب أمره بزعمهم الشهود، وما علموا أن الشهود في الحدود بمطلق تعرفات المشهود بالوصال لسر الخصوصية المستتر في

---

=

في إرشاد العباد وإظهار طريق السداد، فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم على طريقٍ بيضاء لا يضل عنها إلا من كان أعمى، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] وقال ﷺ: «**لقدْ تركْتُكُمْ على الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**» وفي رواية: «**على المِلَّةِ البيضاءِ نهارُهَا كَلَيْلِهَا**» أو كما قال ﷺ.

فلا يخاف عليك أيها المريد أن تلتبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك؛ لأنها في غاية الوضوح وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك. فلا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى، فلا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهلة الخلق ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [الأنعام:١١٦] فلا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق وإنما يخاف عليك قُطَّاع الطريق لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق إنما يخاف عليك من قلة الصدق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١] والله ما حجبهم عنك إلا من عدم صدقك، فلو حسنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم، فسبحان من سترهم في حال ظهورهم وأظهرهم في حال خفائهم.

ظَلَل غمام البشرية في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**١١٢- «سبحانَ مَنْ سترَ سرَّ الخُصُوصِيَّةِ بظهورِ البشريَّةِ، وظهرَ بعظمةِ الربوبيَّةِ في إظهارِ العُبُودِيَّةِ»[1].**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الخصوصية هي نور الحق يشرقه الله في قلوب خواص عباده المقربين بعد تطهيرها من الأكدار وتنـزيهها عن المساوئ والأغيار يغيبون به عن شهود أنفسهم بشهود محبوبهم، وسرها هو ما احتوى عليه ذلك النور من الكمالات العلية والنعوت القدسية والصفات السنية التي تليق بالمتحلى به: كالكبرياء والعز والقوة والعظمة والإجلال وكالاتصاف بالقدرة التامة والعلم المحيط وسائر أوصاف الكمال، ثم إن الحق سبحانه من عظيم حكمته وباهر قدرته أن ستر تلك الأوصاف اللازمة لذلك النور بظهور أضدادها التي هي أوصاف العبودية فستر كبرياءه وعظمته بظهور الذل والفقر والضعف على العبد وستر قدرته وإراداته بظهور العجز والقهرية عليه، وستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو إلى غير ذلك من أوصاف العبودية المقابلة لأوصاف الربوبية.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية. انتهى؛ إذ الربوبية تقتضي مربوبًا موصوفًا بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الإلهية والنعوت القدسية، فما ظهرت أوصاف الربوبية التي هي الغنى والعز والقدرة، وغير ذلك من الكمالات إلا في أضدادها من الفقر والذل والضعف وغير ذلك، فالفقر الحقيقي شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجلى في الأرض والسماوات: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فإذا تقرر هذا علمت أن الإضافة في سر الخصوصية ليست هي للبيان بل هي للتخصيص فسر الخصوصية غيرها إذا الخصوصية هي النور الذي يقذفه الله سبحانه في قلوب أوليائه وسرها هو الكمالات التي تلازم ذلك النور كما تقدم.

واعلم أن سر الخصوصية الذي جعله الله في بواطن أوليائه وستره بظهور وصف بشريتهم قد يظهره عليهم على وجه خرق العادة، فقد يظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان لكن لا يدوم ذلك لهم بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات يشرق عليهم شموس أوصافه، فيتصفون بصفاته ثم يقبض ذلك عنهم، فيردهم إلى حدودهم فنور الخصوصية وهي المعرفة ثابت لا يزول ساكن لا يحول وسرها وهو كمالاته تعالى تارة يشرق على أفق بشريتهم، فيستنير بأوصاف الربوبية وتارة ينقبض عنهم، فيردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم فالمعرفة ثابتة والواردات مختلفة، والله تعالى أعلم.

واعلم أيضًا أن أوصاف البشرية التي ستر الله بها سر الخصوصية إنما هي الأوصاف الذاتية اللازمة للبشر كالأكل والشرب والنوم والنكاح لا الأوصاف المذمومة المناقضة للعبودية كالكبر والعُجب والحسد والغضب وغير ذلك؛ فإن تلك أوصاف ذهبت بظهور نور العناية وسابق الهداية؛ إذ لا تثبت

obeikandl.com

**أقول:** ابتدأ المصنف في الحكمة بـ«سبحان» تنزيهًا للواضع الحكيم الحق فيما وضعه من ستر ما شاء عن من شاء، وكشف ما شاء لمن شاء عن ما يلحق غيره لتعاليه عن كل ما يتوهم في كشفه أو ستره سر الخصوصية الذي هو ظهور الأحدية في الواحدية الظاهرة عمومًا بقيام العالم بها المعروفة المشهودة، خصوصًا لمن خصَّ بذلك منها سترًا بظهور عين أوصاف البشرية المشهودة في الآدمية من الحيوانية.

وشاهد ذلك مشاهدة ما ظهر من أشرف المظاهر الإنسانية مما تعين عنه فيها من أجمل الخصائص الإمكانية المزيلة للضلالة، كالولاية، والنبوة، والرسالة التي مقتضاها ظهور سلطان عظمة الربوبية من العبدية في إظهار نعوت العبودية التي هي انقياد العبد للأوامر والنواهي المعْربُ عن تعظيم الآمر الناهي، بشرط التسليم بالباطن تسليمًا لا يزاحمه حرج فيما يمضي به من الشرع القويم مع الأدب في الامتثال للجلال والإجلال الذي منه ما إليه أشار، حيث قال ﷺ:

١١٣ - «لا تُطَالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مَطْلَبِكَ، ولكنْ طَالِبْ نفسَكَ بتَأَخُّرِ أَدَبِكَ»[1].

**أقول:** مطالبتك لربك بطلبك الذي لا يجب عليه من سوء الأدب، والأدب واجب

=

الخصوصية إلا بعد محوها بخلاف الأوصاف الذاتية، فإنها تجامع الخصوصية كما سيأتي إن شاء الله بل هي حجابها وصوانها وبوجودها وقع الستر والخفاء لأولياء الله تعالى غيرة عليهم أن يعرفهم من لا يعرف قدرهم.

تنبيه: هذا النور الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه كان كامنًا في الروح في أصل بروزها؛ فأصلها نورانية عالمة بأسرار الغيب دراكة للأشياء على حقيقتها، وإنما حجبها عن ذلك سجنها في هذا البدن الطيني واشتغالها بحظوظه وشهواته، فمن أدبها وريضها على يد شيخ كامل رجعت إلى أصلها، فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار وأشرقت عليها شموس الأنوار كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات، فغرقت في بحر التوحيد الذي تكل عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة وهو التوحيد الخاص.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه قاعدة عامة وإن كانت مناسبتها خاصة، فإذا طلبت شيئًا ثم تأخر ظهور ذلك المطلب، فإنما ذلك لما فاتك من حسن الأدب ولو لم يكن إلا قصد خصوص ذلك الطلب، فلا تطالب ربك أن يعجل مطلبك بسبب تأخره عنك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك فلو أحسنت الأدب في الطلب لقضيت حاجتك معنى، وإن لم تقض حسًّا وحسن الأدب هنا هو اكتفاؤك بعلمه ورضاك بحكمه واعتمادك على ما اختاره لك دون ما اخترته لنفسك لقلة علمك؛ فقد ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد.

عليك، وحق يطلب، فتأخر مطلبك منه بحق، وتأخر أدبك منك له لحمق، هذا ما هو مشهود لك من مطالبتك له المحققة، فقلة حيائك منه الدالة على تأخر كل أدب بالفقد لا بالوجود مع النقص الممتنع به فيه الكمال، وقد نبه عليه وقال ﷺ:

١١٤- «متى جعلَكَ في الظاهرِ مُمتثِلاً لأمرِهِ، ورزقك في الباطنِ الاستسلام لقهرِهِ؛ فقدْ أعظمَ المنَّةَ عليكَ»(١).

أقول: ذلك الكمال الأدب الموصل إلى الأرب من الرتب في حضرة الرب؛ ليراك على ما أحب، وهو تحكيم القلم في جميعك بحيث لا يكون لك حركة ولا سكنة، كلمة ولا سكنة إلا وهي على ما يقتضيه جَلي الشرع وخفيه امتثالاً للأمر، ومحبة له، ولحكمه، وإجلالاً لينفذ بك هذا الصدق إلى معرفة الحقيقة الظاهرة بالكل؛ لتشهدها في أكمل مظاهرها، وهي الأحكام المكلف بها شرعًا المتوصل بها حقيقة إليها باعتبار اتصاف ظاهرك برسومها، وباطنك بالاستسلام لقهره تعالى لك بها، وهي موجبات الامتثال، أو ما كل من قام بها ظاهرًا لم يجد الحرج في نفسه بما كُلف به منها باطنًا، فبفقده تجد الاستسلام الذي هو روح صور الأعمال الظاهرة بالامتثال المؤدي إلى شهود ذي الجلال والجمال، فمتى ما تهيأت بذلك كذلك، وساقه الحق إليك، فقد أعظم المنة عليك، وإلا فيفوتك منه نعمة الكمال؛ ولذا قال ﷺ:

١١٥- «ليسَ كُلُّ مَنْ ثبتَ تخصيصُهُ كَمُلَ تخليصُهُ»(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان من أعظم المنة؛ لأنه شاهد المعرفة التي هي منتهى الهمم وأقصى غاية النعم، فامتثال الأمر في الظاهر يدل على كمال الشريعة، وتحقيق العبودية والاستسلام للقهر في الباطن يدل على كمال الطريقة، ونهاية الحقيقة والجمع بينهما هو غاية الكمال؛ إذ منتهي الكمالات الشرائع فمتى جعلك أيها الإنسان في الظاهر ممتثلاً لأمره ومجتنبًا لنهيه، وفي الباطن مستسلمًا لقهره، فقد أعظم المنة عليك حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة، وأراح باطنك من تعب المنازعة أو تقول: حيث زين ظاهرك بالطاعة وزين باطنك بالمعرفة، فالواجب عليك أن تشكر هذه النعمة، وتعرف قدرها حتى تعظم محبة الله في قلبك وذلك أقصى مرادك وقصدك: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١] ومتى أثبت لك هذا الأمر، فقد خلصك من نفسك وحررك من رق حظك فلا تبالِ معها ما فاتك من تخصيص الكرامات الحسية؛ لأنها أمور وهمية.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «ليس كل من ثبت تخصيصه» بإظهار أمر خارق للعادة على يده كطي الأرض

**أقول**: ليس كل من ثبت تخصيصه بامتثال الظواهر كَمُلَ تخليصه من شبكات الحرج بذلك في السرائر، وليس كل من ثبت تخصيصه بالامتثال في الظواهر والاستسلام في السرائر؛ كمل تخليصه من شهود توهم الغير المغاير، وليس كل من ثبت تخصيصه بالعافية من شهود المغاير كمل تخليصه من مجمل الفعل الموحد الظاهر، وليس كل من ثبت تخصيصه بتفضله كمل تخليصه في تحويله، وليس كل من ثبت تخصيصه بتمكينه في تحويله كمل تخليصه في المحو به في تجريده، وليس كل من ثبت تخصيصه بإثباته بعد محوه كمل تخليصه منه بدوام صحوه، وليس كل من ثبت تخصيصه بدوام الصحو به كمل تخليصه من عدم معرفة شهود ما ظهر به في كل مراتبه، وليس كل من ثبت تخصيصه بذلك كمل تخليصه إلى معرفة سر ظهوره به هنالك، وليس كل من ثبت تخليصه بجميع ما هنالك كمل تخليصه إلى العمل القلبي والبدني على شاكلة ذلك.

فألحق آخر الدائرة بأولها، وأولها بآخرها تشهد ما اجتمع فيك مما في العوالم والمعالم من كل أمي وعالم، وترى أنك لكل منهما مأموم وإمام؛ لتوحد المشاهد والأحكام، وأنك الظاهر بالأسماء الإلهية والتفرقات الربانية الفائض شهودها غالبًا للرجال عن الاجتهاد في الأعمال، التي منها ما إليه أشار مؤكدًا حيث قال ﷺ:

**١١٦- «لا يستحقر الوِرْد إلا جهول، الواردُ يوجدُ في الدارِ الآخرَةِ، والوِرْدُ ينطوي بانطواءِ هذهِ الدارِ، وأولى ما يعتنى به ما لا يخْلفُ وجودُهُ»**(١).

---

=

والطيران في الهواء والمشي على الماء، «كمل تخليصه» من آفات النفوس وغوائلها وما تدعو إليه من الشهوات والمخالفات، فكان يقول ليس كل مخصص بالآيات والكرامات مخلصًا من الآفات، بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة، فالكرامة الحقيقية هي الاستقامة التي تضمنها ما تقدم بخلاف الكرامات التي هي خوارق العادات، فإنها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيمًا استقامة تامة، وكثيرًا ما تظهر على أيدي المبتدئين ولا تظهر على أهل التمكين، والكل من أهل الله تعالى، فينبغي احترامهم وتعظيمهم، لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الورد في اللغة هو: الشرب قال تعالى: ﴿بِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] وفي الاصطلاح: ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات، والوارد في اللغة هو: الطارق والقادم يقال: ورد علينا فلان، أي: قدم، وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ولا يكون إلا بغتة،

أقول: الورد المتخذ دأبًا من الأعمال المتقرب بها إلى الله تعالى لا يستحقره بالنسبة إلى

=

ولا يدوم على صاحبه. ثم إن الورد ينقسم على ثلاثة أقسام: ورد العباد والزهاد من المجتهدين، وورد أهل السلوك من السائرين، وورد أهل الوصول من العارفين؛ فأما ورد المجتهدين؛ فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام، وقد ذكر في الإحياء والقوت أوراد النهار وأوراد الليل وعَيَّن لكل وقتٍ وردًا معلومًا. وأما ورد السائرين؛ فهو الخروج من الشواغل والشواغب وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوئ والعيوب وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل وعبادتهم ذكر واحد وهو ما يعينه له الشيخ لا يزيد عليه مع جمع القلب وحضوره مع الرب. وأما ورد الواصلين فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدى طوره ولا يستحقر غيره إذ العارف لا يستحقر شيئًا بل يصير مع كل واحد في مقامه، ويقرر كل شيء في محله، فلا يستحقر الورد، ويطلب الوارد إلا جهول أو معاند، وكيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود؟.

الورد يوجد ثوابه وثمرته في الدار الآخرة والوارد الذي تطلبه ينطوي بانطواء هذه الدار، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢] وجاء في الأثر: «إنَّ الله يقولُ ادخلوا الجنةَ برحمتي وتقاسموها بأعمالكم». وأيضًا المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضا والتسليم وغير ذلك من المحاسن؛ فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك في الله غنى عنها، فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلا من كان عبد الوارد، وأما من كان عبد الله، فلا يلتفت إلى ما سواه بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية قيامًا بحق عظمة الربوبية، فهو الذي يدوم وبه يتوصل إلى رضا الحي القيوم، وأولى ما يعتني به الإنسان ما ينقطع وجوده بانقطاع موته، وهو ورده فيغتنم وجوده ما دام في هذه الدار، فليس في تلك الدار عمل، وإنما هي دار جزاء، وحصول أمل فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها، والآخرة دار جزاء لا عمل فيه؛ فليغتنم الإنسان عمره قبل الفوات فما من زمن يخلو عنه إلا وهو فائت منه، وقد جاء في الحديث: «لا تأتي على العبدِ ساعةٌ لا يذكرُ الله فيها إلا كانتْ عليه حسرةً يوم القيامةِ». انتهى.

وقال الحسن ﷺ: أدركت أقوامًا كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم.

وأولى ما يعتني به العبد أيضًا ما هو طالبه منه الحق تعالى، وهو الورد دون ما يطلبه هو منه وهو المراد، فالورد من وظائف العبودية وهو الذي طلبه منا الحق تعالى والوارد من وظائف الحرية، ولذلك تطلبه النفس وتتعشق إليه، وأين ما هو طالبه منا مما هو مطلبنا منه؟ بينهما فرق كبير.

فتحصل أن الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد؛ لأن الورد من وظائف العبودية، وهي لا تنقطع ما دام العبد في هذه الدار كما أن حقوق الربوبية لا تنقطع كذلك حقوق العبودية لا تنقطع.

الوارد المفتح للعرفان المؤدي إلى فقد الأغيار بشهود الواحد إلا جهول أو زنديق فاقد، فقد ألحق اللازم لكل عبد عاقل مما قال بالنص الصحيح الوارد الذي منه ما حقق أن التكاليف أكمل المظاهر والمشاهد، وإنها أصل مطلوب لا يُترك عند كل محق عابد ومشاهد؛ لعلمهم أنها تعظم عند الله، ومن أرضى مجالي صفات فعل الله، وشاهد التعظيم طلبه، والرقي به في درجات النعيم، وكون الوارد به وبحسبه في الدنيا التي هي موطن التكليف به المنطوي بانطوائها، وبتأثيره وبنوره في موطن التكليف يكون للوارد الناتج عنه فيه خلف في الدار الآخرة.

فأولى ما يعتني به ما لا يخلف وجوده في الدار الآخرة، ويترتب عليه ما تقدم مع الرضا بالقضاء، وذلك هو الورد الذي لا يحقره إلا من هو بكل ذلك جهول أو عالم به وهو متزندق مخذول، فاستعذ بالله من الخذلان، ولا تكن من الجهال، واسمع ما قال ﷺ:

* **«الوردُ هو طالِبُهُ منك، والواردُ أنتَ تطلبُهُ منه، وأينَ ما هو طالبُهُ منك مما هو مَطْلَبُكَ منه؟»**(١).

---

(١) قال الشيخ النقشبندي رحمه الله: ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا**» فأفاد ﷺ أن شكر النعمة تمام الخدمة وهو موجب المزيد، قال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٨] وهذا سبيل طائفة الجنيد ﷺ لم يترك أوراده في حال نزاعه، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بذلك وهذه صحائفي تطوى، فلم يترك الخدمة ﷺ في مثل هذه الحالة فكيف بسواها، قيل له: إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف، قال: وصلوا ولكن إلى سَقَرْ.

وقال في كلام آخر: هذا كلام من يقول بالإباحة والسرقة والزنا عندنا أهون حالاً ممن يقول بهذه المقالة، ولقد صدق ﷺ في قوله هذا فإن الزاني والسارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، وأما القائل بسقوط الفرائض المعتقد، لذلك فقد انسلَّ من الدين كانسلال الشعرة من العجين؛ فعض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخي، ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب وصار يتكلم بالزندقة والإلحاد وإسقاط الأعمال على حسب فهمه وهواه.

قال ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكُم حتَّى يكونَ هواهُ تابِعًا لما جئتُ به**» وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران:٣١]. فعليك بمتابعته ﷺ ومتابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتكن معهم، فالمرء مع من أحب. انتهى كلام النقشبندي، وهو حسن؛ لأن

**أقول:** هذا زيادة تأكيد لبيان شاهد الجهل إن أنت احتقرت مطلوبه، وهو الورد المتقدم بيانه لمطلوبك، وهو الوارد المتقدم بيانه، ومطلوبه حق عليك محق، ومطلوبك حظ لك، إن حصل بينك وبينه فمن تفضلات الخالق على الخلق، فلا جامع بينك وبينه، ولا بين طلبك وطلبه، ولا بين مطلوبك ومطلوبه الذي من نتيجة المسنون منه المفضول بالنسبة إلى المفروض محبة الله المترتب عليها مطلوبك، وما قاله الله في حد قرب النوافل حسب مراده وهو أصدق قائل، فتنبه لاستفادة الأسرار والنتائج من الأعمال، واستعد بها كالرجال، واسمع ما قال ﷺ:

**١١٧ - «ورودُ الإمداد بحسبِ الاستعدادِ»**(١).

---

=

من أخذ الحقائق من الكتب لا ذوق عنده وإنما يترامى على الحقيقة بالعلم، فيتبع الرخص ويسقط في مهاوي الهوى. وأما من كان من أهل الأذواق فسره مكتوم وأمره محزوم عبادته أدب وشكر، وهو أحق بدوام الشكر، وكيف ينكر الواسطة، ولولا الواسطة لذهب الموسوط، فالشريعة باب، والحقيقة بيت الحضرة، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] ثم قال: فلا دخول للحقيقة إلا من باب الشريعة. قلت: وقد رأيت كثيرًا من الفقراء قصروا من الشريعة فخرجوا من الطريقة، وسلبوا نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم في صحبة القوم ولم يظهر عليهم بهجة المحبين، ولاسيما العارفين، وما ذلك إلا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المراد بالأمداد أنوار التوجه للسائرين وأنوار المواجهة للواصلين، فهي تتوالى على قلوب العباد بحسب التأهب والاستعداد فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة وبقدر التخلية تكون التحلية، وفائدة هذه الأمداد تطهير القلوب من الأغيار وتقديس الأسرار من غبش الحس والأكدار، والوقوف مع الأنوار، فلا تزال أمطار المدد تنـزل على أرض النفوس الطيبة والقلوب المطهرة والأرواح المنورة والأسرار المقدسة حتى تمتلئ بأنوار المعاني، فحينئذ تنشق لها أسرار الذات، وتتعلق لها أنوار الصفات فتغيب بشهود الذات عن أثر الصفات ثم ترد إلى شهود الصفات بالذت والذات بالصفات لا يحجبها جمعها عن فرقها ولا فرقها عن جمعها تعطي كل ذي حق حقه، وتوفي كل ذي قسط قسطه.

قال شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ في بعض رسائله: فإن قلتم أي وقت نكون كالجبال: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]؟ قلنا: إذا زهدتم في الدنيا بالكلية، وقطعتم الإياس من الرجوع إليها بالكلية ثم اعتقدتم في شيوخكم أنهم كُمَّلٌ وأنهم على قدم الأنبياء عليهم السلام من ورثة النبي ﷺ فوالله العظيم لينـزل عليكم المدد الليل والنهار والشهر والعام، وفي كل وقت وساعة ولحظة حتى تمتلئ قلوبكم بمعرفة الله، وتطمئن قلوبكم بذكر الله، وتكونوا كالجبال الراسية هذا

**أقول**: ورود الإمداد بالتجلي على قدر الاستعداد من التخَلي، فإنه الموسع لمجاله الممهد له بصقاله، وعلى قدره ينال الممدود من مناله، فتارة ينال من نوع منه بكثرة، وأخرى منه بقلة، وكذا إن نال من أنواع جمله كالإمداد بالتنسك للعابدين، وبالتخلق للزاهدين، وبالترقي في مقامات القرب مع الأنفاس للسالكين، وبشهود الحق إجمالاً ثم تفصيلاً للعارفين الواجدين حيث استعداد كل من الكل أو بالكل لمن شاء الله من الكل.

قال أستاذي قدس الله سره: على قدرك الإمداد تعطى، وقابلاً تكون به من نعت قل وكثرة، ويكون ذلك على المنهج القويم المحمدي المستقيم الذي من جانبه جانب الحق وارتكب الباطل وتزندق، قيل:

ما نال من جعل الشريعة جانبًا شيئًا ولو بلغ السماء مناره

فهي النور الجامع المفيد للاستعداد، وأنوار الإمداد، حسب النوال من الكمال المنبه على ما منه بما قال ﷺ:

* **«وشروقُ الأنوارِ على حسبِ صفاءِ الأسرارِ»**(١).

**أقول**: الشروق هو انبساط ظهور النور المنفسحة به الصدور، وهو مفرد الأنوار التي كل منها في مرتبته كاشف لما استتر عن السالكين حسب استعدادات أسرارهم بالصفاء من الأغيار، فإنهم يطلقون النور بمعنى كل وارد إلهي يطرد الكون عن القلب لاستجلاء ظهور تجليات الرب، فيتمتع السر بالأسرار الإلهية هنالك في حضرة: ﴿كُلٌّ

=

معنى كلامه باختصار ﷺ وهو كما قال؛ لأن الزاهد في الدنيا تفرَّغ قلبه، وتخلَّى من الأكدار وتهيأ للأنوار، فإذا نزل المدد وجد القلب متسعًا مطهرًا منظفًا فملأه من أنواره وحلاه بحلية أسراره بخلاف ما إذا كان القلب معمورًا بأغيار الدنيا لم يجد المدد موضعًا ينـزل فيه فيرجع من حيث جاء، واعتقاد كمال الشيوخ هو عين الصدق وبقدر الصدق ينبغ المدد، ولا يمكن أن ينقطع الوهم أو يذهب الحس إلا بالصدق مع الزهد، فبالزهد يتهيأ للمدد وبالصدق يفيض عليه المدد، فكلما فاض ماء المدد غسل أوساخ الوهم، فإذا لم يبق للوهم أثر حصل الغرق في البحر، والله تعالى أعلم.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: وقوله: «وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار» تعليل لما قبله وإيضاح له؛ أي: شروق أنوار اليقين والعرفان، وهي الإمدادات المذكورة على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار، ولا يكون صفاؤها غالبًا إلا بملازمة الأوراد.

شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص:٨٨] فإن السر هو حصة كل موجود من الحق بالتوجه الإيجادي مما يشهد الحق شهود صدق في كل شاهد له من كل مظهر إلهي، ويشيرون بذلك السر المصاحب من الحق للخلق وهو الطالب للحق من كل مظهر من الخلق، والمحب له والعالم به، قال ﷺ: «عرفت ربي بربي»(١)، فمن عرف ربه به شهد قربه، ونزه وصفه، ووحد فعله، وإلا فهو من الجهال المبعدين عنه بالإغفال؛ ولذا قال ﷺ:

**١١٨ - «الغافلُ إذا أصبحَ ينظر في ماذا يفعلُ، والعاقلُ ينظرُ ماذا يفعل الله به»(٢).**

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٦/ ٢٥٨).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الغافل هو الجاهل بالله، ولو كثر ذكره باللسان، والعاقل هو العارف بالله، ولو قل له ذكر اللسان؛ إذ المعتبر هو ذكر الجنان فالغافل نفسه موجودة وآماله ممدودة إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شئونه ومأربه بعقله وحدسه، فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته فإذا فسخ القضاء ما أبرمه، وهدم له ما أمله غضب وسخط وحزن وقنط فنازع ربه وأساء أدبه، فلا جرم أنه يستحق من الله البعد، ويستوجب في قلبه الوحشة والطرد إلا إن حصل له إياب، وأدام الوقوف بالباب حتى يرفع عنه الحجاب فحينئذ يلتحق بالأحباب.

وأما العاقل وهو العارف فقد تحققت في قلبه عظمة ربه، وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت في قلبه شموس العرفان وطوى من نظره وجود الأكوان، فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار تصرفه بالله ومن الله وإلى الله، فقد فني عن نفسه وبقي بربه فلم ير لها تركًا ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً، فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين.

فإذا أراد الفقير أن يكون تصرفه بالله؛ فلينعزل عن حظوظه وهواه فإذا أراد أن يفعل أمرًا فليتأنَّ ويصبر ويستمع إلى الهاتف، فإن الله سبحانه يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلاً أو تركًا، وقد جربنا هذا في سفرنا وإقامتنا فكنا لا نتصرف إلا بإذن خاص، والحمد لله وصاحب الاعتناء كله هكذا مع التأني؛ فإن التأني من الله والعجلة من الشيطان، واستعن على هذا الأمر بأدعيته ﷺ في هذا المقام كقوله: «اللهمَّ إني أصبحتُ لا أملكُ لنفسي ضَرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا أستطيعُ أن آخذَ إلا ما أعطيتني، ولا أن أتَّقِي إلا ما وقيتني فوفِّقْني اللهم لما ترضاه مني من القولِ والفعلِ، وفي عافيةٍ وسِتْرٍ؛ إنَّك على كل شيءٍ قديرٌ».

ويجمع هذه المعاني وصية شيخ طريقتنا القطب ابن مشيش للرجل الذي قال له: وظف عليَّ وظائف وأوراد فغضب، وقال له: أرسول أنا فأوجب الواجبات؟ الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة فكن للفرائض حافظًا وللمعاصي رافضًا، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا، وحب النساء، ومن الجاه،

obeikandi.com

**أقول:** الغافل من غفل عن الحق بالخلق، فلم ير السر المصاحب لهم منه، ورأى لهم ولنفسه فعلاً وتدبيرًا عن قدرة مؤثرة مع القدرة الأزلية التي لا تأثير لشيء معها البتة لا مباشرة ولا تولدًا، ولذلك إذا أصبح من نومته لم ينتبه من غفلته، فينظر ببصر عقله المكفوف ماذا يفعل بفعله الموقوف لغفلته عن عجز الخلق، وعن ما قام بهم من السر المصاحب لهم من الحق المعقول للعاقل الذي به شهد التأثير لقدرة الحق دون قدرة الخلق، فنظر ماذا يفعل به فإن العاقل من عقل الحق في الخلق، ومن لازم ذلك تجريد ما سوى الحق عن التأثير والعلم والتدبير، فلا يصبح ولا يمسي إلا بين يديه ناظرًا به ما يصل منه إليه، وإن كان بالوسائط الخلقية لا يخفى عليه ما قام بهم من سر الربوبية المشهود لأهل الكمال دون غيرهم من الرجال الذين نبه عليهم بما قال ﷺ:

**١١٩ - «إِنَّمَا استوحشُ العبادُ والزهادُ مِنْ كُلِّ شيءٍ لغيبتِهِمْ عنِ اللهِ في كُلِّ شيءٍ، فلو شَهِدُوهُ في كُلِّ شيءٍ لم يستوحشوا من شيءٍ»**(١).

---

=

وإيثار الشهوات، واقنع في ذلك كله بما قسم الله لك إذا خرج لك مخرج الرضا، وهو جماله تعالى؛ فكن لله فيه شاكرًا، وإذا خرج لك مخرج السخط، وهو جلاله فكن عليه صابرًا، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات، وأصل جامع لجميع الكرامات.

وقال بعضهم: من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه، ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله؛ أي: من رأى الحق غاب عن نفسه، ومن رأى نفسه حجب عن الله، ثم إن العاقل الذي ينظر ما يفعل الله هو العارف كما تقدم؛ لأنه هو الذي يتحقق فيه ذلك، ومن علامته أنه لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء، وفهمه عن الله في كل شيء بخلاف غيره من العباد والزهاد.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العباد هم الذين غلب عليهم الفعل فهم مستغرقون في العبادة الحسية، يقومون الليل، ويصومون النهار، شغلهم حلاوة العبادة عن حلاوة شهود المعبود، فحجبوا بعبادتهم عن معبودهم، والزهاد هم الذين غلب عليهم الترك، فهم يفرون من الدنيا وأهلها ذاقوا حلاوة الزهد فوقفوا معه، وحجبوا عن الله؛ فهم يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن الله فيها، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء ولأنسوا بكل شيء، وتأدبوا مع كل شيء، والعارفون لنفوذ بصيرتهم شهدوا الخلق مظاهر من مظاهر الحق، فحجبوا أولاً بالحق عن الخلق، وبالمعنى عن الحس، وبالقدرة عن الحكمة ثم ردوا إلى شهود الحق في الخلق والقدرة في الحكمة فحين عرفوه في كل شيء أنسوا بكل شيء، وتأدبوا مع كل شيء، وعظموا كل شيء.

وقال سيدي علي ﷺ على قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي في شأن الخلق: أراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم

أقول: العباد هم المتوجهون إلى الله بالعبادة فقط مع الحجاب، والزهاد كذلك القائمون بها أو بها مع الزهادة بلا ارتياب، والاستيحاش نفور القلب عن المساكنة لشيء من الخلق لغلبة حكم الفرق الذي هو شهود خلق بلا حق؛ لغيبتهم عن الله بواسطة عدم معرفة شهوده في كل شيء من حيث تعرفه به وفيه ومنه بالتوجه الإيجادي الذي به تعين وجوده، وتكون، ونبت في جميع أطواره، وتكونت شئونه في مراتب أنواره بتعرفه دائمًا لوحدته الخفية بظهور أسمائه، وتجليات صفاته، وأفعاله، بالكثرة الكونية التي لا قيام لها إلا بذلك؛ لافتقارها الذاتي الدائم للرب المتعرف المالك الذي لو عرفوه بذلك في كل شيء شهدوه به في كل شيء، واستأنسوا به وبما يظهر به من كل شيء، وما استوحشوا من شيء، وذاك على أُسس قواعد العرفان الحق الصدق الممتنع به التباس تلبيس حقائق الوجوب بالإمكان لصحة طريق الكمل من الرجال القائمين فيها على حدود الامتثال الشاهد به ما قال ﷺ:

**١٢٠ - «أمركَ في هذه الدارِ بالنظرِ في مكوناتِهِ، وسيكشفُ لكَ في تلكَ الدارِ عنْ كمالِ ذاتِهِ»**(١).

---

=

لم تجدهم شيئًا، قال: بل إن فتشتهم وجدتهم شيئًا، وذلك الشيء ليس كمثله شيء يعني وجدتهم مظاهر من مظاهر الحق أنوارًا من أنوار الملكوت فائضة من بحر الجبروت.

والحاصل: إن العارفين بالله غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق فهم مع الخلق بالأشباح ومع الحق بالأرواح ماتوا وبعثوا، وقامت قيامتهم، وتبدلت في حقهم الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار؛ فهم يرون الأنوار والناس في ظلمة الأغيار.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: والحاصل: إن تجلي الذات على قسمين: قسم: يكون بوسائط كثيفة ظاهرها ظلمة وباطنها نور ظاهرها حكمة وباطنها قدرة ظاهرها حس وباطنها معنى وهو تجلي هذه الدار، وقسم: يكون بوسائط لطيفة نورانية ظاهرها نور وباطنها نور ظاهرها قدرة وباطنها حكمة ظاهرها معنى وباطنها حس وهو تجلي دار الآخرة.

فالعارفون لما حصل لهم الشهود والمعرفة في هذه الدار، وفي تلك الدار لا يحجبهم عن الله حور ولا قصور؛ بل دائمًا في النظرة والسرور والنضرة والحبور وذلك أنهم لما عرفهم به هنا لم يحجبهم هنالك يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه بخلاف العامة؛ فإنهم لما حجبهم هنا بشهود أنفسهم انحجبوا هناك عن رؤية معبودهم إلا في وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولذلك كتب ابن العربي الحاتمي إلى الإمام الرازي فقال له: تعال نعرفك بالله اليوم قبل أن تموت فإذا

**أقول:** الأمر من الله تعالى يقتضي الوجوب بتكليف المكلف بالنظر العقلي في هذه الدار الدنيوية التي هي محله؛ لتحصيل المعرفة به تعالى من الواجبات له والمستحيلات عليه، والجائزات له بالشواهد الساطعة والبراهين القاطعة؛ لشهود كماله الذاتي المنزه عن النقائص بالكمالات التي لا تتناهى من النظر في المكونات، المستجلى منها به جلوات أنوار الصفات المتجلية بها الذات؛ ليكون لك بذلك استعداد وتوسع به هنا لما سيكشفه لك في الدار الآخرة من شهود كمال ذاته التي يجب الإيمان برؤيتها لتصديق الخبر على ما يليق بها مما حرره أهل الحق رؤية لا تمارون فيها، ولكل من ذلك الشهود قسط بحسب استعداده من المعرفة الناتجة عن الامتثال المنوط بمتابعة الرسول ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال المستجلي منها تجليات الجمال والجلال الذين لا يستطاع الصبر عنهما للكمل في الحال والمآل؛ ولذا قال:

**١٢١- «علم منك أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه»**[1].

**أقول:** علمه سبحانه المحيط بكل شيء من الجزيئات والكليات منه ما علم به مما أودعه فيك وفي العالم من حصة التوجه الإيجادي التي بها تعينت ودمت، التي لا يطلب الحق منك ومن العالم ويحبه ويعلمه ويشهده إلا هي، فأنت من حيث هي لا تصبر عنه،

=

تجلى الله لعباده أنكرته ولم تعرفه. وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني ﷺ عن رجل يدعي أنه يرى الله ببصره، فاستدعاه، فسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول، ثم قيل له: أمحق هو أم مبطل؟ فقال: هو محق ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره فنفذ فرأى بصره بصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته، وإنما رأى بصره بصيرته فحسب. انتهى.

والحاصل: إنه انعكس بصره في بصيرته فرآه ببصيرته وظن أنه رآه ببصره، ومعني ذلك أن الروح ما دامت محجوبة بالبشرية كان النظر إنما هو للبصر الحسي، فلا يرى إلا الحسي فإذا استولت الروحانية على البشرية انعكس نظر البصر إلى البصيرة فلا يرى البصر إلا المعاني التي كانت تراها البصيرة.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «علم منك أنك لا تصبر عنه» أي: عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب، فإنه لا يصبر عن رؤية محبوبه، لكن رؤيتك له في هذه الدار من غير حجاب متعذرة، «فأشهدك ما برز منه» من الآثار والأكوان؛ أي: أشهدك إياها لتراه فيها بعين بصيرتك، وإن كانت تلك الأكوان حاجبة لك من رؤيتك له بعين بصرك، فقد رأيته من وراء حجاب، وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك حيث لم يحجبك عنه في الدنيا أيضًا.

فقد أشهدك ما يظهر منه وهو ما تقدم لك بيانه من التعرف الظاهر بالتكليف والتأليف من الأعمال المتنوعة؛ لتنوع أجناس الأحوال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٢٢- «لما عَلِمَ الحق منكَ وجودَ المللِ لَوَّنَ لكَ الطاعاتِ(١)، وعَلِمَ ما فيكَ من وجودِ الشَّرَهِ فحجرها عليكَ في بعضِ الأوقاتِ(٢)؛ لِيَكونَ هَمّكَ إقامةُ الصلاةِ لا وجودَ**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لما فصل الحق سبحانه هذه الروح التي هي لطيفة نورانية من أصلها، وتغربت عن وطنها تعشقت إلى أصلها، وتعطشت إلى محبة سيدها، فلما علم الحق سبحانه أنها لا تصبر عنه. ولا تقدر أن تراه على ما هو عليه من كمال جلاله ونور بهاء جماله ما دامت في هذا السجن الذي هو قفص البدن أشهدها الحق تعالى ما برز منه من تجلياته في مظاهر مكوناته وآثار صفاته لكن لابدَّ للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب، فبرزت أنوار الجبروت إلى رياض الملكوت فغطتها سحائب الحكمة وآثار القدرة، فبقيت الروح تتعشق إلى أصلها من وراء سحاب الأثر فإذا انقشع السحاب، ورفع الحجاب لقي كل حبيب حبيبه، وعرف كل إنسان مثواه ومستقره، فقنعت الروح بشهود المعاني خلف رقة الأواني، والله تعالى أعلم. وقال الشيخ زروق ﷺ: فلونت له الطاعة لثلاثة أوجه: أحدها: رحمة به ليستريح من لون إلى لون. الثاني: إقامة للحجة عليه؛ إذ لا عذر له في الترك. الثالث: ليثبت له النسبة في العمل بوجود التخيير في الجملة فتكمل الكرامة وتسهل الطاعة. فقد قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد، ومن سار إلى الله بطبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه بقدر بعده عن طبعه، ومتى يصح بعده عن طبعه، والمقصود إنما هو موافقة الحق لا مخالفة النفس وشواهد السنة لا تخفى، فافهم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: الشره: خفة في النفس توجب المسارعة للعمل والإسراع فيه، وينتج آفات ثلاثًا: أولها: الترك عند الدوام لتروِّي النفس وضيقها. الثاني: الملل وهو التثاقل إن لم يكن ترك. الثالث: الإخلال بالحقوق لوجود العجلة. والحجر بالوقت فيه فوائد ثلاث: أولها: منع الشره إذ لو كانت مرسلة لوقعت النفس فيها على وجه الشره. الثاني: نفي التسويف؛ إذ لولا الوقت لكانت تعده من زمن إلى زمن فيؤدي إلى التفريط. الثالث: التمكين من العمل والتمكن فيه؛ إذ لولا الوقت لأهمل العمل، ولم يحافظ عليه لغلبة الهوى، ولم يحفظه استعمالاً للحظوظ. انتهى. وقال أيضًا: السر في تحجير الصلاة في بعض الأوقات؛ لتشتاق النفس إليها وترتاح بها فيحصل فيها الخشوع والحضور وقرة العين بخلاف ما إذا كانت دائمة فيها، فلا تتعشق إليها بل ربما تمل فتوقعها على غير تمام، والمقصود منك حركة قلبك لا حركة جسمك: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صورِكُمْ ولا إلى أعمالِكُمْ ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكُمْ» ليس الشأن حركة الأشباح إنما الشأن خضوع الأرواح، فالسر في تحجير الصلاة عنك في بعض الأوقات أن يكون همك إقامة الصلاة، وهو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة لا وجود الصلاة من غير إقامة، فهي ميتة خاوية فهي إلى العقوبة أقرب.

الصلاةِ، فما كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيم(١)».

أقول: ومن علمه مما خلقه وأودعه فيك وجود الملل، وهو السآمة من حيث مخلوقيتك؛ لتنوع خالقيته لك منك فيك من حيث أعمالك خصوصًا الطاعات المتقرب أنت بها له، فلونها لك بسبب سأمك أنواعًا لا تخفى عليك لشهودك لها متنوعة حسًا ومعنى.

ويشمل أنواعها أربعة أجناس: بدني، وقلبي، وروحي، وسري، وكل نوع منها تحته أفراد متشككة؛ لتشكك الاستعداد، فأفراد نوع الجنس الحسي البدني: كالشهادتين، والجهاد، والزكاة، والصوم، والصلاة، والذكر، والتسبيح، والتكبير، والتلاوة إلى غير ذلك، وأفراد نوع الجنس القلبي: كالإيمان، والعلم، والزهد، والصبر، والرضا، والتواضع، والعفو، والرحمة، والمراقبة إلى غير ذلك، وأفراد نوع الجنس الروحي: كالشوق، والعشق، والإدراك والتمييز لموجبات المحبة، والفناء إلى غير ذلك، وأفراد نوع الجنس السري: البقاء، والشهود به للمشهود من حيث أنواع أنوار تجلياته التي لا تحصر ولا تتناهى.

ويجمع ذلك كله الصلاة لمن عرفه الله به منها حسب إدراكه المقسوم له من الصّلاة وبما علمهُ فيك وجود الشره خصوصًا من حيث حصتك الإيجادية منه فيما يبديه لك من

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الإقامة في اللغة هي الإكمال والإتقان، يقال: أقام فلان داره إذا أكملها، وجعل فيها كل ما يحتاج إليه؛ فإقامة الصلاة إتقانها كما تقدم، وضد الإقامة هو الإخلال والتفريط، فليس كل مصل مقيمًا؛ فكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب، وفي بعض الأحاديث: «مَنْ لم تنهَهُ صلاتُه عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لم تَزِدْهُ مِنَ الله إلا بُعْدًا». قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل موضع ذكر فيه المصلون في موضع المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة:٣]، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ [إبراهيم:٤٠] ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ﴾ [الأنبياء:٧٣] ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ [الحج:٣٥] ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة. انتهى.

واعلم أن الخشوع في الصلاة على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: خشوع خوف وانكسار وإذلال وهو للعباد والزهاد. المرتبة الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال وهو للمريدين السالكين. المرتبة الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال وهو للواصلين من العارفين، ويسمى هذا المقام قرة العين، ثم اعلم أن الصلاة التي لا يصحبها خشوع ولا حضور هي باطلة عند الصوفية غير مقبولة عند العلماء.

الطاعات المستجلي منها الأفعال والصفات، فحجرَها عليك من حيث بعض المظاهر المطلوبة في بعض الأوقات كالصلاة، ولم يحجر مطلق شهودك له من حيث معرفتك به بدوام تعرفه المستغرق لجميع الأوقات ليكون هَمك أهمها، وهو إقامة اعتبار الصلاة لمعرفتك ما قام وظهر بها من التجليات، فتكون الصلاة بذلك لك صِلاتٍ فما كل مصل لها مقيم شواهد الشهود، ومنها للشاهد شهوده لاشتمالها على ما لم يشمل عليه غيرها من الأعمال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٢٣ - «الصلاةُ طهرةٌ للقُلُوبِ من أدناس الذنوب واستفتاح لبابِ الغُيُوبِ»**(١).

**أقول:** لما اشتملت عليه من الأجناس المتقدم ذكرها، والأفراد الداخلة تحت كل نوع منها الذي كل منها مطهرة للقلب من ضدها، ومستفتح لباب من أبواب غيب المتودد بها مما يجود به من الأنوار المستبدل عن الأغيار؛ لتصلح القلوب لمواجهة ذي الجلال بهذا النوال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٢٦ - «الصلاةُ مَحَلُ المنَاجَاةِ، ومعدنُ المُصَافَاةِ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كانت الصلاة طهارة للقلوب من المساوئ والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار، فإذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل؛ لأن طلب العلو والرفعة هو أصل العلل وعنصرها، ومن شأن النفس وطبيعتها طلب العلو والاستكبار والتعزز والافتخار؛ لأنها جاءت من عالم العز فلا ترضى إلا بالعز، فلما ركبت في هذا القالب الجسماني ردتها القهرية إلى العبودية، وجعلتها لها بابًا للوصول إلى حضرة الربوبية فلا يطمع لها في الرجوع إلى أصلها إلا بانكسارها وذلها، ولذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحامًا، فأتيت باب الذل والانكسار، فوجدته خاليًا فدخلت منه، وقلت: هَلُمُّوا إلى ربكم؛ فإذا انكسرت وذلت رجعت لأصلها ووصلت، وإذا تعززت واستكبرت حجبت وطردت، وإذا طردت بعدت، وكلما بعدت عن الحضرة الربانية استحكمت فيها الشهوات الجسمانية والأخلاق الشيطانية؛ فاتصفت حينئذٍ بكل خلق دنيء وبعدت من كل خلق سنيٍّ.

فإذا أراد الله تعالى أن يرحمها بالقرب من جنابه، والوقوف ببابه ألهمها الصلاة وحببها إليها حتى إذا تطهرت من الذنوب، ومحيت عنها المساوئ، والعيوب قربت من حضرة الحبيب ومناجاة القريب؛ فقرعت الباب وطلبت رفع الحجاب.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: المناجاة هي المساررة والمكالمة مع الأحباب؛ فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار، وفي الحديث الصحيح: «المُصَلِّي

**أقول:** المناجاة فرع عن أصل حضور العبد بين يدي المعبود، والصلاة المؤقتة محل لحكم الأصل المشهود، وهي الحكم العام الذي تقيد به العوام، ومن كان في الصلاة الدائمة ناجاه على الدوام، وصفاه من سواه في كل مقام، ويتوسع به المجال؛ ولذا قال ﷺ:

* «**تَتَّسِعُ فيهَا ميادينُ الأسرارِ، وتشرقُ فيهَا شوارقُ الأنوارِ**»(١).

---

=

يُناجِي ربَّهُ» ولا يزال المصلي يناجي ربه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب؛ فتصفو المحبة من كدر الجفا، ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفا.

وقال أيضًا: المعدن هو محل الذهب والفضة استعير هنا لصفاء القلوب والأرواح؛ لتصفيتها من لوث صلصال الأشباح فالمصافاة خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس، فهي أرق وأصفى من المناجاة، وفي الخبر: «**إنَّ العبدَ إذا قامَ إلى الصلاةِ رفعَ الله الحجابَ بينه وبينه وواجهَهُ بوجهِهِ، وقامتِ الملائكةُ من لَدُنْ مِنكَبَيْهِ إلى الهُوِيِّ يصلونَ بصلاتِه**». انتهى، فإذا تمت التصفية، وعظمت المحبة، وكثر العطش، وظهر الدهش، استحقت الروح رفع الحجاب، وفتح الباب فتدخل إلى حضرة الأحباب، ويرتفع بينها وبينهم الحجاب، فتخرج من ضيق الأشباح إلى فضاء عالم الأرواح أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت.

وقال الشيخ الشرقاوي: «الصلاة محل المناجاة» أي: مناجاة العبد لربه بإظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين وملكه يوم الدين إلى غير ذلك من الصفات، ومناجاة الرب له بما يلقيه في سره من العلوم الوهبية والأسرار العرفانية، «ومعدن المصافاة» أي: التودد؛ أي: مصافاة العبد لربه بتوجهه إليه بكليته وإقباله عليه بعوالمه الظاهرة والباطنة حتى لا يختلج في سره غيره، ومصافاة الرب لعبده بأن يمنحه شهوده، ويفيض عليه فضله وجوده، وهذه أعلى المصافاة ودونها مراتب، وعلى قدر إقبال العبد يكون إقبال الرب جل جلاله.

(١) وقال الشيخ ابن عجيبة: الميادين: جمع ميدان، وهو مجال الخيل استعير هنا لفضاء عالم الملكوت، فإذا تنزهت الروح في عالم الملكوت، وجالت بفكرتها في سعة أنوارها أشرقت عليها أنوار سنا الجبروت. قال أبو طالب: حدثنا أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرضين خوفًا منه؛ لأنه تأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس، وضرب بينه وبينه بسرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك في قلبه فإذا ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت الله أكبر في قلبك كما تقول فيتشعشع في قلبه نور يلحق ملكوت العرش، فينكشف له بذلك ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات، قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل؛ فإذا كبر اطلع الملك في قلبه، فإذا كل شيء في قلبه أكبر من الله عنده، فيقول الملك: كذبت

obeikandi.com

أقول: اتساع ميادين الأسرار على قدر صفائها من صور الأغيار الحاصلات والواصلات بمحوها جلاء أو بفنائها استجلاء للتجليات التي تشرق فيها حين اتساعها به لشوارق الأنوار الفعلية والصفاتية والذاتية تدريجًا على الغالب، ورحمة منه للقوابل والقوالب من سطوات وقع الحال دفعة كما هو معلوم منه في الأعمال المنبه عليه بما قال ﷺ:

١٢٤- «عَلِمَ وجودَ الضعفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أعدادَهَا، وعَلِمَ احتياجَكَ إلى فضلِهِ فَكَثَّرَ أمدادَهَا»[1].

أقول: علم سبحانه ما خلقه فيك من وجود ضعفك، وضيق وسع قدرتك من حيث أنت بما قدر لك من حمل الخمسين من الصلاة، فقلل أعدادها إلى خمس من

=

ليس الله في قلبك كما تقول فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابًا لقلبه عن الملكوت، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته، وتلتقم الشياطين قلبه، ولا تزال تنفخ فيه، وتنفث وتوسوس وتزين له حتى ينصرف من صلاته، ولا يعقل ما فعل.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من لطفه سبحانه بك أيها الإنسان قلل أعدادها مع سعة الزمان، فجعل عليك صلاة في أول نهاره شكرًا لما أظهره لك من باهر أنوراه، وليكون نهوضك إليه في أول قيامك جبرًا لما حصل من غفلتك في طول منامك، وجعل عليك صلاة في وسط نهاره إخمادًا عنك لما أظهره في ذلك الوقت من وقود ناره، وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهدًا لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار، ولتشهد عليك ملائكة الرحمن بالصلاة عند الملك الديان، وأوجب عليك صلاة في أول زمان الليل استفتاحًا؛ لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك، واستحفاظًا لما يتوقع من عجائب الليل ثم لما أردت أن تنام عن سيدك، وتغفل عن ربك، وتمتع بفراشك أمرك أن تودعه بحضورك معه، وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك؛ فهذا كله جذب منه لك لحضرته، واستخراج منك لشكر منته.

وقال أيضًا: المراد بالإمداد: الجزاء الذي رتب عليها، فجعل كل صلاة بعشر، فهي خمس وهي خمسون خمس في الحس وخمسون في المعنى ـ أي: الثواب ـ وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين، وكل درجة بعشر فكان عدد صلاة الجماعة مائتين وخمسين في كل صلاة: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] وتتفاوت الدرجة أيضًا بكثرة الجماعة وكمالها وبقدر الحضور والخشوع والغيبة ورفع الستور: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] وتتفاوت أيضًا بقدر البقع كبيت الله الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس وبقدر رتبة الإمام.

obeikandi.com

المفروض، وما تابعه من المسنون مما هو مقرر محفوظ، وأبقى لك حصة من الاختيار لما رشح بطلبه من العبادات المستحبة حيث قال: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[1]، لما علمه من احتياجك مع الضعف إلى فضله ونواله، فيجود بطاعته فضلاً، ويضاعف ثوابها لك بعشرة أمثاله، فقد عمرك بالأعمال، وغمرك بالنوال، فاحذر أن تغفل عن شهود ذلك تقع فيما نبه عليه حيث قال ﷺ:

**١٢٥- «متى طلبتَ عِوَضًا عن عملٍ طُولِبْتَ بوجودِ الصدقِ فيهِ، ويكفي المريبَ وجدانُ السلامةِ»**[2].

**أقول:** طلبك لعوض على العمل فرع عن إثبات الفعل إليك دون تفضله به عليك، وهو فرع إثبات نفسك مع الله فاعلة، تعالى وهو الخالق لك وله، فليس لك ما تعوض عليه، وإن نُسب إليك كسبًا فبفضله وهو لله خلقًا، وما أتيت به لما أنت طالبه من عوضه فليس لله حتى يعوضك الله، فإن الصدق في العمل صادق لما يعمل له، وأنت لم تعمل لله، فإن الصدق وكل ذلك لجهلك بالله، وغلطك في نفسك الحاجبة لك عن الله حيث لم تعلم ما له من القدرة التي لا تأثير معها لغيرها، وإن تحقق وجوده كالقدرة الحادثة مما لك من العجز اللازم الذاتي الحاكم عليك بالاحتياج الدائم حتى في كسبك المترتب عليه عقوبتك

---

(١) رواه البخاري (٢٠/ ١٥٨).

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «متى طلبت» أيها المريد من ربك «عوضًا على عمل» صلاة أو غيرها بأن عملت ذلك لأجل ثواب آجل، وهو الجزاء عليه في الآخرة أو عاجل كالإمدادات التي ترد عليك من قبل الحق، «طولبت» أي: طالبك الحق سبحانه «بوجود الصدق فيه» أي: قال: إن لم تصدق لكونك عملت العمل لأجلي، بل عملته لحظ نفسك والصدق في مطابقة الباطن للظاهر، وهو مفقود في هذا العمل؛ لأن ظاهره أن يعمل لله قيامًا بحق الإلوهية، وباطنه أنه لم يعمل إلا لحظ نفسه، فيكفيه حينئذ سلامة من العقاب عليه كما قال. «ويكفي المريب» أي: المرتاب في كون مولاه يحصل له الثواب العاجل والآجل، وإن لم يقصده بعمله؛ إذ لو كان جازمًا بذلك متيقنًا له لسعة جوده ﷻ لم يخطر بباله ذلك فيحال عمله، بل كان يخلص فيه لله تعالى، فيكفيه حينئذ «وجدان السلامة»، من العقاب على ذلك العمل المدخول؛ أي: فيقول له الرب: هذا العمل الذي عملته لا تستحق عليه مني جزاء، بل يكفيك من الجزاء عليه سلامتك وعدم عقابك، وهذا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل، وبيان أن المنهل العذب الصافي أن يعبد العبد ربه لما هو عليه من عظمة الإلوهية ونعوت الربوبية لا لما يعود عليه في دنياه أو أخراه.

obeikandi.com

وثوابك، ويكفي المريب الغارق في بحار جهله بنفسه وبربه وجدان السلامة من المؤاخذة على هذا الاختلال، ولو بالملامة، واسمع ما حققه لك مما قال ﷺ:

**١٢٦ - «لا تطلبْ عِوَضًا على عملٍ لستَ لهُ فَاعِلاً يكفي من الجزاءِ لك على العملِ أنْ كانَ له قابلاً»(١).**

أقول: هذا فتح باب معرفة إفلاسك مما نسبته إليك، وطلبت له عوضًا يعود عليك غلطًا، فلو عرفت تبرأت مما له واستحييت عن أن تنسبه إليك فضلاً عن أن تطلب عوضًا عليه يعود إليك، ورأيت أيكفيك من فضل الله جعله إياك للعمل محلاً، ونسبته إليك فعلاً، ثم كونه له قابلاً، فتنبه لهذا الإفضال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٢٧ - «إذا أرادَ أنْ يُظْهِرَ فضلَهُ عليكَ، خلقَ ونَسَبَ إليكَ»(٢).**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد تقرر عند أهل الحق أن العبد مجبور في قالب مختار؛ فليس له فعل ولا اختيار، وإنما الفاعل هو الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] وقال ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ» أي: النشاط. وقال ﷺ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، فأمَّا مَنْ كانَ من أهلِ السعادةِ؛ فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأمَّا منْ كانَ من أهلِ الشقاوةِ؛ فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ الشقاوةِ ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل:٥]». فإذا تقرر هذا، فكيف يطلب العبد الأجر على عمل ليس هو فاعله؟! وعلى تقدير نسبته إليه فالجزاء متوقف على القبول، فمن أين تدري هل يكون مقبولاً أم لا؟ وإذا تفضل عليك بالقبول على ما هو عليه من النقص والخلل، فهذا يكفيك في جزائك على العمل، فلولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول، فلولا أن الله سبحانه تفضل على عباده بالعفو والحلم ما قبل عملاً قط؛ إذ تصفية الأعمال كادت أن تكون من المحال. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١] أي: عظموه حق تعظيمه، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣] أي: لم يقض الإنسان ما أمره سيده على الوجه الذي أمره به، وانظر قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦] ولم يقل الحق تعالى نتقبل منهم؛ لأنه يقتضي أنه كامل بل عداه بعن المفيدة للتجاوز كأنه قال: أولئك الذين يتجاوز عنهم في أحسن ما عملوا فتقبلها منهم، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم، ولكن الكريم لا ينتقد بل يقبل كل ما يعطاه لعظيم كرمه وغناه.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «إذا أردت أن يظهر فضله عليك» أي: فضله عليك وإحسانه لك «خلق» أي: العمل فيك «ونسب إليك» أي: نسبه إليك بأن قال فيك عند ملائكته إنك مطيع ومتق ومجتهد وعامل أو نسبه إليك على ألسنة العباد بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع ومتق... إلخ، فإذا شهد العبد

**أقول:** هذا تأكيد لما تقرر وتأييد لما تحرر من مذهب أهل الحق أن الله هو القادر المؤثر المتفضل عليك وعلى العالم أولاً من الكرم بإيجاده لك من العدم، مدركًا بالمدارك الظاهرة والباطنة، المتأتي لك بها كمالك بإدراكك جميع مدركاتك في دائرة الحكم العادي بما تحمد به عنده، وعند خلقه في الدارين فضلاً متعاقبًا بخلق الأعراض المماثلة لك، ولمداركك منه لبقاء ما ينسب إليك بفضله متعرفًا لك بقدرته في كل ذلك لتشهده هنالك.

ثم إذا أراد أيضًا أن يظهر فضله عليك في دائرة الحكمة خلق ما يكون خارقًا للعوائد ونسبه كذلك إليك تعرفًا بالقدرة لكن مجردة على ظهور الحكمة، فتأمل ذلك واعمل به تنج من المهالك والآفات هنالك بشهودك إنك الفعَّال لما تفضل الحق به عليك من الأفعال، فتنبه لمعرفة مذام نفسك بما قال ﷺ:

**١٢٨- «لا نهايةَ لمذامِّكَ إنْ أرجعكَ إليكَ، ولا تَفرُغْ مدائِحُكَ إنْ أظهرَ جُودَهُ عليكَ»**(١).

**أقول:** لا نهاية لمذامك النفسانية والشيطانية إن أرجعك الحق بعدله إلى نفسك التي هي معدن كل ذلك ومجمع جميع المهالك، ولا تفرغ مدائحك من محاضر العقول المورودة على ألسنة النقول من المادحين لك على محامد الله الجارية عليك منه إن أرجعك عن نفسك ولوازمها بفضله؛ لإظهار وجوده الواصل به إليك، وكل ذلك لشهود ما له وما لك في كل حال فتسجد سجود الأبد على بساط الإجلال الشاهد له، قال ﷺ:

---

=

هذا الفضل العظيم، واستولي عليه الخجل والحياء من سيده الكريم، لم ينسب لنفسه شيئًا من محامد الصفات ومحاسن الأعمال لا حقيقة ولا أدبًا؛ إذ لا أهلية فيه لذلك، وأما مذام الصفات والأعمال ومساويها، فمقتضى الأدب أنه يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف به أنه من ظلمه وجهله.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا نهاية لمذامك أن أرجعك إليك» أي: وكلك إلى نفسك؛ لأنها مجبولة على الشر، فإذا خلى الله بينك وبينها؛ أي: لم يعنك عليها، ولم يحكمك فيها، غلبتك وتحكمت فيك، فتوقعك في أنواع القبائح حتى لا يبقي في أعمالك ما يستحسن، ولا في أحوالك ما يحب، وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله، «ولا تفرغ مدائحك أن أظهر جوده عليك» بأن تولي عنايتك ونصرك على نفسك، ولم يحكمها فيك، فتصير أحوالك حسنة جميلة، فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضي محاسنك، وذلك علامة اصطفائه لك واجتبائه.

١٢٩ - «كُنْ بأوصافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا وبأوصافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا»(١).

أقول: «كن» أمر بالتعلق بأوصاف ربوبيته التي يربي بها العالمين، وهو شهود

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف الربوبية هي العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم، وغير ذلك من أوصاف الكمالات التي لا نهاية لها، وأوصاف العبودية هي الذل والفقر والعجز والضعف والجهل، وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص، وكيفية التعلق بأوصاف الحق: هو أن تلتجئ في أمورك إليه، وتعتمد في حوائجك عليه، وترفض كل ما سواه، ولا ترى في الوجود إلا إياه، فإذا نظرت إلى عزه وكبريائه وعظمته تعززت به، ولم تعزز بغيره وصغر في عينك دونه كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلقت بغناه واستغنيت عما سواه، ولم تفتقر إلى شيء، واستغنيت به عن كل شيء، وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجئ في حال عجزك وضعفك إلا إلى قدرته وقوته، واستضعفت كل شيء، وإذا نظرت إلى سعة علمه وأحاطته اكتفيت بعلمه، واستغنيت عن طلبه، وقلت بلسان الحال: «علمُهُ بحالي يُغْنِي عنْ سُؤَالِي» وهكذا في جميع الأوصاف والأسماء فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق. وكيفية التخلق بأوصافه تعالى: أن تكون في باطنك عزيزًا قويًّا به عظيمًا كبيرًا عنده قويًّا في دينه، وفي معرفته عالِمًا به وبأحكامه وهكذا، وحاصلها: استعمال الحرية في الباطن، والعبودية في الظاهر، وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى: أن تكون تلك المعاني فيك راسخة متمكنة متحققًا فيك وجودها؛ فالتخلق مجاهدة، والتحقق مشاهدة أي: يكون وجودها غريزيًّا. وكيفية التخلق بأوصاف العبودية: هو التحقق بالذل في الظاهر حتى يصير الذل عندك حرفة وطبيعة لا تأنف منه بل تستحليه وتغتبط به، وكذلك الفقر والضعف والجهل، وسائر أوصاف العبودية تتحقق بوجودها في ظاهرك حتى يكون ذلك شرفًا عندك.

وقال الشيخ زروق ﷺ: أوصاف الربوبية أربعة: تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية: **أولها**: الغنى ويقابله الفقر، **والثاني**: العز ويقابله الذل، **والثالث**: القدرة ويقابلها العجز، **والرابع**: القوة ويقابلها الضعف. فمن استغنى بالله افتقر إليه، ومن افتقر إلى الله استغنى به، ومن تعزز بالله ذل له، ومن ذل له تعزز به، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه لكن إن كان البساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فأنت الغني بالله، وهما يتعاقبان على العارف، فتارة يغلب عليه الغنى بالله فتظهر عليه آثار العناية، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله، فيلتزم الرعاية فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفًا من صاعٍ، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع، فافهم انتهى. والحاصل: إن عظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية؛ فمن نظر للعظمة صرفًا تحقق بعظمة الربوبية، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية والكامل ينظر لهما معًا فيتحقق بعظمة الربوبية في الباطن، ويتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر، فيعطي كل ذي حق حقه؛ فالجميع في باطنه مشهود، والفرق في ظاهره موجود، والله تعالى أعلم.

افتقارك إلى كل تَجَلٍ منها متعينًا لك به ما يظهر من شئونك، ولوازم وجودك، وعينك الثابتة بتعاقب مماثل آثارها كالسمع والبصر ونحوهما، وغير الثابتة بتعاقب مخالفها عنه كالقبض والبسط ونحوهما حسب ظهور تجلي القدرة به من حضرة تجلي الإرادة على وفق حضرة العلم تعاقبًا لا يقتضي تكرار وجود عين التجلي لنزاهته عن النهاية، وبهذا الشهود تتحقق بأوصاف عبوديتك التي هي كل وصف مناقض لربوبيته أوجده لك بقدرته لتمييزه به عنك عن ما سواه، فترى أنك لربك به موجودًا، وله مملوكًا محتاجًا مع الآنات، وليس لك منك ومما فيك شيء، ولا ما أمرك به إلا وهو لك منه قائم به لتعرفه في شهودك لافتقار الذي شهدت مع ما له من الوجود، وما لك من العدم الذاتي والاضمحلال؛ ولذا نبهك بما هو معلوم عندك من الدين؛ ولذا قال ﷺ:

**١٣٠- «منعَكَ أنْ تَدَّعِيَ مَا ليسَ لكَ مِمَّا هُوَ للمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لكَ أنْ تَدَّعِيَ وصفَهُ، وهُوَ رَبُّ العالمينَ؟»**[١].

**أقول**: منعك إيقافًا بالتحريم شرعًا أن تدعي في نفسك أو بلسانك حتى مع خلائك في حضرة أنسك بما ليس لك ملكه شرعًا مما هو مخلوق مملوك لغيرك من المخلوقين، أفيبيح لك أن تدعي كذلك وصفه القديم المتجلي به من حضرة ذاته، المتولي به جميع ما سواه من العالمين بواسطة تعيينهم وتكوينهم مؤثرات آثاره، وهو مستحيل بكل طريق للشواهد الشاهدة بها بديهيات العقول، وأقرب أدلة المنقول بالحسن والمعنى أن ذلك محال، ولا يتوهم عن الرجال، فأين أنت من طلبك للحق، وأنت في سجن عوائد نفسك مقيد

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «منعك أن تدعي ما ليس لك» أي: حرم عليك أن تدعي شيئًا ليس لك «مما أعطي «للمخلوقين» من الأموال، وسماه الله تعالى عدوانًا وظلمًا «أيبيح لك» سبحانه «أن تدعي وصفه، وهو رب العالمين» أي: فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان، فإذا ادعيت أنك غني أو قادر أو عزيز أو قوي أو عالم كما يقع لبعض الناس، كان ذلك من كبائر معاصي القلب، ومن مشاركة المربوب للرب، ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه، اعتقادًا أو قولاً؛ لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه، وفي الحديث: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في النار**»، وفي رواية: «**قصمته**». ومعني المنازعة: الدعوة بالعبادة والاعتقاد، وإضافة هذين الوفين له تعالى كناية عن شدة الاختصاص بهما.

obeikandl.com

بالخيال؟ ولذا تعجب وقال ﷺ:

١٣١ - «كيفَ تُخْرَقُ لكَ العوائدُ، وأنتَ لم تَخْرِقْ منْ نفسكَ العوائدَ؟»(١).

أقول: انبنى هذا الشأن على الجد والاجتهاد، وعجيب منك طلبك فيه من الحق خرق العوائد الربانية المعلومة، كالمشي على الماء، والطيران في الهواء، وطي الأرض،

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العوائد: كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانيًا أو نورانيًا كتتبع الفضائل وكثرة النوافل، وهي على قسمين: عوائد ظاهرة حسية، وعوائد باطنة معنوية؛ فمثال العوائد الحسية: كثرة الأكل، والشرب والنوم واللباس، وخلطة الناس، والدخول في الأسباب، وكثرة الكلام، والمخاصمة، والعتاب، والاستغراق في العبادة الحسية أو العلوم الرسمية، وغير ذلك. ومثال العوائد المعنوية: حب الجاه والرئاسة، وطلب الخصوصية، وحب الدنيا، والمدح وكالحسد والكبر والعجب والرياء، والطمع في الخلق، وخوف الفقر، وهم الرزق، والفظاظة، والقسوة، وغير ذلك. فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية خرقت له العوائد الحسية: كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، ونفوذ الدعوة، وغير ذلك من الكرامات الحسية، ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنة: كرفع حجب الغفلة، وتطهير القلوب، وكشف الحجاب، وفتح الباب، وتحقق العرفان، والترقي إلى مقام الإحسان، وهذا هو المعتبر عند الأكياس، وهو المطلوب من سائر الناس.

وأما خرق العوائد الحسية فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية: كالسحرة وأرباب الشعوذة، نعم من جمع بينهما خرقت له فيهما، فكيف تطلب أيها المريد أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك، وأنت لم تخرق عوائد نفسك فما حجب النفس عن الشهود إلا ما تعودته من رؤية هذا الوجود؟ فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود، ولا يمكن أن تغيب عنه إلا بخرق عوائد نفسها... فخرق العوائد إبدالها بضدها كتبديل كثرة الأكل والنوم وبالجوع والسهر وكتبديل كثرة اللباس بالتقلل منه أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها، وكتبديل الخلطة بالعزلة والأسباب بالزهد والكلام بالصمت وسوء الخلق بحسن الخلق، وكتبديل حب الجاه والرئاسة بالذل والخمول وسقوط المنـزلة عند الناس وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها، وكاتصافه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل، فإذا تحقق المريد بهذه الأمور خرقت له العوائد على ما يريد حتى يكون بسم الله عنده موافقة لكن من الله فيكون أمره بأمر الله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] ولا بدَّ في خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهمته؛ فإذا رميت يدك في نفسك حملتك الهمة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرة، وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت، ولا تموت النفس الحية إلا مع الأموات كما قال شيخنا ﷺ: هذا الأمر مجرب، وبالله التوفيق.

والاطلاع على أسرار العباد إلى غير ذلك مما هو لأطفال الطريق، والمشي على ماء بحر المعارف، والطيران عن الكون كله إلى حضرة المكون الذي هو معروف كل عارف، وطي أرض الأنية في انبساط نور شمس الهوية، والاطلاع على أسرار تجليات أنوار الصفات القائمة بها الكائنات إلى غير ذلك مما هو للبالغين من الرجال، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد النفسانية المعلومة بتبديل الذمائم بالمحامد من الأحوال والأقوال والأفعال القلبية والبدنية، فتكون في طلبك لله متأدبًا معه بما طلبه منك في كل حال، وتأدب بها قال ﷺ:

**١٣٢ - «ما الشأنُ وجودَ الطلبِ، إنَّما الشأنُ أنْ تُرْزَقَ حسنَ الأدبِ»[1].**

**أقول**: ليس الشأن المطلوب منك وجود الطلب له أو منه وأنت خال من الأدب، وإنما الشأن المطلوب منه أن يرزقك سبحانه في إلهامه لك الطلب له، أو منه حسن الأدب الوارد عنه في من به تأدب من الأنبياء والمرسلين والعلماء العاملين، المبسوط فيما تقدم اللازم منه معرفة أن له الوجود، ولك العدم؛ لتكون بين يديه حسب ما أراده لمن هداه إليه؛ فقام بحق الكمال بحسب إمكانه في الأدب المنبه عليه بما قال ﷺ:

**١٣٣ - «ما طُلِبَ لكَ شيءٌ مثلُ الاضطرارِ، ولا أسرعُ بالمواهبِ إليك مثلُ الذلةِ والافتقارِ»[2].**

---

(١) قال الشيخ زروق ﷺ: الأدب على ثلاثة أوجه: آداب في الظاهر وذلك بإقامة الحقوق، وآداب في الباطن بالإعراض عن كل مخلوق، وآداب فيهما، وذلك بالانحياش للحق والدوام بين يديه على بساط الصدق وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله. انتهى فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال، وإنما هو بلسان الحال، وهو الاضطرار وظهور الذلة والافتقار.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منته في محنته ونعمته في نقمته، فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال تلقوه بالضعف والإذلال فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل فيمنحهم كل جميل، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار تلقوه بالذلة والافتقار فتتوارد عليهم المواهب الغزار. فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئًا جلبًا أو دفعًا فعليك بالاضطرار والاضطرار: هو أن يكون كالغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، ولا يرى لغياثه إلا مولاه ولا يرجوا لنجاته من هلكته أحدًا سواه فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه، والوقوف بين يديه متحليًا بحلية العبيد هنالك تنال كل ما تريد، وإذا أردت ورود المواهب عليك، وهي العلوم اللدنية والأسرار الربانية؛ فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار بين يدي الحليم الغفار يكون ذلك قلبًا وقالبًا، فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكتب المواهب ونيل المرتب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] وقال ﷺ: «إنَّ النصرَ مع الصبرِ، وإنَّ الفرجَ مع الكربِ، وإن مع العسر يسرًا».

**أقول**: لأن الاضطرار الذي لا شيء من مطلوبات الحق مثله هو روح مخ العبودية التي هي علة وجود البرية، وهو حاصل لك أبدًا بالذات غير أنه يستتر عليك بها من الله إليك، فتحجب عن اضطرارك اللازم لك جهلاً به، فإذا عرفت شهدت ما له به وانكشف لك ما لك من الاضطرار والذلة والافتقار اللذين لا أسرع بالمواهب المقسومة إليك منهما التي أشرفها الاتصال بحضرات شهوده في حلل الجلال والجمال فضلاً منه إذا أراد؛ ولهذا قال ﷺ:

**١٣٤- «لو أنك لا تصلُ إليه إلا بعدَ فناءِ مساوئكَ، ومَحْوِ دعاويك، لم تصلْ إليه أبدًا، ولكنْ إذا أرادَ أن يُوصلَكَ إليه سَتَرَ وصفَكَ بوصفِهِ، وغَطَّى نعتَكَ بنعتِهِ، فَوَصلكَ إليهِ بما منه إليكَ، لا بما منك إليه»**(١).

**أقول**: لو أنك أيها الطالب لله لا تصل إلى الله وصول علم يكشف لك به عن شهود حضرات تجليات قدسه المتعرف بها في مراتب مشاهدات أنسه بظهوره في دوائر مجالي حقائق نوره المفنية لك، ولما سواه فيها بها إلا بعد فناء مساوئك النفسانية المبعدة لك عن الله، ومحو دعاويك في عبادتك المقربة إلى الله، لن تصل إليه بذلك أبدًا؛ لأن ذلك حق

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لو أنك لا تصل إليه بعد فناء مساويك» أي: عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول إليه «ومحو دعاويك» أي: نسبة ما لا تستحقه إليك كالقوة والعزة والغني والقدرة وفناء ذلك ومحوه بالرياضات والمجاهدات؛ أي: أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء ذلك برياضاتك ومجاهداتك، فإن اعتقدت ذلك «لم تصل إليه أبدًا» لأن ذلك من الأوصاف الذاتية الجليلة التي لا ينفك عنها العبد، وحينئذ فالوصول منة من الله عليك لا بكسبك، كما أشار إلى ذلك بقوله: «ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه» أي: إلى حضرة قربه «غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته» أي: ستر عنك أوصافك وأظهر عليك أوصافه، فأفناك عنك وأبقاك به؛ أي: غيب صفاتك الدنيئة بإظهار صفاته العلية عليك، وإلى ذلك الإشارة بقوله في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» «فوصلك إليه بما منه إليك» وهو إظهار صفاته عليك «لا بما منك إليه» من الاجتهاد في الأعمال. قال الشاذلي ـ قدس الله سره ـ: «لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته وتدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته، فلو خلى الله عبده وذلك لم يصل أبدًا، ولكن إذا أراد الله وصول عبده تولى ذلك بأن يظهر من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه وعند ذلك لا يكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده».

العبودية ومقتضى العبدية للربوبية إن سلم من الاعتلال الذي غايته القيام به للوصال، فإنه ليس هو الموجب لوجوبه على المكلفين بالامتثال، فالقيام به لما سوى العبودية للربوبية إخلال يمتنع به أن يكون عبودية فضلاً عن أن يكون سبب الوصال إلى مشاهدة تجليات ذي الجلال، لكنه تعالى إذا أراد أن يوصلك من حيث علم كشف شهوده المحقق لفنائك في حقيقة وجوده بالعلم الحق الذي لا يلتبس به ما للممكن من إمكانه، وما له تعالى من وجوبه ستر وغطى ليل نجوم وصفك، ونعتك الثابت به كثبوت ذاتك بنور شمس نهار وصفه ونعته المتجلي به، فتغيب عن وجودك لوازم شهودك بتجليات مشهودك، فوصلك إليه بما من ذلك إليك لا بما منك إليه من الأعمال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٣٥ - «لولا جميلُ سترِهِ لم يكنْ عملٌ أهلا للقَبُولِ»**(١).

**أقول**: سواء كان عملك معلولاً أو غير معلول لما يعلمه الرب مما لا تعلمه أيها العبد من الحقوق الواجبة له فيه التي لم يقدر العبد بها لقصوره عنها، علمًا أو عملاً، كتمام الإخلاص والصدق والخشوع والخشية والحضور في كل جزء من العمل كما يعلمه الرب ويستحقه، وشهود حقيقة ما تعرف به لك في كل جزء من العمل من الأسماء والصفات، وما هو باطن كل اسم وصفة من أسماء وصفات أخر متجل بها فيها مما لا يفي به المتعال، فثبت دوام الاحتياج إلى الله في كل حال خصوصًا في التعريف والطاعة لما قال ﷺ:

**١٣٦ - «أنتَ إلى حلمِهِ إذا أطعْتَهُ أحوجُ منكَ إلى حلمه إذا عَصَيْتَهُ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لولا جميل ستره» أي: ستره الجميل «لم يكن عملٌ أهلاً للقبول» لأن العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله، وقوته عليه، وقد يكشف حجابه فيرائي به، ويطلب حمد الناس له، وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص، والإخلاص شرطٌ في قبول العمل كما مرَّ، وحينئذ يكون اعتماد المريد في وصوله على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده، ولو قال: لولا فضله لكان أولى.

(٢) وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة، وللنفس فيها شهوة ومتعة، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة، وينظرونه بعين التعظيم، ويبادرون إليه بالخدمة والتكريم، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق إن كان يفرح بذلك، ويقنع به دون الملك الحق بخلاف المعصية فإنما هي بساط الذل والانكسار ومحل السقوط والاحتقار، وكل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، فكان العبد في حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته؛ لأن الطاعة التي ينشأ

أقول: لأنك في الطاعة آمن بها أمنًا قد يلزم منه عدم اليقظة لدسائس نفسك فيها الملتبسة عليك في صورها، فتمضي الطاعة وهي منطوية عليها، وأنت لم تعلم، فأنت إلى حلمه ومغفرته وستره المقتضي كل منها عدم المناقشة لك فيها أحوج منك إلى حلمه عليك في المعصية التي ليست ملتبسة عليك، فلتتنبه العمال الآمنون بالأعمال وغيرهم لجميل ستره بما قال ﷺ:

١٣٧ - «السِّتْرُ على قسمين: سترٌ عن المعصية وسترٌ فيها، فالعامةُ يطلبون من الله تعالى الستر فيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مرتبتهم عند الخلقِ، والخاصَّةُ يطلبون من الله السترَ عنها خشيةَ سقوطِهِم من نظرِ الملكِ الحقِّ»(١).

---

=

عنها العز والاستكبار أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار بل في الحقيقة ليست بطاعة؛ لأن الطاعة التي توجب البعد ليست بطاعة، والمعصية التي توجب القرب ليست بمعصية، وفي الحديث: «يقولُ الله تباركَ وتعالى: أنَا عندَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ من أجلِي» ومن كان الله عنده، فهو أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده.

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: «قُلْ لعبادِي الصِّدِّيقين: لا يغترُّوا، فإنِّي إنْ أُقِمْ عليهم عدلِي وقِسطِي أعذِّبْهُم غيرُ ظالمٍ لهم، وقُلْ لعبادِيَ الخَاطِئِينَ: لا يَيْئَسُوا من رحمتِي؛ فَإنَّه لا يكبرُ عليَّ ذنبٌ أَغْفِرُهُ». انتهى.

وقال الشيخ أبو يزيد ﷺ: توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة؛ وكان ﷺ إذا صلى استغفر ثلاثًا تعليمًا للأمة في شهود التقصير، وإلا فلا استغفار من طاعة ولا ذنب على المختار ﷺ.

ولما كانت المعصية بساط الذل والاحتقار، وهي أقرب لمقام العبودية والطاعة بساط العز والرفعة، فافتقرت إلى حلم الله أكثر صار الناس يطلبون الستر في المعصية أو عنها خوفًا مما ينشأ عنها.

(١) الستر: هو الحفظ والتغطية، وهو في الحس من الآفات والبليات التي توجب هلاكه، وفي المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة، وهو باعتبار المعصية على قسمين: قسم: يقع الستر فيها فلا يفضح صاحبها، وقسم: يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها، ولو طلبها لما شمله من حفظ الله ورعايته.

فالعامة: يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها؛ لئلا يسقطوا من عين الخلق فهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَايَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨] ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢] فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق غائبين عن نظر الملك الحق، وذلك لضعف إيمانهم وقلة يقينهم وانطماس بصيرتهم، وفي بعض الأخبار: «يقولُ الله تبارك وتعالى: يا عبادِي إنْ كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكُم فالخللُ في إيمانِكُمْ، وإن كنتم تعتقدون أنِّي أراكم فلِمَ جعلتمُونِي أهونَ الناظرينَ إليكُمْ». انتهى.

obeikandi.com

**أقول**: طلب العامة من الحق أن يسترهم في المعصية عن الخلق خشية سقوط مرتبتهم عندهم بها، سببه اعتبار الخلق عندهم، واعتبار إقبالهم وإدبارهم ومذمتهم ومدحتهم دون الحق، والله أحق أن يخشوه، وفيه إشعار ببقاء غرضهم فيها الناشئ عن تكرار الولوع القلبي بكثرة تشكلها مستحلين لموافقتها أو الوقوع القالبي فيها، المنبعث عن القلبي، متفكهين بها، وكل ذلك يفضي إلى الغيبة عن الله وعن خشيته ووعيده عليها، وهذا هو القسم الأول، والقسم الثاني: طلب الخاصة من الله أن يسترهم عنها من الوقوع بها، أو الوقوع فيها؛ لنزاهتهم عنها في الحال، وعدم بقاء رائحة الغرض فيها في الزمان التالي خشية إجلال أن يراهم ذو الجلال في حضرته على غير وفق الامتثال، فيسقطون من عينه في الحال.

فالمستورون فيها بتخلي الستار، ويقيمون عليها إما لتجلي التواب، أو لتجلي العفو الغفور أو المنتقم القهار، والمستورون عنها بما خصهم من تجلي الستار معافون منها بتجلي القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجميل الجمال الذي أطلق بالثناء عليهم المقال، فالحمد له لا لمن قال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٣٨- «مَنْ أَكْرَمَكَ فإنَّما أكرمَ فيكَ جميلَ سترِهِ، فالحمدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، ليسَ الحمدُ لمَنْ أكرمَكَ وشكرَكَ»**(١).

---

=

وأما الخاصة: فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها خشية أن يسقطوا من عين الحق؛ لأن صدور المعصية من العبد سوء أدب، ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب، فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار، وصحبهم الخجل والانكسار ثم وجدوا في سيرهم، ولم يقفوا مع نفوسهم؛ إذ لا وجود لها في نظرهم ولا التفات لهم إلى الخلق، إذ لم يبق في نظرهم إلا الملك الحق غابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق أو بشهود المعنى عن رؤية الحس أو بشهود الموسوط عن الواسطة.

وأما خاصة الخاصة: فلا يطلبون شيئًا، ولا يخافون من شيء صارت الأشياء عندهم شيئًا واحدًا، واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة، فيتلقونه بالقبول والرضا فإن كان طاعة شهدوا فيها المنة، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية، وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار قيامًا بأدب شريعة النبي المختار ﷺ.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «من أكرمك» أي: أقبل عليك بإعطاء محبة أو شكر «إنما أكرم فيك جميل

**أقول:** من أكرمك من الخلق بالكرائم القولية أو الفعلية أو النظرية، فإنما أكرم جميل ستر الله الساتر ما فيك من مساوئك، أو الساتر لك عنها حتى عن دعاويك بما تقدم بيانه وظهر لك عنوانه حتى أكرمت، فالحمد الذي هو الثناء في سرك وجهرك إنما يكون منك لله الذي سترك بمكارمه، وليس الحمد لمن أكرمك بكرائمه، وإن اعتبرت لنسبة ذلك إليه مجازًا متشرعًا لا غافلا جاز، فإن ذلك الحمد حقيقة لله الذي خلق ذلك لك منه، وستر ما علمه فيك، وما لو خلاك وطبعك وما سترك لافتتنت وافتضحت، فيرجع كل صاحب لك ما سواه تعالى عنك، وهو تعالى لك، ولذا قال ﷺ:

**١٣٩- «ما صَحِبَكَ إلا مَنْ صَحِبَكَ وهُوَ بعيبكَ عليمٌ، وليس ذلكَ إلا مولاكَ الكريم»**[1].

**أقول:** ما صحبك الصحبة الحقيقية التي لا انفكاك لها مع الرحمة الربانية لك، والقدرة الإلهية عليك إلا من صحبك مع علمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة بما فيك من مساوئك القلبية والبدنية، ولم يقلبك، ولم يقطع مدده عنك فيك، وليس ذلك إلا سيدك ومهديك، فتأمل هذا الإفضال، وما أكده به حيث قال ﷺ:

---

=

ستره» أي: ستره الجميل عليك، فلولا وجوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك ولا نظروا إليك بعين الرضا؛ إذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك، وحينئذ «فالحمد» لا ينبغي أن يكون إلا «لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك» فلا تحمده إلا من حيث إجراء الخير على يديه لا من حيث إنه المكرم والمعظم حقيقة؛ إذ ليس ذلك إلا لله، فمن أقبل الناس عليه وأكرموه، فقد يغلط ويضع الحمد والثناء في غير موضعه فيكون من الظالمين، وقد يغلط فيري لنفسه وضعًا محمودًا يستحق به الإكرام، فيكون من الجاهلين بأنفسهم، الناظرين إلى عملهم، الغافل عن منة الله عليهم، فحذر ﷺ من هاتين الغلطتين.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ما صحبك» أي: ليس الصاحب الحقيقي «إلا من صحبك» أي: أقبل عليك بإحسانه «وهو بعيبك عليم» أي: لم يمنعه من صحبته لك وإقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيوبك، «وليس ذلك إلا مولاك» وكذلك من تخلق بأخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى، أما الذي يصحبك مع [illegible] فليس بصاحب حقيقة؛ لأنه لا يثبت عند ظهورها له، وإن عزم على ذلك فليس في [illegible] الصبر عليه، وإن صبر فلا بدّ تأثر يلحقه من ذلك «لا لشيء يعود منك إليه» أي: وليس ذلك إلا لمولاك أو من تخلق بأخلاقه، أما من يصحبك لفعلك معه ونفعك له، فليس بصاحب حقيقة؛ لأن قصده مجرد قضاء حوائجه منك، فإذا زال غرضه فارقك.

obeikandi.com

* «خيرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يطلبُك لك لا لشيءٍ يعودُ منكَ إليه».

أقول: ليس ذلك إلا هو سبحانه الذي ما خلق الخلق إلا ليزكون عليه، وهو الغني عن كل ما سواه بذاته، الجواد على الوجود بإيجاده، والمصاحب لهم بمعيته، وإمداد صفاته المشهود بذلك يقينًا في الحال والمآل شهودا متشككا حسب إشراق نور قلوب الرجال الذي منه ما أشار إليه حيث قال ﷺ:

**١٤٣- «لو أشرق لك نورُ اليقينِ لرأيتَ الآخرة أقربَ إليك من أن ترحلَ إليها، ولرأيت محاسنَ الدنيا قد ظهرت كِسفة الفناء عليها»**(١).

---

(١) اليقين هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، ولا يصحبه اضطراب مشتقٌّ من يقن الماء، إذا حبس ولم يجر، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب، وإشراق نوره وهو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويظهر منه الانحياش إلى الله، والاشتياق إلى حضرة جماله، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته، والمبادرة إلى مظان محابه، ولهج اللسان بذكره، وشغل القلب بالفكرة في عظمته، وهيمان الروح في حضرة قربه، وسكرها من شراب حبه، واغتمارها بشهود قربه، فهذه علامة إشراق نور اليقين في القلب، ومن علامته أيضًا أن يصير الآجل عاجلاً، والبعيد حاصلاً، والغيب شهادة: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤].

فلو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك، أقرب إليك من أن ترحل إليها؛ إذ هي الراحلة إليك والمدركة لك، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية، قد ظهرت كسفة الفناء عليها؛ أي: قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها، فصار ما كان ظاهرًا باطنًا، وما كان باطنًا صار ظاهرًا، وما كان كثيفًا صار لطيفًا، وما كان لطيفًا صار كثيفًا، وما كان غيبًا صار شهادة، وما صار شهادة صار غيبًا، وإنما بعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلة نور إيقانهم، ولو أشرق نور اليقين في قلوبهم، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها، بادية عوارها، كما رآها حارثة ﷺ حين أخبر عن حقيقة إيمانه. فقد روي عن أنس ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شابٌ من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: **«كيف أصبحت يا حارثة؟»** قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًّا، فقال له: **انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟** فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا» أي: أدبرت وهربت، «فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال له: **«أبصرت فالزم، عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه»**، قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل يوم بدر شهيدًا، فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة

أقول: لو جليت مرآة قلبك مما سوى ربك لظهر لك فيها إشراق نور علم اليقين لرأيت بعين اليقين من مرئياته الآخرة عيانًا أقرب من أن ترحل إليها؛ أي: كونك حالاً فيها حقا، وذلك حق اليقين، ولرأيت بها أيضًا من مرئياته محاسن زخارف الدنيا الفانية قد ظهرت لك كسفة الفناء اللازم لها عليها، فالمانع لك رؤيته كل ذلك وغيره عدم الإشراق، ومانع الإشراق تصدي مرآة القلب بصور الخلق، وسوء الأخلاق المؤدي للجهل بالله من حيث قيامها به تعالى، فإنها من حيث هي كالسراب المترائي للخيال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٤٤- «ما حجبَكَ عن الله وجودُ موجودٍ معه؛ إذ لا شيءَ معه، ولكن حجبك عنه توهمُ موجود معه»**(١).

أقول: تعالى أن يكون معه وجود موجود قائم بنفسه حجبك عن شهود حضرة قدسه؛ إذ يلزم منه إثبات المعية له معه، والحال أن له العلو على كل ما سواه لاستحقاقه ذلك، ولقيام ما سواه به، وما قام به كان مظهرًا له ودليلاً عليه لا حجابًا لك عنه، فلا شيء

---

=

أصبر، وإن لم يكن في الجنة تر ما أصنع، فقال: «أو هبلت؟ أجنة هي؟ إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» فرجعت تضحك، وتقول: بخٍ بخٍ يا حارثة. انتهى.

وكما رآها معاذ بن جبل ﷺ حين دخل على النبي ﷺ يبكي فقال له: «كيف أصبحت يا معاذ؟ قال: أصبحت مؤمنًا، فقال: إن لكل قول مصداقًا، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟ فقال: يا رسول الله ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت لا أمسي، وما أمسيت قط إلا ظننت لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أني لا أتبعها بأخرى، وكأني أنظر إلى ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية:٢٨] معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، فقال ﷺ: «عرفت فالزم». فهذان الرجلان الأنصاريان أشرف نور الإيقان في قلوبهما، وشرح الله به صدورهما فرأيا ما كان آجلاً عاجلاً، وما كان آتيًا واصلاً.

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «ما حجبك» أيها المريد المحجوب «عن الله وجود موجود» من الأكوان الدنيوية والأخروية «معه»؛ إذ لا وجود لما سواه على التحقيق «ولكن حجبك عنه توهم موجود معه» أي: توهمك أن ما سواه له وجود، مع أنه في ذاته عدم محض عند العارفين، ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء، فإنها لا تمنع سير السفن، فلا حاجب لك عن الله إلا توهم وجود ما سواه لا غير، وذلك كرجل بات في مكان وأراد الخروج، فسمع صوت الرياح من كَوة هناك فظنه زئيرًا أي: صوت أسد فمنعه ذلك عن الخروج، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا، وإنما الريح انضغطت في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد وإنما حجبه توهم الأسد.

obeikandl.com

معه سوى ظهوره المتعرف به في دوائر نوره، فما حجبك عنه إلا عدم معرفتك به من حيث هو ظاهر بما ظهر، فتوهمت الحجاب عن العين بالأثر، وما علمت أنه الظاهر عن ظاهريته من باطنيته في دوائر الصفات ومراتب الأفعال المحقق منها، ما قال ﷺ:

**١٤٥ - «لولا ظهورُهُ في المكونات ما وقع عليها وجودُ إبصار»**[1].

**أقول:** لولا ظهور وجوده الذي تعين به ظهور أحكام المكونات على وفق أعيانها الثابتة في العلم بما اقتضته صفاته المتجلية بها ذاته تجليا منزها عن كل ما يخطر بالعقول والأفهام والأفكار ما وقع عليها وجودًا أبصار البصائر، والإبصار اللذين لولا ظهوره فيهما أيضًا كذلك لما وجدا فضلاً عن الإبصار وليس ذلك في الحال دون المآل، وشروق ظهوره لك بذلك شهودًا بالمعرفة الحق يشهدك به بجميع الكائنات الاضمحلال، بدليل ما قال ﷺ:

* **«ولو ظهرت صفاته، اضمحلت مكوناته»**.

**أقول:** لو ظهرت نعوته الأصلية الأزلية لاضمحلت المكونات الحديثة؛ إذ الكائنات كلها تكثيف للأسرار اللطيفة التي هي نعوت الخمرة الأزلية التي أشار إليها ابن الفارض في خمريته بقوله:

**صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هَوىً ... ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمٌ**
**تَقَدّمَ كُلَّ الكائناتِ حديثُها ... قديمًا ولا شكلٌ هناك ولا رَسم**

فلو ظهرت الأسرار اللطيفة لتلاشت الكائنات الكثيفة؛ إذ لا ظهور للكثيف إذا

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لولا ظهوره في المكونات» أي: تجليه عليها بالوجود «ما وقع عليها وجود أبصار» أي: لم توجد، وإذا لم توجد فلا تبصر، فوجودها إنما هو بطريق العارية، وظهور الحق فيها كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، وإلا فهي في ذاتها عدم محض لا وجود لها في ذاتها، كما تقدم غير مرة، ويحتمل أن المعني أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكونات هو الذي أوجب ظهورها، ووقوع الأبصار عليها، ولولا تجليه في هذه المكونات بأن يتجلي التجلي الحقيقي الذي لا خفاء معه لاضمحلت وتلاشت، ولم يقع عليها أبصار، وبدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣] وأشار إلى ذلك بقوله: «لو ظهرت صفاته لاضمحلت مكوناته» بل لم يكن هناك إبصار ولا مبصر كما جاء في الحديث: «حجابه النور».

رجع لطيفًا، وما مثال الكون إلا كالثلجة ظاهرها جامد وباطنها مائع، فإذا ذُوِّبت الثلجة رجعت إلى أصلها ماء ولم يبق للثلجة أثر، فكذلك المكونات الحسية إذا ظهرت أسرارها اللطيفة التي قامت بها ذابت ذواتها الكثيفة وتلاشت ورجعت لأصلها، وإلى هذا المعنى أشار صاحب العينية بقوله:

وَما الكَونُ في التمثال إلّا كَالثَلجَة ... وَأَنتَ لَها الماء الَّذي هو نابِعُ

فما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغيران في حكم دعته الشرائع

ولكن بذوب الماء يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع

فمن وقف مع ظاهر الثلجة أنكر الماء الذي في باطنها وكان جاهلاً بحقيقتها، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها، وكذلك الأكوان ظاهرها غُرَّة لمن وقف مع كثافتها وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها.

١٤٦ - **«أظهر كل شيء؛ لأنه الباطنُ، وطوى وجودَ كل شيء؛ لأنه الظاهرُ»**(١).

أقول: لو ظهرت لك بالمعرفة صفاته المتجلية بها ذاته لاضمحل فيها بشهودك لها من شاهدك شهود مكوناته، فيشهد وحدة الظاهر بالقبول، والقابل من المظاهر في البواطن

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «أظهر وجود كل شيء لأنه الباطن» أي: إن مقتضى اسم الباطن ألا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر الأشياء كلها؛ أي: جعلها ظاهرة ولا باطن فيها غيره «وطوى وجود كل شيء؛ لأنه الظاهر» أي: أن مقتضى اسم الظاهر ألا يشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كل شيء؛ أي: لغيره وجودًا من ذاته، بل المكونات جميعها عدم محض ولا وجود لها إلا من وجوده، وحاصله: إن من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن، فاسم الظاهر يقتضي بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه، فينطوي حينئذ وجود كل شيء، واسم الباطن يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر؛ إذ ذاك وجود كل شيء - أي: بوجوده - فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار ولا وجود لغيره إلا بطريق الطبع عند أرباب البصائر، بخلاف غيرهم من المحجوبين.

يقول السياجي غفر الله له: مما ينبغي أن يفهم من استجلاء معني اسم الظاهر واسم الباطن أن اسم الباطن اسم فاعل للذات الإلهية يدل على أن كل شيء قد أبطنه الله وطوي ظهوره حتى يظهره، وهنا تتجلى معاني اسم الظاهر باعتباره اسم فاعل للذات الإلهية بأنه يتولى إظهار كل شيء، ولولا إظهاره للشيء ما ظهر، فهو وحده الظاهر وهو وحده الباطن، وهو وحده الذي يعلم ما يظهر وما يبطن. وهو بكل شيء عليم.

والظواهر، فتغيب أنت عنك وعن المكونات شهودًا وحكمًا، وهي ثابتة بالله وجودًا وعلمًا وهكذا ولا يزال، واسمع ما قال ﷺ:

* «أظهر كل شيء؛ لأنه الباطنُ، وطوى وجودَ كل شيء؛ لأنه الظاهرُ».

أقول: أظهر الحق سبحانه كل شيء من مكوناته به في ظهور صفاته ليباين ذلك الظهور ببطون ذاته، فإنه الباطن في ظاهرياته، وطوى بظهوره وجود كل شيء ظهر بصفاته فانطوى فيها به؛ لأنه الظاهر بالأفعال المستجلي منها ما أباحه؛ لنظرك من عرائس الجلال والجمال المنبه عليها بما قال ﷺ:

١٤٧- «أباح لك أن تنظرَ في المكونات، وما أَذِنَ لك أن تقفَ مع ذوات المكونات، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] فبقوله: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ فتح لك باب الأفهام ولم يقل: انظروا السماوات؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما أبرز الله هذه المكونات، وأظهر هذه العوالم ليعرف بها، ويظهر نوره فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]. قال في «لطائف المنن»: فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السموات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، تقف مع القشر وتحجب عن اللب؛ وقد تقدم قوله: الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان محجوبًا، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفًا محبوبًا، ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس:١٠١] أي: ما فيها من عظمته، ومعاني أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفاته، فقد فتح لك باب الأفهام جمع فهم؛ أي: فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب، حتى تعرفه في كل شيء، وتفهم عنه في كل شيء، ولو قال الحق تعالى: قل انظروا السموات لدلك على الأجرام، وسد لك باب الأفهام، وكيف يدلك على الأجرام، وهي أغيار والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار؟ ومثال ذلك في التقريب لو قال لك قائل: انظر هذه الثلجة لدلك على ظاهر جرمها، ولو قال لك: انظر ما في هذه الثلجة لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء، وإن الوقوف مع ظاهر جرمها.

واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته، ودرجهم إليها شيئًا فشيئًا، فمنهم من قصر، ومنهم من

أقول: أباح لك بالشمل ما لست لشهوده أهلاً؛ لعدم الجامع بينه وبينك، وهو أن تنظر بالنظر الصحيح المحصل ما تجب عليك معرفته من واجبات كمالاته، المستحيل بما عليه ثبت، وجاز لغيره بما لا يليق به كشفًا، ونقلاً، وعقلاً إلى ما هو منها متجلٍ به سبحانه من مكونات من غيب ذاته على وفق متنوعات ظهور أسماء صفاته، وما أذن لك في

=

وصل، فدرجهم أولاً إلى توحيد الأفعال، وأنه لا فاعل سواه فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [القصص:٦٨] ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقال في فعل غير الآدمي: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] وفي شأن الطير: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: في قهر قبضتنا، مقدرة آجالها، مقسومة أرزاقها، معدودة أنفاسها، محفوظة أجسامها، معلومة أماكنها، ظاهرة أشباحها، باطنة أنوارها.

وقال في توحيد الصفات: وأنه لا سميع ولا بصير ولا قدير ولا متكلم إلا الله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] أي: دون غيره، فلا سمع ولا بصر إلا به سبحانه، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى في توحيد الذّات: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] على تفسير أهل الإشارة وهم أهل الباطن، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠].

وقال في محو الواسطة: ﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ [عبس:٢٥-٢٦] ويحتمل أن تكون منها أو من توحيد الأفعال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] ﴿وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

وقد يجمع الحق تعالى في آية واحدة توحيد الصفات، ويرقى إلى توحيد الذات، كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] ثم رقاهم إلى الشهود بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ألا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ * ألا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢] ثم رقاهم من الغيب إلى الشهادة بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤] فتحصل أن الأشياء كلها قائمة بالله أثبتها ليعرف بها، ثم محاها بوحدانيته.

مطالعات مكوناته؛ لئلا تقف عنه من حيث ظهر مع ذواتها لحدوثها، وقدم ما أمرك بشهوده فيها من تعرفاته؛ رفعًا لك عن أرض أدلة المفعولات أن مدلولاتها في أوج سماوات الأفعال والصفات بقوله: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: من آيات الظهور بالتجليات، فإنه أباح لك بها الوصل، ولم يقل: انظروا السماوات إيقافًا عن الاستمرار مع ما صورته في هذه المرتبة الفصل، فأمره بالنظر في السماوات فتح لباب الأفهام المستفاد منه تجاوز ذواتها إلى ما فيها لشهود ما هنالك من حبائك بتمتع أبكار عرائس التصرفات، ولم يقل: انظروا السماوات صرفًا لوجهة قلبك عن الاستمرار مع ذواتها؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام الحادثة المتحيرة، فتقف معها عن ما تعرف به فيها لتعرفه به، ومن حيث صور ظواهرها معرفة الخواص لا المعرفة المشتركة بين العوام، ومراده بذلك لك الكمال في المعرفة بشهوده في كل مرتبة على ما اقتضاه ظهوره بالإفضال، ويؤكده ما قال ﷺ:

١٤٨ - «الأكوانُ ثابتةٌ بإثباته ومَمْحُوَّةٌ بأحديَّة ذاته»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأكوان هي ما ظهر في عالم الشهادة، أو تقول: ما دخل عالم التكوين، وهي موجودة بوجود الحق، قائمة به ثابتة بإثباته ليعرف بها، ممحوة بأحدية ذاته لانفراد وجوده، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها وحجب بها عن شهود موجدها، ومن أثبتها بالله فقد عرف فيها، وشهد فيها مولاها، فالثبوت للأكوان أمر عرضي، والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى، والأحدية مبالغة في الوحدة ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن أن يكون أشد وأكمل منها، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد؛ إذ لو وجدت لم تكن أحدية، ولكان في ذلك متعددًا وأثنينيَّة، ولا شك أن العبودية تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق، وأنت تقول في توحيد الحق: لا ضد له، فقد نقضت كلامك، ولذلك قال: ونفي ضد، فالواو بمعنى مع، وهو داخل في الإنكار؛ أي: أيوجد رب وعبد مستقل مع نفي الضد للربوبية، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية؟ والحق أن الحق تعالى تجلى بمظاهر الجمع في قوالب الفرق، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار قوالب العبودية؛ فلا شيء معه.

وحاصلها: تحويش العباد إلى الله، وتحبيبه إليهم، بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان، وغاية اللطف والمبرة والامتنان، وذلك أنه سبحانه منَّ علينا أولاً بالطاعة والعمل، وتفضل علينا ثانيًا بالقبول مع ما اشتمل عليه علمنا من النقص والخلل، ثم إذا وقعت منا معصية أو زلل غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلاً، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا سترنا منها وعصمنا ليعظم قدرنا، ويظهر شكرنا، فنتخذه صاحبًا وندع غيره جانبًا، فحينئذٍ تشرق في قلوبنا أنوار اليقين، ونرحل إلى الآخرة

obeikando.com

**أقول**: ظهوره في الأكوان بأفعاله وصفاته اقتضى ثباتها بإثباته لها بذلك في الوجود، وهي مرتبة في الشهود من جهلها فاته من الشهود شهود إثبات الحق لها، وشهود عدمها بنفسها مع ثباتها بإثباته، وشهود دوام إمدادها منه تعالى بدوام احتياجها إليه، وهي ممحوة الثبات والذات ولوازمها الناشئ ذلك عن إثبات تجلي حضرة واحدية الصفات بتجلي حضرة أحدية الذات التي لا نسبة لها إلى شيء أصلاً ولا لشيء إليها نسبة بوجه، فبالتعين أنت على الحالين في الاضمحلال، فلاَ تعْدُ عيناك عنه بما يُظنَ فيك من المدح، وتعال واسمع ما قال ﷺ:

**١٤٩ - «الناسُ يمدحونك لما يظنونه فيك، فكُنْ أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها»**(١).

**أقول**: مدح الناس لك بما فيك أو بما فيك بعضه، أو بما فيك نقيضه، فرع ظن إثبات ذاتك المترتب عليه ذكر ما ظنوه من مدائح لصفاتك، وأنت إما أن تكون على محوك لنفسك باقيًا؛ فاتبعها بما ظنوه بك من المدح موافيًا، وإما أن تكون على إثباتك لها وإثبات ما لها شاهدًا فكن سالبًا ذلك عنها فاقدًا بما تعلمه من عدم صحة نسبة ما نسب إليها إن كان فيها راد له إلى المتفضل به عليها، أو بعضه، فكذلك أو ذاما لها مما تعلمه من المساوئ التي فيها ولا تُنسب إلا إليها، ولم يطلع المادحون عليها هكذا أحوال المحسنين والمؤمنين من

---

=

في أقرب حين، ثم تشرق علينا أنوار الإحسان، فتنطوي لنا رؤية الأكوان، بشهود نور الملك الديَّان، فحينئذٍ ينشر محاسننا، للعباد فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والوداد.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «الناس يمدحونك لما يظنون فيك» من الأوصاف الحميدة، «فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها» أي: فلا تغتر بمدح الناس لك وثنائهم عليك، بل ارجع على نفسك باللوم والذم على تلبسها بخلاف ما يظن الناس فيك، ولذا قال علي -كرم الله وجهه: **«اللهم اجعلنا خيرًا مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون»**.

ويؤخذ من قوله: «فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها» أنه ليس مأمورًا بتكذيب الناس ولا بالسعي لتبديل ظنهم فيه، وإنما هو مأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم، نعم إن كان المادح كاذبًا في مدحه بارتكاب المبالغة والغلو تأكد تكذيبه وزجره، وعليه يحمل قوله ﷺ: **«احثوا التراب في وجوه المداحين»** فمدحه حينئذ منهي عنه، وكذا لو كان مدحه يورث عند الممدوح عزة ويغلطه في نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ لمن مدح عنده رجلاً: **«قطعت عنق صاحبك»**، وقال: **«وإياكم والمدح فإنه الذبح»**.

الرجال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٥٠- «المؤمنُ إذا مُدِحَ استحيى من الله أن يُثْنَى عليه بوصفٍ لا يشهدُه من نفسه»**(١).

**أقول:** المؤمن مظهر تجلي اسمه المؤمن، وهو المصدق لجميع أنبياء الله وبما جاءوا به من آياته التي منها تحقيق وجوب الإيمان بها وجب من إتيان معيته تعالى مع كل شيء وإحاطته به علمًا وقدرة ونظرا، فإذا مُدح بين يديه بما ليس فيه أو منه استحيى من أن يثنى عليه بوصف كائن فيه من الله لا يشهده من نفسه، كما تقدم بيانه في الحكمة التي قبلها، وهو إما لشهوده منها ضده أو بعضه أو هو، ولكن يشهد أن الله فيها أوجده، فتفطن لنقد الرجال، ولا تكن به من الجهال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٥١- «أجهلُ الناسِ مَنْ تركَ يقينَ ما عنده لظنِّ ما عندَ الناسِ»**(٢).

**أقول:** أجهل الناس الجاهلين من الناس من ترك ما عنده من شهود الإفلاس، المَحقق يقينًا أن كل ما برز من العبد لله تعالى كما تقدم بيانه الشاهد به قرآنه لظن ما عند الجاهلين بذلك من الناس بسبب غلبة الآنية المثبتين بها للخلق ما للحق فيهم من

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «المؤمن» الحقيقي «إذا مدح استحيى من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه» أي: لا يرى ذلك الوصف الذي مدح عليه من نفسه، وإنما يراه منة من الله عليه، فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق أن يثنى بها عليه، وإنما يشهد ذلك من ربه، فإذا أثنى عليه الناس، وذكروا محاسنه استحيى من الله استحياء تعظيم وإجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه، فيزداد بذلك مقتًا لنفسه، واستحقارًا لها ونفورًا منها، وتقوى عنده رؤية إحسان الله إليه، وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذي به ينال المزيد من سلامة من السكون إلى ثناء العبيد.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «أجهل الناس» أي: أشدهم جهلاً «من ترك يقين ما عنده» أي: اليقين الذي عنده وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه «لظن ما عند الناس» أي: لأجل الظن الذي عند الناس، وهو ظنهم لاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه، فإذا اغتر ذلك الممدوح، واعتقد استحقاقه لما مدح به، واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس؛ لأنه ألغى اليقين وقدم الظن عليه، وقدم ما عند غيره على ما عند نفسه، وقد شبَّه ذلك بعضهم بمن يهزأ بك ويقول لك بأن العذرة التي تخرج منك لها رائحة كرائحة المسك، وأنت ترضى بالسخرية بك وتفرح بذلك، ولا شكَّ أن العيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنت، وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه.

الخصوصية للجهل بوحدة الفعال، فتوهموا بالاكتساب الشركة في الأفعال، وأثبتوا لهم الأهلية لما فيهم يقال، فلينتبهوا للحق بما قال ﷺ:

**١٥٢ - «إذا أطلقَ الثناءَ عليك، ولستَ بأهلٍ فأثنِ عليه بما هو أهله»**(١).

**أقول**: إذا أطلق سبحانه ألسن المادحين بالثناء عليك بين عوالمه ولست بأهل لشهودك ما تقدم بيانه من تحقق إفلاسك عليك مما يثُنى عليك به، وإن كان فيك لشهودك أنه منه لا منك فضلاً عن أن يثني عليك بما ليس فيك، فاثن عليه بما هو أهله مما أوجده فيك، ونسبه إليك، فإن أثنيت فبقدرك لا بقدره فإنك لا تدركه، وإدراكه لما سواه محال، والمثنى عليهم من الرجال الزاهدون والعارفون أولو الكمال، لكل منهما حكم وحال نبّه عليه بما قال ﷺ:

**١٥٣ - «الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقبضوا لشهودهم الثناءَ من الخلق، والعارفون إذا مُدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «إذا أطلق الثناء» أي: ألسنة الناس بالثناء «عليك ولست بأهل» أي: والحال أنك لست أهلاً لما يثنون به عليك، إما لعدم وجود ذلك فيك أو لكونك معيبًا بالعيوب الأصلية والعرضية، فلا تستحق ثناء لولا فضل الله عليك وستره الجميل «فاثن عليه بما هو أهله» أي: فالأدب أن تثني على سيدك بما هو أهله ليكون ذلك شكرًا لنعمة ستره عليك، وأنه أطلق الألسنة بمدحك مع عدم أهليتك لذلك، ولا تغتر بأقوال المادحين.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: **أما العباد والزهاد**: فلأنهم محجبون برؤية الخلق عن شهود الحق، فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق، وحجبوا عن الجمع بالفرق، فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغتر بذلك أو تقف هنالك، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتُحيي به قلوبهم، ولا شكَّ أن المدح لها فيه حظ وافر، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير، فيوجب لها التكبر والرضا، وهما أصل كل معصية، وأما الذم فلا حظَّ لها فيه، وإنما فيه موتها وفي موتها حياتها، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا، وإذا ذموا انبسطوا، وسكت عنه الشيخ، وكأنه يؤخذ بالمفهوم.

**وأما العارفون الواصلون**: فلأنهم فانون عن أنفسهم، باقون بربهم، غائبون عن الخلق بشهود الملك الحق، فإذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق، وشهدوا الجمع في عين الفرق، ففرحوا بمدح مولاهم، وانبسطوا عند من تولاهم، فيزدادون له حبًا وشوقًا، ويفنون فيه شغفًا وعشقًا، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث: «إذا مُدِحَ المؤمنُ رَبَا الإيمانُ في قلبه رَبْوَةً» وإذا ذموا انقبضوا سكونًا تحت قهرية الحق، وأدبًا مع جلاله، وليس في هذا الانقباض دليل على كراهية الذم من حيث نسبته للخلق؛ لأنهم يرون الخلق مصرفين بقدرة الحق، وعلامة ذلك أنهم يسمحون لمن أجرى ذلك عليه، بل يتعطفون عليه ويتوددون بالمحبة إليه.

**أقول:** الزهاد هم المعرضون بزهدهم الصادق إما عما سوى الله رجاء شهوده، وإما عن الدنيا ولوازمها رجاء جوده، وهم في مقام الفرق الأول الذي هو غلبة شهود خلق بلا حق الواضعين أنفسهم في مراكز التواضع والخمول زهدًا منهم في كل محصول إذا مدحوا انقبضوا؛ لأن ذلك مما فيه زهدوا لخوفهم أن تتزحزح نفوسهم بالثناء عن مراكز ذلها، وتخرج به عن معادن زهدها إخلاصًا لله في أعمالهم، وذلك لغلبة حكم حيطة سلطان الفرق عليهم المحقق لشهودهم أن ذلك من الخلق إليهم، والعارفون بالله الشاهدون له به في جميع مراتبه قيامًا في مقام الجمع الذي هو غلبة شهود حق بلا خلق إذا مدحوا بما فيهم

=

**فأما العوام:** فنفوسهم غالبة عليهم، ودائرة الحس محيطة بهم؛ محط نظرهم الخلق، غافلون عن طلب الحق، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم، والنفس الأمَّارة مجبولة على حب الإمارة، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا، فهؤلاء قلوبهم خربة من النور.

**وأما العباد والزهاد:** فهم مجتهدون في العبادة، فارون من الخلق، طالبون رضا الحق، مستوحشون من الناس، تحققوا منهم الإياس، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلوا عما هم فيه، وإذا ذُموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرغهم حينئذٍ للعبادة، وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة.

**وأما المريدون السالكون:** فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم، فإذا ذموا وأدبر الخلق عنهم فرحوا لما في ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم، وإذا مدحوا انقبضوا خوفًا على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم؛ إذ في موت النفس حياة القلوب، وفي حياة القلوب موت النفوس.

**وأما العارفون:** فقد ظفروا بنفوسهم، ووصلوا إلى شهود معبودهم، فهم يستأنسون بكل شيء لمعرفتهم في كل شيء، يأخذون النصيب من كل شيء ويفهمون عن الله في كل شيء، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله، ولا شيء في الكون سواه، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما في الحديث، وإذا ذموا انقبضوا تأدبًا مع جلال الله أو شفقة على عباد الله: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنْتُهُ بالحربِ»** فصار بسطهم بالله وقبضهم بالله، واستغنوا به عما سواه، وبهذا المعنى وهو الفناء على النفوس صح مدحهم لأنفسهم، تحدثًا بما أنعم الله عليهم، كالشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ والشاذلي والمرسي والشيخ زروق وأشباههم ﷺ، وذلك مشهور عنهم نظمًا ونثرًا، ومن أجل ذلك أيضًا أقروا من مدحهم، وأظهروا الانبساط عند مدحهم.

**وأما العارفون المتحققون:** فقد عرفوا الممدوح، وغابوا عن شهود الواسطة في المادح والممدوح. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم آمين.

انبسطوا لشهودهم ذلك المدح الممدوحون به في مقام جمعهم من الملك الحق الظاهر به بمهيمنية الجمال، وكذا لو ظهر بمهيمنية الجلال للكمال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٥٤ -«متى كنتَ إذا أُعْطِيتَ بسطكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قبضكَ المنعُ، فاستدلْ بذلك على ثبوتِ طُفُوليَّتِكَ، وعدمِ صدقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»**(١).

أقول: متى كنت في معرفتك به وشهودك له إذا أعطيت عطاء ما من تخليه عليك باسمه الكريم المعطي بسطك ذلك العطاء بما أنت له منه معطي، وإذا منعك قبضك ذلك المنع الذي هو من تجليه عليك باسمه المانع للعطاء ولم يستويا عندك لتجليه بهما عليك متعرفًا لك إن أنت في الجمع مبتليًا لك بهما؛ لتسلم لقضائه إن أنت في الفرق فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك، بين أهل الجمع الشاهدة بإفلاسك من معرفة تعرف الله لك وشهوده وعدم صدقك بين أهل الفرق الشاهد عليك بذلك في عبوديتك له والقيام بحدوده فتبرأ من ذلك إن كنت هنالك بالصدق والمعرفة في الحال، ولا تيأس وأدم الإقبال، واسمع ما قال ﷺ:

**١٥٥ - «إذا وقعَ منك ذنبٌ فلا يكن سببًا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربِّك، فقد يكون ذلك آخرَ ذنبٍ قُدر عليك»**(٢).

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «متى كنت إذا أعطيت بسطك للعطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك» أي: تطفلك على أهل الله ولست منهم، بل أنت داخل معهم في أمر لا تستحقه، كما أن الطفيلي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، ولا يستحق الدخول معهم، وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقال له: طفيل الأعراس «وعدم صدقك في عبوديتك» لأن القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ، والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين. فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه في عبوديته، وأنه طفيلي بين أهل الله في إدعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها، بل الحاصل عنده مجـ دعوى، نعم إن كان قبض خوف من عدم صبره ومقاومته للقهر الإلهي فيحصل عنده بعض ضجـ وكان بسطه لعدم وقوعه في ذلك ففيه اعتناء من الحق به حيث لم يوقعه في أمر يشوش عليه حاله لم يكن دليلاً على ما ذكر؛ لأن العارفين لا بدَّ من بقاء شيء من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق، ومن لازم البشرية ذلك، فالخطاب المذكور مع المريدين.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «إذا وقع منك ذنب» على حسب مقامك، «فلا يكن سببًا يؤنسك» أي: يقتضي يأسك «من حصول الاستقامة» أي: اعتدال أحوالك مع ربك بأن تعتقد بسبب صدور الذنب منك أن حصول الاستقامة لك مستحيل، فيحملك ذلك على تعاطي غيره من الذنوب، وهذا غلط؛ لأن

**أقول**: سواء كان ذلك ما تقدم بيانه من تخلفك عن واجب معرفته المؤدية إلى شهوده في مشاهد وحدته، أو عدم صدقك في عبوديتك لربوبيته، أو ما يكون من مخالفتك له من الذنوب التي تتوهم بها أنك هالك، وأنك لا مفر لك بسبب وقوعك فيها من مآلك فلا يكن ذلك سبب يؤسك من حصول روح الله لك باستقامتك مع ربك يقينًا منك يترتب عليه حصول الروح به، فقد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدر عليك، فكم أسدى من إحسان إليك وطال، وكم أبديت من إساءة معه تعود عليك فإياك، فلا تقنط بذنبك، واسمع ما قال ﷺ:

**١٥٦- «إذا أردتَ أن يفتحَ لك باب الرجاء، فاشهدْ ما مَنه إليك، وإذا أردتَ أن ينفتحَ لك باب الخوف، فاشهدْ ما منك إليه»**[1].

**أقول**: لما كان أحسن حالك أيها المؤمن أن يتزن خوفك ورجاؤك ومقبولا دلك الشيخ في حكمته على ما يحصل به ذلك إن لم يكن، ويحصل به ترجيح أحدهما على الآخر إن رجح رجحان إفراط يفضي إلى فساد حالك، كرجحان الخوف إلى القنوط، أو رجحان الرجاء إلى التفريط الحاصل به السقوط، ثم إن يكن ذلك الراجح الخوف المضل فعليك بما أهداه إليك وهو إرادتك لفتح باب الرجاء بمفتاح شهود ما من الله إليك مما لا يحصى من

---

=

الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى عليه القدر بذلك وإنما يناقضها الإصرار عليه والعزم على فعله ثانيًا، فالواجب عليك أن تتوب إلى مولاك وترجع إليه ولا تيأس من رحمته «فقد يكون آخر ذنب قدر عليك» ويقبل عليك المولى بعد ذلك بتوفيقه وإحسانه.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء» فيه «فاشهد» أي: استحضر في نفسك ما هو واصل «منه إليك» من جلب المنافع ودفع المضار من حين كونك في بطن أمك إلى الوقت الذي أنت فيه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه، وعدم اليأس من رحمته ولو مع الوقوع في الذنب، «وإذا» غلب عليك الرجاء وخفت أن يوقعك ذلك في مخالفاته «وأردت أن يفتح لك باب الحزن» ليكفك عن ذلك «فاشهد» أي: استحضر في نفسك «ما» هو واصل «منك إليه» من المخالفات والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الحزن، فتنكف عن مخالفته، فالرجاء والحزن حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين وشبههما بشيء عليه باب مغلق استعارة مكنية، والباب تخيل، والفتح تشبيه وترشيح أو الإضافة للبيان.

obeikandl.com

النعم، وإن يكن ذلك الراجح الرجاء المخل فعليك بفتح باب الخوف والالتجاء بمفتاح شهود ما منك إلى الله من التقصير في الحقوق والخدم؛ ليعتدلا إن انحرف أحدهما وإلا فلا، فشهود ما منك وما منه يوجب الخوف، والرجاء والخوف يوجبان القبض والبسط، والقبض والبسط من مادتي الجلال والجمال، ولكل منهما منال؛ ولذا استعار وقال ﷺ:

١٥٧- «رُبَّمَا أفادَكَ في ليلِ القبضِ ما لم تستفدْه في إشراقِ نهارِ البَسطِ ﴿لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾[النساء:١١]»(١).

**أقول:** اعلم أن القبض والبسط من مادتي جلاله وجماله متعاقبان عليك بتجلي القابض والباسط، كتعاقب الليل والنهار، فيفيدك المتجلي بهما ما يشاء منهما، فإذا شاء أفادك من القبض ما تستفيده من البسط، وبالعكس كشهودك له منهما، وكظهور العلم والإرادة والقدرة لك منهما إلى غير ذلك، وإذا شاء أفادك من القبض مفادًا آخر، وهو ما تستفيده من البسط كالأنس والبهجة منهما لتحقق ظهوره لك بهما وبالعكس كالهيبة والجلال، وربما أفادك من أهل القبض مرادَةَ الخاصة به من الجلال والإجلال الباعثين على القيام بعزائم العبودية للربوبية الذي لم تستفده في إشراق نور نهار البسط وربما أفادك من إشراق نور نهار البسط موادَهُ الخاصة به القابلة للجلال والإجلال ﴿لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١] فتتخذونه منها لإصلاح القوالب والقلوب والأسرار؛ لأنها مطالع شموس الكمال المنبه عليه بما قال ﷺ:

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما أفادك» أيها العارف «في ليل القبض» أي: القبض الشبيه بالليل بجامع السكون في كل «ما لم تستفده» أي: علومًا ومعارف لم تستفدها «في إشراق نهار البسط» أي: البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار في كل لما تقدم أن من حصل عنده البسط تتهيج نفسه إلى إظهار ما عنده من المعارف وغيرها فربما كان ذلك سببًا لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض، فإن نفسه تتكسر وتذل فيكون ذلك سببًا في إفاضة الخير عليه؛ ولذا كان العارفون يؤثرون على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد يحصل عندهم من جزع وعدم صبر على مقاومة القهر الإلهي بخلاف البسط، فينبغي للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه في حال القبض كما يعرفها في حال البسط، وأن يكل كل ذلك إلى ربه ويحسن ظنه به، فإنه لا يدري أيهما أقرب نفعًا كما قال تعالى: ﴿لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١].

**١٥٨- «مطالعُ الأنوارِ، القلوبُ والأسرارِ»**(١).

**أقول:** الأنوار ها هنا على قسمين: لاختلاف المطلعين، **الأول:** طوالع التجليات الصفاتية تَطلُعُ وتطالع من مطالع القلوب المعنوية، **والثاني:** طوامع أنوار التجليات الذاتية متحققة ومشاهدة بمطالع الأسرار الغيبية، وكل ذلك لك منك فيك به مشهود عند فناء الأنية، فيشاهدها بها هنا وهنالك في عين الوصال؛ ولذ قال ﷺ:

**١٥٩- «نورٌ مُسْتَوْدَعٌ في القلوب، مددُه النورُ الواردُ من خزائنِ الغُيُوبِ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المطالع جمع: مطلع، وهو محل طلوع الشمس وغيرها، والأنوار هنا: الواردات والكشوفات التي تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شيء واحد، وما هي إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية، فما دامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهي نفس ونورها مكسوف، فإذا انـزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصي والذنوب، فتارة تعصي وتتوب، وتارة تحن وتؤوب، سُميت عقلاً ونورها قليل؛ لأنها محبوسة في سجن الأكوان، معقولة بالدليل والبرهان، فإذا سكنت عن المعاصي إلا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة، وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية، سميت قلبًا وهو أول مطالع الأنوار، فتشرق عليه أنوار التوجه، فلا تزال تترادف عليه الواردات وهي أنوار التوجه حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله، فحينئذٍ تسمى روحًا، وهو أول مطالع أنوار المواجهة، فبهذه الأنوار ينكشف الحجاب، وينفتح الباب، وتدخل في حضرة الأحباب، فإذا تصفت من غبش الحس، وتطهرت من كدر الأغيار سميت سرًّا، وهو أول مطالع أنوار أنوار المشاهدة، فإذا تزكت من لوث الأنوار، وهو الوقوف مع المقامات، أو الالتفات إلى الكرامات، سميت سر السر، وهو أول مطلع أنوار المعاينة والمكالمة، ثم لا حال ولا مقام: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب:١٣] وأما الترقي في العلوم والمعارف فلا نهاية له على الأبد، فالقلوب مطالع ومشارق أنوار التوجه، والأسرار مطالع ومشارق أنوار المواجهة والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض في المرتبة، فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها في الأسرار.

حاصل: إن النفوس والعقول الظُّلمة غالبة عليها؛ لانهماكها في الحس وفنائها في الغلس والخنس، فليستا مطلعًا لشيء من النور لعدم توجهها إلى الكريم الغفور، وأما القلب والروح والسر فهي مطالع الأنوار؛ أي: محل طلوعها وإشراقها إلا أن القلب مطلع لأنوار التوجه، والروح والسر مطلعان لأنوار المواجهة، وقد تقدم تفسيرهما عند قوله: «اهتدى الراحلون... إلخ» والله تعالى أعلم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: النور المستودع في القلوب هو نور اليقين، ويكون أولاً ضعيفًا كنور النجوم

**أقول: نور إسلامي**: مستودع في خزائن قلوب أهل الإسلام مدده الممدود به، نور أحكامه المستودعة في خزائن غيوب العموم للعوام.

**ونور إيماني**: مستودع في خزائن قلوب أهل الإيمان مدده الممدود به نور لوازمه إيمانه المستودعة في خزائن الخواص للاختصاص بالإيقان.

**ونور إحساني**: مستودع في خزائن أهل الإحسان مدده الممدود به نور مشاهده المستودعة في خزائن غيوب نور المراقبة للعرفان.

**ونور عياني**: مستودع في خزائن قلوب قوابل أهل المشاهدة والعيان مدده الممدود به نور تجليات تعرفات الحق المستودع في خزائن غيابات غيوب الوجود الوحداني بالرحيم الرحمن الذي كل شيء خلقه، ثم هدى للذات بالصفات، وللصفات بالأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦٠ - «نورٌ يكشفُ لك به عن آثاره، ونورٌ يكشفُ لك به عن أوصافه».**

---

=

وهو نور الإسلام، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب، حتى يكون كنور القمر وهو نور الإيمان، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس، وهو نور الإحسان، وخزائن الغيوب هي أنوار الصفات وأسرار الذات، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان.

واعلم أن وجه اصطلاح الصوفية ﷺ في ترتيب الإسلام أولاً، ثم الإيمان، ثم الإحسان: إن العبد مادام مشغولاً بالعبادة الظاهرة الحسية سمي ذلك المقام مقام الإسلام، فإذا انتقل العمل للقلب، وهو اشتغاله بتصفية القلب، بالتخلية والتحلية، وتحقيق الإخلاص سمي ذلك مقام الإيمان، فإذا انتقل العمل للروح وللسر، وهو الفكرة والنظرة سمي مقام الإحسان، بخلاف الفقهاء، فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام، فيقولون لا يصح شيء دون الإيمان، ولا مشاحة في الاصطلاح: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]. قال بعض المحققين: اعلم أن لعالم الملك، وهو عالم الشهادة أنوار ظاهرة، ولعالم الملكوت، وهو عالم الغيب أنوار باطنة، وأشهر ما في عالم الملك ثلاثة أنوار: نور الشمس، ونور القمر، ونور النجوم، ويقابلها من عالم الملكوت: نور المعرفة، ونور الفهم، ونور العلم، فبطلوع نجم العلم في ليل الجهل تبدو الآخرة والأمور الغيبية، وبطلوع قمر الفهم في أفق التوحيد يشاهد قرب الحق، وبطلوع شمس المعرفة في أفق التفريد يقوى اليقين، ويلوح وجه المشاهدة، وأول نور يلج في الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان، فإذا تقوى فيه صار شهودًا. انتهى.

**أقول:** النور الكاشف هو العلم العرفاني المحقق شهود معلومه للعالم به على ما هو عليه سواء كان ذلك المعلوم أثر للأفعال كالسماوات والأرض وما بينهما إلى غير ذلك، أو وصفًا للفعال وهو ما يوصف به كالقدرة والإرادة والعلم والحياة إلى غير ذلك لما يدل هذا عليه، ويهدي هذا إليه لشهوده المستمر من الحال إلى ما لا ينتهي في الحال، ولكن تنبه لما قال ﷺ:

**١٦١- «رُبَّمَا وقفتِ القلوبُ مع الأنوارِ، كما حُجبتِ النفوسُ بكثائفِ الأغيار»**[1].

**أقول:** قد تقف القلوب المتخلفة عن كمال الاستعداد مع الأنوار الفعلية، أو ما تدل عليه من الأنوار الصفاتية على المنور الفَّعال الموصوف فتحجب بوقفتها عن تجلياته الذاتية كما حجبت النفوس بشهوتها ومادتها، والآثار المضادة لها بكثائفها عن ما للقلوب من شموس أنوار دقائق الأسرار المنطوية بنشرها تحت سحب ظُلَلِ غمام تعرفاتها، وإن زال الظل بمثله فليس لها زوال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦١ - «سَتَرَ أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تُبتذلَ بوجود الإظهار، وأن يُنادى عليها بلسان الاشتهار»**[2].

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما وقفت القلوب مع الأنوار» أي: فتحتجب بها وتعطل عن السير إلى الله تعالى «كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار» أي: بكثائف هي الأغيار؛ أي: الشهوات واللذات التي هي غير المولى ﷻ، فالحجاب عن المولى قسمان: نوراني: وهي العلوم والمعارف إذا وقفت القلوب معها وركنت إليها وجعلتها غاية مقصدها، وظلماني: وهو شهوات النفوس وعاداتها، ووصفها بالكثافة؛ لأنه لا تزول إلا بمعاناة ومشقة.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «ستر أنوار السرائر» أي: أنوار قلوب أوليائه «بكشف الظواهر» أي: بالأحوال التي يتلبسوا بها في ظواهرهم ويتعاطونها من الصنائع وغيرها، فإن تلك الأحوال كثائف أي: حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم، وإنما ستر تلك الأنوار مع أن الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها «إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار» أي: لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر، فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها، وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعًا من الإهانة بها، وقد تقدم هذا في قوله سبحانه: «من ستر سر الخصوصية... إلخ» لكن أعاد ذلك هنا لأجل التعليل المذكور، وأيضًا سترها رحمة من الله بالمؤمنين؛ إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقًا لا يقدر على القيام بها، فإذا قصر وقع في المحذور.

أقول: ستر سبحانه بظواهر خلقه أنوار أسرار تجليات حقه التي لولاها ما كانت الظواهر التي بها تميزت السرائر تعاليًا لها عن ابتذالها في الإظهار، فينادى عليها بلسان الظواهر، فتشتهر في سوق العموم وهي مشهد الخصوص من الرجال أصحاب التكميل، والكمال العزيز إدراكهم، لما قال ﷺ:

١٦٢- «سُبْحَانَ من لم يجعلِ الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصلَه إليه»(١).

أقول: اعلم أنه سبحانه لما خص كل موجود بحصة من توجهه الإيجادي، فتكون بها وتعين، اقتضى كرمه أن يتوجه إليه بحصة من توجهه الإمدادي ليبقى بها في العوالم مدَدَه المقسومة له في علمه، ويخص من سبق له منه التخصيص بأخص حصة من هذا التوجه تكرمة له يمتاز بها بين أمثاله على غيره في سيرته وسيره، وهي مقولة بالتشكيك لتشكك قوابل المخصوصين منهم.

فمنها: الولاية، والنبوة، والرسالة لأنبيائه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومنها: ما ورثوه لورثتهم الذين هم أولياؤه من بعدهم لبقاء حكم ولايته فيهم دون الرسالة والنبوة حسب قوابلهم الكائنة فيهم من التوجه الإيجادي الإمدادي الفائضين عن ذاته القائمين بصفاته المثبتة لمكوناته الدالة على ما انطوى فيها من أنوار تجلياته وتخصيصاته وللولاية نوعان: عامة: وليست مرادة هنا؛ لأنها ما لأهل الفرق الدالة عليها الخوارق التي لم تخرج عن دائرة الكون أو استمرار الطاعة من غير تخلل مقتضيه المؤدي إلى مرضاته دون مشاهدة حضراته، وخاصة: وهي ما لأهل الجمع الدال عليها خرق حجاب الكون إلى المكون، وهي المرادة هنا؛ لأنها المؤدية إليه تعالى مع ما له، فالدليل عليه تعالى وعلى النبوة،

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «سبحان من لم يجعل الدليل» أي: الاهتداء والوصول والاستدلال «على أوليائه إلا من حيث» أي: من جهة «الدليل عليه» أي: أنه مماثل لذلك، فكما أن الله محتجب لا أكوان عن المخلوقين فاهتداؤهم إليه ووصولهم إلى معرفته أمر عسير يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة، ويشكره عليها كذلك الولي مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة، وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيره، فيكون الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته أمرًا عسيرًا يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها.

obeikandl.com

والرسالة، والولاية الخاصة، ومظاهرها، والموصلة إليهم وإليه ما يوجده من الخوارق المنفذة من كل ما سواه إليه بمعرفة تجليات سناه، فلم يوصل إليهم من هذه الحيثيات بالآداب اللائقة بهم، الجامعة عليهم، إلا من أراد أن يوصله إليه تخصيصًا منه للواصلين من السالكين، وبشرى وإفضالاً بشهود شمائل غيب ملكوت حضرته في مشاهد الكُمَّل من الرجال، وهو ما أشار إليه حيث قال ﷺ:

**١٦٣- «رُبَّمَا أطلعكَ على غيبِ مَلَكُوتِه، وحجبَ عنك الاستشرافَ على أسرارِ العباد»**(١).

**أقول**: الاطلاع: هو الكشف من الرب، والاطلاع به من العبد، والمنكشف المطلع

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الملكوت مبالغة في الملك هذا باعتبار اللغة، وأما باعتبار اصطلاح الصوفية فالعوالم ثلاثة: مُلك وملكوت وجبروت؛ فالملك ما يدرك بالحس والوهم، والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم، والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة، وهذه العوالم محلها واحد، وهو الوجود الأصلي والفرعي، وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة، وتختلف النظرة باختلاف الترقي في المعرفة، فالوجود عند المحققين من العارفين: واحد قسم لطيف غيب لم يدخل عالم التكوين، وقسم كثيف دخل عالم التكوين، فالأول يسمى عالم الغيب، والثاني عالم الشهادة، وما كان خفيًّا في عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة، فمن نظر إلى حس الأشياء الظاهر سماه ملكًا، ويسمى أيضًا عالم الحكمة وعالم الأشباح، ومن نظر إلى أسرار المعاني القائمة بالأواني، وهي أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتًا، ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التي كانت حال الكنـزية التي لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتًا. أو تقول: ومن نظر إلى الكثيف الذي دخل التكوين، ورآه مشتغلاً بنفسه قائمًا بقدرة الله سمي في حقه ملكًا، وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق، ومن رآه نورًا فائضًا من النور اللطيف متصلاً به إلا أنه تكثف بالقدرة، وتستر بالحكمة سماه ملكوتًا، وسمي اللطيف الباقي على أصله الذي لم يدخل عالم التكوين، الذي هو أول كل شيء وآخر كل شيء ومحيطًا بكل شيء جبروتًا؛ فإن ضم الفرع إلى أصله، والكثيف إلى اللطيف سُمي الجميع جبروتًا، وهذه المعاني لا يفهمها إلا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق، وحسب من لم يبلغ لهذا المقام التسليم، وإلا وقع في الإنكار على أولياء الله بما لم يحط به علمًا. والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد؛ لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله، وإنما تكون هذه المكاشفات عند العباد والزهاد وأهل الرياضيات والمجاهدات، ولا تنكر أن تكون عند العارفين، فقد تجتمع لهم المكاشفة، والكشف؛ أي: مكاشفة أسرار العباد، وكشف الحجاب عن الفؤاد إلا أن الغالب هو استغراق الروح في شهود نور الملكوت، دون الاستشراف إلى أسرار العباد التي هي من عالم الملك.

عليه إما أنه غيب ملكوته المتقدم بيانه من انكشاف أوصافه ونعوته بواسطة أوليائه، وإما أنه غيب ملكه الذي هو مستودع ما تسره من أفعالها وخواطرها عبيده عن غيرهم من العباد، فربما اجتباك وخصك بالاطلاع الأول الراجع إليه شهودًا بالبقاء بعد الفناء في مشاهد العيان دون الاستشراف على الثاني الراجع إلى ما سواه الحاجب لكل محجوب به في دائرة الأكوان، وما رجع إلى الكون الممتنع من الاختلال، ووجود الاعتلال غالبًا إلا ما رحم ربي ذو الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

*** «من اطلع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية، فكان اطِّلاعُه فتنةً عليه وسببًا لجر الوَبَال عليه».**

**أقول**: من كان حظه من الله الاطلاع الثاني الفاني، والاطلاع الأول الباقي المتقدمين في الحكمة قبلها، ولم يتخلق بعد أن تحقق بهما بالرحمة الإلهية التي مقتضاها العلم والاطلاع، والحلم، والعفو، والرأفة، والرحمة، والستر، والبر، والكرم على ما اطلع عليه بلا نزاع لمن تخلف وعصى، وللحقوق أضاع، سواء كان اطلاعه بالكشف الذي لديه مع عدم التخلق بهذه الصفات وما في معناها، أو بواسطة فتنته عليه، والفتنة بذلك عن الله سبب يجر الوبال إليه، وذلك من غاية حظوظ النفوس، وبقايا الرذائل من الخصال الظاهرة والباطنة في صور محاسن الأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦٤- «حظُّ النفسِ في المعصيةِ ظاهرٌ جَلِيٌّ، وحظُّها في الطاعةِ باطنٌ خَفِيٌّ، ومُداواةُ ما يخفى صعبٌ علاجُه»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: حظ النفس في المعصية هي متعة البشرية الظاهرة، كلذة الأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو، وغير ذلك مما هو من أذواق الحس التي هي محرمة، وحظها في الطاعة هو طلب الكرامات، وخوارق العادات والاطلاع على المغيبات، وكحب الخصوصية والمنزلة عند الناس، ومداواة هذا المرض الخفي أصعب من مداوة الأول الجلي؛ لأن مداواة المرض الحسي الخفي أصعب من مداواة الجلي، فكذلك المعنوي الباطني ما كان جليًا متعلقًا بالنفس أصعب، مما كان خفيًا متعلقًا بالروح. فالأول يمكن دواؤه بالعزلة والفرار من مواطن الأشرار وبصحبة الأخيار وبكثرة الطاعة والأذكار، بخلاف الثاني، فلا تزيده الطاعة إلا كثرة وقوة، إذ بها صارت تطلب حظها، فلا يداويها من هذا إلا خوف مزعج أو شوق مقلق، أو ولي عارف محقق يصحبه بالمحبة والتصديق. قال بعضهم: من عسرت عليه نفسه، فليسلمها إلى شيخ التربية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ

**أقول:** النفس الأمارة ذات الحظوظ الذميمة حظها في معصيتها لربها ظاهر جلي لها، وسهل علاجه عليها متى نهضت بالعلم فيه تحكمت، فزال الالتباس وذهب بذهابه البأس، وحظها في الطاعة التي هي أجناس الامتثالات، وأنواعها الملتبس بها شاء الله من أفرادها، باطن خفي على النفوس؛ لظهوره فيها، وما خفي في صورة ذلك فصعب علاجه لبعد تشخصه من الطاعة التي هي مظاهره، وكل ذلك لاعتلال الأعمال بأمراض الأغراض التي أعلاها الوصال، وأدناها التعالي؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦٥ - «رُبَّمَا دخلَ الرياءُ عليكَ من حيثُ لا ينظرُ الخلقُ إليك»**[1].

**أقول:** ذلك إذا تظاهرت للخلق أيها العالم أو العامل بعلمك أو عملك أو بعض ذلك متوقعًا به عظمتك عندهم توهمًا منك أنك وعلمك وعملك حالة تظاهرك مشهود معلوم؛ لعلمهم وشهودهم، والحال أنهم عنك بشئونهم في شغل، وأنت بهم عن شئونك في شغل، وذلك لرؤيتك ذاتك، وعلمك، وعملك في مرآة شهودك الذي هو فرع إثبات وجودك الذي ثبوته أعظم ذنوبك، وبه تعذيبك في الحال الذي منه ما يشغل البال عن

---

=

﴿تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق:٦] وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضع له نفسه نفس أخرى حتى يكمل أوان فطامها، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم، ولم يلق الله بقلب سليم، فالواجب على العبد اتهام نفسه ومراقبة قلبه، فلذا استحلت النفس شيئًا من الطاعات، وألفته أخراجها إلى غيرها، ولو كانت مفضولة في ظاهر أمرها.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما دخل عليك الرياء من حيث لا ينظر الخلق إليك» أي: وأنت في مكان لا ينظر الناس إليك فيه؛ يعني: إن الرياء كما يدخل في العمل إذا عمله صاحبه عند الناس ويسمى الرياء الجلي، يدخل فيه إذا عمله وحده بأن يقصد به توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل ومسارعتهم في قضاء حوائجه، فإذا قصر أحدهم في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره وربما توعد من قصر في حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله يأخذ بثأره منه، فإذا وجد العبد هذه الأمارة في نفسه فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن الناس، ويسمى هذا الرياء الخفي، ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلا العارفون الموحدون؛ لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس، ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو المرائي بعمله، وإن عبد الله في جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به.

المتفضل بحبك أن تعلم الخلق ما فيك من الأفضال؛ لتعظم وتعال، فإياك واسمع ما قال ﷺ:

**١٦٦- «استشرافُك أن يعلمَ الخلقُ بخصوصِيَّتِكَ دليلٌ على عدمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»[١].**

أقول: الاستشراف من صفات القلوب المطلوب جلاؤها من كل ما سوى المحبوب فضلاً عن شهودك الخصوصيات اللازم منه حب التشوف أن تعلم بها المخلوقات، ولا يخفى مطلوبك من ذلك، وهو حب التعظيم لك منهم، والإقبال بسبب علمهم بها، والحال أن تشوف قلبك لا يفيد ذلك، فربما يحملك ذلك على التعريض بالقول والفعل ضرورة، وإذا كان الاستشراف بمجرده دليل عدم صدقك في عبوديتك، فكيف بما زاد من تعرضك، وكل ذلك آفات اعتبار الخلق وثبوتهم في مرآة شهودك الموجب اعتبار علمهم، ونظرهم المتوهم بهما ما قام في الخيال من التعظيم والإقبال المتوقع من الأطفال للأطفال، فإن أردت ذهابه، فعالجه بما قال ﷺ:

**١٦٧- «غيّب نظرَ الخلقِ إليك بنظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»[٢].**

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «استشرافك» أيها المريد؛ أي: ميلك ومحبتك إلى «أن يعلم الخالق بخصوصيتك» أي: بما خصك الحق به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية «دليل على عدم صدقك في عبوديتك» لأن الصدق في العبودية هو طرح الأخيار وعدم الالتفات إليها رأسًا، فلو كنت صادقًا في عبودية الرب لقنعت بعلمه بكلم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له. قال بعضهم: «من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مرائي، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب» هذا في بداية السلوك، فإن تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوجدانية الصرفة فلا بأس به بالإخبار بأعماله، والإظهار لمحاسن أحواله، ليؤدي حق شكرها وليقتدي به غيره، فمبنى أهل الطريق في البداية على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال تحقيقًا لفنائهم، وتثبيتًا لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحبًّا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، ولم تتعلق إرادتهم بظهور ولا خفاء، بل يردون الأمر إليه في ذلك.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «غيب نظر الخلق إليك» أي: لا تلتفت إلى نظرهم إليك ولا تطلبه ولا تخطره

**أقول:** غيب نظر الخلق وإقبالهم الذي هو غير معتبر أصلاً، ولا يفيد في الدارين إلا بعدًا وفصلاً تغييبًا بتغليب شهود نظر الحق وإقباله المعتبر المفيد سعادة الدارين به وصلاً تغليبًا لا يبقى فيك متسعًا لغير شهود نظره إليك الثابت عقلاً ونقلاً، وتوجهه بإقباله عليك تعرفًا وفضلاً بالتعرف المحيط بك، وبكل شيء أبدًا؛ لتشهده في مجال صفاته وأنواع أنوار تجلياته سرمدًا التي قضت آثار جميع مكوناته؛ لتعرفه وتشهده في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**١٦٨- «من عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كُلِّ شيءٍ».**

**أقول:** المعرفة به مقدمة شهوده، ويتفاوت الشهود بتفاوتها، وذلك تجلي المشهود للعارف بحسبها، وهي علمية المشهود العلمي الذي أوله المراقبة، وعينية للشهود العيني الذي أوله الشهود الفعلي من المشاهدة، وبها تعرف ما له من الحقوق بالوجود المطلق المفيض، والصفات المتعرف بها في كل من الكائنات، وما لك ولها من القبول لذلك به، والعدم بالذات فتشاهد ما له وما لك به لا بك في جميع مراتب ظهوره، وآفاق دوائر نوره من كل شيء منزهًا عن كل شيء، وعن كل ما يخطر بالبال؛ لفناء ما سواه به المنبه عليه عاطفًا بما قال ﷺ:

***«ومن فَنِيَ به غاب عن كل شيءٍ».**

**أقول:** من فني فناء حبيًّا خاصًا في شهود وجود الحق من حيث هو هو بما بطن وظهر، متعرفًا بأسمائه وصفاته به، غائب عن الخلق، إيثار للشمس على الظلال؛ ولذا عطف وقال ﷺ:

---

=

ببالك بل اجعله غائبًا عنك «ينظر الله إليك» فلا يكن التفاتك وتشوقك إلا لنظر الله إليك، وكذا يقال في قوله: «وغيب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك» فلا تلتفت إلى إقبالهم عليك ولا تطلبه، بل لا يكون التفاتك وطلبك إلا لإقبال الله عليك، فإن إقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهمتهم وغير ذلك من الآفات، وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى، فلا يرضى بإقبالهم إلا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة؛ لأن رضي الناس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، وأما من كان له عقل وافر فلا يمل إلا لإقبال الله من غير مبالاة بذم ذام، ولا عيب معيب.

obeikandl.com

* «ومن أحبَّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئًا»(١).

أقول: ومن أحبه سبحانه من المحبين بالمحبة الخاصة لم يؤثر عليه شيئًا به، وجد يشتغل به عن وجود التوجه إليه للتمتع به بين يديه إن كان مبتدءا، وإن كان منتهيًا لم يؤثر عليه شيئًا يحجبه عن وجود شهوده؛ إذ لا شيء إلا به، وإنما يؤثره على كل شيء ظهر عنه إيثارا يغيب به فيه، كما أن من أحبه بالمحبة العامة لم يؤثر على طاعته شيئًا من معصيته فتضمحل المعصية في الطاعة التي اتحدت فيه إيثارًا من شدة قربها منه بالامتثال الذي هو مشهد شهود الحق الأكملي من الكمال؛ ولذا قال ﷺ:

١٦٩ - «إِنَّما حجبَ الحقَّ عنك شدةُ قربه منك».

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: معرفة الحق هي شهود ربوبيته في مظاهر عبوديته، أو تقول: هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية، أو تقول: هي الترقي من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح.

والفناء: هو أن تبدوا لك العظمة، فتنسيك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وليس معه شيء، أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق، والمحبة أخذ الحق قلب من أحب من عباده، فلا يكون له عن نفسه أخبار، ولا مع غير محبوبه قرار، وقيل غير ذلك، فمن عرف الحق شهده في كل شيء، ولم يرى معه شيئًا، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت، ومن فني به، وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء، ولم يثبت مع الله شيئًا.

والفرق بين الفاني والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله، والفاني لا يثبت شيئًا سوى الله، العارف يقرر القدرة والحكمة، والفاني لا يرى إلا القدرة، العارف يرى الحق في الخلق، كقول بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه، والفاني لا يرى إلا الحق، يقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، العارف في مقام البقاء، والفاني مجذوب في مقام الفناء، الفاني سائر، والعارف متمكن واصل، ومن أحب الله لم يؤثر عليه شيئًا من حظوظه، وهوى نفسه، ولو كان فيه حتف أنفه.

فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء، وقيل للفناء: المحبة؛ أي: أولها، فأول ما يقذف الله في قلب عبده الذي يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته، فلا يزال يلهج بذكره، ويتعب جوارحه في خدمته، ويتعطش إلى معرفته، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق، فإذا أحبه أفناه عن نفسه وغيبه عن حسه فكان سمعه، وبصره ويده وجلته، ثم رده إليه وإبقاه به، فعرفه في كل شيء، ورآه قائمًا بكل شيء، ظاهرًا في كل شيء، والله تعالى أعلم.

**أقول:** شدة قرب الحق منك التي مقتضاها انمحاقك أيها القريب بما منها فيها، حتى كأنك لم تكن، وإن كنت فأنت من موصوفها ظاهر وبه قائم، وفيها مضمحل بها، حجبته عنك حجابًا يوهمك بعده عنك لا قربيته منك قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة:٨٥] فقمت في صورة التسوية بما منه من الأحكام المتعدية المحققة ما فيك من الأوهام، وأنت في عين القرب به ثابت مع الاضمحلال المؤكد بما قال ﷺ:

* **«إنما احتجب؛ لشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار؛ لعظيم نوره»**(١).

**أقول:** إنما بعد توهمًا بسبب شدة القرب الذي به بطون كل ما سواه به بقوة ظهوره بتجليات صفاته وأسمائه التي أبرزت بظهورها ما بطن بها من الأعيان الثابتة الظاهرة أحكامها به، فلا ثم إلا ظهوره، وقد عم نوره البصائر والأبصار؛ لعظم نوره لا يدركه إلا هو، تعالى أن تدركه الأبصار، أو تلحقه العقول والأفكار، فألق عصى التسيار، وقم بالذلة

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ذكر في حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره لحكمتين: **الحكمة الأولى:** شدة القرب، ولا شكَّ أن شدة القرب توجب الخفاء كسواد العين من الإنسان، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه، والله تعالى أقرب إليك من كل شيء قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] فشدة قربه منك موجب لاضمحلالك. **الحكمة الثانية:** شدة نوره، ولا شكَّ أن شدة النور موجب لعدم الإدراك، فإن البصر لا يقاوم النور الباهر، وفي حديث مسلم في قصة الإسراء: «قلنا: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ قال: **نورٌ أنى أراه؟**»، بلفظ الاستفهام، أي: غلبني النور كيف أراه، وفي رواية: «**رأيت نورًا**» فيحمل على أنه أول مرة رأى نورًا، ثم لم يطق مشاهدته بالبصر مع تحقق شهوده بالبصيرة، وانظر أيضًا البرق الخاطف، فإن البصر لا يطيق رؤيته.

وحاصلها ثلاثة أمور: **الأول:** تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله، بحيث لاينفك أحدهما عن الآخر في الغالب. **الثاني:** تفسير أسرار الولاية، وهي الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد؛ لأن ذلك قد يكون فتنة في حقه، وسببًا في عقوبته إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حظِّ النفس، فربما تقصده بطاعتها، فيكون رياء في حقها، وهو من الأمراض الباطنية التي يصعب علاجها كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته، ودواؤه الغيبة عنهم، والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره. **الثالث:** علامة وجود هذه الأسرار في العارف، وهي شهود الحق في كل شيء، وفناؤه عن كل شيء، وإيثار محبته على كل شيء، **فإن قلت:** كيف يشهد وهو غيب؟ قلت: بل هو ظاهر في كل شيء، وإنما حجبه شدة قربه، وشدة ظهوره، وعظيم نوره، وإذا علمت أنه قريب، وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك اكتفيت بنظره، واستغنيت بعلمه عن طلبه، فإن كان ولابد من الدعاء، فليكن عبودية ومناجاة وتملقًا لا سببًا للعطاء.

obeikandl.com

والافتقار، مترجمًا عنهما عبوديته بالسؤال، واسمع ما قال ﷺ:

١٧٠ - **«لا يكنْ طلبُكَ تسببًا إلى العطاء منه، فَيَقِلّ فهمُك عنه»**.

**أقول**: إذا أردت فتح باب كثرة الأفهام للوائح طوالع أنوار الإلهام، المتوصل بها إلى ما تقدم بيانه من الإعلام؛ لتشارك القوم في شرب المدام، بمقامات السكر والاصطلام، فتبرأ من حول وحيلة تتوقع بهما المرام، حتى الطلب؛ لتوقع المطلوب به حسب ما قام في الأوهام؛ لئلا يسد به باب كثرة الأفهام، وفتحه بقيامك به عبودية للامتثال بدليل ما قال ﷺ:

* **«وليكنْ طلبُك لإظهارِ العُبُودِيَّةِ وقيامًا بحقوقِ الربوبيَّةِ»**(١).

**أقول**: الطلب من العمل وما لم تخل العمل كله: قلبية وبدنية، من كل علة لا تكون عبودية لله، ولا قيامًا بحق الله، ولا مؤديًا إلى الفناء في الله، والبقاء لله؛ لشهود الله بالله، والمقسوم به إن يكن فمعين من الآزال؛ ولذا قال ﷺ:

١٧١ - **«كيفَ يكون طلبُكَ اللاحقُ سببًا في عطائه السابق؟»**.

**أقول**: جميع أعمالك المنوطة بك حتى طلبُك حادث ظهوره بعد تعين وجودك اللاحق، فكيف يكون سببًا لمطلبك السابق في الآزال؟ فإن ذلك محال، واسمع ما قال ﷺ:

١٧٢ - **«جَلَّ حكمُ الأزلِ أنْ يضافَ إلى العِلَلِ»**.

**أقول**: تعالى ما حكم به بحكمه الأزلي من العطاء وغيره أن ينسب إلى التعليل بعمل أبدي أو بتوجه وإقبال، وإنما هو يقين بمحض الإفضال خفي ما ظهر في الأبد من الأعمال،

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا يكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه» أي: لا تقصد بطلبك؛ أي: توجهك له بالدعاء والأعمال الصالحة حصول النوال منه، وتعتقد أنه سبب مؤثر ذلك «فيقل فهمك عنه» أي: عن الله فلا تفهم السر والحكمة في أمر الله عباده بالطلب، وهو ما ذكره بقوله «وليكن طلبك لإظهار العبودية» أي: لإظهار كونك عبدًا ذليلاً ضعيفًا لا غنى لك عن سيدك «وقيامًا بحق الربوبية»، فإن الربوبية تقتضي التذلل والخضوع من المربوب. يعني: إن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منه إلا ليظهر افتقارهم إليه وتذللهم بين يديه، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوا فيه، هذا هو فهم العارفين عن الله، ومَن هذا حاله لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وإن أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤال ومأرب، وألا يفرق بين العطاء والمنع فيكون عبدًا لله في الأحوال كلها، كما أنه ربه في الأحوال كلها، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه.

الشاهد له ما قال ﷺ:

**١٧٣- «عنايتُهُ فيك لا لشيءٍ منك، وأينَ كُنْتَ حين واجهتـك عنايتُهُ، وقابلتك رعايتُه؟».**

**أقول:** عنايته فيك وفي العالم بالإيجاد والإمداد المتعرف بهما لشهوده بالإشهاد من أزل الآزال إلى أبد الآباد لا لشيء يعود منك إذ لا أنت أنت إلا به، فهو المريد، وأنت المراد، وأين كنت قبل أن تكن، ولا عين لك ولا استعداد، وواجهتك منه العناية بهذا الإسعاد، وقابلتك منه الرعاية بروح الوداد، فما أغناه عن العباد، وما أوسع عطاءه بالإمداد الذي لا يتوقف على علة ولا سؤال، يشهد لذلك ما قال ﷺ:

**١٧٤- «لم يكن في أزله إخلاصُ أعمالٍ، ولا وجودُ أحوالٍ، بل لم يكن هناك إلا محضُ الإفضالِ، وعظيم النَّوَالِ»[1].**

**أقول:** لما كان المعتبر من الأعمال لقبولها من العمال الإخلاص المطلوب من العوام والخواص في أبده نبه على فقده في أزله تنبيهًا يحقق بمحض الإفضال، وتجرده عن رائحة الاعتلال بكل حال، بل ولا كانت الأعمال ولا العمال، فهو المتفضل بوجود الكل،

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «كيف يكون طلبك اللاحق» أي: الموجود فيما لا يزال «سببًا في عطائه» أي: إعطائه «السابق» أي: الموجود في الأزل، فإن الإعطاء وهو تعلق الإرادة في الأزل تعلقًا تنجيزيًا قديمًا لا يكون الطلب سببًا فيه لتأخره عنه، والسبب لا بدَّ من تقدمه على المسبب، ولذا قال: «جل حكم الأزل» أي: ما حكم به في الأول، وعلقت إرادته وهو الإعطاء «أن يضاف إلى العلل» أي: ينسب لعلة وهو الطلب؛ أي: أن يكون سببًا مؤثرًا فيه إن قيل: قد يكون ذلك الإعطاء معلقًا على الطلب فيكون سببًا فيه.

أجيب بأن السبب في الحقيقة هو تعلق إرادة الله في الأزل، أنك تدعوه فيما لا يزال، لا نفس الطلب المتأخر، «عنايته فيك» أي: إعطاؤه إياك ما تطلبه؛ أي: تعلق إرادته في الأزل بالإعطاء «لا لشيء منك» أي: وقع منك اقتضى حصول العناية كالدعاء والأعمال الصالحة «وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته» وهي بمعنى العناية؛ أي: أنك كنت معدومًا في الأزل، ويلزم من ذلك عدم ما يصدر منك «لم يكن في أزله إخلاص أعمال» أي: أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم «ولا وجود أحوال» مرادف لما قبله «بل لم يكن هناك إلا» محض «الأفضال وعظيم النوال» مرادف لما قبله، فالدعاء ليس سببًا مؤثرًا في المطلوب، والأعمال الصالحة ليست سببًا مؤثرًا في عناية الله؛ أي: دخول الجنة والنجاة من النار.

والإخلاص في الحال، وبما وعد عليه من النوال في الحال لمن يشاء بما يشاء كيف يشاء، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] من الأحكام والأفعال، العام والخاص، كل منهما المتشوف إلى خصوصهما ذوو الآمال؛ ولذا قال ﷺ:

١٧٥-«عَلِمَ أن العبادَ يتشوَّفُون إلى ظُهورِ سرِّ العنايةِ، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]».

أقول: علم سبحانه ما خلقه وأودعه في سجايا خليقته من التزحزح الحقيقي الطبعي عن مراكز عبوديتهم لربوبيته الذي منه يتطلعون بقلوبهم لظهور ما بطن عنهم من سر عنايته فيهم، أو لهم ظهوره في مظاهر اختصاصه حيث ولايته وخصوصيته، فأدبهم بما يردهم به عن إرادتهم إلى إرادته المتضمن ما يتأدبون به في حضرته تأدبا لمشاهدته واستحقاقًا لحضرات ألوهيته إن شاء وهو قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] فدع التطلع لما فيه من مباينة العبودية والامتثال، ولما فيه مما هو منبه عليه من آفاته؛ إذ قال ﷺ:

* «وعَلِمَ أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزلِ؛ فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: لما أخبر الله سبحانه في كتبه على ألسنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية، تشوق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية، فكل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل؛ لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض فربما يتركون العمل، ويعتمدون على سابق الأزل، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله، ومختص به فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] فالرحمة هنا هي العناية السابقة، وهي قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم، وأحسنوا إلى عباد ربهم، فتحصل أن سر العناية إنما تظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم المخلصين في عبودية ربهم، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة، ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشيئة السابقة فهو جاهل بعيد عن الحضرة غافل، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل، وسر العناية إليه إن شاء الله واصل.
وقال بعضهم: ليس كل من طلب نال، ولا كل من نال وصل، ولا كل من وصل أدرك، ولا كل من أدرك وجد، ولا كل من وجد سعد، وكم من واحد حرم من المنى بمنى، وكم من واحد أدرك من

**أقول:** ومما علمه مما خلقه وأودعه السجايا من آفات التشوف إلى ما ذكر بسر العناية المزيلة للعناء أنه لو خلاهم وذلك المتشوف إليه؛ لتركوا العني للعمل المطلوب منهم الذي هو علة وجودهم لما ظهر لهم من سر العناية في الأزل، وكيف والعمل بها في الأزل وإن ظهر في الأبد كما هو معلوم لكل أحد، وهو من عين عناية الله ورحمته بالعاملين؛ إذ وفقهم لما خلق لهم العالمين وحققهم به وحذرهم من تركه، ووعدهم على إتيانه، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] أي: المحسنين في أعمالهم بالصدق أو بالمراقبة فيها للحق، أو بالغيبة عنها، والمحق إلى غير ذلك مما يسند إلى مشيئته من النوال؛ ولذا قال رضي الله عنه:

**١٧٦- «إلى المشيئةِ يستندُ كُلُّ شيءٍ، ولا تستندُ هيَ إلى شيءٍ»[1].**

---

=

القربات غرفات، ومن أُيِّد بالتوفيق وصل في لحظة العين إلى عين القبول، كما حكي عن بعض الصالحين أنه رأى في منامه إبليس اللعين ضج بالصياح والعويل، فاجتمع عليه جنوده، وقالوا: ما لك؟ فقال لهم: كنت أطمع في فلان منذ سنين، فإذا به قد استوى ظاهره وباطنه وسره وعلانيته فلم أجد إليه سبيلاً تحلى بالصدق، فامتنع مني في مقعده: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] انتهى.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المشيئة والإرادة شيء واحد وإليهما تستند الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سبق المشيئة لكل شيء، وأما هي فلا تستند إلى شيء، ولا تتوقف على شيء، فلا تتوقف على سؤال ولا على طلب، فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال، وما لم يشأ ربنا لم يكن، قرب من شاء بلا عمل، وبعد من شاء بلا سبب ﴿لا يسأل عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَالونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] فقاعدة التحقيق ما ثمَّ إلا سابقة التوفيق.

قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه: إن الله لا يقرّب فقيرًا لأجل فقره، ولا يبعد غنيًّا لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها، ولو أخذتها كلها ما قطعك بها، قرّب من شاء بغير علة، وقطع من شاء من غير علة كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠] فالنظر إلى المشيئة حقيقة، والنظر إلى السبب شريعة.

قال الشطيبي رضي الله عنه: واعلم أن الناس أربعة: ناظر في السوابق لعلمه بأن الحكم الأزلي لا يتغير باكتساب العبد، وناظر في العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها، وناظر للوقت لا يشتغل بالسوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف بـه من حكم الوقت، عالم بأن العارف ابن وقته، لا يهتم بماض ولا

**أقول**: جلت المشيئة الربانية على الاستناد إلى المرادات الإمكانية، وإنما المراد هو المستند إليها؛ ليظهر في مرتبة الإيجاد، ويثبت بمدد الإمداد، هكذا حكم كل شيء فهي أبد الآباد، وأزل الآزال، فاعلم وتأدب بها قال ﷺ:

**١٧٧ - «رُبَّمَا دَلَّهُم الأدبُ على تركِ الطلبِ، اعتمادًا على قسمته، واشتغالاً بذكره عن مسألته».**

**أقول**: من الأدب مع الله القيام بخدمته والتسليم لمشيئته، فمن خدمته الاستغراق في ذكر حضور وجوده حتى عن المنال من مسألته، والنسيان فيه لما لهم من قسمته، ومن التسليم الانقياد له ولقدرته، ولما يجري عن إرادته من الأحكام والأفعال، وإن ظهر عنه صورة السؤال فعلى سبيل الذكر له به، والذل لعزته إن خلا من تصور المنال لا على سبيل التنبيه والتذكير له تعالى، الممتنعين المنبه عليهما بها قال ﷺ:

* **«إنَّما يُذكرُ مَن يجوزُ عليه الإغفالُ، وإنَّما يُنبَّهُ من يمكن منه الإهمالُ»**(١).

---

=

مستقبل، ولا يرى غير الوقت الذي هو فيه، وناظر لله وحده لعلمه بأن الماضي والمستقبل والحال متقلبون في قبضته متصرفون في حكمه، والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال فلا يراها، وإنما يراقب من كل شيء بيده.

وحاصلها: آداب السؤال والطلب، وأنه ينبغي أن يكون عبودية لا سببًا في العطاء؛ إذ قد سبقت قسمتك في الأزل قبل أن يكون منك طلب، فعنايته سابقة: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] لكن الحكمة تقتضي وجود العمل، فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة؛ لأنها يستند إليها كل شيء، ولا تستند هي لشيء، فلزم السكون والأدب حتى في ترك الطلب.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما دلهم الأدب على ترك الطلب» يعني: إن بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم فيترك السؤال والطلب اعتمادًا على القسمة الأزلية، وممن رأيناه متحققًا في هذا المقام العارف بالله تعالى الغارق في بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندي التركي الفطموني الجركسي فسح الله في مدته، ورزقنا دوام مودته.

واختلف القوم أي أفضل الدعاء أم السكوت أم الرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء أفضل؛ لأنه في نفسه عبادة لقوله ﷺ: **«الدعاء مخ العبادة»** والإتيان ما هو عبادة أولى من تركه، ومنهم من قال: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم وأرضى؛ لأن ما سبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك، وقد ورد في الحديث القدسي: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**.

أقول: الإغفال هو فترة العليم عن بعض ما تعلق به علمه من معلوم ما في وقت ما، وذلك محال على الحق وهو من صفات الخلق، فلا يجوز التذكير بالسؤال إلا على من جاز في حقه الإغفال والإهمال لا يلزم منه معنى الإغفال، وإنما هو مع العلم عدم إرادة العطاء إلا بالسؤال تنبيهًا، وذلك أيضًا محال على الحق لما يترتب عليه من طباع الخلق الجائز عليهم كل ذلك بأنه ينبه فيجوز في حقهم التنبيه، وما يظهر عليهم من اليقظة والكمال، فمن الله على سبيل الإفضال حسب فاقة كل واحد منهم المنبه عليها بها قال ﷺ:

**١٧٨- «ورُودُ الفاقاتِ أعيادُ المريدين».**

أقول: الفاقات فقد مواجيد الذات، ورد عواري الصفات، ومتى غابت حتى تروا ذلك إذ هي ذاتية للعالم، وبذلك الحق شهد به، وإنما ورودها انكشافها لشهودها بأعين قلوب المريدين، ومن ثم يشاهدون أعيادهم بعود تجليات رب العالمين لشهودهم بعد أن كانوا محجوبين عنها بها لما توهموه لهم منها، واستتر به عنهم، وجود فاقتهم بها، وتتجدد فاقاتهم بتردد انكشافها بعد احتجابها بما يتوهموه لهم من الأعمال الظاهرة بالحق لشهوده توهمًا يحجب عن هذه الأحوال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٧٩ - «رُبَّما وجدتَ من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة»**(١).

---

=

ومنهم من فصَّل فقال: «الأوقات مختلفة، فإنه إذا وجد الداعي في قلبه إشارة إلى الدعاء كالانبساط وتوجه القلب فالدعاء أولى، وإن وجد فيه إشارة إلى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب فالسكوت أولى، فإن لم يجد في قلبه شيئًا من ذلك كان الدعاء وتركه سِيين، نعم، إن كان الغالب حينئذ المعرفة كان السكوت أولى، ثم علل ما ذكره من كون الأدب قد يكون في ترك الطلب فقال: «إنما يذكر» بالدعاء «من يجوز عليه الإغفال» أي: السهو بأن يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل يذكره بالسؤال «وإنما ينبه» بمعنى يذكر «من يمكن منه الإهمال» أي: عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله فهو مستحيل على الله تعالى، ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبًا.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الأعياد جمع: عيد، وهو ما يعود على الناس بالأفراح والمسرة، فالعوام فرحهم ومسرتهم بالحظوظ والعوائد الجسمانية، والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم، ووجود قلوبهم وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار، والغالب أن هذه المعاني إنما توجد عند الفاقة والحيرة والاضطرار حيث ينقطع حظ النفس فيها؛ لأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت، وفي ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرتها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

أقول: وذلك أن مطلوب الحق من الخلق مطلوبان: **مطلوب عام**: وهو الأعمال التي منها الصوم والصلاة، **ومطلوب خاص**: وهو شهود الفاقات منك وبما لك من الأعمال لشهود ما قام بك ربها من تجليات الأسماء والصفات، وهذا هو مفاد المطلوب الخاص منك في القيام بالمطلوب العام، فإنك تجد به من المزيد لفنائك عنك وعنه ما لا تجده في الصلاة والصيام؛ لثبوتك معك ومعهما ما لم تكن مشاهدًا لتجليات التعريف في أنواع التكليف التي منها يكون المزيد من التحقق بالفاقة والتجريد؛ لأن المطلوب العام ملحق بالتحديد، والخاص منغلق مفاده منزه عن ذلك؛ ولذا ربما كان به المزيد، ولعموم نوره وشمول ظهوره لا يفوت به العام، وقد يفوت هو بالعام من الأقوال والأفعال والأحوال،

---

=

الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠-٤١] وهما جنتان معجلة ومؤجلة، فلأجل هذا آثرت الصوفية الفقر على الغناء، والشدة على الرخاء، والذل على العز، والمرض على الصحة لما يحصل لهم بذلك من الرقة والحلاوة، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قربًا وولاءً.

وقال أبو إسحاق الهروي ﷺ: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعًا على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على المرتفع، والذل على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. انتهى.

وقال ابن عجيبة أيضًا: إنما كان الإنسان يجد في الفاقة من المزيد ما لا يجده في الصوم والصلاة؛ لأن الفاقة من أعمال القلوب، والصوم والصلاة من أعمال الجوارح، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، الفاقات قوت الروح، والصوم والصلاة قوت القلب، والروح محل المشاهدة، والقلب محل المراقبة، وما بينهما معلوم.

قال بعضهم: اعلم أن المدد الذي هو الفتح الرباني إنما يقع في القلوب الفارغة من العوائق والشواغل، وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وباب قلبه مسدود لاشتغاله بأمور دنياه، وهم الأكثر من الناس، وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة وباب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية والتنزلات الفهمية، وهم الأقلون من الناس، وكل العبادات يدخلها الرياء إلا الخمول لكونه لاحظ للنفس فيه. انتهى.

قال في «التنوير»: اعلم أن في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أُلوا البصائر، ولم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها، وقطعها عن حظوظها لكان في ذلك غاية المطلوب منها، وقد قيل: حيثما وقعت الذلة وقعت معها النصرة، قال الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وما لا يفوت به سواه، فهو من أجل بسط مواهب الإفضال؛ ولذا قال:

**١٨٠ - «الفاقات بسط المواهب»**(١).

**أقول:** لولا بسط بساط الفاقات بين يدي مالك الهبات مقدمة نصب منابر التعرفات لخطباء حقائق التجليات، ما تمتع ذو الفاقة منها بالمتجلي في جميع الحضرات، فما دمت في الفاقات تشاهد مشاهد الجلال والجمال متمتعًا بالكمال، ومتى باينت الفاقة باينتك

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المراد بالمواهب: معارف وكشوفات وطمأنينة وحِكم وعلوم وأسرار، ترد على القلوب من خزائن الغيوب، حال صفائها، وتصفيتها من الغيرية، وأصفى ما يكون القلب حين تذهب النفس، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلا في حال الفاقة والفقر، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر، ويحزنون من الغنى، فُتح على بعضهم بشيء من الدنيا، فقال: هذه عقوبة لم أدر ما سببها.

وقال الهروي ﷺ: الفقر صفة مهجورة، وهو ألذ ما يناله العارف لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يديه، وهم أعم المقامات حكمًا لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله.

وقال السهروردي ﷺ في عوارف المعارف: الفقر أساس التصوف وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر، والزهد مع زيادة أحوال لا بدَّ منها للصوفي، وإن كان فقيرًا زاهدًا.

قال بعض الصالحين: كان لي بعض مال فرأيت فقيرًا في الحرم جالسًا منذ أيام ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أغنيه بهذا المال، فألقيته في حجره، وقلت: استعن بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لي: اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت، وأنت تفسدها عليَّ ثم انصرف وتركني ألقطها، فوالله ما رأيت أعز منه لما بددها، ولا أذل مني لما كنت ألتقطها، وهذا هو تصحيح الفقر والفاقة ظاهرًا وباطنًا، وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينًا، وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحًا مسرورًا، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله أُسوة حسنة، وإذا أصبح عندي شيء لم يكن لي برسول الله أُسوة حسنة.

قلت: وهذه حالة أشياخنا ﷺ حسبما استقرئناه من حالهم، وقد بلغني أن شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ كان يشعل الفتيلة وينظر في نواحي البيت، إذا وجد شيئًا أخرجه يتصدق به ويبيت على الفاقة، هكذا كان حاله في حال تجريده ﷺ، هذا واستشهد المؤلف ﷺ بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف، إنما هي صدقة ومنة لا جزاء على الأعمال والأحوال؛ لأن الصدقة لا تكون في مقابلة عمل، وإن الله لغني عن العالمين، ثم التحقق بالفقر مجموعه التحقق بأوصاف العبودية، وهي الذل والعجز والضعف.

هذه الأحوال، وأنت أبدًا لا تستغني عنها، وإن استترت عنك؛ فتوقع ورودها لما قال ﷺ:

١٨١- «إن أردت ورود المواهب عليك، صحح الفقرَ والفاقةَ لديك ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]».

أقول: المواهب ما يتصدق بها الواهب، وهي إما للفقراء من ذواتهم وصفاتهم فضلاً عما ينسب إليهم، وإما للمساكين المفتقرين من صفاتهم دون ذواتهم الحاصل بهما لهما على قدر تصحيح فقر كل منهما، وفاقته مما يتوهمه له، ومن ذاته وما لها من الصفات والأفعال إفناء للكل في وحدة الفعال المتفضل على العالمين بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] أي: الخاصة للفقراء، والعامة والمساكين، وبهذا التصحيح يشهد ما للحق وما للخلق في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

* «تَحَقَّقْ بأوصافِكَ يَمُدُّكَ بأوصافِه[1]، تَحَقَّقْ بذلك يَمُدُّكَ بِعِزَّتِهِ، تحققْ بعجزِكَ

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أوصاف العبودية أربعة، يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة: **أولها**: من العبد الفقر، ومن الله الغنى. **الثاني**: من العبد الذل، ومن الله العز. **الثالث**: من العبد العجز، ومن الله القدرة. الرابع: من العبد الضعف، ومن الله القوة، والتحقق بالوصف هو التحلي والاتصاف به قلبًا وقالبًا، ويكون ذلك باديًا بين خلقه، فلا يتحقق الذل لله حتى يظهر ذلك بين عباده، فمن أراد أن يمده الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والضعف والذل لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية، فما لك ولها؟ فلازم أوصافك، وتعلق بأوصافه، وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير سواك، ومن بساط الضعف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك، ومن بساط العجز الحقيقي: يا قادر من للعاجز سواك، ومن بساط الذل الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك، تجد الإجابة كأنها طوع يدك ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨] ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] ولا يصح التحقق بالوصف حتى يتعلق بأضدادها من مولاه، فلا يلتجيء في فقره ولا عجزه ولا ضعفه إلى أحد سواه.

روي أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء: ما يكون لك من حاجة فارفعها إليَّ، فقال له الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك، فما أعطاني منها رضيت به، وما منعني منها رضيت عنه، فقال له: ولا لك حاجة عندي؟ قال بلى، قال: وما هي؟ قال: لا تراني ولا نراك، فهذا هو التعلق بوصف الربوبية، والتعزز بالله لا يفنى عزه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] ومن تعزز بالله ذل له كل شيء.

وقد حج شيبان الراعي ﷺ مع سفيان الثوري ﷺ فلما كانا في البرية عرض لهما سبع، فأخذ سفيان خارج

Obeikandl.com

**يمدُّك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته».**

**أقول:** التحقق هو العلم بالتحقق به من المعلوم بما هو عليه، وهو هاهنا أوصافك الذاتية لك أيها العبد التي من لازم التحقق بها شهود إمدادك بأوصاف ربك؛ كتحققك بعدمك بك المثمر لك شهود إمداده بإيجادك المتعين به وجودك، وكتحققك بذلك في عبوديتك الذاتية التي هي قبول قدرته عليك في كل ما يريده بك، والصفاتية التي هي إجابتك لكل مطلوباته منك المثمر لك إمدادك بعزته عنده وبين عوالمه لطاعتك، وكتحققك بعجزك الذي هو عدم قدرتك على آثر ما، فإن لم تكن ثم فلا تأثير لها ولا بها، ولا معها، المثمر لك به شهود إمداده لك بقدرته التي يتأتى بها جميع مقدوراتك بطريق العادة، أو خرقها لك من مداركك، أو لمداركك من غيرك، وكتحققك بضعفك الذي هو قصور قواك على ما يمكنك من حيث ما أقدرك غير مغالط لنفسك فما ليس لك المثمر لك إمدادك بحوله اللاحق لك على حوله السابق فيك، وبقدرته كذلك، وهذه كرامات الإفضال التي لا تنال غالبًا إلا بكرامة الاستقامة ولو لم تبلغ فيها الكمال؛ ولذلك قال ﷺ:

**١٨٢ - «رُبَّمَا رُزِقَ الكرامةَ من لم تَكْمُلْ له الاستقامةُ»[١].**

---

=

الطريق ومضى إليه شيبان، ثم عرك أذنه، فلم يزد أن حرك ذنبه، وبصبص وانصرف، فقال له سفيان: ما هذا يا شيبان؟ فقال لـه: لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلت.

وحاصلها: أن العارفين ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اكتفاء بعلم الله؛ إذ لا يذكر إلا الغافل، ولا ينبه إلا الساهي، وتعالى الله عن الأمرين علوًّا كبيرًا، فإذا نـزلت بهم فاقة أو شدة لم يسالوا رفعها، بل فرحوا بها، وجعلوها مواسم وأعياد لما يجدون فيها من المزيد، وما يهب على قلوبهم من نسيم التوحيد والتغريد وهي المواهب الربانية، والعلوم اللدنية، فتحققوا بأوصافهم، وأمدهم بأوصافه، فصاروا في الظاهر عبيدًا، وفي الباطن أحرارًا، في الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء، وفي الباطن أغنياء أقوياء أعزاء، وهذه هي الكرامة العظمى، دون الكرامة الحسية.

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «ربما رزق الكرامة» أي: الأمر الخارق للعادة «من لم تكتمل له الاستقامة» فلا ينبغي للمريد أن يعتني بها ويغتر بظهورها على يده؛ لأنه حينئذ ربما كانت معونة أو استدراجًا لا كرامة، فالكرامة الحقيقية هي كمال الاستقامة ومرجعها إلى أمرين، صحة الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فالواجب على المريد ألا يحرص إلا عليها، ولا يكون له همة إلا في الوصول إليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة لها عند المحققين.

**أقول:** أساس الكرامة أعظمها وهو الاستقامة التي لا يشترط كمالها في تحصيل الصغرى منها، والاستقامة أن تحكم العلم فيك ظاهرًا وباطنًا؛ لتكون على وفق ما يقضي به جَلي الشرع وخفيه من غرائمه حسب إمكانك، والكرامة خرق العادة من النفس وللنفس، فما من النفس تبديل أوصافها الذميمة بالحميدة، وهو نوع من الاستقامة، وما لها على قسمين: قسم للخواص، وقسم للعوام، فما للخواص: فمن الاختصاص المنفذ من الخلق إلى الحق، وهذه الكبرى، وما للعوام: فمن الخرق المؤدي إلى شهود ما في الخلق من الخلق، وهذه الصغرى، وقد يحصل هذا المنال لمن لم يحصل له في الاستقامة الكمال لما هو كالنظر إلى الأعمال، أو إلى ما يترتب عليها في الحال، أو عدم الرضا بما أقامه الحق فيه من الأحوال، وإن أردت أن تعلم مراد مولاك فيما أقامك فيه؛ فاسمع ما قال ﷺ:

**١٨٣- «من علاماتِ إقامةِ الحقِّ لك في الشيء إدامتُهُ إيَّاكَ فيه مع حصولِ النتائجِ»**[1].

**أقول:** الشيء هو المقام المقيمَك فيه مولاك أيها العبد، وهو إما تجرد أو تسبب أو ظهور أو إخفاء إلى غير ذلك، وأدب العبودية سقوط الإرادة مع الربوبية خصوصًا مع علامات ثابتة، ونتائج نابتة، وهو أنك إن كنت في التجرد وأردت أن تعلم مراد الله منك فيه من إقامتك ارخ رحلك عنده، فالإدامة في الإقامة علامة مع حصول نتائجه، وهو تيسير شرائع التكليف، وبدائع التعريف، وإلا فلا، وإن كنت في التسبب فكذلك الإدامة في الإقامة علامة مع حصول نتائجه، وهو تيسير التكسب من وجه حل، وأغنى مقل، مع تعمير الأوقات بالطاعات، وترق في المعارف والمشاهدات، وإلا فلا، وإن كنت في الظهور فكذلك الإدامة في الإقامة علامة مع حصول نتائجه وهي: انتشار الفضائل، وتيسير الوسائل، وتهيؤ القوابل، وانتشاء الكوامل، وخضوع الأفاضل، وسكوت كل قائل إلى غير ذلك، وإلا فالخفاء، وإن كنت في الخفاء فكذلك الإدامة في الإقامة علامة مع حصول نتائجه وهي: دوام الصفاء، وعدم الجفاء، ووجود الوفاء بالأحوال والأقوال الموزونة لك

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «من علامة إقامة الحق» أي: الله «لك في الشيء» كالاكتساب أو التجريد، «إقامته إياك فيه» أي: تيسير أسبابه لك وإدامته عليك «مع حصول النتائج» أي: ثمرات ذلك الشيء كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب.

أو عليك بما قال ﷺ:

**١٨٤- «من عَبَّرَ من بِسَاطِ إحسانه أصمتَتْهُ الإساءةُ، ومن عَبَّرَ من بساط إحسان الله إليه لم يصمتْ إذا أساءَ»**(١).

**أقول:** المعبر إما أن يكون مع أنية نفسه، وإما أن يكون مفنيًا لها في شهود ربه بحضرات قدسه، ومن كان مع نفسه غلب عليه شهودها، واستولى عليه حكم وجودها، فهو مسيء بذلك، وإن عبر بما عبر من المعارف بلسان كل عارف أصمتته هذه الإساءة هنالك، بخلاف من غاب عن نفسه، وشهد أنوار قدسه، وعبر من بساط إحسان الله إليه، لا يصمت إذا أساء بتعبيره عن بعض أسرار الله التي لا تحتملها بعض عقول المطلعين عليها من عباد الله؛ لفنائه في الله وغيبته عما سوى الله، ومع ذلك ليس من أهل الكمال ولا من الحكماء الحاكمين بالتصرف في الأفعال لما أورده من المقال، وإن أردت أن تعرف ما نعت به الحكماء أهل الكمال؛ فاسمع ما قال ﷺ:

**١٨٥- «تسبقُ أنوارُ الحكماءِ أقوالَهم فحيثُ صارَ التنويرُ وصلَ التعبيرُ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «من عبر» أي: تكلم في علوم القوم وأفادها للمريدين «من بساط إحسانه» أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم نشأ من إحسانه؛ أي: أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذي يجلس عليه عند ورود المواهب «أصمتته الإساءة» أي: أسكتته أساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يعتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التي صدرت منه، وسبب ذلك مشاهدته إحسان نفسه «ومن عبر من بساط إحسان الله إليه» أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم ناشئ من إحسان الله إليه غالبًا عن رؤية نفسه «لم يصمت إذا أساء» أي: لم يسكت عند ذلك التعبير إذا صدرت منه معصية؛ لأن غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك، ولذا قيل: جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم» وهم العارفون بالله تعالى، العاملون به، وأنوارهم هي أنوار معرفتهم، وهي قوة يقينهم بأن الأنوار كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها، فإذا أرادوا إرشاد عباد الله ونصيحتهم بإذن من الله توجهوا إلى الله، والتجئوا إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعدادًا لقبول ما يرد عليها، فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشئ من أنوار سرائرهم يصل إلى تلك القلوب «فحيث صار» أي: حصل «التنوير» أي: النور؛ أي: استقر في قلوب عباد الله الذين يريدون إرشادهم «وصل التعبير» أي: تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم الانتفاع.

**أقول**: اعلم أن الحكماء العلماء بالله والمرضى المريدون لله، فتسبق أنوار عرفان العلماء أولاً؛ لمعرفة ما انطوت عليه القلوب من أعراض أمراض الحجب الحاجبة لهم عن المحبوب، فإذا تشخص ذلك نظروا ثانيًا إلى ما يزيله من هنالك، ثم ثالثًا إلى قبول ذلك من الصفات الحميدة؛ لتتوسع قوابلهم بها إلا ما ورائها من أحكام فنائه لبقائه في المشاهد المجيدة، ثم ينظر إلى ذلك الوسع وما يسعه من أنوار التجليات، وحقائق الأسماء والصفات، فيلقي إليه من ذلك ما يسعه إما بالحال، وإما بالتعبير، فيصل ذلك حيث صار ذلك التنوير، لكل من الحكماء والمرضى متشبهون بالمحال، يشتبه بهم صحة الحال، فاقتضى ذلك أن يذكر ما يتميز به المحق من المبطل البطال، فقال ﷺ:

١٨٦ - «**كُلُّ كلامٍ يَبْرُزُ وعليه كِسْوَةُ القلبِ الذي منه برزَ**»[1].

**أقول**: حدد لذوقك علامة تميز بها بين طريق الملامة، وطريق السلامة من كل كلام برز لفهم من قائله، ووصل مفهومه لعلمك من عالمه، فتنظر فيه ببصيرتك فتدرك فيه كسوة قلب من برز من فيه، فإن يكون من المحققين أهل الحق تجد له في ذوقك حلاوة، وفي قلبك طلاوة، وإن يكن من المبطلين أهل الفرق تجد به ظلمة وثقلاً وغمة، فكن متيقظًا لهذا الحال بما أكده به حيث قال ﷺ:

١٨٧ - «**مَنْ أُذِنَ له في التعبير فهمت في مسامعِ الخلقِ عبارتُه، وجُليتْ إليهم إشارتُه**»[2].

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «كل كلام يبرز وعليه» الواو للحال، وفي بعض النسخ إسقاطها «كسوة القلب الذي منه برز منه» فإذا كالقلب منورًا اكتسى الكلام نورًا، فلا تمجه الأسماع ولا تنكره القلوب، فكسوته هو ذلك النور، وكلام الحكماء يبرز مكسوًا بكسوة الأنوار، فتنفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم، وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة، فلا ينتفع به أتم الانتفاع، وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله، ولقد جاء في الأثر: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**».

(٢) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «من أذن له في التعبير» عن الحقائق من العارفين بالله تعالى وهي علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة، وعلامة الإذن له في ذلك تيسير التعبير عليه وسهولته وعدم احتياجه في إلقاء المعارف إلى كلفة بل يجد لسانه منطلقًا بها، ويجد عنده باعثًا إلى التعبير عنها مع السلامة من آفات النطق، وعلامة ذلك بالنسبة للسامعين ما ذكره بقوله: «فهمت في

obeikandl.com

**أقول**: الأذن خاص بالمحق دون المبطل من الله أو من خلفاء أنبيائه، وعلامته من البصير أن تفهم عبارته، وتحلو إشارته في قلوب المستمعين، والحلاوة تدرك بالذوق، والذوق ينتج الفهم، والفهم ينتج الأعمال، والأعمال تنتج الأحوال، والأحوال تنتج بالتكسب المقام، والمقام ينتج المعرفة، والمعرفة تنتج المشاهدة على بساط الفناء في الشهود أو البقاء بالمشهود، كما أن الطلاوة تثمر العشق، والعشق تثمر الحرقة، والحرقة تثمر للمحب في المحبوب محقة، بخلاف من لم يؤذن له من الرجال فضلاً عن المتلبس بالمحال، ويشهد لذلك ما قال ﷺ:

**١٨٧ - «رُبَّمَا برزتِ الحقائقُ مَكْسُوفَةَ الأنوارِ إذا لم يُؤْذَنْ لكَ فيها بالإظهار»**(١).

**أقول**: كسف أنوار الحقائق عدم قبولها في قلوب الخلائق، وذلك لتعديك في إبرازها قبل أن يؤذن لك فيه أو لإبرازها في غير محلها أو لغير أهلها أو لعدم التلبس بها.

وكل ذلك أسباب كسفها الذي فاتك به منها ظهور كسفها، وما ذاك منك يا بطال إلا ليقال، فتنبه لما قال:

**١٨٨ - «عبارتُهُمْ إمَّا لفيضانِ وَجْدٍ أو لقصدِ هدايةِ مُرِيدِ الأوَّلُ»**.

**أقول**: علامة وجدان العارف ورود واردات المعارف، وهو إما أن يكون صاحيًا مرة وسكرانا أخرى، أو صاحيًا أبدًا، أو دأبه السكر سرمدًا، ففي السكر له حكم، وفي الصحو له علم، فعبارته في السكر بحكم فيضان الوجد الفائض عن الفقد المستبدل للنسيئة بالنقد صرفاً لكل حاضر سواء الغني الشاكر، والفقير الصابر، والكذوب المتساكر، فلا يعتبر الأهلية ولا من بقى من نفسه بقية؛ لأنه سكران فلا عليه ميزان.

---

=

مسامع الخلق عبارته» فلم يفتقروا إلى معاودة وتكرار جمل الأسماع محلاً للفهم مبالغة وإلا فمحلها حقيقة القلب «وجليت» بضم الجيم وتشديد اللام؛ أي: ظهرت «إليهم إشارته» وهي ألطف من العبارة التي يستعملها أهل الطريق في الإخبار عن العلوم الباطنية والحقائق العرفانية؛ أي: فلا يحتاجون إلى إطناب بخلاف غير المأذون له في ذلك.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما برزت الحقائق» وهي العلوم العرفانية «مكسوفة الأنوار» بما غشيها من ظلمة ورؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم «إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار».

قال أبو العباس المرسي ـ قدس سره ـ: «كلام المأذون له تكسوه طلاوة، وكلام غير المأذون له يخرج مكسوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلما بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدهما وترد من الآخر».

وعبارته في الصحو بعلم عرفان الهدى لكل مريد قابل، ورشيد مقابل، فيعطيه بميزان وتحرير بأوزان خشية عليه أن يختل حاله فيطرد من بين يديه، فالسكران إن لم يكن بذلك الحال، والصاحي إن لم يقصد إفادة الكمال فليسا من الرجال؛ ولذا قال:

* «**الأوَّلُ: حالُ السالِكِين، والثاني: حالُ أربابِ المكنةِ والمحققين**»(١).

**أقول: الأول** من التعبير عما فاض عن المعبر من التنوير الخاطف لعقول السامعين حال المتلونين السالكين، **والثاني**: من التعبير عمَّا فاض من التنوير المهيئ للقوابل والموصل لكل قابل حال أرباب المكنة المتمكنين، والتحقيق من المحققين؛ لأن السالك طالب للوصال والمحقق سائر بالكمال في الاتصال؛ ليكمل من شاء بعبارته المتضمنة لإشارته من أهل الإقبال ليتغذى بها فيكون من الكيال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٨٩- «العبارات قُوتٌ لعائلةِ قلوبِ المستمعين، وليس لك منها إلا ما أنتَ له آكِلٌ»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «عباراتهم» التي يعبرون بها عن العلوم والمعارف التي يجدونها في باطنهم «إما لفيضان وجد» أي: لفيضان ما يجدونه في قلوبهم من ذلك، فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها قهرًا عنهم كالإناء الضيق إذا وضع فيه ماء كثير، فإنه يفيض منه قهرًا «أو لقصد هداية مريد» وأن كانت قلوبهم متسعة يمكنهم رد ما يستقر فيها فلا يفيض منها شيء.

«فالأول: حال السالكين» من أهل البداية، فهم معذورون في التعبير لوجود الغلبة عليهم «والثاني: حال أرباب المكنة والمتحققين» من أهل النهاية، فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد والهداية، فإن عبر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وأن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد، كان ذلك إفشاء سر لم يؤذن له فيه، وأيضًا فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق؛ لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب المفهوم.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: العائل هو الفقير والعائلة جمع له، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم، فلا يزالون في حضانة الشيوخ وعيالهم، حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم، فحينئذٍ يستقلون بأنفسهم، وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شيء، ولا ينقص من حالهم شيء، يفهمون عن الله في كل شيء، ويعرفون في كل شيء، ويشربون من كل شيء، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم، وتأهلوا لإرشاد غيرهم، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلابد أن يلزم العُش في حضانة من يرزقه ويطعمه، فإذا طار من العُش قبل تربية الجناح اصطادته الكلاب والبيزان، ولعبت به النساء والصبيان، فإذا كان في عش الشيخ، وكان يطعمه مع

**أقول:** المراد بالعبارة: ما يراد بها والمستمعون كذلك منك إما عقلك وقلبك وروحك وسرك، وإما من خصه الله من جلاسك المقتبسين من مقباسك، فإن كان الأولون هم الذين يستمعون للعبارة فلعائلتهم التي هي مداركهم مدلولها من التكليف والتعريف قوتًا كل بما يناسبه، فليس له إلا ما كان آكلاً من مفهومها، وهو المراد من العبارة لهم، وإن كان الآخرون هم الذين يستمعون للعبارة، فلعائلتهم التي هي جوارحهم الباطنة والظاهرة مدلولها من التكليف والتعريف قوتًا، فليس لكل منها إلا ما كان آكلاً من العبارة، والمعبر لكل من الأولين والآخرين إما عن استشراف على المقام، أو على ما يدل

=

غيره، فليس له من القوت إلا ما يقدر أن يأكله وإلا قتله، فليس طعام الصبي الصغير كطعام الرجل الكبير. وكذلك عبارة الشيوخ للمريدين: كل واحد يأخذ ما يليق بحاله، فالشيوخ يذكرون في الجملة، فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط، وكل واحد يأخذ ما يليق به: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠]، فلا يتعلق المبتدئ بمذاكرة المنتهي فيفسد، كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف في حلقه، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه.

وقد سألني بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية، فقلت: قوت البشرية معلوم، وقوت الروحانية على وزان قوت البشرية، فالصبي لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر، كذلك الروح تربى شيئًا فشيئًا، فتطعم أولا ذكر اللسان فقط، ثم ذكر القلب مع اللسان، ثم ذكر القلب فقط، ثم ذكر الروح وهو الفكرة، ثم ذكر السر وهو النظرة، ثم تأكل كل شيء، وتشرب من كل شيء، حتى تسرط الكون بأسره، فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذي هو طعام الرجال أول مرة، وهي في مقام الأطفال للفظته وطرحته، فإذا بلغت الروح أن تأكل كل شيء، وتشرب من كل شيء، فقد صح لها أن تطير في الملكوت الأعلى، وتذهب حيث تشاء، وقد يختلف الشرب لجماعة من آنية واحدة لاختلاف مقامهم، كقضية الرجال الذين سمعوا قائلاً يقول: يا سعتر بري، وذلك أن رجلاً في الصفا بمكة صاح يا سعترًا بري لرجل آخر كان اسمه ذلك فسمعه الثلاثة، فكل واحد تعلق بذهنه ما يليق بحاله، فسمع أحدهم الساعة ترى بري، وسمع الآخر: اسع ترى بري، وسمع الثالث: ما أوسع بري، فالأول كان مستشرفًا، والثاني مبتدئًا، والثالث كان واصلاً.

قال في «لطائف المنن»: واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه، بل هو فهم زائد على الفهم العام، يهبه الله لهذه الطائفة من أرباب القلوب، وهو من باطن الحكم المندرج في ظاهره اندراج النبات في الحبة، وذلك أن المدد النوراني والفتح الرباني يتصل بعضه ببعض إلى الطرف الظاهر، فحيث انتهت القوة انتهى الإدراك، فربما فهموا ما يوافق ظاهر المعنى الباطنية، وربما خالفه من جهة ما، وربما كان الفهم بعكس ظاهره.

عليه من المقال، وإما عن وصال؛ ولذا قال ﷺ:

**١٩٠- «رُبَّما عَبَّرَ عن المقام مَنِ استشرفُ عليه، ورُبَّما عبَّرَ عنه مَنْ وصلَ إليه، وذلكَ مُلْتَبِسٌ إلا على صاحبِ بصيرة»**[1].

**أقول**: لما كانت العلوم المعَّبر عنها بالعبارات نجوم سماوات الصفات الدالة على الموصوف بها التي لا يمكن الوصول إلى مقام شهوده المعَّبر عنه بها إلا بمعراج السلوك على بُراق الأعمال، وبصحبة جبريل الشيخ الموصل إليه بها، فيعبر عنه مع نقود وصال وشهود، وقد يعبر بمثلها سالك إليه مستشرف عليه، أو بالمطالعة للعبارة من سماوات الطروس، وهو لم يتزحزح عن أرض النفوس في ظلم ليل طبعه وحسه محبوس خامد البصيرة، وذلك ملتبس التباسًا يفضي إلى الغلط أو الحيرة إلا على صاحب بصيرة التي هي عين القلب عندما ينكشف حجابه، فيشاهد بها بواطن الأمور كما يشاهد بعين الرأس ظواهرها، فيخلص بها من الحيرة في المعبرين عن المقام، فيفرق بها بين السالكين والمستشرفين، وأرباب الوصال الذين يعتبر ذلك منهم، ولا يخشى عليهم في التعبير عن مواجيدهم دون السالك بما قال ﷺ:

**١٩١- «لا يَنبَغي للسَالِكِ أن يَعبِّرَ عَنْ وَارداتِهِ، فإنَّ ذَلِكَ يُقل عَمَلَها في قَلبِهِ، ويَمنَعَهُ وجُودَ الصِّدقِ مع رَبِّهِ»**[2].

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «ربما عبر عن المقام» أي: عن أي مقام من مقامات اليقين كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التوكل إلى غير ذلك «من استشرف عليه» أي: اطلع عليه وقارب الوصول إليه، ولم يظفر به ولم يتحقق فيهن «وربما عبر عنه من وصل إليه» وتحقق فيه «وذلك» أي: ما ذكر من الحالين «يلتبس» أي: يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا، «إلا على صاحب بصيرة» فإنه لا يخفى عليه، فإنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنية وما هي عليه من كلام ونقص.

وعلامة الأول أن يجد الفرح والاستبشار عند التعبير واستعظام الأمر واستحسانه لكونه في مبادئه، وقريب عهد بغيره بخلاف الثاني، فإنه يتكلم فيه كعادته في كلامه بغيره، وربما عبر عن المقام في نقله من كتاب، وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم وحفظه لعباراتهم، وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن، وعلامة التي يتبين حاله أن يبحث معه على مقتضي قواعد فنون العلم، فإن صار يتكلف الأجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس والأنفة من العجز فهو مدع كذاب.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته» أي: ما يمنحه الله له من العلوم

obeikandi.com

**أقول:** من آفات التعبير الموجب لعدم تأثير الواردات في القلوب التكثير، والدعوى، وإظهار الخصوصية بالتنوير، والتميز في نفسك على من لم يعُبر من كبير أو صغير، وإن لم يكن منك تعبير فبذلك صرت مرائيًا لهم من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون بما عبرت، وبه في العبودية خرجت، وإلى الكذب فيها عبرت، بخلاف أهل الوصال؛ لبلوغهم رتبة الكمال لا يشهدون لأنفسهم ولا للخلق شيئًا من الأقوال والأفعال مع التقييد برتب الامتثال التي منها ما أشار إليه حيث قال ﷺ:

**١٩٢ - «لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إلى الأخذِ من الخلائقِ إلا أنْ ترى أنَّ المُعْطِي فيهم مَوْلاكَ، فإذا كُنْتَ كذلك فخذْ ما وافقَ العلم»**(١).

---

=

الوهابية والأسرار التوحيدية، فلا ينبغي له أن يعبر عنها اختيارًا منه، بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدًا إلا شيخًا مرشدًا له «فإن ذلك يقل عملها في قلبه» أي: فلا يحصل له كمال الانتفاع بها، وهو تمكنها في القلب وتأثره بها «ويمنعه وجود الصدق مع ربه» إذ لا يخلو التعبير عنها لذة وانشراحًا، وذلك يقوي صفاتها، وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربه.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين: إما أن يكون من غير سؤال أو بعد السؤال، ولكل واحد منها أحكام، أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران: أحدهما: علمي، والآخر: صوفي.

أما العلمي: فلا يأخذ ممن كسبه حرام ولا مخلط، ولا محجور عليه كالصبي والمجنون والعبد، وأما الصوفي، فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علمًا وحالاً، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلاً فربما يسلم له القبض مطلقًا؛ لأنه يقبض من الله، ويدفع بالله، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان، ثم يدفعونها على أيديهم.

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين: الأول: في جواز السؤال ومنعه، والثاني: فيما يقبضه بعد أخذه، أما حكم السؤال فأصله الجواز، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠] فلو كان ممنوعًا ما نهى الله عن نهره، ثم تعتريه الأقسام الخمسة: يكون واجبًا، ومندوبًا، ومباحًا، ومكروهًا، وحرامًا.

**فأما الواجب:** فهو ما يكون لسد الرمق، بحيث إذا ترك السؤال مات، فهذا واجب عليه، فلو تركه حتى مات مات عاصيًا، فأجبه الشارع خوفًا على فوات حياة البشرية الحسية، وأوجبته الصوفية أيضًا على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعته الرئاسة من حظ رأسه وذبح نفسه، فقد نقل القسطلاني في «شرح البخاري» عن ابن العربي المعافري أنه قال: هو واجب على المريد في البداية.

=

كان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك. **أما المندوب**: هو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحي،أو يسأل اللباس أو غير ذلك، وقد سأل النبي ﷺ لأصحابه حين قدموا عليه عراة، ويدخل في المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم. **وأما المكروه**: هو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه بسبب من الأسباب، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرد إلى الذكر، وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به، وقد فعله كثير من العارفين المحققين.

فقد كان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد يسأل بابًا أو بابين أو ثلاثًا بين العشاءين، فكانت العامة تتعجب منه أولاً ثم عرف بذلك، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره، وعلو معرفته بربه، وكان سفيان الثوري ﷺيسأل الطعام لله، فإن فتح بكثير أخذ كفايته وترك الآخر، وأكثر الرجال على هذه الحال قطعوا الدنيا الفانية لتأثيرهم الأخرى الباقية، وكل ذلك لا يقدح في شريعة ولا حقيقة، ولا يطفئ نور المعرفة.

**وأما المباح**: فهو أن يسأل الحاجة الغير ضرورية كسؤاله لقضاء دَينه، أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه، أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه حاجيّ: أي محتاج إليه، **وأما المحرم**: فهو أن يسأل تكثرًا أو زيادة على ما يكفيه، وفي الحديث: «**من له أَرْبَعُون دِرهمًا فالسؤالُ عليه حرامٌ**» وفيه ورد الحديث: «**إنَّه يُبْعَثُ يوم القيامة، وليس في وجهِهِ مُزْعَةُ لحم**» ومن المحرم أيضًا ما فيه إلحاح وإضرار بالمسئول، قال تعالى: ﴿**لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ [البقرة:٢٧٣].

وسبب دخول السؤال في هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني ﷺ كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس، فلما دخل في يد الشيخ ورأى صدقه وجده قال له: أرى لك خرقة لم يقدر عليها أحد قبلك، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها، قال: وما هي يا سيدي؟ فقال: السوق للسؤال، هكذا سمعته من بعض الإخوان.

والذي رأيته في كتابه أنه قال له: يا ولدي أراك تطلب هذا العلم ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل. فما خرج فيه وسكن إلى مماته، فلما ذاق سره ورأى ما فيه من الأسرار، وما يقطع به المريد في مسيرة من المفاوز والقفار سير أصحابه عليه، ودلهم على استعماله، فكان أصل مشروعيته قتل النفوس. لا قبض الفلوس، فمن استعمله لقتل النفوس، ولج حضرة القدوس، إذ ما حجبنا عنها إلا حياة النفوس، ومن استعمله لقبض الفلوس نال الشقاء والبؤس، وينبغي أن يكون في حال السؤال يليه مشيرًا بيد... الخلق وقلبه معلق بالحق، وكان شيخ شيخنا ﷺ يقول: كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح، فإن خرج منه قوت الأشباح تبارك الله، يعني فيأخذه من اضطر إليه، وبالله التوفيق.

وهذه الحكمة التي ذكرها الشيخ هي من أعظم المهمات التي يحتاج إليها أهل التجريد، وليس مقصوده الكلام على السؤال، إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين، وعدم التشوف إلى المخلوقين،

**أقول**: اعلم أن مناولات كل الجوارح الباطنة والظاهرة مظاهر قدرته المتظاهرة بجميع صفاته على وفق علمه بإرادته، فمن شاهد لا يشهد منها إلا ظواهرها، فهو محتجب بها عن القدرة وبمظهرها فيها، ومن شاهد غاب عن المظاهر بما ظهر من ظهور القدرة فيها، وما تظهر به القدرة من تجليه تعريفًا لك فيها؛ لتشهد المتجلي ظاهرًا به لشهوده من كل ذلك، ومن ذلك إليه.

فلا تمدن يدك به إلى الأخذ من مظاهره إلا أن ترى أن مولاك تجلى لك به فيها باسمه المعطي، فإن كنت كذلك فأنت غارق في بحر ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ**﴾ [القصص:٨٨] وإن أردت النجاة به فخذ منه به ما وافق علمه الشرعي المتجلي به في حضرة الكمال الجامعة مع المحو ثبوت حقوق ذي الجلال التي منها الاكتفاء بما سبق في علمه على السؤال؛ ولذا قال ﷺ:

---

=

فلا يعلق قلبه بالمخلوق، فإن تشوف إليه فينبغي ألا يقبض ما يعطاه، ولا يمد يده إلى الأخذ منه، حتى يرى أن المعطي هو الله، ويكون ذلك ذوقًا وحالاً.

قيل لبعضهم: كيف خرجت من الدنيا بعد أن كانت في يدك؟ قال: نظرت منصفًا لنفسي في معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**﴾ فرأيت جميع الخلق من البعوضة إلى الفِيل تكفّل الله لهم بالرزق، ففوضت أمري إليه واشتغلت بالعبادة.

وقال عيسى عليه السلام: لا تهتموا بالرزق، فإن الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها الحديث، وقال أيضًا عليه السلام: «**عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل**». وقال ﷺ: «**مَن كانَ همُّه الآخرةَ جعلَ الله غِنَاهُ في قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كان همه الدنيا جعل الله فَقْرَهُ بين عينيْهِ، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، وإنَّ الرزقَ ليطلبُ العبدَ كما يطلبُهُ**».

وكان حبيب العجمي يخدم الحسن البصري فصنع حبيبٌ طعامًا لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه، فقال الحسن: يا حبيب إنك كثير اليقين، قليل العلم، فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف؟ فقال: يا سيدي ثوابه لك، وأنا أستغفر الله، فلما جنّ الليل وإذا بقارع على الباب، فخرج حبيب فوجد عبدًا معه طعام كثير والشتاء ينزل، والغلام يبكي، فقال له: ما هذا؟ قال: طعام، قال لي سيدي: إن قبله منك الحسن البصري، فأنت حر لوجه الله، وقد طال علي الرق، فقال حبيب: لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام جائع، ثم دخل به على الحسن، وقال: يا سيدي إنك كثير العلم قليل اليقين، فقال: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا. انتهى.

**١٩٣- «رُبَّمَا استحيى العارفُ أنْ يرفعَ حاجتَهُ إلى مولاه لاكتفائه بمشيئتِهِ، فكيفَ لا يستحيي أنْ يرفعَهَا إلى خليقَتِهِ؟»**(١).

**أقول**: من معارف العارف معرفة استناد الأشياء كلها إلى مشيئة مولاه التي لا شيء من مشاءاتها إلا من متعلقات العلم، وعلى وفقه الذي لا يتبدل ولا يتقدم ما فيه ولا يتأخر، ولذلك ربما استحيى أن يرفع إليه حاجة له أو لغيره اكتفاء بذلك، وربما يرفعها إليه رفعًا على سبيل العبودية، وإظهار الافتقار للربوبية إلا لينال مناله بالسؤال قطعًا، فكيف لا يستحيي منه وهو معه أن يرفعها إلى خليقته الفقراء إليه وصفًا، وليس يتوقع منهم ضرًا ولا نفعًا؛ لعدمهم، ولعدم وجود شيء بهم أو منهم، وعدم علمهم بالحق من غيره فيما يروه عليهم من الأمور والأحوال لالتباسها الموجب ما قال ﷺ:

**١٩٤- «إذا التبسَ عليك أمرانِ فانظرْ أثقلَهُمَا على النفسِ فاتَّبِعْهُ، فإنَّه لا يَثْقُلُ عليها إلا ما كان حقًّا»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «ربما استحى العارف» المحقق «أن يرفع حاجته إلى مولاه» فلا يطلب منه شيئًا «لاكتفائه بمشيئته» أي: بما تعلقت به مشيئته من إعطاء أو منع أو ضر أو نفع.

قال الشاذلي ـ قدس سره ـ لما سُئل عن الكيمياء قال: «أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك»، «فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته» فلا يسألون منهم ولا يرفعون إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد فرفع الهمة عن الخلق وعدم التعرض لهم مما يحتاجه سالكو هذه الطرق، فإن من خلع عليه خلعة الملك وحفظها وصانها فحري أن تدام له، ولا تسلب عنه، والمدنس لخلع المواهب حري ألا تترك له.

فلا تدنس إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين واتبع ملة إبراهيم في رفع إلهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل، وقال له: **ألك حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى» فقال له: سل الله، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي»**(١).

وخرج بالعارف باقي الفقراء وهم أقسام ثلاثة، منهم من صبر فإذا احتاج سأل الناس وقبل منهم مع كونه لا يرى أن المعطي فيهم إلا مولاه، ومنهم من لا يسأل وإذا أعطي قبل على الوجه المذكور، ومنهم من لا يسأل وإذا أعطي لا يقبل.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «إذا التبس عليك» أيها المريد «أمران» واجبان أو مندوبان فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به كطلب ما لا بدَّ منه من العلم وسعي على العيال، وكطلب علم زائد على ما لا بدَّ منه، واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل والصلاة على النبي ﷺ: «فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه،

**أقول**: عروض الأمور الدينية غالبًا يلتبس ما كان منها حق بما هو حظ؛ لظهور جميعها على مناطات الجهالات المرضية، ويدفع هذا الالتباس علامة تكون لك أبدًا كالأساس والمقياس، وهو **إن عرض لك أمران متشابهان في الدين فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه الحق بلا لبس**، وإن تساويا في الثقل فحقان، وإن خفا فخطآن، فإن علامة الحق الاستثقال، وعلامة الاستثقال التكاسل عن الأعمال، وهذا في غير الكُمَّل من الرجال، فانهض لما يثقل منها خصوصًا إن كان واجبًا لما قال ﷺ:

**١٩٥ - «مِنْ عَلامَاتِ اتِّباعِ الهَوى المُسَارَعةُ إلى نَوافلِ الخَيرَاتِ، والتَّكَاسُلُ عَنِ القيامِ بالواجباتِ»**(١).

**أقول**: من بعض العلامات الدالة على اتباع الهوى التكاسل عن الواجبات؛ لاشتداد

=

فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًّا» أي: أولى؛ لأنها مجبولة على الجهل، فشأنها أبدًا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فإذا وجد المريد من نفسه خفة، وميلاً عند بعض الأعمال دون بعض، اتهمها وترك ما خفت عليها ومالت إليه وعمل بما استثقله، فإن عمل بالأخف كان ذلك معدودًا عندهم من نفاق القلب، هذا إن لم تصر نفسه مطمئنة، فإن صارت كذلك عمل بما خف عليها ومالت إليه. يقول السياجي غفر الله له: «المقصود بالعلم الذي لابدَّ منه هو العلم الضروري لمعرفة الله وفرائضه وحدود، التي أمر بها وشرعها على لسان نبيه ﷺ».

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذا ميزان آخر وإن شئت قلت: هو داخل في الميزان الأول؛ إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه، إذ جُلُّ الناس يفعلونه، فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها، وهي أبدًا تحب الخصوصية بخلاف النوافل، فإنها تبطش إليها وتحب أن تنفرد بها، إما لطلب المدح والثناء، وإما لطلب الأجور من القصور والحور، وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية، فالمسارعة إلى نوافل الخيرات وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض الواجبات من علامة الهوى، فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب، ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة، والنافلة الكبرى عندنا: هي الاستغراق في مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة، أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر، ومن رفض الدنيا بحذافيرها، وغاب عن نفسه وجنسه فقد جمع الفرائض والنوافل كلها ولو بات نائمًا وظل مفطرًا.

وفي بعض أخبار سيدنا داود ﵇ قال: يا رب أين أجدك؟ فقال له: اترك نفسك وتعال: أي غب عنها تجدني أقرب إليك منها.

أبواب الهوى في المحقق من عموم حُكمها، فلم ترَ النفس ما تمتاز به عن مثلها ولكونها محكومًا عليها من غيرها بها فتستقلها لحقيتها بتكلفها، ولكونها لم تشهد نسبة الكرامات للقاصر عليها إلى غير ذلك.

والمسارعة إلى نوافل الخيرات لفتح باب المتابعة للهوى فيها المحقق من خصوص حكمها، فتشهد النفس ما تمتاز به على مثلها ولكونها غير محكوم عليها بها جزمًا، وإنما هي اختارتها فتستحقها، ولما اشتهر للخواص من الخوارق بها إلى غير ذلك، وكل ذلك للجهال من العالمين في عبادة رب العالمين، فنتائج نوافل الخيرات إنما هي بالقيام بالواجبات، فإن المقتصر على الواجبات من الناجين، والتارك لها بالنوافل من الهالكين، فأين ما توعد على تركه بالعذاب، وما لم يقابل على تركه بالعتاب: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] فتنبه للقيام بحقوق ذي الجلال على بصيرة في أوقاتها المتعينة بها قال ﷺ:

**١٩٦ - «قَيِّدَ الطاعاتِ بأعيانِ الأوقاتِ كي لا يَمْنَعَكَ عنها وجودُ التسويفِ، ووسع عليك الوقتَ كي يبقى لك حِصَّةُ الاختيارِ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من شأن النفس تسويف العمل وتطويل الأمل، فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران، أو شبكة الطمع بنعيم الجنان، أوعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم، ووعد من أطاعه وتقرب إليه بالنعيم المقيم، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام والفرائض وعين لها أوقاتًا مخصوصة؛ إذ لو ترك ذلك لاختيار عباده ما أقبل عليه بها إلا القليل من أهل محبته ووداده، ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم في تلك الأوقات، فبقي لهم في ذلك ضرب من الاختيار، فوسع الظهر مثلاً إلى العصر، والعصر إلى الاصفرار، والمغرب إلى العشاء، والعشاء إلى نصف الليل، والصبح إلى قرب الطلوع، فقد قيد لك أيها العبد الطاعات التي أوجبها عليك بأعيان الأوقات؛ لئلا يمنعك التسويف من فعلها، فيؤدي ذلك بك إلى تركها، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة؛ أي: ضربًا ونصيبًا من الاختيار؛ إذ لو ضيق عليك الوقت لكان ذلك في غاية الحرج والاضطرار، فالحمد لله على منته وسعة رحمته. وقد قيل: إن الله سبحانه يقول لعبده: ألم أخرجك من العدم إلى الوجود؟ وأمدك بأمداد الفضل والجود؟ جعلت لك نورًا في بصرك لتدرك به أدلة قدرتي وعظيم آياتي؟ وجعلت لك نورًا في بصيرتك لتفهم به خطابي، وتتقي بالطاعة عقابي وترجو ثوابي؟ فوعدتك الثواب على الطاعة، وأوعدتك العقاب على المخالفة، ثم كلفتك من العمل ما تطيق، ووسعت عليك في الأوقات كل ضيق، فلو أنك قضيت ما

أقول: الطاعات منها: ما هو مطلق لا يتقيد بوقت ولا بسبب، وإنما بمجرد وصول علمه وجب كالذكر والمراقبة والحضور في مراتب المشاهدة.

ومنها: ما هو مقيد بالسبب لا بالوقت كالصبر عند القضاء والرضا، والعفو عن من سطى فيما يأتي منه وما مضى، وكالجود بالعطاء للسائلين وغيرهم مما استحب أو فرض.

ومنها: ما هو مقيد بالوقت وهو المراد كتقييد كل صلاة بوقتها، وصيام بوقته، وزكاة بوقتها إلى غير ذلك من أعيان أوقات نوافلها، وإنما قيدها كي لا يمنعك وجود التسويف فتخرجها عنها، ووسع عليك كل وقت منها بما هو معلوم شرعًا كي يبقى لك حصة الاختيار بالإتيان بها فيها لا خارجة عنه، وهو إما في أوله لرضوانه، أو وسطه لرحمته، أو آخره لعفوه ومغفرته، أو فيما بين ذلك؛ ليظهر نهوضك بها من عدمه في تأخيرك لها فيه، وكل ذلك لما علمه فيك من التكاسل والإهمال الموجبتين لما قال ﷺ:

**١٩٧- «عَلِمَ قلةَ نهوضِ العبادِ إلى معاملته فأوجبَ عليهم وجودَ طاعتِهِ، فساقَهم إليه بسلاسلِ الإيجابِ، عَجِبَ ربُّكَ من قومٍ يُسَاقُون إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ»**[(١)].

---

=

أوجبت عليك في أول عمرك في آخره لقبلته منك، فمن ذا الذي منعك من الامتثال، ولم يكن بك عذر غير الغواية والضلال؟» انتهى.

وكان الربيع بن خيثم يردد هذه الآية ويبكي، وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:٢١] وكان يصيح: ليت شعري من أي الفريقين أنت يا نفسي؟ وهذه الآية تسمى مبكية العابدين.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «علم قلة نهوض العباد إلى معاملته» أي: الإقبال عليه بطاعته والقيام بحقوق ربوبيته طوعًا منهم لما هم عليه من وجود الضعف، ولما في نفوسهم من وجود الكسل، «فأوجب عليهم وجود طاعته»، ألزمهم بذلك قهرًا عنهم وخوفهم بدخول النار أن لم يفعلوها، «فساقهم إليه» بذلك أي: الإقبال عليه بطاعته، وفي نسخة إليها أي: إلى طاعته «بسلاسل الإيجاب» أي: الإيجاب الشبيه بالسلاسل اللاتي توضع في عنق الأسير يجره بها قهرًا من أسره إلى الموضع الذي يريده، وكذلك الإيجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التي يحصل لهم بها ما يسرهم في المستقبل، وإن كانت شاقة عليهم في الحال، فهو يفعل بهم كما يفعل الولي بالصبي ألا تراه كيف يؤدبه ويضربه على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزمه أمورًا شاقة عليه فيفعلها، وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه في المستقبل الذي هو جاهل بها الآن فإذا كبر وعرف وعقل عرف ذلك عيانًا، «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل»، كما يفعل بأسرى الكفار حين يراد منهم

**أقول:** علم سبحانه ما خلقه في عباده من قلة النهوض في القيام بالمسنون والمفروض فأوجب عليهم ما أوجب وجوبًا موعودًا على تخلفهم عنه بوقوع الوعيد إن شاء، وإن لم يتخلفوا حصل الموعود به من الوعد إن شاء.

فما أوجبه عليهم من الأعمال إنما هي سلاسل إيجاب ساقهم بها إليه في حضرة رفع الحجاب، عجب ربك من قوم يساقون إلى جنة شهوده بسلاسل إيجاب حدوده الظاهرة والباطنة بالامتثال لإيجابه؛ ولذا قال ﷺ:

**١٩٨ - «أوجبَ عليك وجودَ طاعته، وما أوجبَ عليك إلا دخولَ جنته»**(١).

**أقول:** لأن وجوب وجود خدمته ليس لذاتها، وإنما لدخول جنته، كما أن دخول الجنة ليس لذاتها وإنما هو لشهود حضرته، وذلك نهاية الإفضال الذي بدايته بعد الإيجاد والإسلام والإمداد ما لا يستغرب وقوعه مما قال ﷺ:

**١٩٩ - «منِ استغربَ أن يُنقذَه الله من شهوته، وأن يُخرجَه من وجودِ غفلته، فقد استعجزَ القدرةَ الإلهية ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥]»**(٢).

=

الدخول في الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم، وهذا معنى حديث رسول الله ﷺ في أسارى بدر، ولفظه: «عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «أوجب عليك وجود خدمته» في الظاهر «وما أوجب» في الحقيقة، ونفس الأمر «إلا دخول جنته» لأنه تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، وإنما أوجب الأعمال عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم وهو دخول الجنة ليحصل له شرف بذلك، وهذا تصريح بما علم مما قبله؛ لأن حاصله أنه تعالى إنما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم إليها فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، وسوقهم إليها بذلك إنما هو لأمر يرجع إليهم وهو دخول الجنة بدليل الحديث، وهو «عجب ربك...إلخ» فيئول المعنى إلى أن سوقهم إلى طاعته وهو إيجابها عليهم سوق إلى الجنة فلم يوجب عليهم إلا دخولها.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «من استغرب أن ينقذه الله من شهواته» التي استرقته «وأن يخرجه من وجود غفلته» التي استولت عليه أي: من استحكمت فيه الشهوة والغفلة واستغرب أن يخرجه الله من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية أي: منسوبة إلى الله، وفي بعض النسخ: «قدرة الله» أي: نسبها إلى العجز «﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾» أي: مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شيء وإخراجه من ذلك جملة الأشياء؛ فينبغي له أن يقصد باب مولاه بالذلة والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه.

**أقول:** من شأنه أن يعدم الموجودات بقدرته بعد أن أوجدها من العدم، كيف يستغرب أن ينقذ موجودًا منها مما سطى عليه من جنح ليله الشهوات والظلم، وأن يخرجه إلى قوة نور اليقظة لطاعته ولشهوده من وجود الغفلة عنه والسقم، ومن توهم ذلك فقد استعجز القدرة الإلهية الموجدة المعدمة لكل ممكن عن بعض ممكناتها التي لا وجود لها إلا بها التي منها ما أشار إليه في هذه الحكمة، وأين هذا ممن ثبت نوره في ألواح اليقين مستطرًا من قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥] وحكمة هذا الحجاب من سرعة هذا الخطاب شهود شمس الوصال تمد سحب الظلال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٠٠- «رُبَّمَا وردتِ الظُّلَمُ عليك؛ لِيُعَرِّفَكَ قدرَ ما منّ به عليك»**(١).

**أقول:** ربما علق الحق في أزله معرفتك ما مَنَّ به من النعم على وجود أحكام الظلم، كمعرفة الأوصاف الحميدة القلبية بظلم الشهوات النفسانية، واليقظات الروحانية بظلم الغفلات العادية، وأنوار التعرفات الإلهية بظلم الأغيار الكونية إلى غير ذلك؛ لتكون من كشف وحجاب وإسفار محيّا ونقاب، وفي هذا التلوين تمكين ونافلة وصال إن انتهيت في معرفتك به إلى الكمال، وإلا فأنت على ما أنت عليه، ولك منه ما قال ﷺ:

**٢٠١- «مَنْ لم يعرفْ قدرَ النعمِ بوجدانها، عَرَفَهَا بوجودِ فقْدَانِهَا»**(٢).

**أقول:** المراد بالنعم كل ما أنعم به ومنها ما تقدم بيانه، وهي تارة تعرف بعينها

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما وردت الظلم» أي: الشهوات والمعاصي والغفلات «عليك ليعرفك» حال ورودها «قدر ما من الله به عليك» أي: ما كان قد من الله به عليك سابقًا من الأنوار والإقبال على مولاك فتحمده عليها، وإذا رجت إلى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر، فقد صارت النقمة نعمة، وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك من الإعجاب بطاعتك فيوردها عليك لتعرف قدرك ولا تتعدى طورك فلا تتكبر ولا ترى نفسك على أبناء جنسك، وهذه نعمة أيضًا، وقد ترد عليك عقوبة وامتحانًا، وعلامة ذلك أنك كلما خرجت من معصية وقعت في أخرى، وهكذا ولا توفق للتوبة، ولا تعتقد التقصير من نفسك.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها» هذا تعليل لما قبله كأنه قال: إنما كان ورود الظلم معرفًا بقدر النعم؛ لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض؛ فإنما يعرف قدر نعمة البصر مثلاً من ابتلي بالعمى، وقد قيل: إنما يعرف قدر الماء من ابتلي بالعطش بالبادية لا من كان على شاطئ الأنهار والأودية».

للعاقل لها، وتارة تعرف بسلبها للغافل عنها، فمعرفة العاقل لها بها شكر لمنعمها يقتضي دوامها، والزيادة منها، ومعرفة الغافل عنها بسلبها شكر لمنعمها قد يقتضي عودها وإلا يكفيه عند المنعم معرفتها فإنها شكر، والشكر نعمة، فالنعمة منال، وفقدها المعرف بها شكر، والشكر إفضال والإفضال شكر، وقد نبه عليه بما قال ﷺ:

**٢٠٢- «لا تُدْهِشُكَ وارداتُ النعمِ عنِ القيامِ بحقوقِ شُكرِك، فإنَّ ذلك مما يَحُطُّ من وجودِ قدرِكَ»**(١).

**أقول**: الدهشة لك بالشيء الذهول به عما سواه، ولو كان المورد له؛ أي: المنعم به فإن كان ذلك عنه وعن مرضياته فذلك مما يحط وجود قدرك عنده وإن كان عما سواه وعن ما سوى مطلوباته، فهو قيام بحقوق شكرك له ورفع لقدرك عنده في حضرات قدسه التي لا يصل إليها الطالب إلا من باب تطهير نفسه مما هو منطبع في مرآة قلبه، وما هو متعاقب عليه من الأخلاق الذميمة والأفعال المشار إليها بما قال ﷺ:

**٢٠٣- «تَمَكُّنُ حلاوةِ الهوى من القلبِ هو الدَّاءُ العُضَالُ»**(٢).

**أقول**: التمكن هو الانطباع المتين للمنطبع من الالتذاذ بالشهوة المحرمة، والمباحة في الدين وهو داء لا دواء له أو بعيد دواؤه في العادة المقتصر صحة تخلفها بالنسبة إلى الحق،

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا تدهشك واردات النعم» أي: النعم الواردة أي: المترادفة عليك «عن القيام بحقوق شكرك» أي: شكر المولى عليها بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر، «فإن ذلكم مما يحط من وجود قدرك» أي: أن الله تعالى قد رفع قدرك، وجعل القليل من منك كثيرًا. قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] فلا تبخس نفسك حقها، وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم، وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها لاستقلالها في نظرك، فالحامل على ترك الشكر على النعمة أحد الأمرين وكل منهما مذموم، ومن شكر اللسان ذكر الله، ومنه الباقيات الصالحات التي تذكر عقب الصلوات.

يقول السياجي غفر الله له: الأمران هما: بخس النفس عن أن تشكر، أو بخس النعمة عن أن تشكر. وكلاهما مذموم. انتهى.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: حلاوة الهوى على قسمين: هوى النفس، وهوى القلب؛ **فهوى النفس**: يرجع لشهواتها الجسمانية: كحلاوة المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، والمناكح والمساكن. **وهوى القلب**: هو شهواته المعنوية؛ كحب الجاه والرياسة، والعز والمدح، والخصوصية والكرامات، وحلاوة الطاعات الحسية، كمقام العباد والزهاد، وحلاوة علم الحروف والرسوم.

وسبب تمكنه تكرار تخيلها وتصورها في القلب بالإفراط في الولوع الذي إما لا يتعداه أو يتعداه إلى الوقوع، وعلى كل الحالين هو صدأ لمرآة القلوب صاد لها عن مشاهدة تجليات المحبوب، وإذا أراد الله جلاء القلب منه بالاضمحلال توجهت الإرادة الربانية إليه بما قال رضي الله عنه:

**٢٠٤- «لا يُخْرِجُ الشهوةَ من القلب إلا خوفٌ مُزْعِجٌ، أو شوقٌ مُقْلِقٌ»(١).**

**أقول:** الخوف سوط يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية، والمزعج منه هو الماحي

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الشهوة إذا تمكنت من القلب صعب علاجها، فلا يمكن خروجها في العادة، إلا بوارد قهري جلالي أو جمالي؛ فالوارد الجلالي: هو خوف مزعج، فيزعجك عن شهوتك، ويخرجك عن وطنك وأهلك، والوارد الجمالي: هو شوق مقلق فيقلقك عن مراداتك وحظوظك، فيذيك نفسك، ويؤنسك بربك، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجابًا عن الله العلماء، ثم العباد، ثم الزهاد؛ لأن هذه الشهوة خفية، لأن صاحبها أضله الله على علم الآية: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] أي: أضلهم عن طريق الخصوص، وبقوا في طريق العموم.

أما العلماء الظاهريون: فهم يعتقدون أنه لا فضيلة فوق علمهم، حتى أني سمعت من بعضهم يقول: إن مقام الإحسان هو مقامهم الذي هم فيه من العمل بظاهر الكتاب والسنة، ولا مقام فوق ذلك، فكيف يمكن إخراج هذا إلا بعناية سابقة؟!.

وأما العباد والزهاد: فهم يقولون أيضًا: هذه غاية المحبة والطاعة، ويزيدهم بعدًا ما يرونه من الكرامات الحسية، فيزدادون حجابًا وتمكنًا في حالهم. وأما العوام وأهل الغفلة: فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ» أي: المغفلون، ومما يدلك على أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته في بطنه فتداركه الله بعنايته، والشيطان كان شهوته في قلبه ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:٧٦] فطرد إلى يوم القيامة.

ثم اعلم أن الخوف على قسمين: خوف العوام، وخوف الخواص، خوف العوام من العقاب والعذاب، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب، والشوق أيضًا على قسمين: شوق العوام للحور والقصور، وشوق الخواص للشهود والحضور، شوق العوام لنعيم الأشباح، وشوق الخواص لنعيم الأرواح، شوق العوام ناشئ عن قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢] وشوق الخواص ناشئ عن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢] جعلنا الله من أعظمهم قدرًا وأكملهم محلاً وفضلاً آمين بمنه وكرمه.

لحروف صور الالتذاذ بها من لوح القلب فيخلو لشهود الرب، والشوق هو الباعث على طلب الوصال والمزحزح عن الاستقرار، والمقلق منه ما ليس معه اصطبار لمحة عن لمحات الجلال والجمال؛ لتوحد المتجلي المشهود بذلك في مرايا القلوب بلا اشتراك؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٠٥- «كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقْبِلُ عليه»**(١).

**أقول**: الاشتراك مع الحق في الأعمال الموجب عدم حب الله لها ثلاثة أجناس، كل جنس تحته أفراد.

**فالجنس الأول**: اشتراك دنيوي لأنواع المنال، وأنواعه: المحامد، والثناء، ووجود وجوه الإقبال.

**والجنس الثاني**: أخروي لأنواع المثوبات، وأنواعه: النعيم وما أعد الله فيها من رفيع الدرجات.

**والجنس الثالث**: حظي لأنواع الاقتراب، وأنواعه: المنازل المتخيل بها أنه من الأحباب من غلبة شهوة الوصال الذي لا يجب على الحق إعطاؤه، ولا شيء مما تقدم كله مما تقدم بالتوجه والإقبال، وأفراد أنواع كل من ذلك فرد من أفرادها، وكل ذلك مخل في الأعمال التي حظها منه القبول وصادر عن محبة القلوب له مع الحق الذي حظها منه الإقبال؛ ولذا لا يحب هذه القلوب كما لا يحب هذه الأعمال، ولا يقبل على هذه القلوب كما لا يقبل هذه الأعمال؛ لاشتراك الكل بما سواه، فإن حظ العمل الخالص من الاشتراكات المتقدمة القبول من الله، كما أن حظ القلوب المخلصة من الميل إلى ما علقت به تلك الأعمال مما سوى الله الإقبال من الله بأنوار المواجهة، والمفاتحة، والمخاطبة بأنوار أسرار الوصال، وأنوار الغيبة عن الموصل في الموصول إليه بالاضمحلال المشار إليه بما قال ﷺ:

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «القلب العمل المشترك» وهو الذي فيه محبة غير الله والسكون إليه والاعتماد عليه، ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة في حقه تعالى، أولها على طريقة الخلف بقوله، «العمل المشترك لا يقبله» أي: لا يحب أن يثيب عليه لعدم الإخلاص فيه، فعدم محبته بمعنى عدم الرضا عن صاحبه وعدم إثابته فمن صحح عمله بالإخلاص وأحواله بالصدق، كان محبوبًا لله أي: مثابًا مرضيًا عنه وإلا فلا، أما السلف فيثبتون لله محبة، لكن لا نعلم حقيقتها.

٢٠٦- «أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصولِ وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدخولِ»(١).

**أقول:** كل منهما أنوار عرفانية شهودية مأذون لها في تنفيذ المتحقق بها إلى ما يقتضيه حكمها وتنفيذها للسائرين من مكتوباته إلى حضرة ذاته بأنوار صفاته، وهي المأذون لها في الوصول، وإما للسائرين في تجلياته من تجلياته إلى تجلياته بأنوار ذاته، وهي المأذون لها في الدخول بالأسرار والقلوب اللذين هما معدنا الوصال إلى حضرة غيب المحبوب التي هي محاضر الكمال، وذلك بعد خلوصهما مما سواه، وإلا فيحكم عليها بما قال ﷺ:

٢٠٧- «رُبَّما وردتْ عليك الأنوارُ، فوجدتَ القلبَ مَحْشُوًّا بصور الآثار، فارتحلتْ من حيثُ نزلت»(٢).

**أقول:** إذا كانت القلوب موارد ورود الأنوار الصفاتية أو الذاتية يجب استعدادها بجلائها من أصدية الأغيار الكونية بالأحكام التجريدية؛ ليسكن فيها ما ورد عليها منها وإلا ترحل عنها من حيث تنزل إليها لما فيها مما يبعد عن الوصال، ويقطع عن الكمال، وإن توقفت في قبول هذا المقال، فاسمع ما قال ﷺ:

٢٠٨- «فَرِّغْ قلبَكَ من الأغيارِ، تملأْهُ بالمعارفِ والأسرارِ».

**أقول:** تفريغ القلب تصفيته مما سوي الرب حتى الأنوار لتملأه بالمعارف ومدلولاتها من الأسرار، فتتمتع بشهودها وبتنوعات تجليات وجودها في كل آن وصل

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول» أي: الأنوار الواردة على اللقب من خزائن الغيوب، وهي معارف وأسرار إلهية تنقسم إلى قسمين: أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه وربه ودنياه وآخرته، فتارة يكون مع نفسه وتارة مع ربه وتارة يحب آخرته وتارة يحب دنياه، والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسودائه لا يظهر فيها إلا وجود الله ﷻ، فلذلك لا يحب سواه، ولا يعبد إلا إياه.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «ربما وردت عليك الأنوار» أي: العلو من المعارف الإلهية «فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار» أي: متعلقًا بصور المكونات من أموال وأولاد وغيرها «فارتحلت من حيث نزلت» أي: من المكان الذي نزلت فيه وهو القلب؛ لأنها مطهرة مقدسة فلا تحل في القلب المدنس بالأغيار «فرغ قلبك من الأغيار» أي: التعلق بغير مولاك وامح عنه صور الآثار بألا تتوجه بسرك إلى غير ذلك، فلا يكن لك أنس إلا به ولا اعتماد إلا عليه «تملأه من المعارف والأسرار» قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

منك فيه التوجه والإقبال؛ ولذا قال ﷺ:

٢٠٩- «لا تَسْتَبْطِئِ النَّوالَ، ولكنِ استبطئْ من نفسك وجودَ الإقبالِ».

**أقول**: النوال المتقدم ذكره وغيره يتوقف على إقبال السائرين في السير بحكم العادة المعتقد صحة تخلفها لنزاهة إسناد ذلك إلى الغير تنزيها عن أن يحصل بها المنال، والتنزيه من حقوق الكمال، فكن قائما بها للمتجلي في كل وقت من الحال والمآل بما فصله مما قال ﷺ:

**٢١٠- «حقوقٌ في الأوقاتِ يُمْكِنُ قضاؤُها، وحقوقُ الأوقاتِ لا يمكنُ قضاؤُها إذْ ما من وقتٍ يَرِدُ إلا ولله عليك فيه حقٌّ جديدٌ، وأمرٌ أكيدٌ، فكيف تقضي فيه حقَّ غيره وأنتَ لم تقضِ حقَّ الله فيه؟»**(١).

**أقول**: لفظ «وقت» مشتمل على ثلاثة أحرف: واو وقاف وفاء، فكل حرف كتعريف لله يبدوا في ظرف زمان، وتنوع الأحرف لتنوع أسماء الصفات المتعرف بها، ثم الوقت باعتبار تعقله في الزمن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ماض وحال واستقبال، وفيها لله حقوق، ولها حقوق واجبة لله تعالى، فما كان فيها كالصوم، والصلاة، والزكاة يمكن قضاؤه إذا فات في الوقت الثاني، وما كان لها فهو أدب تجلي الحق العرفاني، في الوقت الآني المتعرفُ ذلك فيه بروح التداني؛ لقيامك بحقه فيه الذي لا يمكن قضاؤه إن فات بالتواني في الثاني للتجلي الثاني، وللحق المترتب عليك به ثاني؛ لأن ما من وقت يرد إلا بتجل وللمتجلي به

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «حقوق» كائنة «في الأوقات» أي: الأزمنة، وتلك الحقوق هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما «يمكن قضاؤها» أي: إن فاته شيء من ذلك فيوقته المعين له، أمكنه قضاؤه في وقت آخر «وحقوق الأوقات» أي: ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال، وأوقاته أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، وسمي ما ذكر وقتًا؛ لأنه يرد في وقت مخصوص تسمية للشيء باسم زمنه وحقوقها الواجبة عليك فيها من المعاملات الباطنية التي تقتضيها تلك الأحوال. فحقه في النعمة الحمد والشكر، وحقه في البلية الصبر والرضا، وحقه في الطاعة شهود المنة، وحقه في المعصية الاستغفار والتوبة؛ ولذا يقولون الفقيه ابن وقته؛ أي: يتأدب معه ويعطيه حقه كما يتأدب الولد مع أبيه، وتلك الحقوق «لا يمكن قضاؤها» إذا فاتت «إذ ما من وقت» أي: حال «يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد» هو بمعنى ما قبله أي: فلا يسعك إلا أن توفي حقه، فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحق ما فَاتك.

عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، وهو تلقيه وفهم معانيه، ومعرفة مادة وجوده، وعدم الغفلة عن شهوده، وهذا أدب قيام وروده، فكيف تقضي فيه حق غيره ومن لازمه فوات حقه؛ إذ هو لا يسع القيام بحقين، وكل ذلك لنفاسة أنفاس الآجال وما يطرأ لك به فيها الحق من الجلال والجمال، واسمع ما أكمل به ذلك حيث قال ﷺ:

**٢١١ - «ما فاتَ من عُمْرِكَ لا عِوَضَ له، وما حصلَ لك منه لا قيمةَ له»[1].**

**أقول**: لأن كل وقت من العمر هو الجوهر الأنفس الذي لا عوض له من مثله، ولا

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: عمر المؤمن هو رأس ماله فيه ربحه وخسرانه، فمن شدَّ يده عليه كان من الفائزين، ومن ضيعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة به لا عوض له؛ إذ ما ذهب لا يرجع أبدًا، وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهبًا لكان نـزرًا في حقه؛ لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكًا كبيرًا ونعيمًا مقيمًا، لو بيعت الدنيا بحذافيرها ما بلغت منه عُشر العُشر، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات، وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«لا تأتي على العبد ساعةٌ لا يذكرُ الله فيها إلا كانتْ عليه حسرةً يوم القيامة»**.

قال الجنيد ﷺ: الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت. وقال الحسن البصري ﷺ: أدركت أقوامًا كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظًا، وأحرص شفقة منكم على دنانيركم، ودراهمكم كما لا يخرج أحدكم درهمه ولا ديناره إلا في ورود منفعة واستجلاب فائدة، كذلك كانوا لا يضيعون نفسًا من أنفاسهم في غير طاعة أبدًا. وكان سيدنا علي ﷺ يقول لفاطمة بنت رسول الله ﷺ إذا صنعت طعامًا: فميعيه، أي: اجعليه مائعًا خفيفًا، فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة.

وجاء في الخبر: «إن أهلَ الجنة بينما هم في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ من فوقِ أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يُرى الكوكبُ الدُّرِّيَّ في أفق السماء، وقد فُضِّلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم، كما فُضِّلَ القمرُ على سائر النجوم، فينظرون إليهم يسيرون على نُجُبٍ تسرح بهم في الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادي هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلي كما تصلون ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فُضِّلْتُم به علينا؟ فإذا النداء من قبل الله ﷻ: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تنسون، ويبكون حين تضحكون،ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، بذلك فضلوا عليكم اليوم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]». انتهى.

يسترجع من ماضيه نفس، وفواته ذاتي، وحصوله عرضي، وهو إما أن يكون لك حاصلاً، أو عليك فائتًا، فإن كان لك حاصلاً فإنما هو حاصل لما فيه حاصل من القيام بحقوق الله، وامتثالات مراضيه، وشهود تعرفاته في ظهوره بأنوار تجليه المترائي لك به فيك، فكل أناته مرائية ولا قيمة لها بترائيه، وهو مع ذلك لك ذاهب، وإن كان عليك ذاهبًا؛ فذلك بفوات ما ذكر هنالك فقط، فكيف بفواته بارتكابك ضده من المهالك التي أنت بها هالك؛ لمباشرتها بالأعمال الناشئة عن استرقاقها لك بالمحبة منك لها، والإقبال الذي لا يرتضى، ويشهد بذلك ما قال ﷺ:

٢١٢- **«ما أحببتَ شيئًا إلا كنتَ له عبدًا، وهو لا يُحِبُّ أن تكونَ لغيره عبدًا»**[1].

**أقول**: المحبة العامة لمحبوب تقتضي عبدية محبة له عبودية لا يمكنه بها مخالفة أمره في سره وجهره، والمحبة الحاصلة له منه مقتضى عبديته له عبودية تملأ وجوده من شهوده بحيث لا يبقي فيه متسعًا لغير شهوده، ولما كان ذلك لك من الحق ودا يستحقه منك وليس لك عنه بُد، أحب ألَّا تكون بذلك لغيره الوهمي عبدًا، وما ذلك إلا لتنال ما قسمه لك في الآزال فهو الغني عنك، والمتفضل عليك ولا يزال؛ ولذا قال ﷺ:

٢١٣- **«لا تنفعُه طاعتُك، ولا تضرُّه معصيتُك، وإنَّما أمرَك بهذه، ونَهاكَ عن هذه؛ لما يعودُ عليك»**[2].

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ما أحببت شيئًا» من أمور الدنيا «إلا كنت له عبدًا» لأن محبتك للشيء تقتضي انقيادك له وشدة علاقتك به، وألا تبغي به بدلاً كما قيل: حبك للشيء يعمي ويصم، وهذا معنى استعباده لك، فإن أحببت غير الله، فقد استعبدك ذلك الغير كائنًا ما كان «وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا» أي: لا يرضى بذلك، وفي الحديث: «**تعس عبد الدنيا وعبد الدرهم والزوجة والخميصة وانتكس**».

(٢) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «لا تنفعه طاعتك» لأنه غني عن العالمين وأعمالهم «ولا تضره معصيتك» لتنزهه تعالى عن أن يصل إليه مكروه من خلقه، «وإنما أمرك بهذه» أي: الطاعة «ونهاك عن هذه» أي: المعصية «لما يعود عليك» من المنافع والمصالح في الدارين، وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الإيجاب عليه «لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه» لأن عزه صفة من صفاته الجامعة كالإلوهية والكبرياء والعظمة، وصفاته تعالى في غاية الكمال والتمام، وهي منزهة عن الزيادة والنقصان.

**أقول**: تعالى النافع الضار أن يلحقه نفع وضر ممن ليس هو النافع الضار بطاعة هي إقبال، أو معصية هي إدبار بواسطة أمره ونهيه بهما؛ لأن يعود عليه شيء منهما، وإنما ذلك عائد عليك، وواصل إليك؛ لتكون عزيزًا بعز طاعته بين عوالمه بالإقبال العائد عليك حكمه؛ ولذا قال ﷺ:

**٢١٤- «لا يزيدُ في عِزِّه إقبالُ من أقبلَ عليه، ولا ينْقصُ من عزه إدبارُ من أدبرَ عنه».**

**أقول**: العزة له ذاتية، ولغيره منه عرضية بواسطة الطاعة له، والإقبال عليه اللذين هما من إفضاله، فكيف يزداد عزه الذاتي بما تصفه منه من التفضل العرضي، أو ينقص بما هو مقدر منه من الإدبارات التي هي علامات للعبد، والانفصال المنافيين لأحكام الوصال المنبه علي حقيقته بما قال ﷺ:

**٢١٥- «وصولُك إلى الله وصولُك إلى العلمِ به، وإلا فجَلَّ رَبُّنَا أن يتَّصلَ به شيءٌ، أو يتَّصلَ هو بشيءٍ»**(١).

**أقول**: وصولك إلى الله علمك به الكاشف لك عن وجوده، المحقق لك فقدك، وفقد كل شيء في شهوده، وتنزيهُهُ عن اتصاله بسواه أو اتصال سواه به، وألَّا سواه لمطلق

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريبًا لفهم المعاني، فمنها: السير، والرحيل، وذكر المنازل، والمناهل، والمقامات، ومنها: الرجوع، والوقوف، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شيء منها.

ومعنى الوصول عندهم تحقيق العلم بوجوده وحده، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك حتى يكون عدمك عندك ضروريًّا، وعلمك بوجوده كذلك، وهذا الأمر كان حاصلاً لك في نفس الأمر، لكن لم تشعر، فالزوال هو المعرفة: وهو معنى الوصول، وسببها جولان الفكرة، ولذلك أمره بها.

وسمعت شيخنا يقول: الناس كلهم في البحر ـ أي: في بحر الوحدة ـ ولكن لا يشعرون، فوصول العبد إلى الله عن تحقيق العلم بوجوده، والغيبة عن نفسه، وعن كل ما سواه، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسيًّا، فجل ربنا، أي: تعالى وترفع أن يتصل به شيء للزوم تحيزه، أو يتصل هو بشيء للزوم افتقاره وحصره، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبيًّا، ثم لا يزال يغيب عن نفسه وحسه، سكرة بعد سكرة، وحيرة بعد حيرة، حتى يصحو وينجلي عن ضباب الحس، وسحاب الجهل وظلمة النفس، فتشرق عليه شمس النهار، وتنجلي عنه ظلمة الأغيار.

وحدته الظاهرة في رتبة حجابه، ورتبة محجوبه، ورتبة وصاله، ورتبة موصوله بتجليات ظهوره من بطونه المتظاهر به صفة لظهوره الأول الباطن الآخر الظاهر القريب المشهود الحاضر الذي ليس وصولك إليه بالاتصال والانتقال، وإنما هو بالعلم به وبقربه حقيقة كما قال ﷺ:

٢١٦- «قربُك منه أن تكونَ مُشاهِدًا لقربه، وإلا فمن أين أنتَ ووجودُ قُرْبِهِ؟»(١).

أقول: قربه منك من كل شيء حاصل لكن أنت عنه بقوة شدته غافل، ولا يكون قريبك أنت منه إلا أن تكون لهذا القرب شاهدًا، ولا تكون له شاهدًا إلا أن تكون بعلمه عاقلاً يا عاقل، وإلا فمن أين أنت وأنت من الأين والبين ووجود قربه لا أين ولا بين ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان:٥٣] فإن علمت شهدت، وإن شهدت قربت، وإن قربت فنيت، وإن فنيت بقيت، وإن بقيت حظيت بالتفصيل بعد الإجمال لما يرد عليك من تجليات الجلال والجمال المشار إليهما بما قال ﷺ:

٢١٧- «الحقائقُ تَرِدُ في حال التَّجَلِّي مجملةً، وبعد الوعيِّ يكونُ البيانُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩]»(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «قربك منه» الذي تشير إليه أهل هذه الطريقة هو «أن تكون مشاهدًا لقربه منك» قُربًا معنويًا فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة في التأدب بآداب الحضرة، «وإلا» نقل ذلك بل أردنا القرب الذي هو من صفات الأجسام، «فمن أين أنت ووجود قربه» قربًا حسيًا؛ فهذا لا يصح.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «الحقائق» أي: العلوم اللدنية التي يقذفها الله تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى، وتحريرهم من رق الأغيار وتعرضهم بسرهم إلى نفحات الحق «ترد في حال التجلي» أي: تجلي الله على قلوبهم «مجملة» لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلي على قلوبهم «وبعد الوعي» بزوال ذلك التجلي، «يكون البيان» أي: تتصرف فيه أذهانهم بالاعتبار والتأمل، فيتبين لهم معناها ويظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية حتى أنه ربما يجري على لسان بعضهم كلام كثير لا يلقي له بالاً فإذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحًا. مثال ذلك ما وقع من الحلاج من قوله: ما في الجبة إلا الله، فإن هذا قاله لعظم التجلي عليه، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحًا؛ لأن معناه ألا قائم بالأشياء إلا هو سبحانه، وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة. يقول السياجي: «التنبيه الوارد هنا بالقرآن مقصود إلا من وجه أن القرآن علمه النبي ﷺ قرآنًا مجملاً بمعانيه في قلبه إثر الوحي ثم يأتي بيان أحكامه وكشف أسراره من الله بعد

**أقول**: الحقائق التي هي شئون الحق ترد على مرآة قلب عبد فني عن الخلق في حال التجلي الخاص الظاهر بالمحق مجملة علومها، فيكون كذلك شهودها للغيبة به عن تفصيلها الحاصل بيانه بعد وعيها، فيشهد حقيقة حقائقها وما ظهرت به فيها من تجليات الصفات المتجلية بها الذات، وسر حكمتها وهو لماذا ظهر الحق بها، وهكذا تشهد عيانه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩] من حضرة العليم بأقلام التعليم في مصاحف القوابل، وألواح الكمال المنبسطة فيها أحرف أرواح أنوار ذوات الكُمَّل من الرجال المنبه عليها بما قال ﷺ:

**٢١٨- «متى وردت الواردات الإلهية إليك، هدمت العوائد عليك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل:٣٤]»**(١).

**أقول**: الواردات إلهية وربانية؛ فالربانية ما بها الثبات للمربوب، والإلهية ما بها محق المحب في المحبوب، فمتى وردت محقت وللعوائد خرقت؛ إما خرق صدود بحدود

---

=

ذلك» والتعبير بكلمة بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي أي المقترنة بالتجلي الإلهي.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الوارد الإلهي هو قوة شوق أو اشتياق أو محبة يخلقها الله في قلب العبد، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال، فتزعجه تلك القوة إلى النهوض إلى مولاه، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه، وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق فتغيبه عن حسه بالكلية، وهو الجذب، وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق، فإنها لا تُهدم عوائدها إلا إن كثرت وتزايدت، وتسمى أيضًا هذه الواردات نفحات.

قال ﷺ: «إن لله نفحاتٍ فتعرَّضوا لنفحاته» فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختيارًا، فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذي يقلب الأعيان، فإن صحبهم ولم ترد عليه فلبخرق عوائد نفسه من الظاهر، فإنها تدخل منه إلى الباطن، فمتى وردت عليك حينئذٍ تلك الواردات الإلهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك، فترد عزك ذلاً وغناك فقرًا، وجاهك خمولاً ورياستك تواضعًا وحنوًّا، وكلامك صمتًا، ولذيذ طعامك خشينًا، وشبعك جوعًا، وكثرة كلامك صمتًا، وقرارك في وطنك سياحة وسفرًا، هكذا شأن الوارد الإلهي يخرب العوائد ويهدمها، فهو كملك جبار ذي جيش طغاة، دخل قرية أو مدينة، فأفسد بنائها وغير عوائدها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: نزعوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا﴾ أذلة: أي رءوساء أتباعًا مرءوسين ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤] أي: هذا شأنهم، والاستشهاد بالآية في غاية الحسن والمناسبة.

لورود، وإما خرق وجود بشهود لمشهود، وبدلت الكدر بالصفاء، والجفاء بالوفاء، وذلك من استيلاء سلطان الواردات التي جاءت بالله لله مفنية للنفوس بعد دلالها بإذلالها في الله ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤] إجلالاً من حضرة الجلال؛ ولذا قال ﷺ:

٢١٩- «الوارد يأتي من حضرة قهَّارٍ؛ لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]»(١).

**أقول**: الوارد يرد بمواكب جيوش عساكر الأنوار الباسطة عدلها، الناشرة رحمتها من حضرة القهار بهدم عساكر ظلم ليل وجود الأغيار، ولذلك ما يصادفه شيء إلا دمغه فإذا هو هالك في شاهد شهود السالك؛ لأنه حق من حق لا يثبت معه شيء من الخلق، فهو بكل ما سواه ماحق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨] وإن ثبت شيء فبإثباته لا بنفسه فإنه محال، وما كان به مظهرًا لظهوره فلا يحجبه، ولا ذلك فيه يقال؛ ولذا تعجب وقال ﷺ:

٢٢٠- «كيف يحتجبُ الحق بشيءٍ والذي يحتجبُ به هو فيه ظاهرٌ، وموجود

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: إنما كان الوارد الذي يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قويًا شديدًا؛ لأنه يأتي من حضرة اسمه تعالى القهار؛ ليدمغ بقهريته كل ما وجد في النفس أو القلب من الأغيار، وإنما قلنا: من حضرة اسمه القهار؛ لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته، واسمه جميل يتجلى من حضرة جماله، واسمه جليل يتجلى من حضرة جلاله، واسمه رحيم يتجلى من حضرة رحمته، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه، وهكذا فكل اسم يخرج تجليه على وفق حضرته، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:٢١].

ولو كان هذا الوارد الذي يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل، وشبه الشيخ الباطل وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه وتشتت دماغه، فالوارد الإلهي محض حق، فإذا صادم الباطل دمغه وقتله، ولذلك أتى بالآية التي نزلت في شأن القرآن مع الكفر، فإن الكفر تشتت واضمحل حين نزل القرآن، كذلك السوى إذا تجلى الحق بقهرية نوره تشتت واضمحل.

**حاضر؟»**[١].

**أقول**: حقيق أن يتعجب من شيء لا وجود له بنفسه وهو ظاهر وثابت به تعالى، أظهره متعرفًا به وفيه بحقائق صفاته وأنوار تجلياته المتجلية في حضرة قدسه، ويكون مع ذلك محتجبًا به وهو بذلك ظاهر فيه ظهورًا يخفيه، وموجود وجودًا يفنيه، وحاضر معه حضورًا يغيب فيه، فهذا حكم كل ما سواه خصوصًا المكلفين بالأعمال التي بالحضور معه فيها يكون لها الكمال المتوقع به قبولها في المآل المقضي عمله بلا، وإن لم فتيأس العمال؛ فلذا قال ﷺ:

**٢٢١- «لا تيأسْ من قَبول عملٍ لم تجدُ فيه وجود الحضور، فرُبَّما قَبِلَ من العمل ما لم تُدركْ ثمرته عاجلاً»**[٢].

**أقول**: مما يستدل به العامل على قبول عمله في الآخرة وجود حضوره فيه مع الحق في الأولى، فهو من الثمرات العاجلة التي إن لم يعلم العامل غيرها من الثمرات الحاصل بها القبول في الآجلة، وفقدها قد ييئس من قبول العمل في الآخرة؛ لعدم الحضور في الأولى، وقد يحمله ذلك على ترك العمل وذلك حصر للعلامات؛ لعدم علمه، فنهاه عن أن ييأس من القبول لعدم الحضور لما العمل من ثمرات غيره.

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «كيف يحتجب الحق» أي: الله «بشيء» من الموجودات العلوية والسفلية «والذي» أي: والحال أن الذي «يحتجب الله تعالى «به هو» أي: الله «فيه ظاهرًا» أي: ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر «وموجود حاضر» مدرك لهم، فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجابًا له حتى يستدل عليه به، هل ذلك إلا من عمى البصائر وعدم رؤيته في كل شيء؟.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور» بقلبك مع الله حال فعله بأن تكون ملاحظًا أنك حاضر بين يديه فير غائب عنه كأنك تراه كما في الحديث، فإن ذلك دليل على قبوله ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول، ولذا قال: «فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته» أي: ثمرة قبوله؛ أي: علامته «عاجلاً» أي: حال فعله ومن علامة قبوله أيضًا وجدان حلاوته استلذاذ قلبه به حال فعله كما مر، وقوله: «لا تزكين واردًا» أي: تفرح به وتمدحه في سرك «لا تعلم ثمرته» فإذا ورد عليك واردٌ إلهي؛ أي: تجلي إلهي ملك قلبك ويعبر عنه بالحال لكن لم يتأثر قلبك به بحيث تحب الإقبال على المولى وتنهض لطاعته وتقوم بحقوق الربوبية، فلا تفرح بذلك الوارد؛ لأن ثمرته إنما هي تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر، فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به فإن في ذلك نوعًا من الاغترار.

فمنها: الإتيان بالعمل عبودية، ومنها الإخلاص فيه والصدق فيه، والذل فيه إلى غير ذلك، وربما قبل من العمل آجلاً ما لم تدرك ثمرته عاجلاً، أو قبل بمحض الفضل كما هو وارد لأن الواردات أعمال تثمر علومًا، أو واردات علوم تثمر أعمالاً لا يزكى منها إلا ما ظهرت ثمرته في الحال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٢٢- «لا تُزَكِّيَنَّ واردًا لا تعلمُ ثمرته، فليس المرادُ من السحابة الإمطار، وإنما المرادُ منها وجودُ الإثمار».**

**أقول:** التزكية شهود صورة حسن المزكى في الجنان ترجم بذلك اللسان أم لا، ومن متعلقاتها هنا الوارد من حضرة الامتنان لمفاد هو ثمرة وروده التي يطلب فيها البيان، فإن كان الوارد عمليًا فهو إما علم يثمر عملاً بديعًا كالنسك، أو علم يثمر عملاً قلبيًا كالحميد من الخلق، أو علم يثمر عملاً روحيًا كالشوق، أو علم يثمر عملاً سريًا كالشهود، وإن كان الوارد علميًا بدنيًا فإنه يثمر علوم أسرار الأعمال البدنية، وإن كان خلقيًا فإنه يثمر علوم أسرار الأخلاق الزكية، وإن كان روحيا يثمر علوم أسرار الأشواق العشقية، وإن كان سريًا يثمر علوم أسرار المشاهدات الربانية.

فهذه ثمرات سحائب الواردات المطلوبة منها دون الإمطار المقتضية تزكيتها بحسب ذلك عند أهل هذه المقامات، وإلا فلا، فلا تزكيها، ولا يلزم من عدم تزكيتها أن تتركها أو تشكرها بل اشكر موجدها واحمده لكونه عليك أوردها، ومن شكره الغيبة به عنها، فإياك أن يحجبك على المتفضل الإفضال، واسمع ما قال ﷺ:

**٢٢٣- «لا تطلبنَّ بقاءَ الواردات بعد أن بسطَتْ أنوارها، وأودِعَتْ أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء، وليس يُغنيك عنه شيء»[1].**

**أقول:** لأن المراد من الوارد ما هو عليك به وارد من الأسرار، والعلوم، والمعارف،

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا تطلبن بقاء الواردات» أي: التجليات والأحوال القلبية «بعد أن بسطت أنوارها» عليك وأنوارها هي تكيف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية، «وأودعت» فيك «أسرارها» وهي ما لاح في قلبك من عظمة الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد، فلا تطلبن بقاءه حال وجودها، ولا تحزن على فقده إذا فقدته «فلك في الله غنى عن كل شيء»، وليس يغنيك عنه شيء.

والمشاهد المغيبة لك عنك وعن كل شيء ما عدا الواحد الحق الظاهر بكل شيء الذي لولاه ما كان شيء، ولم يكن شيء من شيء، ولكل شيء به غنى به عن كل شيء، وليس لشيء غنى عنه بشيء، وهذه علوم بسط الواردات وما تقتضيه من أنوار التعرفات، وأسرار التجليات المشهود فيها، المستودعة فيها، المبسوط منها لقوابل الرجال الذين لا يرون لغيره بقاءً لهم أبدًا بحال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٢٤- «تَطَلُّعُكَ إلى بقاء غيره دليلٌ على عدمِ وِجْدَانِكَ له، واسْتِيحَاشُكَ لفقْدَانِ ما سِواه دليلٌ على عدمِ وَصْلَتِكَ به»**(١).

**أقول:** كل ما سواه من إشراق أنواره، وتعرفات ظهوره، حتى الوارد عليك بعرائس أسرار جوده ومقامات مقاصر قصوره، فمن وقف معها دونه تعالى شهد عليه وقوفه بقصوره، فإياك وتشوفك لبقاء شيء من ذلك معك دونه تعالى، فتكون هالكاً لفقد شهوده مع حصول وجوده، وما ذلك منك إلا حرصا على ما سواه من المظاهر، والحال أنه فيها ظاهر كما لو استوحشت بفقدان شيء منها فيكون استيحاشك شاهدا عليك لعدم وصلتك به مع بعدك عنها؛ إذ بمواصلة النعيم في الحال والمآل، وبعدمها العذاب بالحجاب الأليم، وشديد النكال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٢٥- «النعيمُ وإنْ تنوعتْ مظاهره فإنما هو بشهوده واقترابه، والعذابُ وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسببُ العذاب وجودُ الحجاب، وإتمامُ النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم»**(٢).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «دليل على عدم صلتك به» أي: وصولك إليه؛ إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب ولم تستوحش عن فقده شيء سواه، فالسالك إذا وردت على قلبه واردات إلهية وبسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بأنه من الواصلين، فإن كان يتطلع ويتشوف إلى شيء من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف.

قال الجنيد ـ قدس سره ـ: إنك لن تكون على الحقيقة عبدًا، وشيء مما سواه لك مسترق، وأنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية.

(٢) قال الشيخ الشرقاوي: «النعيم» أي: نعيم الدنيا والآخرة؛ أي: التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور والولدان والقصور «وإن تنوعت مظاهره» أي: مواضع ظهوره، وهي الأمور المذكورة التي يتنعم بها ظاهرًا «فإنما هو» أي: النعيم بمعنى التنعم والتلذذ «بشهوده» تعالى

**أقول**: النعيم بالله الذي هو من مادة جماله، المتظاهر في مظاهر إفضاله، وإن تنوع للمتنعم به إنما هو بحسب شهوده؛ لاقترابه الناتج عن معرفته به، وليس ذا كمن تنعم بأنواع المظاهر، ولم يلحظ فيها من الحق ما الحق به من تجلياته ظاهر، فهو بها في حجاب ظاهره من قبل الرحمة، وباطنه من قبل العذاب؛ لاحتجابه بها عن شهود الاقتراب، كما أن عذابه الذي هو من مادة جلاله وإن تنوعت مظاهره للمعذب به إنما هو لفقد شهوده، بسبب عدم معرفة وجوده؛ إذ لو عرفه شهده به فيه، وغاب عن إيلامه به فيه، فظهر أن العذاب إنما هو بالحجاب، ولما علم ذلك الأحباب لم يجتهدوا في غير رفعة؛ ليتم لهم النعيم بالنظر إلى وجه وجوه تعرفات الله الكريم في الحال والمآل؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٢٦- «ما تَجِدُهُ القلوبُ من الهمومِ والأحزانِ فلأجلِ ما منعَتْ من وُجُودِ العِيَانِ»**(١).

**أقول**: مما ظهر الحق به في الأكوان من مادة جلاله الهموم والأحزان، وما تجده القلوب منها من الإيلام؛ لعدم معرفة المتجلي الظاهر بها المؤدي شهوده إلى الاصطلام في

---

=

«واقترابه» أي: إنما يكون نعيمًا حقيقيًا إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء مشاهدًا له وحاضرًا معه، فإن لم تكن بتلك الحالة فليس ذلك بنعيم حقيقة، بل هو عذاب «والعذاب» أي: التألم «وإن تنوعت مظاهره» من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها «إنما هو» أي: العذاب بمعنى التألم «بوجود حجابه» تعالى؛ أي: إنما يكون تألمًا حقيقة إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء محجوبًا عنه، وكان غائبًا عنك فإن كنت مشاهدًا له، فليس ما أنت فيه عذابًا حقيقة بل هو نعيم «فسبب العذاب» أي: التألم.

«وجود الحجاب وإتمام النعيم» أي: النعيم التام؛ أي: التلذذ والتنعم «بالنظر إلى وجهه الكريم» أي: مشاهدته بعين البصيرة في الدنيا وبالبصر في الآخرة، وحاصله: إن النعيم محصور في شهود الرب والتألم في الحجاب عنه، وأما ما يتنعم به ظاهرًا أو يعذب به ظاهرًا فليس بنعيم ولا عذاب بالنظر إلى ذاته.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «ما تجده القلوب من الهموم والأحزان» الدنيوية، «فلأجل ما منعت من وجود العيان» أي: معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة، والألم يحصل عندها هم ولا حزن على فوات شيء من الدنيا فوجد أنهما من نتائج رويته النفس واعتباره وبقاء حظها، فلو غاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده لكان دائم الفرح والسرور كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

شهود المتجلي في حضرة العيان؛ إذ لو شهدوه فيهما لما تألموا منهما، واكتفوا عنهما بشهود تجليات الصفات والأفعال المتأتي به أيضًا ما قال ﷺ:

**٢٢٧- «من تمامِ النعمةِ عليك أن يرزقَك ما يكفيك، ويمنعَكَ ما يُطْغِيكَ؛ ليقلَّ ما تفرحُ به، يَقِلُّ ما تحزن عليه»**(١).

أقول: لما كانت القوابل مقدره في كل قابل بمقادير الحكمة؛ لقبول ما تسعه من مطلق النعمة التي من إتمامها ما تسعه القابليات من الفانيات كزخارف الدنيا، أو الباقيات كالمعرفة، والشهود وأعطيت من ذلك ما تسعه قابليتك كنت بذلك قد حصل لك ما

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همته إليه، ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائنًا ما كان، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغنى بالله؛ إذ لا نعمة أعظم من الغنى بالله، والغيبة عما سواه، ويكفيه كل ما يطغيه حتى يشتغل به عن ربه، فإذا رزقك الحق تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلاً ولباسًا ومسكنًا، ولقيام روحانيتك علمًا وعملاً وذوقًا ومعرفة، ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك، فقد أتم نعمته عليك، فاشكره على ما أسدى إليك، وتوجه إليه وحده فيما تعذر عليك، وادفع ما يشغل قلبك من النهوض إليه: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨] ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وقد استعاذ ﷺ مما يشغل القلب وينسي الرب فقرًا أو غنًى، فكان يتعوذ من الفقر المنسي والغنى المطغي، وقال: «اللهمّ اجعل رزقَ آل محمدٍ قُوتًا»، وقال ﷺ: «خيرُ الذّكر الخفيُّ» أي: في القلب وهو الفكرة، «وخيرُ الرزق ما يكفي»، وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجناحيها مَلَكَان يُسمعان الخلائق غير الثقلين: أيها الناس هَلُمُّوا إلى ربكم، ما قلّ وكفى خيرٌ مما كَثُرَ وألهى»، وقال ﷺ: «ليس الغِنى بكثرة العَرَضِ، إنَّما الغنى غنى النفس».

وقال عبد الواحد بن زيد ﷺ: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأيلة تنطق بالحكم، فكنت أطلبها حتى وجدتها وهي محلوقة الرأس وعليها جبة صوف، فلما رأتني قالت: مرحبًا بك يا عبد الواحد، فعجبت من معرفتها لي ولم ترني فقلت لها: رحب الله بحك، ثم قالت: ما جاء بك؟.

قلت: تعظيني، قالت: واعجبًا لواعظ يوعظ يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شيء من الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد وظل حيران ولهًا، فإن كان له عند الله نصيب عاقبه وحيًا في سره فيقول له: «عبدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلاً لأوليائي، ومرشدًا لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدينا وتركتني، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأُنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، ارجع إلى ما كنت عليه، ارجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك، ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي».

يكفيك، ومنع عنك ما لا تسعه؛ لئلا يطغيك بخروجك عن حد الاعتدال الذي يفوت به الكمال؛ وإن كان ذلك ليقل اهتمامك بما تفرح به مما لا تسعه؛ فيقل ما تحزن عليه حصول ما وسعته لفراقك لهما إن كانا فانيين في الحال، ولانتقالك عنهما إن كانا من الحضرة باقيين في المآل لولايتك قبول النعم الإلهية التي لا تزال المنبه عليها بما قال ﷺ:

**٢٢٨- «إنْ أردتَ ألا تُعْزَلَ فلا تتولَّ ولايةً لا تدومُ لك».**

**أقول:** ولاية الدوام دوام شهود ما لك من الانعدام في مجلس التعريف القاضي لك بذلك، ولله بالوجود، وظهور الحكم، والتعريف الظاهرين عن أسمائه، وتعرفات سنائه، الثابت المثبت المنفذ بالتنفيذ لما يختاره الحق ويريد، فاعلم ذلك وكن من هنالك، وإن كنت لشيء راغبًا ومريدًا ربما زخرف لك في الحال والمآل، فذلك لثبوت آنيتك واحتجابك بها في بدايتك عن نهايتك اللتين مقتضاهما ما قال ﷺ:

**٢٢٩- «إنْ رَغَّبَتْكَ البداياتُ زَهَّدَتْكَ النهاياتُ، إن دعاك إليها ظاهرٌ، نهاك عنها باطنٌ، إنما جعلها محلا للأغيار، ومعدنًا للأكدار تزهيدًا لك فيها».**

**أقول:** بداية كل مرغوب فيه الباعث على الرغبة فيه ما تزين من ظاهره للراغب فيه كما يبعث على الزهد فيه انعدامه في تناهيه؛ لأنه من الفانيات التي إن دعاك إليها ظاهر عن ظاهريته نهاك عنها باطن عن باطنيته أن تقف معها دونه باطنًا وظاهرًا؛ لفنائها وفناء مادتها، التي هي الدنيا التي حكمها من الظهور ومن فنائها في النور، وإنما جعلها في حال وجودها به للمحجوبين محلاً للأغيار، ومعدنًا للأكدار، تزهيدًا لهم فيها؛ لعدم أهليتهم لعلم ما فيها، وللواصلين محلاً للأنوار، ومعدنًا للأسرار الموجب ذلك إقبالهم عليها لاستجلاء ما فيها دونها لما تحقق فيها من الزوال والانفصال المر مذاقه بعد الاتصال إلا بما قال ﷺ:

**٢٣٠- «عَلِمَ أنك لا تقبل النُّصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهِّل عليك وجود فراقها».**

**أقول:** النصح المجرد: هو الأمر من الآمر بالترك أو الفعل من غير بيان عله الحكم وثمرة المأمور به امتثالاً مجردًا، وهو عالم بما هو خالقه فيك من عدم قبولك لذلك، فألقاك في بحر التجربة لذواق ما هنالك من الدنيا؛ ليكون الذواق ميسرًا عليك وجود الفراق،

قضى بلسان الحال المضاف إلى التجربة بالأفعال المثمرة للعلم النافع الظاهر تمام نتائجه في المآل المشار إليه بما قال ﷺ:

**٢٣١- «العلمُ النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعُه، ويكشفُ به عن القلب قناعُه»(١).**

**أقول**: العلم معرفة الشيء على ما هو عليه، والنافع منه ما بعث على أسباب النجاة من المهالك، ووصل إلى حضرة شهود الرب المالك، وآداب العبد في حضرة جلاله، وأفناه في مقام إجلاله، وأبقاه به في حضرات كماله، منبسطًا ببسط جماله، وكل ذلك من نتائج انبساط نور عينه، فإن شعاعه على الصدور من الصدور المتأملين لذلك الذي رفع عن قلوبهم أقنعتها؛ لشهوده هنالك شهودا هو ثمرة خير علم مؤسس بخشيته في كل حال، وهو المشار إليه بما قال ﷺ:

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: العلم النافع هو علم القلوب، ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل. أو تقول: مرجعه إلى التخلية والتحلية، فيبحث أولاً عن عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح، وعيوب السر، فيطهر كل واحد من عيوبه، فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال، كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة، وتحلى أيضًا بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة، فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين، وبرد الرضا والتسليم وحلاوة الإيمان ومواجيد العرفان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة، والقناع الذي ينكشف به عن القلب هو الغفلة، وسبب الغفلة هو الرضا عن النفس، وسبب الرضا عن النفس هو حب الدنيا الذي هو أصل كل خطيئة، فمن حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر، والحقد والغضب، والشح والبخل، وحب الرياسة والقساوة، والفظاظة والقلق، وغير ذلك من العيوب.

فإذا انكشفت هذه الأمور عن القلب انبسط فيه شعاع العلم الذي هو ثلج اليقين وبرد الرضا، وما تقدم ذكره؛ لأن العلم بالله نور في القلب، وينبعث منه شعاع ينبسط في الصدر، فيكسبه الزهد في الدنيا، فإذا زهد في الدنيا اتسع صدره باليقين والرضا والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فكشف القناع مقدم على بسط الشعاع، فلو قدمه لكان أولى؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، فلو قال: هو الذي ينكشف به عن القلب قناعه وينبسط في الصدر شعاعه، ويحتمل أن يريد بانبساط الشعاع في الصدر نور الإسلام والإيمان وهي أنوار التوجه، وبكشف القناع عن القلب كشف حجاب الحس وظلمة الكون، فتبدو أنوار المواجهة وهي أنوار الإحسان وأسرار العرفان، وعلى هذا يكون ترتيب كلام الشيخ حسنًا، والله تعالى أعلم.

**٢٣٢- «خيرُ العلم ما كانت الخشيةُ معه، العلمُ إن قارنته الخشيةُ فلك، وإلا فعليك».**

**أقول**: أي خير علم أعلمك الله به يهديك إلى شهوده ما كانت الخشية التي هي الخوف منك له فيه؛ ليكون لك بقيامك لله بما له عليك من الخشية التي هي من علة وجودك، ووجود أمثالك، وإلا فالعلم حجة عليك، وأنت له، قال: ويؤكد ذلك لك منك ما قال ﷺ:

**٢٣٣- «متى آلمكَ عدمُ إقبال الناس عليك أو توجهُهُم بالذم إليك فارجعْ إلى علمِ الله فيك، فإن كان لا يقنعُك علمُه، فمصيبتُكَ بعدم قناعتك بعلمه أشدُّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم»**(١).

**أقول**: الإيلام هو ما عنه التألم، وهو: التوجع، فإن يكن بسبب عدم إقبال الناس فذلك دليل الإفلاس، أو بسبب توجههم بالذم لك فالتباس، فالإفلاس إفلاس من اشتغالك بشهود ملك الناس اشتغالاً لا ينفي فيك لغيره بقية إحساس ، والالتباس التباس ما أهداه لك ملك الناس في تلك الأنفاس من المعارف الإلهية الهادية للنفوس المفنية للأنية، وكل ذلك شواهد الرعونة، وعدم العلم الذي به المعونة، فارجع إلى علم الله فيك يكفيك

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «متى آلمك» أي: وجد عندك الألم والغم «عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله» أي: اقنع بعلمه فيك واكتف به عن علمه بحالك المقتضي لإقبالهم عليك وعدم ذمهم لك فإن كنت عبدًا لله مخلصًا في أعمالك مقبولاً فأي شيء يضرك مع كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا إليك بالذم والأذى.

وإن كنت حقيرًا ممقوتًا لعدم إخلاصك، فأي شيء ينفعك من إقبالهم عليك ورضاهم عنك وثناؤهم عليك «فإن كان لا يقنعك علمه» بأن أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على إخلاصك وأعمالك فيعظمك ويقبل عليك «فمصيبتك» الحاصلة «بوجود الأذى منهم» بذلك والإعراض عنك؛ لأن عدم القناعة بعلمه تعالى يردك إليهم، فهو مصيبة ولابدَّ، وإذا هم بردك إليه فهو فائدة في الواقع ونعمة.

وإن كان مصيبة في الظاهر؛ فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا بإعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال أو إعراض ولا مدح ولا ذم؛ فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئًا، فمن أهمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه، فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، ويكتفي بعلمه بحاله ولا يجب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه.

المؤنة بأن يريك أن الإدبار عنك والمذمة لك من السوابق وبرزا في أوقاتها من اللواحق، أو يريك ما فيك من مساوئك، فترى أنك لا تستحق الإقبال، وإن فيك ما يقال. أو يشهدك مع نزاهتك منزلك بما يقال، وبعدم الإقبال لعظم حالك دليلا يعرفك أهل زمانك، فإن كان لا ينفعك علمه بذلك باقتباسك له منه فأنت هالك، ومصيبتك بعدم قناعه بعلمه المستفاد منه ذلك، وغير ذلك أشد من مصيبتك بوجود الأذى من الناس، وسر ذلك ألَّا يكون لك بهم إيناس، ولا عليهم إقبال يؤكده ما قال ﷺ:

**٢٣٤- «إنَّما أجرى الأذى على أيديهم كَيْ لا تكونَ ساكنًا إليهم».**

**أقول**: ومما تستفيده من علمه في رجوعك إلى علمه ما حصل لك من الأذى على أيديهم من فعله المنسوب إليهم يمنعك من السكون إليهم؛ لترجع إليه في كل حال من مواقع الأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

*** «أراد أن يُزعجَك عن كُلِّ شيءٍ حتَّى لا يشْغلكَ عنه شيءٌ».**

**أقول**: لما كانت الأشياء شوارق أنواره وأراد ألا تقف مع شيء منها دونه أزعجك منها إزعاجًا تارة بالفعل، وتارة بالقول، وتارة بالعلم، وتارة بالوهم إلى غير ذلك مما تتأذى به؛ كي لا تشغلك عنه شيء؛ لتوجهك إليه عن كل شيء منها، ولا مما نسب إليها من الأقوال والأفعال خصوصًا ما يظهر من مظاهر الضلال المنبه على أصلها بما قال ﷺ:

**٢٣٥- «إذا عَلِمْتَ أنَّ الشيطانَ لا يغفلُ عَنْكَ، فلا تغفلْ أنتَ عَمَّن نَاصِيَتُكَ بيدِهِ، جعله لك عدوًّا؛ ليَحُوشَكَ به إليه، وحَرَّكَ عليك النفسَ ليدومَ إقبالك عليه»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس حراس الحضرة، فلا يدخل الحضرة حتى يخرق فيهم ويجوز عنهم؛ لأنهم واقفون بالباب، وكلهم الله بباب حضرته، وقال لهم: لا تتركوا أحدًا يدخل إلا من يغلبكم، فوقفوا بالباب، فإذا جاء من يريد الدخول تعرض له الخلق، فيعيبون له الطريق، وينكرون من يعرفها، فإذا غلبهم جاءه الشيطان يطول عليه مدة الفتح، ويخوفه من الفقر، ويقول له: متى يفتح الله عليك؟ قيل يكون وقيل: لا يكون ، فإذا غلبه وزاد تعرضت له النفس تقول له: كيف تترك دنياك وجاهك وعزك إلى شيء يكون أو لا يكون؟ فإذا غلبها قال له الحق تعالى: مرحبًا بك وأهلاً، ولكن القواطع لا يزول طمعها عنه حتى يسكن في الحضرة، ولذلك قالوا: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع.

فإذا علمت أيها الفقير أو الإنسان أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة؛ لأن له بيتًا في صدرك من جهة

أقول: إذا علمت بإعلام الله لك أن الشيطان المسلط عليك، الذي هو مورد إضلالك، وإضلال أمثالك لا يغفل عنك طبعًا فيك؛ لعدم كمال عبوديتك الذي به حريتك التي بها يمتنع سلطانه، ويغيب خذلانه، وبها تكون من عباد الرحمن، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، فلا تغفل أنت لعدمها عن من ناصيتك وناصية كل شيء بيده؛ إذ الشيطان به قائم، وبمشيئة إلى إنظاره إلى الوقت المعلوم دائم، وما كان منه فبأقدار الله إذ هو من ضعفاء عبيد الحق، حاشك الحق به إليه في صورة عدو حوشة صديق كما حرك سبحانه نفسك عليك بما يبعدك عنه، فتخشى ذلك خشية منه، فتفر مما يبعدك إليه، وتقبل بذلك عليه بذله، وانكسار، وتواضع، وافتقار يعرب عن ذلك منك السؤال، ومتى أثبت لنفسك من ذلك التواضع شيئًا يحكم عليك بما قال ﷺ:

**٢٣٦- «مَنْ أثبتَ لنفسه تواضعًا فهو المُتكَبِّرُ حقًّا، إذ ليس التَّوَاضُعُ إلا عن رِفْعَةٍ، فمتى أثبت لنفسِكَ رفعة فأنتَ المُتكَبِّرُ حقا، إذ ليس المتواضعُ الذي إذا تواضعَ رأى أنه فوقَ ما صنَعَ، ولكنَّ المتواضعَ الذي إذا تواضعَ رأى أنه دون ما صنع»**(١).

---

= شمالك، فإذا غفلت عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكرت الله انخنس، فإذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده، وهو الحق تعالى، فإذا أشغلت بالله رده عنك وكفاك أمره قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقد حذَّر الله تعالى منه في كتابه قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦] ففهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربته ففاتهم محبة الحبيب، وفهم قوم أن الشيطان لكم عدو وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدو كما قال الشيخ أبو العباس.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي ﷺ: عداوة العدو حقًّا هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقًّا، فإذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ونال عدوك مراده منك.

وقال الشيخ زروق ﷺ: وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] وقيل: الشيطان كلب، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «من أثبت لنفسه تواضعًا» بأن خطر بباله أنه متواضع، «فهو المتكبر حقًا؛ إذ ليس التواضع» أي: ليس إثباته ناشئًا «إلا عن» شهود «رفعة» كان يستحقها وأنه تنازل عنها إلى ما دونها «فمتى أثبت لنفسك رفعة» في ضمن إثبات التواضع «فأنت المتكبر حقًّا» ولا ينتفي عنك التكبر إلا بوجود الصفة حقيقة بألا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة.

**أقول**: التواضع بين الضعة والتكبر، فالضعة: أن تكون مهانًا، وحقك ضائعًا، والتكبر أن يكون غيرك بك مهانًا وحقه ضائعًا، والتواضع ألَّا تهان، ولا يهان بك غيرك، ولا يضيع حقك ولا يضيع بك حق غيرك، وأن ذلك للموصوف به إنما هو التسارع بما جاء به من بيان تحريم الإهانة، وإضاعة الحقوق بغير حق في الدين، لا الموصوف به بإثباته لنفسه، وإنما الحق ألبسه له، ورفعه به إليه من أرض ما حُرم من ذلك عليه، فلم ير نفسه قبله فوق ما صنع به منه، وإنما رآها دون ما صنع به، ومن أثبت هذا الصنع لنفسه دون من جاء به ﷺ من المتفضل به سبحانه، فهو المتكبر حقًّا لنسبة ما لغيره من الصنيع له فإنه حق لغيره أضاعه عليه بنسبته إليه؛ لعدم خشية الجلال، وشهود عظمة الإجلال الذي به يكون التواضع حقيقة بما قال ﷺ:

**٢٣٧- «التواضعُ الحقيقيُّ هو ما كان ناشِئًا عن شهودِ عظمته، وتجلِّي صفتِهِ، لا يُخْرِجُكَ عن الوصفِ إلا شهودُ الوصفِ».**

**أقول**: التواضع تارة يكون لأحكام الله كما تقدم بيانه، وهو المجازي، وتارة يكون لله مع إحكامه، وهو المراد هاهنا بالحقيقي؛ لانتشائه عن شهود عظمته المقتضية ذلك له من كل ما سواه؛ لعموم تجليها الصفاتي على قلوب العارفين بها، المشاهدين للمتجلي بها فيها شهود يخرجهم عن أنياتهم ولوازمها من صفاتهم في حضراتها لشهود صفاته المتجلية به، فأخرجهم شهود وصفه عن وصفهم، فكانوا به له لا بهم مثنين عليه في حضرته لما يشهدونه من صفات الكمال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٣٨- «المؤمنُ يشغلُهُ الثناءُ على الله عن أنْ يكونَ لنفسه شاكرًا، وتشغلُهُ حقوقُ الله عن أن يكونَ لحظوظه ذاكرًا».**

**أقول**: إنما كان ذلك شأن المؤمن؛ لاعتقاده أن المستحق للثناء هو الله؛ لكماله

---

=

ثم قال: «ليس المتواضع الذي إذا تواضع» أي: فعل أفعال المتواضعين بأن يجلس في أسفل المجالس مثلاً، ولكن المتواضع حقيقة هو الذي لا يثبت التواضع لنفسه؛ لأنه يشاهده من صفة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته مما يمنعه من ذلك، ومن كان متصفًا بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعًا؛ لأنه يرى نفسه فوق ما صنع لغلبة الشهود عليه، فإن أثبت لنفسه ورأى نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه، فهو متكبر حقيقة.

obeikandi.com

وأفضاله، وليس للنفس في ذلك ما يقتضي أن يكون لها شاكرًا، وإن يكن فيشغله عن الثناء على من خلق ذلك فيها، وجعل إيجادها له عن المحجوبين ساترًا، وهو منكشف لعين إيمانه الذي منه ذلك، ومنه تقديم حقوق الله على حظوظ نفسه تقديمًا يشغله تأديتها عن أن يكون لنفسه ولحظوظه ذاكرًا، وهذا ينشأ عن عشق الجمال الذي مقتضاه فناء المحب في محبوبه فليس له صفات يشهدها، ولا أفعال تنافي المحبة لما قال ﷺ:

**٢٣٩- «ليس المحبُّ الذي يرجُو من محبوبه عِوَضًا، أو يطلبُ منه غرضًا، فإنَّ المُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لكَ، ليس المُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ له»**(١)

**أقول:** هذا على تقدير أن يكون للمحب ما يملكه ويبذله، فلا يكون محبًا إلا إذا لم يطلب من الله على عمله عوضًا أو منه غرضًا يتوقع به من الدنيا والآخرة غرضًا، حتى ولا الوصال إذا علم أن مراد محبوبه الانفصال، فكيف بمن لا يملك ما يبذله، وليس له وجود يقطعه، ويوصله، ووجوده لمحبوبه القادر الجواد المالك، وما سواه العاجز الفقير الهالك فهو الذي جاد على كل الوجود بالوجود، وعلى كل محب له بحبه ثم يجازيه على ذلك بشهوده، وشهود قربه فهو المحب لمن أحب، والباذل له ما به أحبه، فإن المحب من يبذُلُ لا من يبذل له، ولكنه ستر هذا العطاء عن نفوس من شاء بأنيتها لها غطى فتوهمت أن منها

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «المؤمن» الكامل «يشغله الثناء على الله» أي: وصفه بالأوصاف الجميلة، ونسبة الأوصاف الحميدة إليه «عن أن يكون لنفسه شاكرًا» أي: معظمًا لها بنسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، فإذا قال: أنا صليت أو صمت ونسب الأفعال الجميلة إليه، لم يكن مؤمنًا كاملاً؛ لأن ذلك فعل الله تعالى، والعبد مظهر لذلك فقط، ظهر فيه الفعل فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطي المنان، فالمؤمن الكامل لا ينسب الأفعال الحسنة والأحوال السيئة إلى نفسه، ولا يلتفت إليها، فيكون لها شاكرًا؛ أي: معظمًا، بل يغيب عن ذلك بنسبتها إلى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى «وتشغله حقوق الله» أي: الحرص على توفية حقوقه تعالى، «عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا» أي: ملتفتًا لها بأن يعبد الله تعالى لذاته لا يطمع في جنته أو هرب من ناره، فإنه «ليس المحب» الحقيقي «الذي يرجو من محبوبه عوضًا» على عمل يعمله، فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار، «أو يطلب منه غرضًا»، من الأغراض الدنيوية والأخروية. «فإن المحب» أي: الحقيقي «من يبذل لك» أي: يعطيك، «ليس المحب» الحقيقي «من يبذل له»؛ لأن المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب بمحبة القلب فلا يصير عند المحب التفاتٌ لغير محبوبه، فمن عبده تعالى لجنَّته فليس مُحِبًا له بل للجنّة.

الإعطاء توطئة تحقق سير السائرين في ميادينها بها وطئ ليُعْلم المبطلون من الأبطال في المجال؛ فلذا قال ﷺ:

**٢٤٠- «لولا ميادينُ النفوسِ ما تَحَقَّقَ سيرُ السائرين».**

**أقول:** تحقيق السير تحريره بوزن الأبطال في موازين الكمال من ميادين النفوس بالمجال بين عوارضها المخلة للأحوال المبطلة للأعمال؛ لتصفو أو تتمحض منها فتصح، وبصحتها يحسن السير بها للسائرين إلى حضرات الوصال سيرًا لا باتصال ولا بانفصال ولا بوقفة تقف بها عنه لما قال ﷺ:

**٢٤١- «إذ لا مسافةَ بَينكَ وبَينهُ حَتَّى تَطوِيَهَا رحلتُك، ولا قطيعةٌ بَينَكَ وبَينَهُ حَتَّى تَمحُوَهَا وصلَتُكَ»(١).**

**أقول:** المسافة للأجسام المتحيزة التي مقتضاها الجهة وهي عليه تعالى محال؛ لأنه لا يوصل إليه بالانتقال، ولا ينال من قربه شيئًا لارتحال، وإنما هو بارتحال البصيرة معنى بالعلم الكاشف لها عن شدة قربه من كل شيء، المحقق حصول وجود الذي لا وجود معه لشيء، فمتى جازت المسافة عليه حتى تقطعها بالرحلة، ومتى كانت القطيعة عنه حتى تمحوها بالوصلة، فأنت برزخ بين بحري الاتصال والانفصال في حضرات الصفات، والأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لولا ميادين النفوس» أي: شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين؛ أي: المواضع مرتكض الخيل بجامع الجولان في كل أرجائها، فكما أن الخيول تجول في الميادين كذلك النفوس تجول في مشتهياتها، والمعنى لولا هذه الشهوات التي تخوض فيها النفوس وتتعشقها «ما تحقق سير السائرين» أي: ما تصور سير ولا سلوك إلى حضرة ملك الملوك؛ لأنه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه. قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق:١٦].

فالبعد الذي يوجب السير إلى المحبوب، وسلوك الطريق إليه قائم بك أيها العبد، وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج إلى سير ولا سلوك؛ لأن البعد الذي يحتاج إلى ذلك منفي عنه ﷻ حسيًا كان أو معنويًا كما أشار إلى ذلك بقوله: «لا مسافة» حسِّية «بينك وبينه حتى تطويها رحلتك» أي: ارتحالك؛ لأن المسافة الحسِّيةَ لا تكون إلاّ بين متماثلين يصل أحدهما إلا صاحبه «ولا قُطعة» بضم القاف؛ أي: انقطاعًا وعداوة «بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك»؛ لأن الانقطاع والعداوة لا يكونان إلا بين متضادين متعاديين فيحتاج أحدهما إلى الوصلة والمودة وأين أنت من الله حتى تعاديه.

٢٤٢- «جَعلَكَ فِي العَالَمِ المتوسِّطِ بَينَ مُلكِهِ ومَلَكُوتِهِ، لِيُعلِمَكَ جَلالَةَ قَدرِكَ بَينَ مَخلُوقَاتِهِ، وأَنَّكَ جَوهَرةٌ تنطوَي عَليْهَا أَصدَافُ مُكوناتِهِ»[1].

أقول: جعلك الحق العليم، أيها العبد الكريم، بحكمته في العالم المتوسط مركبًا تركيبًا جامعًا بين دقائق عالم ملكه، وهو عالم الشهادة الحسي ومظهر ظهور الوصف الفعلي وبين رقائق عالم ملكوته، وهو عالم غيبه المعنوي ومظهر ظهور التجلي الصفاتي؛ فتكون منهما بمنزلة عينهما فتشاهد فيك ما تشاهده منها من حقائق الصفات، وأنوار التجليات المتعرف لك بذلك منهما؛ لتعرفه وتشهده به فيهما، وذلك تمييز وتكريم لك بينهما؛ ليعلمك بذلك جلاله قدرك عليهما إذ تعرف لك وأشهدك بهما وفيهما بين مخلوقاته فتعلم أنك يتيمة

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «جعلك» أيها الإنسان «في» زائدة «العلم المتوسط بين ملكه وملكوته» أي: جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت، وهو عالم الغيب، فالإنسان ليس من عالم الملك محضًا ولا من عالم الملكوت محضًا، بل هو متوسط بينهما حِسًّا ومعنى.

أما حسًّا: فلأن الله تعالى خلقه بين السماء والأرض وغيره من الحيوانات وغيرها مخلوق لأجل انتفاعه به، وأما معنى، فلأن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، وجعله متضمنًا لأسرار جميع الموجودات، علويها وسفليها، لطيفها وكثيفها، فصار بذلك روحانيًا جسمانيًا سماويًّا أرضيًّا، ولذا يقال له: العالم الأصغر، ويقال إنه نسخة من العوالم، ففيه من صفات الملائكة؛ العقل والمعرفة والعبادة، ومن صفات الشياطين؛ الإغواء والتمرد والطغيان. قال أبو العباس المرسي: «الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة».

فهذا يتعلق بالتوسط الحسي على ما مر، وأشار إلى ما يتعلق بالتوسط المعنوي بقوله: «وأنك جوهرة تنطوي عليها أصداف مكوناته» أي: أصداف هي مكوناته أو مكنوناته الشبيهة بالأصداف، جمع صدفه، وهي ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث إن صفاته جميعها فيه على ما مر ولم يخلق على هذه الصفة إلا الإنسان، فلذا خلقه الله على صفاته وجعله خليفة في تنفيذ أمره ونهيه وجعل له وجهتين، وجهة إلى الحق ووجهة إلى الخلق، وأما الملائكة ومن في معناهم من الروحانيين، فليس لهم إلا الوجهة الأولى، وهذا في جملة كل إنسان، لك لا يظهر له إلا بعد الرياضة والمجاهدة، ويسمى حينئذ الإنسان الكامل، وهذه أسرار لا تدرك إلا بالذوق، ولا تفشى لغير أربابها.

ثم أشار إلى خاصية أخرى لذلك الإنسان بقوله: «وسعك الكون» أي: العالم السفلي، وهو الأرض «من حيث جسمانيتك» بضم الجيم أي: جسمك؛ لأن جسمك بعض الكون ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه، «ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» أي: روحك؛ لأنها ليست من هذا العالم ولا مناسبة بينها وبينه، فلا تصلح أن تتعلق بشيء منه، بل لا تصلح أن تتعلق إلا بالمولى سبحانه.

عقد هذا الوجود لما خصصت به من المعالم والشهود، وإنك جوهرة تنطوي عليك وتنطبق أصداف مكوناته لذلك، ولكونك محل ولاياته، ومعدن رسالاته، ووجه مواجهة مخاطبته بتكليفاته، فاقدر قدرك يا واسع المجال، واعلم أن فيك من المنن الإلهية والربانية ما قيل، وفوق ما يقال، فاجتهد في كشف ذلك لك من صدور الرجال، واسمع ما حققه فيك؛ إذ قال ﷺ:

**٢٤٣- «إنما وَسِعَكَ الكونُ من حيثُ جُثْمَانِيَّتِكَ، ولم يَسَعْكَ من حيثُ ثُبُوتِ رَوْحَانِيَّتِكَ»**.

**أقول:** وسعك؛ أي: قبلك الكون المتكون على الله، فكفاك الله منه من حيث جثمانيتك بما أمدك به منه، فهو خزائن إمداداته المنوطة به التي تقوم بها حسياتك، بحيث إنك لا يفوتك منه ما تقوم به شئونك الجثمانية، وذلك مشهود، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك؛ لثباتها بصفات رحمانيته تعالى فيك التي لا يسعها شيء ووسعت كل شيء، ولولاها ما كان شيء، ولأجل اختصاصها بالثبوت عرفت وأشهدت تجليات الصفات ومشاهدات النعوت التي لا تدخل تحت دائرة المكونات، ومن فاته شهودها استمر مستقرًا في سجن الأكوان مع الجهال، كما قال ﷺ:

**٢٤٤- «الكائنُ في الكونِ ولم تُفْتَحْ له ميادينُ الغُيُوبِ مُسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ، مَحْصُورٌ في هَيْكَلِ ذَاتِهِ»**[1].

**أقول:** كل ذرة من الكون طريق لميدان من ميادين غيوب الدوائر الأسمائية

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: ميادين الغيوب: هي ما أدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى عالم الأرواح، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود، فمادام الإنسان في الكون بحيث لا يشهد إلا الكون، ولا يدرك إلا الحس، ولم تفتح له ميادين الغيوب؛ أي: لم يخرج إلى فضاء الشهود، فهو مسجون بمحيطاته؛ أي: بالأكوان المحيطة به كالسموات والأفلاك الدائرة به، فهو في سجن الأكوان محصور أيضًا في هيكل ذاته؛ أي: في شكل بشريته وكثائف جسمه، فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل، وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكون، فحينئذٍ تتحرر من رق الأكوان، وتحظى بنعيم الشهود والعِيان، وأما مادام محصورًا في الهيكل مسجونًا في الأكوان، فهو محجوب عن الله ولو كان عالمًا بالعلوم الرسمية متبحرًا فيها؛ إذ لا يزيده التغلغل فيها إلا حجابًا عن الله.

obeikandi.com

والحضرات الفعلية، والمشاهد الصفاتية، والبوارق الذاتية، وما تفتح أبواب طريقها بمفاتيح المعرفة بها والشهود لها للكائن البائن عنها في حجاب الكون الذي منه ذاته، وصفاتها، فهو مسجون بمحيطاته الحائطة به من محسوساته ومعنوياته، ومحصور مقهور في هياكل رسوم ذاته الحاجبة له بالصور والأشكال، فكان معها كما قال ﷺ:

**٢٤٥- «أنتَ مع الأكوانِ ما لم تشهدِ المُكَوِّنَ، فإذا شَهِدْتَهُ كانتِ الأكوانُ معك».**

أقول: أنت مع الأكوان مقهور محجوب بها ما لم تشهد مُكونها الظاهرَ بها ومنها ولها، وفيها بقدرته المتظاهرة بأسماء صفاته، وأنواع تجلياته المقتضية ذلك، فإذا شهدته بذلك كانت معك في محضر كل شيء هالك، فإن شئت قضيت بإثباتها فيه، وإن شئت غيبتها فيما هنالك فهي معك كالظلال وبشريتك معها لا تزال وشمس الخصوصية في أفقها مستوية بلا زوال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٤٦- «لا يلزمُ من ثبوتِ الخُصُوصِيَّةِ عدمُ وصفِ البشريَّةِ، إنَّما مثلُ الخصوصِيَّةِ كإشراقِ شمسِ النَّهارِ ظهرتْ في الأُفُقِ وليستْ منه»[1].**

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «لا يلزم من ثبوت الخصوصية» أي: ما يخصك الله به من القوة والقدرة على التصريف في المكونات والكشف عن أحوالها وغير ذلك «عدم وصف البشرية» كفقر وضعف وعجز وذلك وجهل؛ لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها، ثم ضرب لذلك مثالاً لأمر محسوس بقوله: «إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار» أي: كشمس النهار المشرقة «ظهرت في الأفق» أي: نواحي السماء «وليست منه» أي: ليست من ذاتياته.

وكما أن شمس النهار إذا ظهرت على الآفاق المظلمة استنارت، وإذا غربت رجعت إلى حالها من الظلمة؛ لأن النور ليس ذاتيًا لها بل هو عرض، والأمور العرضية لا تزيل الذاتيات كما مر، كذا الأوصاف البشرية القائمة بذاتك، كالفقر والعجز والضعف شبهة بالليل، فإذا ظهر عليها شمس التجلي كأن يتجلى الله عليك بصفة الغنى والقدرة استنارت ذاتك أي: حصل لها نور بالغنى والقدرة، وإذا قبض عنها ذلك رجعت إلى حالها.

وإلى هذا أشار بقوله: «تارة تشرق شموس أوصافه» تعالى الشبيهة بالشموس «على ليل وجودك» أي: على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل، فتظهر خصوصيتك فتكون قادرًا بالله، قويًا بالله، عالمًا بالله، وهكذا فإذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوة غطت عجزك، أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك وهكذا، «وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك» من العجز والضعف والجهل، وغير

**أقول:** الخصوصية التي من أدلتها المعرفة والشهود لما تعرف به المشهود فانمحى به الوجود في الوجود، وثبتت به الحدود بالإطلاق في المطلق، والتقييد في المحدود لا يلزم من ثبوتها في المخصوص بها من الحضرة الإمكانية عدم وصل البشرية التي هي من مظاهر معروفها، ومن مشارق معالم معلومها، ومثال شروقها فيها كإشراق شمس النهار التي ظهرت في أفق سمائه بالإظهار، وهي ليست منه يا أحرار، وقد تخترق سحائب البشرية بنورها لقوة سلطان ظهورها، فتكون الشمس كعادتها بين كشف وسحاب، وحضور وغياب، وكل ذلك من تعرفاته يا آل، فليتنبه من إليه ذلك، ومما أكده به قوله حيث قال ﷺ:

**٢٤٧- «تارةً تُشْرِقُ شموسُ أوصافِهِ على ليلِ وُجُودِكَ، وتارةً يقبضُ ذلك عنك فَيَرُدُّكَ إلى حُدُودِكَ، فالنَّهارُ ليس منك وإليك ولكنَّه واردٌ عليك».**

**أقول:** من الحال الذي ليس له دوام دون المقام أن يشرق الحق لك تارة تعرفه شهود شموس أنوار صفاته الظاهرة بذاته، القائم بها جميع مكوناته على ليل وجودك، فيضمحل لشروقها بأنوار نهار شهودك، فليس لك منه ضد، وليس له منك حد، إذ له الوجود، والقدم، ولك الحدوث والعدم، ويقبض ذلك عنك تارة بسدل ليل شعور إدراكك لأنية وجودك، فيردك بذلك إلى حدودك، فتفرق بين وجوبه وإمكانك، وتشهد ما تعلمه من مكانته ومكانك، فالنهار الذي أشرقت فيه شموس تعرفاته لك ليس منك ظهوره، ولا إليك أموره، ولكنه نور وارد منه عليك لحصتك من توجهه الإيجادي التي توجه بها إليك؛ لتعرف الذات بالصفات، والصفات بالأفعال المشار إلى تفصيلها، وتفصيل حال السالكين إليها، وفيها بما قال ﷺ:

**٢٤٨- «دلَّ بوجودِ آثارِهِ على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثُبُوتِ أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محالٌ أن يقومَ الوصفُ بنفسه، فأرباب الجذبِ يُكْشَفُ**

---

=

ذلك فلا تظهر خصوصيتك، ولذا كان ﷺ تارة يظهر عليه وصف القوة والقدرة فيطعم ألفًا من صاع، وتارة يظهر عليه وصف العجز، فيشد الحجر على بطنه من الجوع، وكذا ورثته من الأولياء «فالنهار» وهو تلك الخصوصيات التي ظهرت عليك «ليس منك إليك» أي: ليس من أوصافك الذاتية «ولكنه وارد عليك» من حضرة الحق سبحانه، فإن شاء أبقاه وأن شاء أزاله.

لهم عن كمالِ ذاته، ثُمَّ يَرُدُّهُم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التَّعَلُّقِ بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا؛ فنهايةُ السالكين بدايةُ المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين لكن لا بمعنًى واحدٍ، فرُبَّما التقيَا في الطريق؛ هذا في تَرَقِّيهِ، وهذا في تَدَلِّيهِ»(١).

أقول: هيأ سبحانه قبول قوابل تعرفاته على ما اقتضته إرادته بتجلياته لتجلياته، فكان منها ما يكشف له أولاً عن كمال ذاته ثم عن صفاته ثم عن أفعاله، وهي قوابل المجذوبين المتدلين، وقد لا يتدلون فيكونون مع الذات عن الصفات والأفعال واقفين، ومنها ما يكشف له أولاً عن كمال أفعاله ثم عن صفاته ثم عن ذاته، وهي قوابل السالكين المترقين، وقد لا يترقون فيكونون مع ا لعبادة في الكون عن السلوك واقفين، واعلم أنه دل فهدى أولاً من وسعه من السالكين من حيث أفعاله بآثاره الناشئة بإفضاله عن أسمائه التي الآثار صور أحكامها ومتنوعة لتنوعاتها؛ لتَعرف وتشهد في حضراته، ثم دل فهدى بوجود أسمائه المحققة على ثبوت صفاته التي هي مسمياتها؛ لتعرف وتشهد بتعرفاته، ثم دل فهدى بوجود أوصافه التي يوصف بها من صفاته على وجود ذاته القائمة بالكل، المتجلية بالكل، في كل من الكل على مقتضى محيطاته؛ إذ محالٌ أن يقوم الوصف بنَفْسه إلا بها، وأما أرباب الجذب المنجذبون عن عوالم ممكناته إلى حضرات شهود واجباته، فإنه يَكشف لهم أولاً عن كمال ذاته ثم يردهم متدلين إلى شهود صفاته بذاته، ثم يرجعهم بها كذلك متدلين إلى التعلق بأسمائه التي هي أعلام صفاته، ثم يردهم بها إلى شهود أثاره التي هي صورها

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: هذه طريقة الترقي، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلاً، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لا تفارقه، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثري، وهنا افتراق أهل الظاهر من أهل الباطن.

فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات، ولم يقدروا على شهود الذات، غلبهم الحس عن شهود المعنى، والوهم عن ثبوت العلم، وشهود الحكمة عن شهود القدرة، وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار، وباعوا نفوسهم للواحد القهار فتح الله عين بصيرتهم، وأطلعهم على مكنون سره، فأفردوا الحق بالوجود، وانتفى عن بصيرتهم نظرهم كل موجود؛ إذ محال أن يفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها، فلزم من وجود الصفات وجود الذات، وهذا هو سر الخصوصية الذي خص الله بها أولياءه، ولم يشاركهم فيه غيرهم.

المتعرف لهم بها، وذلك لهم من كماله، فهم على عكس حال السالكين، وقد تقدم في خلال الكلام على الحكمة بيانه، وبسط هنالك عنوانه، فنهاية السالكين التي هي حضرة ذاته للمجذوبين بداية، وبداية السالكين التي هي حضرة شهود آثاره للمجذوبين نهاية، لكن لا بمعنى واحد في السلوك والجذب لاختلاف القوابل والاستعدادات، فربما التقى السالك في طريقه، والمجذوب في تحقيقه ذاك في ترقيه بسلوكه، وهذا في تدليه بإدراكه لمدركه، فهذه حالة المجذوب من نفسه لربه ما غاب عنها إلا وشهده، لا من برقت له بارقة اختطفت عقله ففقده، فلا مع نفسه أقام ولا من ربه وجد المرام، فتأمل كيف حاز كل من المجذوبين إليه والسالكين إليه الكمال، هذا كمال بالنهاية، وهذا كامل بالبداية، واقدر قدر ما من الحق ينال، واعلم أن لكل منال مجال يظهر فيه قدره؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٤٩- «لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنوارِ القلوبِ والأسرارِ إلا في غيبِ الملكوت، كما لا تظهرُ أنوارُ السماء إلا في شهادة الملك»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: اعلم أن الناس كلهم عندهم النور في قلوبهم، بدليل قوله ﷺ: **«كُلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة»** أي: على أصل النشأة الأولية وهي القبضة النوارنية، وقال تعالى: **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** [النور٣٥]. قال أهل تفسير الظاهر: أي: نور أهل السموات والأرض، وهو عام في كل موجود فيهما، فقد تحقق أن النور سار في الجميع، فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمي عنه، وهو من وقف مع ظاهر الملك وهو قشر الكون وحسه الظاهر، ويسمى عالم الأشباح ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت، ويسمي عالم الأرواح، فهذا محجوب عن نوره الباطني لا يرى إلا النور الحسي، لأنه مسجون في سجن الأكوان محصور في ظلمة الحس والوهم، ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني فيه، ولم يقف مع القشر، بل نفذ إلى شهود اللب، وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت. فإذا تحققت هذا علمت أنه لا يعلم بالبناء للمفعول؛ أي: لا يظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها، وأنوار السرار القدسية وكمالها إلا في غيب الملكوت والجبروت، فأنوار القلوب لا يعلم قدرها إلا في غيب الملكوت، وهي الأنوار المتدفقة من بحار الجبروت، فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها، بل لم يعرفها أصلاً، وأنوار الأسرار لا يعلم قدرها إلا في غيب الجبروت وهي الأنوار الأصلية الأزلية، وهو ما لم يدخل عالم التكوين، فمن كان محجوبًا في عالم الملك لا يعلم قدر أنوار الملكوت ولا يحس بها، بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعي الخصوصية، وهو بعيد منها، ومن كان واقفًا مع أنوار الملكوت لا يعلم قدرا أنوار الجبروت، ومن نفذ منها شهد الجميع، وكما لا تظهر الأنوار الغيبية إلا في غيب الملكوت أو الجبروت، كذلك لا تظهر أنوار الملك،

**أقول:** أنوار القلوب معارف الصفات وشهودها، وأنوار الأسرار معارف الذات ووجودها، ولا يعلم مقدار ذالك للمتأهل؛ لشهودها بمعرفته إلا في غيب ملكوته الذي هو باطن ملكه؛ لأنه ملتقى شهودها، ومجلى وجودها، كما لا تظهر أنوار سماء الأفعال إلا في شهادة ملكه الذي هو ظاهر ملكوته؛ لأنه معدن شهودها، ومظهر ظهورها، وهذا كله من أجل ثمرات الأعمال الزاكية المشار إليها بما قال ﷺ:

٢٥٠- **«وجدانُ ثمراتِ الطاعةِ عاجلاً بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً»**(١).

**أقول:** هذا التلازم المعلق على إرادة الحق تعالى، هو إما التطلع إلى الثمرة عاجلاً وإلى الجزاء آجلاً، فهو شأن عامل الطاعات إذا كان ثابت الأنية يرى له أعمالاً يتوقع بها في الأجل عَطية؛ ليستبشر بحصولها إن رأى في العاجل ثمرات قبولها كخرق العوائد الكونية،

---

=

وهي الأنوار الحسية إلا في عالم الشهادة وهو عالم الحس، ويسمى عالم الملك.

والحاصل: إن أنوار القلوب هي أنوار الملكوت، وأنوار الأسرار هي أنوار الجبروت وهي غيبية لا يعلم قدرها إلا من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت، فحينئذٍ يدركها ويعلم قدرها علمًا وحالاً.

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «وجدان ثمرات الطاعات» وهي الأنوار التي تحصل في قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها في حال فعلها «عاجلاً» أي: في الدنيا «بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً» أي: بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة وأنها مقبولة عند الله، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: «من وجد ثمرة عمله عاجلاً؛ فهو دليل على وجود القبول» ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء وأنه ممدوح، دفع ذلك بقوله: «كيف تطلب العوض» أي: الجزاء «على عمل متصدق به عليك» أي: أن هذا غير لائق منك؛ لأن الإنسان لا يطلب الجزاء من الغير إلا إذا فعل معه فعلاً يعود نفعه على ذلك الغير، وذلك مفقود هنا؛ لأن نفع تلك الأعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه؛ لأنه غني عنك وعن أعمالك. وكما أن الجزاء يكون على العمل يكون أيضًا على الصدق أي: الإخلاص فيه، وهو غير لائق أيضا؛ ولذا قال: «أم كيف تطلب الجزاء على صدق» أي: إخلاص في العمل «هو مُهدِيه إليك» وعبر بالتصدق والإهداء تنبيهًا على ما ذُكر، وهو أن ذلك العمل والإخلاص فيه لم يكن إلا لمنفعتك، فطلب العوض والجزاء إذا على ذلك في غاية القبح، ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبي تقبيحًا لذلك الوصف، واستعمل لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة والهدية في الصدقة الذي هو من الأعمال الباطنة، وعليه مدار قبول الأعمال الظاهرة إشعارًا بتباينهما في الشرف تباين الصدقة والهدية، فإن الأولى يقصد بها الفقراء والثانية الأغنياء، فتدل على شرف المُهدى إليه.

وكل ذلك من الحظوظ النفسانية، وإن لم يكن ثابت الأنية فلا حظوظ له في الحال ولا في المآل؛ لغلبة حكم الاضمحلال ولسان حاله يخاطب الأول بما تعجب منه وقال ﷺ:

**٢٥١- «كيفَ تطلبُ العِوَضَ على عملٍ هو مُتَصَدِّقٌ به عليك؟ أمْ كيفَ تطلبُ الجزاءَ على صدقٍ هو مُهْدِيهُ إليك؟»**.

**أقول:** طلب العوض دليل على عدم الصدق في العمل، وطلب الجزاء دليل على عدم الإخلاص في الصدق، والحال أن العمل من صدقاته، والصدق من هدياته، فليس منك شيء متوقع به بعض شيء، وإذا لم تكن كذا فأنت بذلك في نار البعد في شيء، فمن الأعمال المتصدق بها الأذكار، ومن الهدايا المتفضل بها الأنوار، فالأنوار للأحرار، والأذكار للعمال المشار إليهم بما قال ﷺ:

**٢٥٢- «قومٌ تَسْبِقُ أنوارُهم أذكارَهم، وقومٌ تَسْبِقُ أذكارُهم أنوارَهم، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم، وقوم لا أنوار ولا أذكار، نعوذ بالله من ذلك، ذاكر ذَكَرَ ليستنير به قلبه فكان ذَاكِرا، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا، والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يُهتدى، وبنوره يُقتدى»**[1].

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «قوم تسبق أنوارهم أذكارهم» وهم المجذوبون المرادون، فلما واجهتهما الأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمد بل بسهولة وخفة «وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم»، وهم المريدون والسالكون، وذلك شأنهم المجاهدة والمكابدة، فيأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمد ليحصل بها الأنوار، فالأولون وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥] والآخرون وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله: «ذاكر ذكر ليستنير قلبه» وهو السالك «وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا» وهو المجذوب، فالذكر له كالنفس الطبيعي، بل أسهل بخلاف الأول، وتقدم أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن الأول عرف طريقا توصل بها إلى الله وناله فيها غاية التعب والمشقة، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وهو كذلك بالنسبة لأغلب المجاذيب، وإلا فبعضهم له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعًا إلى الله عاجلاً كما مر.

فلم تفته الطريق وإنما فاته متاعبها وطول أمدها ثم أشار إلى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعًا بقوله: «ما كان ظاهر ذكر» أي: ذكر ظاهر «إلا عن باطن شهود وفكر» أي: إلا عن شهود للمولى باطنًا وفكر فيه، فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهرًا إلا بعد مشاهدة الرب باطنًا، وفكر فيه، وإن كان المجذوب يدرك ذلك والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته فلم يفقد النور السابق بالكلية وإلا لما أمكن منه الذكر.

أقول: الذين تسبق أنوارهم هم المجذوبين السالكون، والذي تسبق أذكارهم هم السالكون المجذوبون، فالسالكون يذكرون؛ ليستنيروا إما بوجود النور، وإما بوجود المنور، والمجذوبون المستنيرون إما بوجود النور، أو بوجود المنور يذكرون إما لاتساع النور ومعرفة ما غاب من الأمور، وإما لشهود المذكور في جميع مراتب الظهور، فتحرر من الحال ما قال ﷺ:

٢٥٣-«ما كانَ ظاهرُ ذِكْرٍ إلا عن باطنِ شهودٍ وفِكْرٍ».

أقول: أي ما وجد في الخارج ذكر من الأذكار إلا عن باطن شهود لمشهود إما من الآثار، وإما من الأنوار، وإما من الأسرار، فإن كان عن الآثار فبتصور وفكر، وإن كان من الأنوار فبتصفية لسر، وإن كان من الأسرار فلفناء لغير يزال بالذكر المسبوق بالشهود ويشهد ذلك ما قال ﷺ:

٢٥٤- «أَشْهدكَ من قبل أن يسْتَشْهِدَكَ، فنطقتْ بأُلُوهِيَّتِهِ الظواهرُ، وتحققتْ بأحدِيَّتِهِ القلوبُ والسَّرَائِر»(١).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «أشهدك» أي: تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك «من قبل أن يستشهدك» أي: يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، فإن الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود واعتراف بوحدانيته «فنطقت بألوهيته» أي: بما يدل على ألوهيته «الظواهر» أي: الجوارح الظاهرة، وهذا راجع للثاني وهو الاستشهاد، وقوله: «وتحققت بأحدية القلوب والسرائر»، راجع للأول، وهو الإشهاد ويحتمل أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للأرواح في عالم الغيب عن ألوهية وأحدية ذاته وإحاطة قيوميته.

ثم لما أظهرها في عالم الشهادة بأن ركبها في الأجسام طلب منها على لسان الأنبياء الشهادة له بالألوهية، فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت به تبعًا لشهودها لما شهدت فقوله: «أشهدك» أي: في عالم الأرواح وقوله: «من قبل أن يستشهدك» أي: يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها في الأجسام، «فنطقت بألوهيته الظواهر» أي: الجوارح الظاهرة نطقًا حقيقيًا في اللسان وحاليًا في غيره، وقوله: «فنطقت» مفرغ على محذوف؛ أي: فلما طلب الشهادة منها على لسان الأنبياء، وتحققت بأحديته؛ أي: جزمت بكونه واحدًا لا شريك له «القلوب»، والسرائر جمع: سريرة كما مرَّ «أكرمك» أيها العبد الذي أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعباداتك ووحدته بقلبك وسرك.

«أكرمك بكرامات ثلاث» جمع لك بها كل المفاخر والمحامد: الأولى: إنه «جعلك ذاكرًا له» بلسانك

**أقول**: أشهدك ربك الذي رباك وجميع أمثالك ما تقدم بيانه، وانجلى لك عرفانه بالجنان قبل أن استشهدك باللسان، وذلك في الآباد كما أشهدك في حضرة ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف:١٧٢] عظمة الجلال قبل أن استشهدك بالمقال، وذلك في الآزال وليس هذا خاصًا بك بل عام لكل المخاطبين، فنطقت بإلهيته جميع الظواهر المشهودة منهم التي هو بها ظاهر، وتحققت منهم بواحديته القلوب، وبأحديته السرائر التي هو لها مشهود، وعندها حاضر، والحاضر مذكور بالشهود للظهور، والمشاهد له ذاكر بالصفات والأفعال، والذاكر مذكور به في عوالمه وعنده في مشاهد الكمال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٥٥- «أَكْرَمَكَ بكراماتٍ ثلاث: جعلك ذاكرًا له ولولا فضلُه لم تكنْ أهلا لجريانِ ذِكْرِه عليك، وجعلك مذكورًا به إذ حقَّقَ نسبتَه لديك، وجعلك مذكورًا عنده فتمَّمَ نعمتَه عليك».**

**أقول**: مما أكرمك به مولاك الكريم بعد أن حققك باسمه العليم ثلاث كرامات أنت بها مميز بين الكائنات، وهي أن جعلك ذاكرًا له بلسان وجودك، وهو افتقارك إليه،

---

=

وعباداتك الظاهرية والباطنية، «ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك» لأنك مجبول على النقص والكسل والفتور فحصول ذلك منه منة وفضل عليك، ومن أنت حتى تكون محلاً لذكره وموضعًا لطاعته والتعلق به؟!

**والثانية**: إنه «جعلك مذكورًا به» بأن يقال لك: هذا ولي الله وصفيه ومختاره وذاكره «إذ حقق» أي: أثبت «نسبته» أي: خصوصيته «لديك» وهي ما أظهره عليك من أنوار الذكر التي استنار بها ظاهرك وباطنك فتحقيق الخصوصية لديك سبب في ذكرك به؛ أي: انتسابك له، ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها ويحفظها ويفرح بها ويجد في نفسه انبساطًا عند تذكرها، فكيف بهذه النسبة العظيمة التي صرت تذكر بها في الملأ الأعلى وعند المؤمنين إلى آخر الدهر، فإن من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكره لله تعالى يبقى الثناء عليه ولا ينقطع ذكره والدعاء له، ومن مات من غيرهم مات ذكره معه، ويحتمل أن قوله إذا حقق في قوة التفريغ على ما قبله والمعنى جعلك مذكورًا به فحقق نسبة لديك أي: انتسابك له فيكون ذكرك به تحقيقًا لنسبتك له.

**والثالثة**: إنه «جعلك مذكورًا عنده» لحديث: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه**».

«فتمم نعمته عليك» ذكرك عنده، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] قيل: معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله.

ولسان قالك وهو ظاهر، ولسان شهودك وهو تعلق شاهدك به من حيث عرفانك الناتج عن علمك، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذلك منه عليك مع عدم احتياجه إليك، فهو منه له، فلا ترى أنه منك له فتؤخذ من بين يديك، وجعلك مذكورًا به في مواكب محاضره، ومنصات عرائس مقاصره؛ إذ حقق نسبته بالإيجاد والإمداد والسيادة إليك، وبسبب عَبْديتك وعبوديتك اللتين أوجدهما لديك، وجعلك مذكورًا عنده في حضائر قدسه بذكرك له المسبوق في علمه بما يقتضي ما تقدم من كونك ذاكرًا له ومذكورًا به ومذكورًا عنده، وما يترتب عليه إن شاء في حضرة ذاته من شهود حقائق الصفات والأفعال المترائية لك من مرآي آنات الآجال، فتتم نعمته عليك بشهوده المعتبر في حصول الفوز به، قصر الأجل أو طال، وتأمل ما قال ﷺ:

**٢٥٦- «رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُه، وقلّت أمدادُه، ورُبَّ عُمْرٍ قليلةٌ آمادُه، كثيرةٌ أمدادُه».**

**أقول:** أي رب عُمر لمُعَمَّر اتسعت آماده بطول المدد، وقلت أمداده من المعرفة والشهود والقيام بالحدود، فلم يطل لقلة المدد لعدم شهود ما هو متراء به فيها الحق المشهود من تعرفات حقائق الوجود التي لا تقل هي بسبب عدم معرفتها والشهود، فصاحبه بقدر قلتها مع طول عمره مبعود، ورب عُمر لغير مُعمرٍ قليله آماده بالقصر كثيرة إمداده من المعرفة والشهود، ولما تعرف به فيها المشهود، فصاحبه بقدر كثرتها مسعود؛ لأنه بورك له فيما تفضل به الحق عليه من المنال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٥٧- «مَنْ بُورِكَ له في عمره أدركَ في يسيرٍ من الزمن من مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخلُ تحت دوائرِ العبارة ولا تلحقُه الإشارةُ»**(١).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «رب عمر اتسعت آماده» أي: غاياته وأزمنته، «وقلت أمداده» ـ بفتح الهمزة ـ أي: فوائده وذلك كأعمار الغافلين عن الله المشتغلين بشهوات نفوسهم، فإنها وإن كانت طويلة في الحس فهي قصيرة في المعنى لقلة أمدادها «ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده» وذلك كأعمار الذاكرين، فإنها وإن كانت قصيرة حسًّا فهي طويلة معنى لكثرة أمدادها، وذلك هو معنى البركة في العمر، ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده؛ أي: أزمنته، وبحسبها بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه بأضعاف مضاعفة «من بورك له» أي: من أراد الله أن ينـزل البركة «في عمره» رزقه الإقبال على مولاه، فـ«أدرك في يسير من الزمن من منن الله

**أقول**: البركة في العمر اليسير إنما هو بإدراكك وشهودك ما تراءى به لك في مرايا آناته من منن الله القدير؛ لتقوم بحقه، فالغافل عنها مضيع، والعاقل لها بها متمتع إما تمتعًا علميًا يُثمر أعمالاً تقتضيها المنن المترائية في الآجال؛ ليدرك بها في المآل من الجزاء ما لا يدخل تحت العبارة ولا تلحقه الإشارة، وإما تمتعًا شهوديًا من عين المنن المترائية يثمر معاينة لما تجلى به الحق فيها من الأسماء والصفات المتنوعة عنها التجليات المتجلية بها الذات إلى غير ذلك من التعرفات الصفاتية والذاتية التي لا تدخل تحت عبارة، ولا تلحقها إشارة وهذه المدركات إدراكها علمًا وشهودًا يوجب البركة في اليسير من الآجال، فكيف لو علمت وشهدت في ما منها طال، فقد تحصل مما علم أنها المقصودة بكل حال، والمتخلف عنها شهودًا، ومعرفة يخشى عليه مما قال ﷺ:

**٢٥٨- «الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه».**

**أقول**: هذا تنزل إلى ترقيك أوقات الفراغ من شاغلك بالخلق لأجل توجهك إلى شهود وجود الملك الحق، الباعث لك على رحلتك بتقليل عوائقك؛ لتدرك من دقائق عمرك ما تقدم بيانه من تعرفات تجليات الحق لك عز شأنه، فإن أنت تخلفت مع التقلل والفراغ مما سوى الله عن التوجه والرحلة إلى الله لمشاهدة تجلياته، وحقائق أسمائه وصفاته، فلك الخذلان الكلي المستوعب لجميع أجزائه بصفاته، وإلا فَبُخلُوكَ يكون التوجه إليه بالتقلل من السوى تكون الرحلة والإقبال عليه، ولابد لكل فيهما من التفكر في كيفية الانفصال، ومعرفة الاتصال؛ ولذا قال ﷺ:

=

ما لا يدخل تحت دوائر العبارة» أي: تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الإحاطة بما يحويه، «ولا تلحقه الإشارة» أي: لا تصل إليه.

والمعنى: إذا أراد الله تعالى أن يبارك في عمر ولي من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، فيبادر إلى الأعمال الصالحة في جميع ساعاته، فيدرك في يسير الزمان ما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة؛ أي: ما لا تحيط به لكثرته وشرفه فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة؛ أي: لا تصل إليه لرقته وغاية صفائه، فيرتفع له في شهر مثلاً ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر. «كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر». وكان أبو العباس المرسي ـ قدس سره ـ يقول: «أوقاتنا كلها ليلة قدر».

**٢٥٩- «الفِكْرَةُ: سَيْرُ القلبِ في ميادينِ الاعتبارِ، الفكرةُ سِرَاجُ القلبِ فإذا ذهبتْ فلا إضاءةَ له».**

**أقول:** الفكرة استرسال النظر القلبي بتدبير متعلق إما برفع نقاب، وإزالة سحاب، وإما بمعرفة اقتراب أو شهود أحباب، وهي هاهنا سير القلب من الإمكان إلى الوجوب في ميادين الاعتبار بأعين الاستبصار، وهي للقلب سراج، ونورها على قالبه وهاج، معمر بزيت الحكمة، تقتبس منها النعمة بعد النعمة؛ نعمة التخلص من الصدود، ونعمة القيام بالحدود، ونعمة الفناء في الشهود، ونعمة البقاء بالمشهود، وكل ذلك من استضاءة القلب بها، وإلا فلا أضاءه له، وإذا ذهب نوره أنى ينال من ثمرة الفكرة ما قال ﷺ:

**٢٦٠- «الفكرةُ فكرتان: فكرة تصديقٍ وإيمانٍ وفكرة شُهُودٍ وعِيان، فالأُولَى: لأربابِ الاعتبار، والثَّانِيَةُ: لأربابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصَارِ»[1].**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: من لا تفرغ له لا فكرة له، ومن لا فكرة له لا سير له، ومن لا سير له لا وصول له، فالفكرة هي سير القلب إلى حضرة الرب، وذلك السير في ميادين الأغيار؛ أي: في مجال شهود الأغيار، ليستدل بها على وجود الأنوار، فهذه فكرة أهل الحجاب، وفكرة أهل الشهود سير الروح في ميادين الأنوار، أو سير السر في ميادين الأسرار، فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها، ولو تكلم عليهما معًا لكان أحسن كما فعل فيما يأتي حيث قال: «الفكرة فكرتان... إلخ».

وقال الشيخ زروق ﷺ: الفكرة انبعاث القوة الإدراكية في عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه، ومن وجد ذلك فهو عارف انتهى.

والتحقيق: إن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكر إلا في المصنوعات، وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلا في عظمة الذات: أي في عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه، وفي الغيبة عن الحس وشهود المعنى، أو في الغيبة عن الكون بشهود المكون، أو في الغيبة عن الظلمة بشهود النور، وهو سراج القلب.

وقال الشيخ ابن عجيبة أيضًا: الفكرة في عظمة الباري وتوحيده نور، فإذا كان القلب مشغولاً بالفكرة في عظمة الحق فهو منور بنور الحق، وإذا خلا من الفكرة في الحق دخلته الفكرة في الأغيار وهي ظلمة، ولا تجتمع الظلمة والنور أبدًا، فالفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت الفكرة في الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون فلا إضاءة له، ولذلك قال الجنيد ﷺ: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان الفكرة على بساط التوحيد انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أربعة من حازهن فهو من الصديقين المقربين، ومن حاز منهن ثلاثة

**أقول**: الفكرة المتقدمة بيان حدها فكرتان باعتبار متعلق حدها، وهو إما التصديق والإيمان، وإما الشهود والعيان، فالأولى: للسائرين أهل الاعتبار، والثاني: للواصلين أهل الشهود والاستبصار المكتسب ذلك بسير القلوب بعد تصفيتها مما سوى المحبوب بواسطة الرجال الذين منهم صاحب هذا الكمال المستفاد من هذا المقال، المكاتب لبعض إخوانه مكاتبة تهديهم بما تضمنته من عرفانه؛ لتتصفى منهم الأحوال، وتتخلص الأعمال، وتصدق الأقوال بما وجهه إليهم.

---

=

فهو من أولياء الله المقربين، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين: **أولها**: الذكر، وبساطه العمل الصالح وثمرته النور. **الثاني**: الفكرة، وبساطه الصبر، وثمرته العلم. **الثالث**: الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه. **الرابع**: الحب، وبساطه بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصول إلى المحبوب.

obeikandl.com

## المكاتبات

٢٦١- «وقال مما كتب به لبعض إخوانه: أمَّا بعدُ: فإنَّ البداياتِ مَجلات النِّهاياتِ(١)، وإن مَنْ كانتْ بالله بدايَتُهُ كانتْ إليه نِهَايَتُهُ، والمُشْتَغلُ به هو الذي أحببتَه وسارعتَ إليه، والمُشْتَغلُ عنه هو المُؤثَرُ عليه، وإن مَنْ أيقنَ أنَّ الله يطلبُهُ صدقَ الطلبَ إليه(٢)، ومن عَلِمَ أنَّ الأمور بيد الله انجمعَ بالتَّوَكُّلِ عليه وأنَّه لابُدَّ لبناء هذا الوجود أنْ تَنْهَدِمَ دعائمُهُ، وأن تُسْلَبَ كرائمُه».

أقول: أي: أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، فإن البدايات التي هي التخليات والتجليات من التنسكات البدنية، والتخلقات القلبية، والتوجهات السرية، المفتتح بها السلوك إلى حضرة مالك الملوك هي مجلاة ومرآة للنهايات التي هي مشاهدات حقائق الصفات، وأنوار التجليات بحسب ما يتجلى للسالك في بدايتها من مقاصد

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: البدايات ما يظهر على المريد في أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهو مظهر ومجلاة للنهايات؛ أي: يتجلى فيها ما يكون في النهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادًّا في طلب الحق باذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية، والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصرًا في ذلك علمنا قصوره عما هنالك، وبالجملة: من رأيته صادق العزم في البداية، فاعلم أنه من أهل العناية، ومن كان في سلوكه معتمدًا، على الله، ومفوضًا أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله كما نبه عليه بقوله.

وقال أيضًا: البداية بالله هي ألا يرى لنفسه حولاً ولا قوة، لا في عمل ولا في حال، ولا في مجاهدة ولا مكابدة، بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال رآه منة من الله وهدية إليه، فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته.

ومما يتأكد النظر إليه في البداية تصحيح ما يفتقر إليه في سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة، فالعمل بلا علم جناية، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية، فإذا حصل المريد ما يحتاج إليه في بدايته من إتقان طهارته وصلاته وصومه، فليشتغل بطاعة ربه، ويعرض عما يشغله عنه.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: اليقين هو سكون القلب وطمأنينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب في جميع الأمور، وطلب الله لعبده من وجوه، منها: إنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية، ومنها: إنه يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه ويطلبه بالعكوف في حضرته على بساط الأدب والمحبة، فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إليه، وصدق الطلب هو إفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره، فلم يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه.

العاملين بها، فإن تكن حقًا أنتجتها، وإن تكن حظا أفقدتها، فإن من كانت بنفسه وحظوظه بدايته كانت إليها نهايته، ومن كانت بالله وحقوقه بدايته كانت إلى الله وشهوده نهايته، والمشتغل به من حيث شهود تجلياته اشتغالاً يحيى به هو الذي أحبه بالخاص من المحبة؛ لفنائه فيه، وسارع إليه بذلك؛ لبقائه به، والمشتغل عنه تعالى بما سواه هو المؤثر ذلك السوى عليه مع اضطراره إليه دون سواه، نعوذ بالله، وذلك جهل منه به تعالى، وبأنه مطلوب إليه لما تعرف به، ومُطالب بشهود ذلك بالله لا بنفسه لصدق إجابته، فإنه من تيقن بحق اليقين أن الله يطلبه بكل شيء أوجده وتعرف به؛ ليدخل إليه منه صدق الطلب بالتوجه إليه من ذلك الشيء، فإنه طريق دالة عليه، وبها يتوصل إلى شهوده، ومن ثم يكون هذا المشاهد ممن علم أن الأمور الصادرة من مصادرها النافعة الضارة بيد الله، فينجمع بالتوكل عليه انجماعًا يتحقق منه عجز ما سواه، وفاقته، بل انعدامه وعدم بقائه، فيعتمد عليه سبحانه دون ما سواه، ويكون ممن رأى أنه لابُدَّ لبناء هذا الوجود الممكن المعرض للزوال جميعه أن تنهدم دعائمه الإمكانية التي هي الحكام، وولاة الأمر من العلويات والسفليات المعتبرة عند المحجوبين عن الله بها في الاعتماد، وعليها لما أوجده الحق عندها بطريق العادة من القضايا والأحكام، وأن تسلب كرائمه العرضية بالإفناء والإعدام التي سبب ظهورها إنما هي تعرفه بما شاء أن يتعرف سبحانه من حضرة الجلال والجمال والكمال، ثم يُطوى ذلك ويزال، فلا يفرح بما سوى الحق؛ ولذا قال رضي الله عنه:

**٢٦٢- «فالعاقلُ من كانَ بما هو أبقى أفرحَ منه بما هو يَفْنَى».**

**أقول:** العاقل من عقل الحق الأبقى المتعرف في الخلق بالخلق الذي يفنى حقًا، فكان أفرح به وبشهوده مما هو باق من الدار الآخرة التي لا تفنى فضلاً عما يفنى؛ لتعلق شاهده بالظاهر دون المظاهر في الدنيا والأخرى؛ لانغماسه في أنوار العرفان الماحية ما عنده من الأوهام والخيال؛ ولذا تراه كما قال:

**٢٦٣- «قد أشرقَ نورُه وظهرتْ تباشيرُه، فَصَدَفَ عن هذه الدارِ مُغْضِيًا، وأعرضَ عنها مُوَلِّيًا»(١)، فلم يَتَّخِذْهَا وطنًا، ولا جَعَلَهَا سكنًا، بل أنهضَ الهمَّة فيها إلى الله تعالى، وصارَ**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الصدوف هو الإعراض والتولي؛ أي: فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا بحذافيرها مغضيًا بصره؛ أي: مغمضًا عيني بصيرته عن النظر إلى زهرة هذا الدار وبهجتها ممتثلاً في ذلك قول المولى لرسوله المصطفى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١] أي: أصنافًا من الكفار. ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١] وأعرض عن هذا قلبًا وقالبًا، موليًا ظهره عنها، مقبلاً بوجهه إلى المولى.

**فيها مستعينًا به في القُدومِ عليه».**

**أقول**: إشراق نوره انبساط عرفانه على كل ستوره فيشاهد بذلك الحق في بطونه، وظهوره، وأحكامه، وأموره، فظهرت له وللمطلعين على حاله تباشيره المسفرة عن سروره بما متعه الحق به من الأسرار، وأشهده من الشموس والأقمار، فأصدف بعين وجه قلبه إليها عن هذه الدار الفانية ثانيًا، وأعرض إلى الحق عنها وعن حظوظها ومنقوشات عروشها الزائلة موليًا، فلم يتخذها وطنًا ومقرًا وإنما قضى منها وطرا لتعلقه أنها جعلت ممرا، فأنهض الهمة عنها فيها إلى الله سفرًا مستعينًا به في السير إليه عنها مدبرًا منيرًا من حوله وقوته إليه في القدوم عليه، وهكذا لا يزال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٦٤- «فما زالتْ مَطِيَّةُ عزمِهِ لا يقرُّ قرارَها دائمًا تسيارُها إلى أنْ أناختْ بحضرةِ القُدْسِ وبِسَاطِ الأُنْسِ، محلِّ المُفَاتَحَةِ والمواجهةِ، والمجالسة والمحادثة، والمشاهدة والمطالعة(١)»،**

---

=

قال الشطيبي: واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب، ومتى كان القلب معلقًا بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها، بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت في اليد أو لم تكن، قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها سليمان عليه السلام: هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب.

وقال فيه أيضًا: ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] وقال تعالى لمن نـزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً﴾ [ص:٤٣] ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا، وعلامة تركها ألا يفرح بالموجود منها ولا يتأسف على ما فاته منها، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها، وقد يقصد بترك الدنيا ما هو أعظم من الدنيا كحب الجاه والرياسة وغير ذلك من الحظوظ، ولذلك قيل: من أراد أن يكون منه شيء فلا يأتي منه شيء؛ لأنه عبد لإرادته، وعامل لحظ نفسه، فإذا انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية صح قصده إلى الله، وانفرد قلبه بالتوجه لمولاه.

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: المفاتحة هي مفاتحة علم الغيوب، فأنت تفاتحه بطلب العطاء، وهو يفاتحك بكشف الغطاء، أنت تفاتحه بطلب الزيادة، وهو يفاتحك بتوالي الإفادة، أنت تفاتحه بالترقي في المقامات، وهو يفاتحك بأسرار العلوم والمكاشفات.

وأما المواجهة: فهي مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه، وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب، وفتح الباب. أنت تواجه بالطاعة، وهو يواجهك بالمحبة، وأنت تواجهه بالإقبال، وهو يواجهك بالوصال، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت، وهو

فصارتِ الحضرةُ معشش قلوبِهِم، إليها يأوون وفيها يَسكنون».

أقول: العزم هو تحقيق القصد، وهو ثاني أركان أصول الدخول في هذا الشأن، وذلك أن صاحب القصد الصحيح على بصيرة وطمأنينة بحكم التجرد والانقطاع عن كل ما يعيقه قد يعتريه في أثناء سيره أثر شوق، والتفات يسير على أثر من آثار ما انقطع عنه وتجرد منه، فيحتاج إلى تقوية الباعث ليقطع ذلك الأثر؛ فتسمى تلك التقوية بالعزم الذي هو تحقيق القصد ومطيته المحبة الخاصة التي لا يقر قرارها دائمًا تسيارها من عالم النفس إلى أن أناخت بحضرة القدس المقدسة بذاتها عما سواها، وبساط الأنس بها حيث غاب بها عن النفس والحس، وهو محل المفاتحة بين الرب والسر والقلب منه تعالى، وهي الإفاضة بما يفتح به من الشهودات والإلهامات، ومنها القبول والمواجهة للقبول، والمجالسة على بساط قربه بذكره له الذكر الذي به غاب الذاكر، وذكره في المذكور، والمحادثة التي هي خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة ككلام موسى من الشجرة، والمشاهدة التي هي رؤية الحق من غير تهمة تقتضي التردد، والمطالعةُ التي هي توقيعات الحق للعارفين ابتداء أو عن سؤال منهم فيما يرجع إلى حوادث الكون، وهذه الحضرة الشاملة لكل ما تقدم بيانه

---

=

يواجهك بكشف أسرار الجبروت. وأما المجالسة: فهي مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء، وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، أنت تجالسه بمراقبته، وهو يجالسك بحفظه ورعايته، أنت تجالسه بذكره وهو يجالسك ببره: أنا جليس من ذكرني ،كما في الحديث.

وأما المحادثة: فهي المكالمة القلبية وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله، وهو يحادثه بمزيد إحسانه ونواله، أنت تحادثه بدوام حضوره قي سرك ولبك، وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار الحكم في قلبك، أنت تحادثه في عالم الشهادة، وهو يحادثه في عالم الغيب. وفي التحقيق ما ثم إلا عالم الغيب ظهر في عالم الشهادة.

وأما المشاهدة: فهي كشف حجاب الحس عن نور القدس.

وأما المطالعة: فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر، فأنت تطالعه بالتوجه إليه، وهو يطالعك بالترقي إليه، أنت تطالع موقع قضائه وقدره فتتلقاها بالقبول والرضا، وهو يطالع أحوالك وسرائرك، فيكشف عنك الحجب، ويوسع عليك الفضاء، أنت تطالعه بالتقريب والإقبال، وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال، وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق، فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده، والله تعالى أعلم.

وأوضح عرفانه صارت معششا لطيور قلوبهم التي هي صور الاعتدالات الحاصلة للرُّوح الرُّوحاني في أخلاقه بحيث يصير فيها على حافة الوسط بلا ميل إلى الأطراف، فأصحاب القلوب إلى هذه الحضرة يأوون وفيها يسكنون سكونًا ليس فيه انتقال يفهم منه الانفصال، وإنما هم بها وفيها من عروشها متنزلون إلى الكمال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٦٥- «إذا نـزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذنِ والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينـزلوا إلى الحقوق بسوءِ الأدبِ والغفلةِ، ولا إلى الحظوظِ بالشهوةِ والمتعةِ، بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾(١) [الإسراء: ٨٠] ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني، واستسلامي**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن؛ أعني: على طريق أهل الإشارة.
اما تفسير أهل الظاهر فقالوا: هذه الآية نـزلت في فتح مكة، وأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب أدخلني مكة مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون دخولي بك واعتمادي عليك ناصر لدينك بحولك وقوتك، وهذا كقوله ﷺ في بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره: «صدق الله وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»، وأخرجني من مكة مهاجرًا إلى جهاد عدوك مخرج صدق: أي: إخراج صدق، بأن أكون منصورًا بك، معصومًا بحفظك ورعايتك، واجعل لي من لدنك سلطانًا: أي: برهانًا دامغًا لكل باطل نصيرًا ينصرني على من عاداني.
وأما تفسير أهل الباطن: فهو ما أشار إليه الشيخ ﷺ مستدلاً بالآية على أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون بالله، وخروجهم منها يكون بالله فقال: وقل أيها العارف: رب أدخلني في الأشياء حقوقًا كانت أو حظوظًا مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون ذلك الإدخال بك، معتمدًا فيه على حولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي ومن شهود نفسي، وأخرجني منها مخرج صدق أي: إخراج صدق، بأن أكون مأذونًا بإذن خاص، مصحوبًا بالخشية وسر الإخلاص، وهذا معنى قوله: «ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني» في الأشياء «وانقيادي إليك إذا أخرجتني» منها: واجعل لي من لدنك أي: من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب سلطانًا أي: برهانًا قويًّا، وليس ذلك إلا وارد قوى من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل، ويكون ذلك السلطان «ينصرني ولا ينصر عليَّ» أي: ينصرني على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى حتى نبعد عنهما برؤية مولاهما ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية.
ثم بين ذلك فقال: «ينصرني على شهود نفسي» أي: يقويني على الغيبة عنها، فإذا انتصرت على شهودها انهزم عني وذهب شهودها وبقي شهود ربها، فالنصرة على الشيء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع،

وانقيادي إليك إذا أخرجتني ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] ينصرني، وينصر بي، ولا ينصر علي، وينصرني على شهود نفسي، ويفنيني عن دائرة حسي».

**أقول**: أرباب القلوب المنوطنة في الحضرة القدسية المستأنسة بالجمالات الإلهية بالغيبية عن الأينية إن نزلوا من عروشهم الجبروتية إلى عز سماوات الحقوق الربانية وأراضي حظوظ لوازم صفاتهم البشرية الظاهرة في رتبة الاثنينية المحققة فيها بالأينية تحققًا حقيقيًا لأهل الفرق ومجازيًا لهم، فبالإذن الذي علامته تيسير شهود القيومية، وانكشاف برقع وجه الهوية عن الحضرة الفردانية نزلوا، وباليقين فيه إليه دخلوا، وبالتمكين في تلوينها لهم للرسوخ معه حصلوا، وبالعيان فيه كملوا، فلم ينزلوا مع ذلك إلى الحقوق التكليفية التي هي من أتم مظاهر صفات الربوبية بسوء أدب يتعدون به حقوق ذل العبودية، ولا بغفلة مما ظهرت الربوبية في القيومية، وكذا لم ينزلوا إلى أراضي الحظوظ النفسانية بالشهوات الحيوانية، ولا بالمتعة الروحانية بل دخلوا في ذلك كله بالله لا بأنيتهم، ولا بحولهم، ولا بقوتهم، ولله لا لشيء من لوازمهم، ولا لما هو مجهول ومعلوم من عوالمهم، ومن الله لا من رسومهم ومعالمهم، وإلى الله لا إلى سواه في مشاهدتهم، فذق وقل ربِّ ربِّ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] بصحة شوق، وقوة عشق لأكون في طمطام بحار أحديتك سابحًا، وفي بيداء أودية وحدة فردانيتك سائحًا، وأخرجني من مخارج شعاب مضائق التفرقة الكونية مخرج صدق بعتق رق، وفتق رتق، وموت خلق، وشهود حق بحق؛ لأكون لك عبدا محررًا من رق سواك فالحًا، واجعل

=

وكأن شهود النفس عدو يحاربك ويقطعك عن شهود ربك، فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعته عنك، فتتصل حينئذٍ بشهود محبوبك، وإذا فنى شهود النفس فنى حينئذٍ وجود الحس، وهو معنى قوله: «ويفنيني عن دائرة حسي»، فإذا فنيت دائرة الحس بقي متسع لمعاني وفضاء الشهود، وهذه هي الولادة الثانية، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه وهي الولادة الأولى بقي مسجونًا بمحيطاته، محصورًا في هيكل ذاته، قد التقمه الهوى، وصار في بطن الحس والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته، فإذا فنيت دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه، نقبت روحه الكون بأسره، وخرجت إلى شهود مكونها، فقد ولد مرة ثانية، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام: ليس منا من لم يولد مرتين، هكذا ذكره الشطيبي من قول عيسى عليه السلام.

نظري الباطني، والظاهري في كل ذلك إلى حولك، وقوتك إذا أدخلتني في ذلك، واستسلامي الذي هو روح إسلامي، وانقيادي الذي هو عقد اعتقادي فيك إليك إذا أخرجتني كذلك رابحًا، واجعل لي واجعل بي من لدنك سلطانًا نصيرًا. شهودًا، وعرفانًا نصيرًا إليك به أصير بنصرتي على نفسي، وشيطاني. وينصربي إخواني، وأصحابي كذلك، ولا ينصر عليهم، ولا على سلطته عليهم، وعلى من كل ما سواك في عوالم دنياك وأخراك، بل وينصرني على شهود نفسي؛ لقوة استيلاء أنوار حضرات قدسي، ويفنيني بجوامع جميع أنفاس نفائس أرواح راحات أنسي بك عن دائرة حسي لطمسي؛ لأصبح فيك، وأمسي في يومي، وأمسي، ودنياي، ورمسي، وما بعد ذلك، فأنسى سواك، وأنسي يا أنسي فيك، وبك أحضر، وأحضر، وأصبر، وأشكرك موحدًا؛ لأن وجودك مصدر المنة، وكذا خليقتك؛ إذ هم مورد النعمة، وأصلي على مفيض وجودك، وجودك محمدك ومحمودك وحامدك وأحمدك وأسلم ما دامت ذاتك وصفاتك وأفعالك، وعلى أنبيائك ورسلك، وصحابتهم والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

واسم أيها الأخ إلى سماء هذه النجوم، ومُس جواهرها بأيد الفهوم يشرق لك منها علوم تهتدي بها إلى الحق المعلوم، فيصح لك الحال، وتنجلي لك عرائس الكمال الجامعة بين الحقيقة والشريعة من منصات نص ما لبعض إخوانه قال ﷺ:

**٢٦٦ - «إن كانتْ عينُ القلب تنظرُ إلى أن الله واحدٌ في منته»(١)، فالشريعةُ تقتضي أنه**

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: عين القلب هي البصيرة، ومن شأنها ألا ترى إلا المعاني دون المحسوسات كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعاني، والحكم للغالب منهما؛ فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس وهو الغافل، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلا المعاني، وهو معاني التوحيد وأسرار التفريد، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق، لكن لا بدَّ من إثبات الحكمة.

وقد تقدم قوله: الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته، فلابد من إثباتها قيامًا بالحكمة ونفيها قيامًا بالوحدة، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته، بل واحد في جميع تصرفاته، فالشريعة والحكمة تقتضي؛ أي: تطلب أن لابدَّ من شكر خليقته قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، فإذا أنعم الله عليك بنعمة كانت دنوية أو دينية على يد واسطة فعليك في ذلك وظيفتان: أحداهما قلبية: وهي اعتقادك أنها من الله بلا واسطة، وأن ما سواه مقهور على إيصالها، والثانية لسانية: وهي أن تدعو له وتثنى عليه عملاً بالشريعة.

لا بُدَّ من شكرِ خليقته».

**أقول:** عين القلب هي قوة باطنة له عندما ينكشف حجابه، فيشاهد بها بواطن الأمور كما تشاهد عين الرأس ظواهرها لاكتحالها من نور المعرفة للنور المفني لما سوى الحق في البطون والظهور، فلا تشاهد النعمة إلا له وهو كذلك، ولذلك كان هو المشكور الحقيقة، وإن كانت المنة بوسائط الخليقة، وقد جاءت الشريعة بإثبات الوسائط وشكرها فلابُدَّ من تشرع المتشرعين بذلك منهم امتثالاً لأمر المنعم الحقيقي بها، وسر قضائها بشكرها أنه الظاهر بها، وظهوره بذلك منها في مراتب الكمال المعتبر شهوده بها قال ﷺ:

**٢٦٧- «وإنَّ النَّاسَ في ذلك على أقسام ثلاثة: غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ في غفلته، قَوِيَتْ دائرةُ حِسِّهِ، وانطمستْ حضرةُ قُدْسِهِ، فنظرَ الإحسانَ من المخلوقين، ولم يَشْهَدْهُ من ربِّ العالمينَ، إما اعتقادًا فَشِرْكٌ جَلِيٌّ، وإما استنادًا فَشِرْكٌ خَفِيٌّ».**

**أقول:** هذا لأول قسم من الثلاثة وهو **قسم الغافل**: الذي غفل بالخلق عن الحق وانهمك في شعاب تفرقتهم الكونية فاسترقه الفرق، وأعان حواسه حتى قربت تقييداتها بمحسوساتها؛ لثبوت آنيته في عوالم حسه ثبوتًا تقوت به أحرف شكله في مرآة لوح شهوده المتصدية بصداء صده عن حضرة قدسه، فلم يكن بذلك في مقام الإحسان مع المحسنين حتى أنه يشهد الإحسان من رب العالمين، وإنما قضى عليه بعده أن يشهده للمخلوقين ما ليس من المخلوقين إما اعتقادا لعدم نظر بقصد صادق يتخلص به من ورطة التقليد إلى المعرفة المحصلة للإيمان الصحيح في بيداء التفريد؛ ليسلم من الشرك الجلي المتورط فيه بشهود أن النعمة لله وحده، وإما استنادًا يقضي للتعويل عليهم ورد الإحسان إليهم ردًا يغيبه عن الله مع معرفته أن ذلك من الله، فشرك خفي لعبد غير خفي لم تحفه العناية بالهداية المنجية من هذا الحال كمن هو مشير إليه بما قال ﷺ:

**٢٦٨- «وصاحبُ حقيقةٍ غابَ عن الخلقِ بشُهُودِ المُلِكِ الحقِّ، وفَنِيَ عن الأسباب**

=

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاثة: **أولها**: إنها إرسال من الحق تحمل الهدايا إليك، ومن الكرم إكرام الرسل. **وثانيها**: إنها أواني تصل فيها إليك المنافع، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع. **وثالثها**: ما في ذلك في دفع منة الوهم؛ إذ الوهم يقتضي بطبعه الميل لمن أحسن إليك، فإذا كافأته باللسان فقد اعتقت من رق إحسانه.

**بشهود مُسَبِّبِ الأسبابِ فهو عبدٌ مُواجَهٌ بالحقيقة ظاهرٌ عليه سَنَاهَا، سالكٌ للطريقة قد استولى على مَدَاهَا، غيرَ أَنَّه غريقُ الأنوارِ، مُطْمُوسُ الآثار، قد غلبَ سكرُه على صَحْوِهِ، وجَمْعُهُ على فَرْقِهِ، وفناؤُه على بقائِه، وغيبتُهُ على حُضُورِهِ»**[١].

**أقول:** وهذا ثاني قسم من الثلاثة وهو صاحب حقيقة: وهي غلبة شهود ربوبية الملك الحق التي غاب بها عن رؤية وجود عين الخلق، وفني فيها عن الأسباب حين كشف له المسبب عنه الحجاب، فهذا عبد الله حر مما سواه توجه إلى الحق بفناء الخليقة، فكان مواجهًا من الحق بشهود الحقيقة ظاهرًا عليه ظهور سناها، وقاهرا له شهود علاها، سالكًا للطريقة التي هي سيرة المتخلقين بها السالكين إلى الله فيها، قد استولى على مَرْآهَا، فعلم الصحيح منها في سلوكه إياها غير أنه غريق الأنوار العرفانية والشهودية، ومطموس الآثار الخليقة الإمكانية، قد غلب سكره الذي هو عدم إحساسه عندما انقهر تحت سطوه سلطان

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق» فلم يشعر بهم ولم يلتفت إليهم «وفني عن الأسباب» وهم المخلوقات، فلم يرهم فعلاً «بشهود مسبب الأسباب» وهو الله «فهذا عبد مواجه بالحقيقة» وهي حضرة الرب سبحانه لشهوده لها «ظاهر عليه سناها» أي: نورها وضياؤها «سالك للطريقة» أي: طريقة القوم وسلوكه بها باعتبار الأصل وإلا فمواجهته بالحقيقة لا يكون إلا بعد سلوكه لها، ولذا قال: «قد استولى عليه مداها» أي: غايتها ونهايتها ثم هذا المستغرق في الحقيقة على الوجه المذكور، وإن كان كاملاً لأهل الغفلة فهو ناقص بالنسبة لأكمل منه من أهل المعرفة، ولذا قال: «غير أنه غريق الأنوار» أي: غريق في بحار التوحيد «مطموس الآثار» أي: مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد؛ أي: غائب عن رؤية ذلك والشعور به «وقد غلب سكره» وهو عدم إحساسه بالآثار «على صحوه» وهو وجود إحساسه بها «وجمعه» وهو رؤية الحق وحده «على فرقه»، وهو رؤية الخلق مع الحق فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق «وفناؤه» وهو استهلاكه في وجود الحق «على بقائه» وهو شعوره بالخلق فهو في مقام الفناء الذي هو مقام الجمع لا مقام البقاء الذي هو مقام الفرق.

وقوله: «وغيبته على حضوره» كالتفسير لما قبله «وأكمل منه عبد» جمع بين الأمرين كالنبي ﷺ وكمل ورثته وسبب ذلك أنه «شرب» من المدد الإلهي ومن كئوس التوحيد «فازداد صحوا» بعد سكره «وغاب عن رؤية الأغيار» فازداد «حضورًا فلا جمعه» وهو رؤية الحق «يحجبه عن فرقه» وهو رؤية الخلق «ولا فرق يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصبره عن بقائه ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه يعطي كل ذي قسط قسطه» فيشكر الحق والخلق ولا يغيب عن الرب في حال مخالطة الخلق.

الجمال على صحوه الذي هو إفاقته من سكره المتأدى بها تكاليف الجلال، وغلب جمعه الذي هو شهود حق بلا خلق على فرقه الذي هو شهود خلق بلا حق، وغلب فناؤه الذي هو زواله واضمحلاله على بقائه الذي هو ثباته وكماله، وغلبت غيبته التي هي غيبة قلبه عن علم ما يجري من أحوال الخلق، وقد يغيب عن نفسه وعن غيره لشغل الحس منه بما ورد عليه من جناب الحق في حضرة القدس على حضوره الذي هو ضد الغيبة، فهو من آنيته ولوازمها في أمان، وجمع في شهود وكمال، وأكمل منه ما أشار إليه حيث قال ﷺ:

**٢٦٩- «وأكملُ منه عبدٌ شَرِبَ فازداد صحوًا، وغابَ فازدادَ حضورًا، فلا جمعُه يَحْجِبُهُ عن فرقِهِ، ولا فرقُه يحجبه عن جمعِه، ولا فناؤه يصرفه عن بقائِه، ولا بقاؤُه يصده عن فنائه، يُعطِي كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ، ويُوفِّي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه».**

**أقول:** هذا ثالث الأقسام، وهو من مشرب فردي، فإن الشرب هو أوسط التجليات، والذوق أولها، والري آخرها، والتجليات هي ظهور الذات بالأسماء والصفات وهي لا بحصرها مكان ولا زمان ولا أعيان، فليس لقيدها برهان، ولا لحصرها بيان، ولا لتحيزها أعيان؛ لنزاهتها عن لوازم الأكوان، وحدود الإمكان، تنزهت بتنزه المتجلي بها عن ما يكون وما كان، وهي مع ذلك ظاهرة وأسرارها قاهرة، وأنوارها باهرة، قام كل شيء بها وثبت عنها، وتحقق منها، فمن غافل هو جاهل، وهي في عينه ولجهلة لا يشهدها، وعاقل هو كامل عقلها فشربها فسكر بها، وأغفل هو أكمل منه شربها فصحا بها، وغاب فيها، فحضر لها حضورًا لا يحجبه عن غيبته، وغيبة لا تحجبه عن حضوره، وصحوًا لا يحجبه عن سكره وسكرًا لا يحجبه عن صحو هذا الأكملية استعداده، ولقوة مهيمنة إمداده بها من مورثه بإرشاده، فيدرك سكره في صحوه كما يدرك صحوه في سكره، ويدرك غيبته في حضوره، وحضوره في غيبته، وفرقه في جمعه، وجمعه في فرقه، وفناءه في بقائه، وبقاءه في فنائه، فلا يشغله شأن حاضر عن شأن غائب، ولا شأن غائب عن شأن حاضر، وبذلك يعطي كل ذي قسط من التجليات المتجلي بها الحق قسطه من المعرفة والشهود لسر حقيقته، وحقيقته سر إيجاده من المشهود، ويوفي كل ذي حق منها حقه من الآداب بالوقوف مع الحدود، وهذا العطاء أعظم عطاء منه لموجود، وحال أعظم حال لمشهود، وأكمل من الكمال، وأعظم درجات الوصال، ويشهد لذلك ما استشهد به من كلام سيدنا أبي بكر

الصديق ﷺ حيث قال ﷺ:

٢٧٠- «**وقال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة** - رضي الله عنها - **لما نـزلت براءتها من الإفْكِ على لسان رسول الله ﷺ: يا عائشة اشْكُرِي رسولَ الله، فقالت: والله لا أشكرُ إلا الله، دَلَّهَا أبو بكرٍ على المُقَامِ الأكملِ: مقامِ البقاءِ المقتضي لإثباتِ الآثارِ**» وقد قال الله تعالى: ﴿**اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: ١٤] وقال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1] وكانتْ **في ذلك الوقتِ مُصْطَلِمَة عن شاهدها غائبةٌ عن الآثار، فلم تشهدْ إلا الواحد القهَّار**».

**أقول**: نزول البراءة لها عن ذلك من الله على لسان رسول الله ﷺ في سورة النور نورا أضأت به دياجير الصدور؛ ليُعْلِمُهَا ما هو معلوم من غوامض الأمور، فتنفتح وتنشرح بالحق لما جاءها من الحق، فكان لأبي بكر من ذلك نصيب وافر، قابض على لسانه ظاهر حتى قال لها: «يا عائشة اشكري رسول الله ﷺ» دلها على الكمال الأكمل في الشكر لله من طريق الوسائط التي هي عين إنسان عينها مظهريته العظمى ﷺ لقوله جل ذكره: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ [لقمان:١٤] ولقوله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[2] للبقاء في المقام الأكمل؛ لأن الوسائط مظاهر ظهوره، ومجالي نوره، فلا يفوتها من الحق شهود في مرتبة من مراتب مطلق الوجود، فأجابته بما يحقق أنها الآن مصطلمة عن شاهدها في حضرته غائبة عن كثرتها في وحدته، مضمحلة عندها الآثار، لا تشاهد إلا الواحد القهار، بأشعة نوره وسلطان ظهوره، وليس لها دوام في محوها دون صحوها، ولا في فنائها دون بقائها، ولا في كمالها دون أكمليتها؛ لمواجهتها وجه صاحب الكمال الأكمل، ومواجهته لها وقربه منها، وممازجته بها، وحبه فيها، وهو ﷺ معدن إفادة ذلك لغيرها، فكيف بها؟ وكم من كامل فاز منه بالكمال، وكم من واصل قرت عينه منه بالوصال، فكل قرة عين بالله من الجمال أو الجلال أو الكمال فمن قرة عينه ﷺ المجيب عنها الماتن حين السؤال كما أشار إليه جامع كلامه بما قال ﷺ:

٢٧١- «قال ﷺ: **لما سُئِلَ عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3] هل ذلك**

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٧٨).

**خاص بالنبي ﷺ أم لغيره منه شِرْبٌ وَنَصِيبٌ؟ فأجاب: «إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود» فالرسول ليس معرفة كمعرفته، فليس قرة عين كقرته».**

**أقول:** مفاد الجواب أن قرة العين بالشهود للمشهود هو متفاوت بتفاوت المعرفة به تعالى، والمعرفة به تفاوت بتفاوت استنارة السر والقلب والروح والنفس، واستنارتها تتفاوت بتفاوت قربهم من الحق، وقربهم منه يتفاوت بتفاوت صفائهم، وصفاؤهم يتفاوت بتفاوت الامتثال له، والامتثال له يتفاوت بتفاوت المحبة له، وليس معرفة كمعرفة الرسول، ولا شهود كشهوده، ولا استنارة كاستنارته، ولا قرب كقربه، ولا صفاء كصفائه، ولا امتثال كامتثاله، ولا محبة كمحبته، فليس قرة عين كقرة عينه، وكل من أهل هذا الشأن له نصيب وشرب من قرة عينه بحسب قربه من حقيقته المحمدية المفاض عليها من الحق، المفيضة على الخلق المعرفة، والشهود، وأحكام الحدود، وتفاوتهم في ذلك منه بتفاوتهم فيما سبق، فللعارفين منه ﷺ كماله من ربه تعالى بحسب معرفتهم التي ليست كمعرفته في الحال والمآل، المثمرة شهود الجلال والجمال مطلقًا، والجلال مقيدًا كما نبه عليه حيث قال ﷺ:

**٢٧٢- «وإنما قلنا: إن قرة عينه في صلاته بشهود جلال مشهوده؛ لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله: «في الصلاة» ولم يقل: بالصلاة، إذ هو ﷺ لا تقر عينه بغير ربه، وكيف وهو يدل على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[1] ومحال أن يراه ويشهد معه سواه»[2].**

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: لأن ثبوت السوى حجاب، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود، ولا يبقى إلا واجب الوجود، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود، فإن قلت: إذا كان السوى مفقود فلم قال ﷺ في تفسير الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، وقال لمعاذ: «**اعبد الله كأنك تراه**» فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه ﷺ بمن يرى؟ فالجواب: أنه ﷺ في محل التشريع والتحقيق. وهذا الحديث وقع في محفل كبير فيه من هو من أهل المراقبة، وفيه من هو من أهل المشاهدة، فأتى بكلامه يقبله الخاص والعام، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد، فمنهم من بلغ ذلك ذوقًا، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة. وقد قال ﷺ: «**خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون**» فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها،

**أقول**: لا تفهم من هذا أن قرة عينه بشهود شهود مفصلاً كان كشهوده من حيث جلاله أو جماله أو كماله بذاته أو صفاته أو أفعاله مفصلاً كان أو مجملاً، كشهوده للكل في كل من الكل لقبوله ذلك هكذا وهكذا، وهو المحقق من أكملية استعداده منحصرة في الصلاة دون غيرها، فإن ذلك المقام له على الدوام يتعاقب عليه جملة وتفصيلاً، ولا يجد له عنه سبيلاً لإحاطة الوجود المطلق وتوالي الشهود المحقق، فهو قرير العين بمحبوبه أبدًا وتجليات جلاله وجماله تتعاقب عليه سرمدًا، فكيف يخص ذلك في فعل تقيد بزمان من المدى، تنزه عن ذلك أزلاً وأبدًا، كيف وقد قال في «لطائف المنن» عن شيخه أبي العباس وارث سيدي الشاذلي أبي الحسن أنه قال: منذ أربعين سنة ما حجب عني وجه الله فيها طرفة عين؛ أي: وجه تعرفه بجلاله وجماله من غير تخلل فترة له دام اشتغاله، وقيل: مثل ذلك عن غيره أيضًا، هذا وهم من أتباعه، ومن بعض خلفائه المخصوصين ببعض خصائص اجتنابه، فكيف يكون ذلك له ﷺ مقيدًا من مفهوم قوله: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[1] وهو لأتباعه على الإطلاق، وليس للتابع إلا ما فاض عن المتبوع يا أهل الأذواق، فقرة عينه في الصلاة بالله لا تتقيد، وما في الصلاة من قرة عينه بالصلاة مقيَّد؛ لأن الصلاة لكل مظاهر العبودية لاشتمالها على ما لا يوجد في غيرها من مطلوبات الربوبية، فقرة عينه فيها إنما هو بشهود الجلال المتكثر بتكثر مقتضياته فيها الناشئ عنه هو شهود العبدية في كل منها، وهي منتشرة أجزاؤها في مطايا الذلة والانكسار، والفاقة والاضطرار للألوهية؛ لأن ذلك هو علة ظهور الوجود والسبب الذي تعين به كل موجود، وليس ذلك واجبًا عليه سبحانه، بل هو من باب التعرف والجود، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] قال ابن عباس: أي: ليعرفون، ولما كان ﷺ أعلم

---

=

وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام؛ لأن رؤية البصيرة عندهم في معد العيان لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلاً. وأيضًا الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر. فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى بالبصر الحسي، وهو محال، قال الله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبصار**﴾ [الأنعام:١٠٣] أي: الحسية، وإنما تراه البصائر المفتوحة فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت، والله تعالى أعلم.

(١) تقدم تخريجه.

obeikandi.com

عباد الله بسر ذلك جعل القيام به قرة لعينه هنالك، وليس لغيره من ذلك كماله لعدم بلوغ الغير معرفته وكماله، وذلك منه في الصلاة للإجلال قيامًا بحق شهود الجلال المنحصر فيها بقوله: «في الصلاة».

وسر كونه لم يقل: بالصلاة، كما ذكره المصنف أنها مجمع صور العبودية التي هي مرآة شهود العبدية أكمل المتأتي عن شهود الجلال الذي هو عين قرة العين، المفيد أكملية شهودها فيها؛ لأنها أكمل مظاهر العبودية كما تقدم بيانه، ولولا ترأي العبدية فيها لما كانت أكمل المقامات المرضية، وأنها مرتبة من مراتب ظهوره المشهودة للعموم، وهو يريد أن يُشْهدُه ظهوره بما يميزه به من أكمل شهود العبدية المشهودة لسيده وله، الناتجة له عن شهود الجلال الذي هو قرة عينه في الصلاة، فلذلك قال: «فيها» لا «بها» وأما كونه لا تقر عينه بغير ربه فحق وصدق وذلك لدوام شهوده له لأكملية معرفته به مطلقًا في مراتب إطلاق أحديته وواحديته الظاهرة في أبديته التي يفوت من الحق بقدر ما يفوت منها، وهو ﷺ لا يفوته من ذلك شيء؛ لتمتعه بشهوده من كل وجه، كيف وهو يدل على هذا المقام، ويأمر به من سواه؛ لقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[١]، ولا شك أن العبودية متنوعة الأحكام والأفعال، فكل شيء منها وجه تعرف به أحديته الأزلية في واحديته الأبدية، ومقتضى أمره بقوله: «اعبد الله» أن تكون في عبادة الله القائمة بالواحدية الأبدية تراه بها ظاهرًا، وكأنك تراه من حيث أحديته الأزلية باطنًا، ومحال أن يراه من يراه إلا به، وإن يرى معه سواه؛ لانسحاب الحكم على الشاهد من المشهود، فتأمل وانظر ما أورد من الإشكال على الماتن حيث قال ﷺ:

**٢٧٣- «فإن قال قائل: قد تكون قرة العين بالصلاة؛ لأنها فضل من الله، وبارزة من عين منة الله، فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قرة العين بها، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾** [يونس:٥٨] **فاعلم أن الآية قد أومأت لمن تدبر سر الخطاب؛ إذ قال: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وما قال: فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنعام:٩١]».

---

(١) تقدم تخريجه.

**أقول**: قد تقدم الجواب عن كونه قال: «في الصلاة» ولم يقل: بالصلاة، وما أومأت الآية إلا إليه من الجواب لمن تدبر سر الخطاب القرآني هو أنه قال: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ أي: بذلك الفضل والرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني: المرسل إليهم؛ لأنهم لا يسع استعدادهم منه تعالى إلا المتعة بالفضل والرحمة دون المتعة بشهوده، فهم في حجاب عنه وعما هو متعرف به فيها، ولم يقل: فبذلك فافرح يا محمد؛ أي: بدون وجه الفرداني المتعرف لك ولخواص ورثتك بوجوه وجود الواحدية في المشهد الوحداني الذي هو مصدر بداية الفضل والرحمة وغايتها، وهو نصيبك عندي يا عبدي، فكأنه قال: فليكن فرحك أنت بي من حيث كل ذلك، فإنه الفرح الجامع لا من حيثية منه دون أخرى، ولا من فرحهم دون فرحك، فإن استعدادك قابل لكل ذلك ويشهد به ما قال في الآية الأخرى ﴿قُلِ اللهُ﴾ فإنه الاسم الجامع لتجليات أسماء الإحاطة في هائه، وهي الظاهر الباطن الأول الآخر، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ بالمظاهر في المظاهر عنه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فهم في غفلة بها عما فرح به أهل الكمال، فتحصل من ذلك أنها قسم وأقسام يشهد بها ما كاتب به إخوانه، وقال ﷺ:

**٢٧٤- «الناس في ورود المنن على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤]»**(١).

---

(١) قال الشيخ الشرقاوي: «الناس في» حال «ورود المنن» أي: النعم عليهم من الله تعالى «على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشيها» وهو الله «ولكن» فرحه «بوجود متعة فيها» أي: بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها «فهذا من الغافلين» شبهه بالبهائم التي تأكل وتشرب غافلة عن مولاها «يصدق عليه قوله تعالى: «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة» يعني: إنه ربما كان توارد النعم عليهم استدراجًا من الله تعالى كلما أعطى نعمة ازداد غفلة، ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر «وفرح بالمنن» أي: النعم «من حيث أنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها» وهو الله ﷻ فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث أنه ملتفت إلى النعم وعنده فرح بها، وإن كان ذلك من حيث بروزها عن الحق يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفرح بالله ﷻ ما شغله عنه «من المنن ظاهر متعتها» أي: التمتع بها «ولا باطن منتها» أي: لم يلتفتوا إلى ظاهر النعم من أجل أن فيها لذتهم ولا إلى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم

obeikandi.com

**أقول**: هذا قسم من الأقسام الثلاثة: **وهو قسم الغافلين**: الذين فرحوا بالنعمة، فغفلوا عن المنعم لها، وعن نسبتها إليه بواسطة دهشتهم بتمتعهم بها طبعًا غالبًا متحكمًا ملأ جميع عوالمهم بصور ملذوذاتها من حيث هي بها وصل إلى مداركهم منها فرحًا أنساهم ما يترتب على غفلتهم بها سواء كانت تلك المنن محمودة أو مذمومة، فإن موضوع المنن للممتن عليهم بها إنما هو شهود نسبة الامتنان للممتن بها أو شهوده فيها، وهو أتم، فإن غابوا به عنها فأتم، فلعدم ذلك الموضوع كله يصدق عليهم ما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] أي: حتى إذا فرحوا بما أوتوا منها دون موضوعها أخذناهم عنها بغتة؛ أي: في غمرة سكراتهم بها إما إلينا بالموت الطبيعي، وإما بسلبهم عنها، فنعوذ بالله من هذا الحال، ونسأله أن نكون ممن تحقق برتب موضوع المنن السابق بيانها التي أشارَ إلى أولها بما قال ﷺ:

**٢٧٥- «وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها، ونعمة ممن أوصلها» يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾** [يونس:٥٨]».

**أقول**: وهذا القسم الثاني: **وهو قسم المتيقظين**: لنسبتها إليه تعالى، العارفين بمنته بها، المشاهدين لفضله فيها، وهذا أول رتبة من موضوعها يصدق عليه قوله تعالى: **﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾** أي: بشهود نسبتها إلى المنعم بها **﴿فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾** أي: من عمل وغيره خاليين من شهود نسبته للمنعم بها، وإلا لم يكونوا من المثال المتوصل به إلى ما قال ﷺ:

**٢٧٦- «وفرح بالله، ما شغله من المنن ظاهر متعتها، ولا باطن منتها، بل شغله النظر إلى الله عما سواه، والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ**

---

=

حيث من بها عليهم كما هو حال القسمين الأولين فإن القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم وغابوا عن المنعم بها، والقسم الثاني التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله ﷻ وإن حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم «بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه» أي: جمعية قلبه عليه «فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: **﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنعام:٩١].

**ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] وقد أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: «يا داود، قل للصديقين بي فليفرحوا، وبذكرى فليتنعموا، والله تعالى يجعل فرحنا وإياكم به والرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وألا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه».**

**أقول:** وهذا هو القسم الثالث: **وهو قسم الفرحين بالله الذي فرح كل منهم به من حيث وصلتُهُ** التي هي عين العلم به، المقتضية لفناء ما سواه في شهوده، **فلا يشغله شيء مما ظهر به عن تعرفه له** مطلقًا فضلاً عن المنن، **فظاهر متعتها أو باطن منتها؛** لاستغراقه في النظر إلى الممتن بها، المتجلي بأسمائه وصفاته من حيث تجلياته التي تغيب بها ظواهر العالم وبواطنه **فيها** عند المشاهد بحيث **لا** يحس بشيء سواه؛ لانجماعه عليه به، فلا يشهد إلا إياه، وهذا ثالث رتب موضوع المنن يصدق عليه **في هذا المقام ﴿قُلِ اللهُ﴾** فكيف لا يفرح به ومنه شهده وقد أوحى الله لداود: **«يا داود، قل للصديقين بي فليفرحوا»** أي: في شهودهم لي، **«وبذكري فليتمتعوا»** أي: بتلاوة أسمائي، وقولي: **فالله يجعل فرحنا وإياك)** به تمتعًا وشهودًا، **(وبالرضا منه)** علينا أزالاً وأبدًا، **(وألا يجعلنا من الغافلين)** عنه بها به مقيدًا ومحدودًا، **(وأن يسلك بنا مسالك المتقين)** لغيره به مما ظهر إطلاقًا وتحديدًا **(بمنه وكرمه)** **هذا آخر ما وجدته من حكمه ومكاتباته لإخوانه وأحبابه والمسترشدين به، ثم إنه رحمه الله أتبع ذلك بمناجاته؛** ليعين كلا منهم فيما أرشده به على نجاته بتحقيق افتقاره الذاتي في العمل بها إلى الله مترجمًا عما انطوت عليه سريرته من فقره بلسانه من دعواته؛ **ليظهر سر الامتثال من عبودته في عبوديته لا لينال، فإن ذلك من علل السؤال المخلة بالعبودية فجرده منها.**

## المناجاة الإلهية

وقال ﷺ في مناجاته:

**٢٧٧- «إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟!».**

**أقول:** إلهي أنا الفقير إليك بالذات في غناي منك بالعرض المتجدد عنك لي [...][1] أمثاله مع الآنات تجديدًا يشهدني ما هو حاصل من فقري مني، ومن لوازمي، وما ملكتني افتقاري الدائم ما دمت، ودامت لك الصفات، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري هذا الدائم بين يديك، ولا يزال كما قال ﷺ:

**٢٨٢- «إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!».**

**أقول:** إلهي أنا الجاهل بالذات في علمي العرضي المتجدد منك لي أمثاله مع الآنات تجديدًا يشهدني مما هو حاصل من جهلي بجهالتي الدائمة مادمت، ودامت لك الصفات، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي هذا بين يديك، والعلم كله لديك، وعلى وفقه تجدد القضايا من الأحكام والأفعال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٨٣- «إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء».**

**أقول:** إلهي إن تنوعات تصرفاتك الباطنة والظاهرة على وفق علمك لتدبيرك على وفق علمك لمدبراتك، وسرعة نزول مقاديرك عنها المشهودة بها منعت عبادك العارفين بك من حيث تعرفاتك بذلك، وبغيره مما يظهر بأسمائك وصفاتك عن السكون إلى عطاء لشهود جوار دوام سلبه لك إما بلا شيء أصلاً، وإما بشيء دونه أو مثله أو فوقه، وعن اليأس منك في بلاء؛ لشهود رحمانيتك، ولطفك بفضلك على مخلوقاتك مع تقصيرهم في القيام بواجبات الامتثال المشير فيها عبدك إلى نفسه بها قال ﷺ:

**٢٨٤- «إلهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك».**

**أقول:** إلهي مني ما يليق بلؤمي كذنوبي وتقصيري وغفلتي، ومنك ما يليق بكرمك كعفوك عني وانتهاضي ويقظتي؛ لأكون مجملاً منك بالجمال الذي مادته ما أشار إليه؛ حيث قال ﷺ:

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل المخطوط.

**٢٨٥- «إلهي وصفت نفسك باللطف، والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي؟».**

**أقول**: إلهي وصفت نفسك لنفسك في أزلك، وأبدك بما هنا من صفات لطفك. ورأفتك بي، وبعبادك قبل وجود ضعفي حين عدمي اللازم منه عدمه، أفتمنعني منهما بعد وجود عين ضعفي اللازم منه وجود وجودي بك لا بي الذي هو مظهر العدل منك، والإفضال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٨٦- «إلهي إن ظهرت المحاسن مني، فبفضلك ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوئ مني، فبعدلك ولك الحجة عليَّ».**

**أقول**: إلهي إن ظهرت المحاسن المرضية لك مني المقتضية للثناء والإقبال منك عليَّ، فبفضلك ولك المنة علي بما ظهر بك لا بي، ووصل منك لا مني، وإن ظهرت المساوئ المغضبة لك المقتضية للمذمة لي، وللإعراض منك ومن مخلوقاتك عني، فبعدلك في ملكك، فلك إظهار ما تشاء؛ لتفعل ما تشاء من عفوك ومغفرتك، أو من مؤاخذتك؛ لأنك ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] وأنى لي بالنجاة من عذابك في الحال والمآل، وأنا لا حول لي ولا احتيال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٨٧- «إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت عليك؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟ ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟».**

**أقول**: إلهي كيف تكلني إلى متكل خلق لا يقدر على شيء أو حق يمكن أن يجود بشيء، وأنت توكلت لي؟ ومن كنت وكيله لا يحتاج إلى كلة، ولا إلى حول ولا إلى حيلة؛ لكمال قدرتك وسعة رحمتك، وتعطف رأفتك لا شريك لك. أم كيف أضام بصرفي عنك أو عن القيام بما لك تحت قهر سلطان أهوائي المبعد لي عنك المحكمة في غيرك، فيبلغ مني مرامه، فأكون أسيرًا له وأنت نصير لي؟ أم كيف أخيب في توجهي إليك؛ لقطع عوائقي عنك؛ لأكون مخلصًا بك لك بين يديك وأنت الحفي بي، وها أنا المحفوف بك أتوسل

بفقري مني، ومن كل شيء إليك تعاليت، وكيف أتوسل إليك بما هو ذاتي لي، ومحال أن يلحقك ويصل إليك؛ لأنك الغني المطلق، وأنا الفقير إليك بالفقر الذاتي المحقق؟.

أم كيف أشكو حالي في بلائي شكوى جازع باحتجابي عنك فيه؟ وهو غير متقيد بالتملق إليك بين يديك، وهو بإيجادك لا يخفى عليك؟ أم كيف أترجم عني وعما هو باطن فيَّ وظاهر مني مما قدرته علي بمقالي، وهو منك برز خلقًا، وما تضمنه من المفهوم إليك يعود صدقًا؛ ليعود إلي منك رفعًا؛ لأني أفقر شيء إليك حقًّا؟ أم كيف تخيب أمالي المتعلقة بأذيال كرمك بما يؤول منك إليّ في حالي ومآلي، وهي قد وفدت بك عليك، ونفذت منك إليك، فنفذ مضمونها من المطالب إلي بها في الأزل أبدًا بين يديك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي، والحال أن بك ومنك وإليك قامت أحوالي وأقوالي وأنا أضعف وأنت بالأضعفين أرأف في كل حال؟ يشهد به ما قال ﷺ:

**٢٨٨- «إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي! وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!».**

**أقول:** إلهي ما ألطفك بي في تقاديرك حيث تشهدني منها محاسن تدابيرك، وتجليات ظهورك في تصرفك مع عظيم جهلي بك، وبذلك فيَّ لولا تعريفك فما أرحمك بي؛ حيث عرفتني ما به أشهدتني فأفنيتني وبذلك أبقيتني، واخجلتاه هكذا تفعل بي وتتقرب مني، وأنا بعيد بقبيح فعلي، وهكذا شأن الفضل المجرد عن الاعتلال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٨٩- «إلهي ما أقربك مني! وما أبعدني عنك!».**

**٢٩٠- «إلهي ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟».**

**أقول:** إلهي ما أقربك مني بقدرتك علي، وبعلمك بي، وبقيوميتك لي، وبحصة توجهك الإيجادي فيَّ التي بها تعين وجودي ودام، وظهرت لوازمه الملحوقة بالانعدام، فما أبعدني عنك بها لوجودك وعدمها، وقدمك وحدثها، وقدرتك وعجزها، وغناك وفقرها، وعزتك وذلها، ومع هذا التباين ما أرأفك بي إذ عرفتني بي معرفة عرفتك بها من حيث عرفتني، فما الذي حجبني عنك إلا نورك، وما الذي يسترني عنك إلا ظهورك اللذان مع كمال المعرفة بك لا يكونان حاجبين، ولم أزل بها لظهورهما في اضمحلال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٩١- «إلهي قد علمت باختلاف الآثار، وتقلب[1] الأطوار أن مرادك مني أن**

(١) وفي نسخة «وتنقلات» بدل «وتقلب».

**تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء»**.

**أقول**: إلهي قد علمت من إعلامك، وعرفت من تعريفك، وشهدت من إشهادك بتنوع الآثار الإمكانية، وتقلب الأطوار الكونية، حسية كانت أو معنوية، علوية كانت أو سفلية، حقيقية كانت أو خيالية، نفسية كانت أو عقلية إلى غير ذلك، بأن مرادك مني بهذا التنويع أن تتعرف لي بموجب تنوعها، ومقتضى تلونها، وهو اختلاف تجلياتك، وتنوع صفاتك يا بديع؛ ليغيب تنوع فروعها في تنوع أصولها، ويستهلك تنوع أصولها في ذات وحدتك المتجلي بها، فأشهدك بك لا بي في كل شيء منزهًا عن كل شيء حتى لا أجهلك في شيء بمعرفة كل شيء؛ لأني ما أجهل منها شيئًا إلا فاتني منك بقدر جهلي بذلك الشيء، والجهل بك من حيث تعرفك، ولو بأدنى شيء لؤم يلام صاحبه ولو طال: ولذا قال ﷺ:

**٢٩٢- «إلهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما آيستني أوصافي أطمعتني منتك»**.

**أقول**: إلهي كلما أخرسني لُؤمْي الموجب لكرهي المتوجه علي منك بالنص؛ لتخلفي عن كل حقوقك، وإن يكن شيء منها، فذاك بك لا بي، ولا مني حق لؤمي القائم بنفسي؛ لنفسي بسبب ذلك الذي منه ما خفي عن خلقك، وسترتني فيه جميل سترك، ومنه ما ظهر بإظهارك، وذلك حقك من أجل حقك، لكنك الستار بفضلك، أنطقني كرمك بطلب عفوك ومغفرتك ودوام سترك؛ لنقائصي، وتوقع وُصْلَتِكَ، والتمتع بطلعتك في فسيح حضرتك لما حققتني به من معرفة كمال غناك عن كل شيء سواك، وعظيم تفضلك، وكذا كلما آيستني منك أوصافي اللئيمة؛ لإفراط قباحتها الذميمة طمعتني فيك منتك التي لا تُعَلَل بعِلةٍ تُتَوهم أو تقال، وأني لكما قال ﷺ:

**٢٩٣- «إلهي من كانت محاسنه مساوئ، فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوي، فكيف لا تكون دعاويه دعاوي؟»**.

**أقول**: إلهي، من كانت محاسنه المريضة المخلوقة لك المنسوبة إليه بفضلك مساوئ بسبب إثباته إياها لنفسه ثبوتًا يحقق وجود آنيته معك التي من لازمها وجود ملازمها من الرياء والتكبر، وعدم الإخلاص والصدق إلى غير ذلك مما تصير به المحاسن مساوئ، فكيف لا تكون مساوئه المحقَّق مبُاينتها لمراضيك مساوئ؟ ومن كانت حقًا حقائقه

المتحقق بها، والمحقق لها في عقول وقلوب الطالبين لك، ولطريقك دعاوي؛ لكونه غير متخلق بها، ومتمتع بشهود مضمونها، فكيف لا تكون دعاويه لها من غير التحقق بها دعاوي. وكم لي من ثمرات أتوقع من فضلك أني منها، أقال بسلطان ما قال ﷺ:

**٢٩٤- «إلهي حكمك النافذ، ومشيئتك القاهرة، لم يتركا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً».**

**أقول:** إلهي حكمك النافذ عنك سلطانه الحاضر المشهود برهانه، ومشيئتك القاهرة على وفق علمك المعلوم لك عيانه لم يتركا لذي مقال مقالاً لا ينفذ به مراده المباين، ولا لذي حال حالاً لا يشهد به مشهودًا ليس بكائن؛ لتلاشيهما بظهور ما سبق في علمك، وترتب من حِكْمِة حُكْمِك؛ لأنك ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، وقد لا يتركان لهما ذلك مع أن المراد غير مباين، وللشهود كائن، إما بالغيبة عنهما في أكنة الإخلاص، وهو لأهل الفرق الساعين إليك، وإما بالفناء عنهما في مقام الاختصاص، وهو لأهل الجمع عليك، وبالجملة فما لم تثبت بقاؤه وإن كان، فهو ملحوق بالزوال، ويشهد له ما قال ﷺ:

**٢٩٥- «إلهي كم من طاعة بنيتها، وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك».**

**أقول:** إلهي كم من طاعة وفقتني إليها، فعلى أساس الصدق والإخلاص بنيتها ورتبتها، وكم من حالة حليتها، وبرفع الهمة فيها شيدتها، ومن الشوائب صفيتها ناظرًا إلى أنهما صالحتان لحضرتك، ومطابقتان لمرادك وخدمتك بوهمي، **وفوق ذلك علمك**، فهدم اعتمادي عليهما بما خفي عني فيهما من الخلل إذ بمجرد تصرفك فيما تملكه عَدْلَكَ بل أقالني شهودًا، [ولنسبة فيما لك عنهما][1] فضلك المعتمد لآمال ذوي البصائر دون الأعمال كما قال ﷺ:

**٢٩٦- «إلهي أنت تعلم، وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزمًا، فقد دامت محبة وعزمًا»**

**أقول:** إلهي أنت تعلم ما يقتضيه الإيمان بك المتفضل علي به من منتك من محبة القيام بأوامرك، والامتثال لطاعتك التي وإن لم تدم مني لك بك فعلاً جزمًا لما في سابق علمك حتمًا، فقد دامت بمقتضى الإيمان والمحبة محبة وعزمًا؛ إذ كل مؤمن بغريزة الإيمان يود على

---

(١) هكذا وردت العبارة في الأصل المخطوط، وهي غير واضحة المعنى.

ألا يفتر عن مطلوباتك، ويجب أن يكون دائمًا يشكر لك بطاعاتك، ولكن الأفعال قهر لا تكون إلا على وفق الآزال؛ ولذا قال ﷺ:

**٢٩٧- «إلهي كيف أعزم وأنت القاهر؟ أم كيف لا أعزم وأنت الآمر؟».**

**أقول:** إلهي كيف أعزم على ترك ما نهيتني، وإتيان ما أمرتني، وأنا المقهور تحت سطوات قهرك الجارية على مقتضى علمك، وأنت بها القاهر؟ وكيف لا أعزم على ذلك وإن كان كذلك، وأنت بذلك آمر؟ وهل الأفعال الصادرة منك يا فعال بعزائم عبيدك الضعفاء العاجزين المترددين بين أطلال الآثار تنال؟ ولتحقق العجز قال ﷺ:

**٢٩٨- «إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار. فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك».**

**أقول:** إلهي ترددي في الآثار من الآثار إلى الآثار؛ لأدخل منها عليك يوجب بعد المزار في الوصول إليك، فاجمعني منها عنها بخدمة بك لك عليك توصلني إليك، فالخدمة وإن كانت من الآثار لكنها من واجبات حقوقك التي يكون بها العبد بين يديك منغمسًا في نور الكمال معاقٌ بك أن يكون بغيرك مستدلاً عليك لما قال ﷺ:

**٢٩٩- «إلهي كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟».**

**أقول:** إلهي كل الآثار سواك، وهي مفتقرة في وجودها لعلاك، فالدلالة بك منها تدل عليك لا ذواتها المعدومة بنفسها الموجودة بك بين يديك، أيكون لغيرك المفقود من الظهور بذاته المعدومة ما ليس لك من الظهور حتى يكون هو المظهر لك، وكل شيء هالك إلا وجهك؟ فالوجود، والبطون، والظهور إنما هو لك، ولغيرك منك، ومتى غبت حتى تحتاج إلى دليل قائم منك بك، أو من غيرك يدل عليك، والغيبة والاحتياج محالان لا يتطرقان إليك، وهما لغيرك بالذات مادمت، ودامت لك الصفات؟ ومتي بعدت بمسافة تقتضي جرمية وتحيزًا لا يجوزان عليك حتى تكون الآثار المفتقرة إليك ابتداء ودوامًا هي التي توصل الطالب؟ ومن الطالب إلا من عرفك، ومن العارف إلا من شهدك، ومن الشاهد إلا من فني فيك، ومن الفاني فيك إلا من بقي بك، ومن الباقي بك إلا من

استخلفته، فلم يتخلف عنك من حيث أنت، ولا عن مرادك من حيث مرادك في بطونك وظهورك بك في حضرة هويتك يا أول يا آخر، يا باطن يا ظاهر بالجلال، والجمال والكمال لمن بك يراك لا لمن بك حجب عنك فلم يرك، وهو في حضرتك كما قال ﷺ:

**٣٠٠- «إلهي عميت عين لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا».**

**أقول:** إلهي عمت أنوار ظهورك، فعميت أعين الجاهلين بك عن شهودك حتى أنها ولا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لا يراك في مشاهدك بدلالة جمالك للمحبين حبيبًا، إن لم تجعل له من حبك حبة ونصيبًا فيكون مصيبًا؛ لأن سهم محبتك إذا نفذ للقلوب نفذها إلى حضرات الغيوب، فتشاهد ما هنالك من الحال وترجع إلى ما هنا بهذا الكمال، وشاهد ذلك ما قال ﷺ:

**٣٠١- «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها، كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]».**

**أقول:** إلهي أمرت بالرجوع منك إلى الآثار التي هي لك ظهورات وأنوار، فأرجعني إليها بك، وبكسوة أنوار أحديتك؛ لأجول بها وفيها، وما ذاك إلا في واحديتك جولان إبصار بهداية استبصار مميزًا لكل حقيقة من حقيقة، ومشهد من مشهد، وحضرة من حضرة، واسم من اسم، وسر وجود كل من ذلك، **وسر إيجاده حتى أرجع إليك في حضرة أحديتك منها،** وما تلك **إلا** من واحديتك كما دخلت إليها من حضرة واحديتك من **أحديتك مصون السر** المشاهد لأحديتك في مجالي واحديتك عن النظر إلى الآثار من حيث أنها صور أسمائها مرفوع الهمة عن الاعتماد عليك، فإن إليك المرجع والمصير ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] ولك العزة والجلال، ولسواك ما قال ﷺ:

**٣٠٢- «إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك».**

**أقول:** إلهي هذا ذلي في عبوديتي ظاهر عند عبديتي لك بك مني لا بي بين يديك،

وهذا حالي منك المحول لي بك في أطوار شئونك الإلهية الظاهرة عنك على مقتضى تجلياتك المتظاهرة بك، والمتحول عني إما بمثله أو بغيره حسب مرادك، وسابق علمك من حال تخصصني به إرادتك لا يخفى عليك، فأشهدني به ما خفي عني من مسكنتي إليك منك يا معطي كل سؤال، أطلب منك الكشف عن الوصول الحاصل لكل واصل ومفاصل؛ لنزاهتك عن الوصل والفصل المحتجب عني بجهلي بك الذاتي من حيث ظهورك وبطونك؛ إذ الوصول إليك إنما هو الوصول إلى العلم بك الكاشف لي عنك حيث تشاء من نصيبي، فبعلمك أصل إليك، وبك منه استدل عليك.

سيدي: فاهدني بنورك هذا إليك لأشهدك بك لا شيء معك تعالى مجدك أن يكون معك غيرك، وأقمني بك لا بنفسي في صدق العبودية لك بين يديك؛ لأشهدك بك من جميع وجوه تعرفاتك، وذلك بمقتضى العلم الدال عليك، فإنه العلم المضنون به على غير أهل الكمال المنبه عليه بما قال:

**٣٠٣- «إلهي علمني من علمك المخزون، وصنِّي بسر اسمك المصون».**

**أقول:** إلهي علمني من علمك المخزون الدال عليك، وهو المخزون عندك لعبد يكون به حرًّا مما سواك عبدًا لك، وصُنّي فيه عن زيغ نظم بصيرتي عنك، وطغيان نفسي به، وبمدلوله منك بين يديك بسر اسمك المصون لك، ولمن يثبت من مخصوصيك يا من يقول للشيء كن فيكون؛ لأكون متحققًا بالمقام من الحال بما قال ﷺ:

**٣٠٤- «إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب».**

**أقول:** إلهي حققني بحقائق قربك، واسلك بي مسالك أهل الجذب بك من كل شيء إليك التي هي لأهل القرب المتحققين منها في حضرات تجلياتك بعدم الحجب لما أعطاهم كمال العلم بك من أنك المتعرف بأسمائك المتنوعة للمحبين في مقامات الحب لأكمل، فمن كمل عرفانه بك تمتع بالكمال، وإلا فيرى البعض حجابًا، فيشتاق إلى ما احتجب عنه من الكمال، ويحمله الشوق على تدبير يحصل به هذا النوال، وإني لا أذهب إلا إلى ما قال ﷺ:

**٣٠٥- «إلهي اغنني بتدبيرك عن تدبيري؛ وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري».**

**أقول:** إلهي اغنني في فقري إليك بتدبيرك الناشئ عن علمك المشهود تأثيره بظهوره عن تدبيري الناشئ عن جهلي المشهود توقفه في أموره، وباختيارك المظهر صورة ذلك التدبير، النافذ عن اختياري المفقود مختاره الجامد الغير النافذ، وأوقفني على شهود مراكز اضطراري الذاتي، ووفقني للوقوف عندها بين يديك بذلي الصفاتي ناظرًا لك حينًا مواقع الحاجة إليك أبدًا، فلا أنسى عبوديتي لك سرمدًا قائمًا بالامتثال معافى من استيلاء سلطان نفسي بما قال ﷺ:

٣٠٦- «**إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي. بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغبُ فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني**».

**أقول:** إلهي أخرجني بك إليك في طاعتك من ذل نفسي المستولية عليَّ شهواتها وغفلاتها عنك وعن مطلوباتك؛ لأظفر منك بقدسي، وطهرني بماء قدس غيب وحدتك من شكي في هلكي، وشركي بأنيتي، وملكي في الحال سريعًا قبل حلول رمسي بك لا بسواك في ذلك وغيره، أستنصر فانصرني، وعليك لا على غيرك توكلي فلا تكلني، وإياك فاقة وعبودية أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك الذي ليس معه فضل أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب مخلوقًا مملوكًا عبدًا فلا تبعدني بي وبلوازم أنيتي، وبشأنك الأعلى بذلي وفاقتي ومسكنتي لوصالك الأغلى أقف، فلا تطردني أطلب منك هذا الإفضال بلا شيء مني منزهًا عن الاعتلال تعاليت كما قال ﷺ:

٣٠٧- «**إلهي تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنيًّا عني؟**».

**أقول:** إلهي تقدس رضاك عني في عصياني أن تكون له علة منك تعود عليك، فيكون سببًا للرضا عليَّ، فكيف تكون له علة مني، وأنا وإن كنت شيئًا فعنك وليس شيء مني، ولا بي تنزهت أنت الغني بذاتك أن يصل إليك نفع منك، فيكون منك ما هو ممدود بما منك فجدت، فكيف لا تكون الغني عني، وأنا الفقير المحتاج إليك ابتداء ودوامًا مع الآنات لا أستغيث ولا استغني عنك أبدًا، ولا أجد لي عنك بدًّا، فأغث مسكينًا لا يستطيع دفع ما يرد عليه من حال أو محال؛ لعجزه المطلق المعبر عنه بما قال ﷺ:

**٣٠٨- «إلهي إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك؛ حتى أستغني بك عن طلبي».**

**أقول:** إلهي إن القضاء المبرم، والقدر المحتم بظهور ما تشاء من الأقضية الموجبة للندم غلبني وقهرني، وإن الهوى الهاوي بي إلى حضيض مواطن البعد، والغفلة بوثائق الشهوة المستمرة مني أسرني، فكن أنت بما تشاء من أسباب النجاة النصير لي حتى تنصرني على شهوتي، ووجودي بفنائي في شهودي بعد التخلي عن أحكام صدودي، وينصر بي كذلك خليلي وودودي، وأغنني بفيضك المفاض على خواص أهل حضرتك من شهودك في كل مراتب ظهورك وبطونك بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبي لك بشهود حصول وجودك استغناء لا يخرجني عن شهود عبديتي في عبوديتي لك؛ لأكون ذليلاً بك لك، وسائلاً لك بك، وهكذا في كل أطوار عبوديتك بهذا الكمال، فإنك كما قال ﷺ:

**٣٠٩- «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجئوا إلى غيرك، وأنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم».**

**أقول:** سيدي أنت الذي أظهرت أطوار أنوار أسرار أعمال طاعتك في مرآة قلوب أوليائك مستبدلة له عن الشهوات الصادة، وأحكام قيود العادة من غير أن يتخللا، وبذلك صح لهم منك الولاء، وأنت الذي محوت رسوم صور الأغيار التي منها الأنوار من قلوب أحبائك بمشاهدة شهود ترائيك في مرآتي صفاتك بما تشاء أن تتجلى لهم به في حضرة فناء كثرتهم بوحدتك يا قهار، فمن حيث ذلك لم يجدوا سواك، ومن هو سواك لولاك؟ ولم يلجئوا إلى غيرك، ومن غيرك إلا نورك؟ وأنت المؤنس لهم بما به أهلتهم، وتجليت وتعرفت به لهم، فأشهدتهم ذلك حيرة من حيث أوحشتهم العوالم، فلم يستوحشوا لها؛ إذ لا وحشة إلا مع سواك، وهم لا يشهدون سواك تعالى عُلاك، وأنت الذي دليتهم على ما به وليتهم إلى حضرة ما به أشهدتهم، فاستبانت لهم معالم طرق ذلك؛ ولذلك كانوا هنالك، واجدين لك، متمتعين بك على فراش الوصال، فاقدين لسواك، ومن أجل ذلك قال ﷺ:

**٣١٠- «ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك**

Obeikandi.com

**بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك متحولاً. إلهي كيف يرجى سواك، وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟».**

**أقول:** سيدي نعم ماذا فقده الواجد لك حقيقة، والواجد لك ما فَقَد شيئًا؛ لعموم ظهورك، وشمول وحدة وجودك، فإن من فاته شيء مما تعرفت به، فإنه منك بقدر ذلك الشيء، فما وجدك إلا من حيث عرفك لا من حيث جهلك، فوجد منك ما وجدك، وشهد منك وما شهدك، ومن لم يجد منك ولم يجدك، فقد فقدك ولا موجود على الحقيقة سواك.

وماذا وجد من فقدك، ولو وجد كل شيء لفقده لك من كل شيء بجهله لك في كل شيء قائمًا بكل شيء، فبجهله بك لقد خاب؛ إذ رضي بشيء وهمي معرفة وشهودًا ووجودًا دونك عنده بجهله، وبعده عنك بدلاً، ولقد خسر والله من بغي، وتعدى وقاربك مفتقرًا إليك؛ إذ نسيك وعول عليك، وبغي عنك إليه متحولاً. كيف يتحول إلى سواك ويرتجي وليس لأحد حتى ولا لذلك السوى عنك غنى ولا ملتجأ؟ وأنت ما قطعت الإحسان المتوالي المتنوع حسًّا ومعنى حسب أنواع تركيب الأكوان؟ وكيف يطلب من غيرك وغيرك وما يملكه مملوك لك، وما كان مملوكًا لك فلا تصرف فيه وله إلا بك وبإذنك، وإذنك لا يَبرز إلا على مقتضى فضلك هذا؟ وأنت ما غيرت عادة الامتنان التي هي غير واجبة عليك لما سواك من الأكوان التي هي مظاهر العرفان الظاهر بك المُستأنسُ به في حضرات الجلال والجمال الممتلئة بأنسها القلوب حتى فاض على اللسان بما قال ﷺ:

٣١١- **«يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته، فقاموا بين يديه متملقين ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته، فقاموا بعزته مستعزين أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».**

**أقول:** سيدي يا من أذاق أذواق أحبابه حلاوة مؤانسته التي يتزخرف بها عن محبتهم إلى فنائهم، وفنائها فيه لفنائهم به، فقاموا من أجل ذلك بين يديه متعلقين بأذيال كرمه متملقين، ويا من ألبس أولياءه بطاعتهم له ملابس عزته، فقاموا بين يديه بعزته في خدمته مستعزين. أنت الذاكر لنفسك بنفسك في نفسك من قبل الذاكرين لك، ولم تزل كذلك ومع الذاكرين وأبدًا بعد الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان المنزه عن العلل من العاملين

قبل وجود توجه العابدين، وأنت الجواد على العالمين قبل وجودهم، ووجود طلب الطالبين من الخلائق أجمعين، وأنت الوهاب لنا من عطاياك ما قدر لنا فضله، وأنت لذلك الفضل بالفضل من المستقرضين للفضل في الحال والمآل الذي منه طلب الوصال المنبه عليه بما قال ﷺ:

٣١٢- «إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أُقبل عليك».

**أقول**: إلهي أطلبني مني، ومن جهلي بك وبقربك إلى حضرات وصالك، ومشاهد شهود كمالك برحمتك التي هي العلم بك من حيث جلالك وجمالك، واجذبني جذبة مجتبٍ مأخوذ عن غيرك بمنتك حتى أقبل عليك، ولك أقوم بين يديك، وفيك أسير فأشير إليك، ولا يحول بيني وبين ذلك معنى من قبيح أفعال ولا شوائب أعمال ولا أقوال جلَّ عطاؤك عن الاعتلال؛ ولذا طمع وقال ﷺ:

٣١٣- «إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك، وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يُزايلني وإن أطعتك».

**أقول**: إلهي طمعي فيك بما عرفتني به من صفات كرمك، وغناك عني، وعن عقوبتي وافتقاري إليك، وإلى رحمتك لا ينقطع عنك؛ لتحقق رأفتك وإن عصيتك، وفرطت في جنابك، وإني والله لمفرِّط في ذلك، وإن خوفي منك بما عرفتني به من صفات عدلك، وانتقامك لا يفارقني، وإن أطعتك إما لتخلل معصيتي بطاعتك أو لما يشوبها من قبلي مع كمالها من قبلك، أو لا لشيء يبطل به العمل؛ لعلم أنك ما شئت كان، ولا تُسأل عمّا تفعل، فكلَّ العقل وقلَّ الاحتيال، وحار الفكر واتسع الخيال في الفوت بالموت، والحال بالحال، ولسان حال العوالم؛ لعجزها في نفسها عن المرام مصرح بما قال:

٣١٤- «إلهي قد دفعتني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك».

**أقول**: إلهي قد طردتني العوالم إليك؛ بقبح حالي، ولعجزها عن إصلاح بالي واستشفاء قلبي وقالبي، يا من به أقوالي فيما يعود علي في دنياي ومآلي، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك، فالعلم علمك، والكرم كرمك، وأنت محط الرحال؛ ولذا قال ﷺ:

٣١٥- «إلهي كيف أخيبُ وأنت أملي؟ أم كيف أُهان وعليك مُتَّكلي؟».

**أقول**: إلهي كيف أكون بك لك حقيقة أجيب بالطلب، ومنك فيك أخيب في المطلب، وأنت أملي وإن أبطاء بي عملي؟ أم كيف أهان بجريان العصيان علي وعليك متكلي؟ يا منجي الغرقى من بحار الغفلات، ويا منقذ الحرقى من نيران الشهوات أخرجني من ذل المعصية، وأدخلني في عز الطاعة عزيزًا بك في ذلي لما قال ﷺ:

**٣١٦- «إلهي كيف أستعزُّ وأنت في الذلة أركزتَني؟ أم كيف لا أستعزُّ وإليك نسبتني؟»**.

**أقول**: إلهي كيف استعز في ذاتي بذاتي أو صفاتي، وفي الذلة الذاتية إليك أركزتني؟ أم كيف لا أستعذ بك وبالعبودية شرفتني، وإليك بها قد نسبتني؟ وأنا إلي إيجادك نسبة بها، وجد وجودي وتعيني دوامًا مفتقرين إليك أبدًا، فلا نسبة بيني وبينك سوى الإراءة بالإفضال يا كبير يا متعال، وقد صرح به، وقال ﷺ:

**٣١٧- «أم كيف لا أفتقرُ وأنتَ في الفقر أقمتَني؟ أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذي بجودك أغنيتني؟ أنت الذي لا إله غيرك تعرفت لكل شيء، فما جهلك شيءٌ وأنت الذي تعرَّفتَ إلي في كل شيء، فرأيتك ظاهرًا في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء. يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيبًا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا في عرشه، مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار، ومَحَوْتَ الأغيارَ بمحيطات أفلاكِ الأنوار. يا من احتجبَ في سُرَادِقَاتِ[1] عِزِّهِ عن أن تُدركَه الأبصارُ، يا من تجلَّى بكمال بهائه فتحققتْ بعظمته الأسرار،**

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: السرادقات في اللغة: هي الأسوار المحيطة بالدار، وهي هنا كناية عن الحجب القهرية، وهي حجب العزة التي احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكنة التي على القلوب، وتنحصر في خمسة أمور:

الأول: حب الدنيا الذي زرعه الحق تعالى بقهره في قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم، وتاهت فيها العقول، وتظلمت بصور خيالها القلوب، واشتبكت فيها الفكر، فلا تنصرف إلى غيرها، وبهذا احتجب جُل العباد إلا من عصم الله.

الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها، والعوائد مع ما تعودت بها، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب، والنبات على وجود الأمطار، وغير ذلك من ارتباط الأسباب، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب والحكيم العليم برزق من غير أسباب ويعطي بلا حساب، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب، وحجبوا عن شهود رب الأرباب، إلا من نفذت بصيرته من ذوي الألباب.

كيف تخفى وأنتَ الظَّاهِرُ؟ أم كيف تغيبُ وأنتَ الرقيبُ الحاضرُ؟!».

أقول: إلهي كيف لا أشهد افتقاري الحاصل لي منك مع الآنات، وأنت في الفقر الذاتي أقمتني؟ أم كيف أفتقر لما هو واصل لي منك من إيجادي وإمدادي، ولوازم ذاتي الممدودة من الأعراض المتعاقبة بأمثالها على ممر الأوقات في كل عالم من العوالم بمقتضاه في كل مرتبة من المراتب بمقتضاها، وأنت الذي بجودك أغنيتني غنى عرضيًا لا يخرجني عما فيَّ من الفقر الذاتي الذي فيه أقمتنى، أنت الذي لا إله غيرك، ولا موجود بالذات سواك، وإن وجد سواك، فمنك بك تعرفت لكل شيء بما به ظهرت، فأوجدت وخلقت وصورت وأبدعت فأحسنت، فما جهلك بذلك شيء، وأنت الذي تعرفت إليَّ بذلك في كل شيء، فرأيتك ظاهرًا في كل شيء متعرفًا بأسمائك وصفاتك وأفعالك لكل شيء، فما جهلك شيء، ومتنكرًا لكل شيء من حيث غيب ذاتك فما عرفك شيء.

يا من استوى برحمانيته المعطية كل شيء خلقه على عرشه بسلطانه، فغاب في استيلاء عظمة سلطانها غيبة اضمحلال آثار في مؤثراتها من التجليات، كما أن التجليات

---

=

الثالث: الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيبًا وترهيبًا علمًا وعملاً، فقوم وقفوا مع الترغيب، فانكبوا على العمل طلبًا للجزاء وهم العباد، وقوم وقفوا مع الترهيب، فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد. وقوم وقفوا مع ترغيب العلم، فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف، وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر، فحجبوا بالعلم عن المعلوم، وهي معرفة الحي القيوم.

الرابع: الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة وهي سموم قاتلة لمن وقف معها، وهي لأهل المراقبة بها احتجب كثير من العباد والزهاد، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية، فتزيدهم حجابًا عن الله.

الخامس: ظهور أثر القدرة على هذه التجليات، واتصافها بأوصاف العبودية كالفقر والذل والجهل والمرض والموت، وغير ذلك من أوصاف البشرية التي سترت سر الخصوصية، وبهذا احتجب بعض المستشرفين على الفناء في الذات، فرجعوا من حيث جاءوا، والله قاهر فوق عباده: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] فهذه سرادقات العز التي احتجب الحق تعالى بها، فإن العزيز هو الذي لا يترقى إليه وهم طمعًا في تقديره، ولا يسموا إلى صمدانيته فهم قصدا إلى تصويره.

وقيل العزيز: من ضلت العقول في بحار عظمته، وحارت الألباب في إدراك نعمته، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله، ووصف جماله، وقال رسول الله ﷺ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». انتهى.

مضمحلة في ذاتها، وكما صارت العوالم غيبًا في عرشك؛ لاستيلاء عظمته عليها؛ فمحقت الآثار العالمية بالآثار العرشية، ومحوت الأغيار منهما ومن غيرهما مطلقًا بمحيطات أفلاك الأنوار الصفاتية، والتجليات الربانية الأسمائية التي الكل غيب فيها.

يا من احتجب في سرادقات الظهور، فعز إدراكه بشمول النور عن أن تدركه الأبصار؛ لتحقق فناء الباصر في المبصور، وإثبات وحدة الناظر في المنظور، يا من تجلى وظهر من غيبه بكمال تجليات بهائه؛ فتحققت عظمته المتجلى بها الأسرار القوابل لها، كيف تخفى وأنت الظاهر بالظهور والمظاهر؟ أم كيف تغيب والغيبة تحويل والتحويل محال، وأنت الرقيب الناظر، والمراقبة عمن لا يغيب وهو البصير لازمة على كل حال أبدًا، وأنت الحاضر بكل ذلك؛ لوجوب ذلك لك سرمدًا لا شريك لك في الحكم والحكم، والوجود والقدم، والجود والكرم، والألوهية وصفاتها، والربوبية وتجلياتها، واستحقاق العبودية، وثبوت نسبة العبدية، والسيادة وحقها، والعادة وخرقها، وظهور الجمال والتظاهر، والجلال والنزاهة، والكمال والحكمة، والنظام والاستيلاء، والدوام والنقمة والإنعام، والانفراد بالتدبير، والتوحد في التأثير، والتعريف والتكليف ونفوذ التصريف، والإشهاد والتعطف، والإمداد والتلطف، والابتداء والإعادة، والإسعاد بالسعادة، والخلق والتصوير، والإرزاق والتيسير، والأولية والآخرية، والباطنية والظاهرية، والإعلام والعالمية، والإشهاد والشاهدية لمشهود كلي أو جزئي في غيب غيبك، أو في غيب علمك أو جبروتك، أو ملكوتك، أو ملكك وحدك وحدك.

شهدك بذلك، ومن ذلك، وفي ذلك عبدك، فعبدك وحدك عندك، لك الملك، والحمد بك من ذاتك، ومن مظاهر تعرفاتك حسب محامدك المتعرف بها لخواصك، وعوام عبادك، وما استأثرت به منها في ذاتك، وما ادخرته لعروس حضرتك، ومخصوص نظرتك، وعين رحمتك، ومنبع العلم بك وبأحكامك، ومجلى سر شهود وجود وجوه تعرفاتك بأسمائك، وصفاتك الدال على كل ذلك بك، والمعرف ما لا يدرك كنهه منك إلا لك.

صلِّ اللهم أفضل وأشمل وأكمل صلاتك التي هي لك منك بك عليه، وسلم سلامك الأرضي الذي ترضاه منك، وبلغهما إليه مادامت صفاتك لازمة لذاتك، وتجلت

منها بأنواع تعرفاتك، ورضي الله كذلك عن الصحابة والتابعين، والحمد لله رب العالمين، والله الموفق وبه أستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمت بعونه تعالى المناجاة الإلهية وتم شرح الحِكم المنسوبة للعارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري ـ نفع الله به ـ مما شرحها مولانا العارف بالله تعالى مربي المريدين سيدنا الشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمود بن حسن الأقصرائي المواهبي ـ أدام الله النفع به.. آمين.

obeikandl.com

obeikandl.com

# فهرس بأهم المصادر والمراجع

١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.

٢- روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.

٣- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة.ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.

٤- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

٥- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

٦- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

٧- تفسير القرطبي، ط دار الكتب المصرية.

٨- تفسير القشيري، ط دار الكتب العلمية.

٩- حقائق القرآن لأبي عبد الرحمن السلمي، ط طهران.

١٠- نظم الدرر للبقاعي، ط دار الكتب العلمية.

١١- تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي، ط دار الكتب العلمية.

١٢- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.

١٣- مرآة الحقائق لإسماعيل حقي، ط دار الآفاق العربية مصر (بتحقيقنا).

١٤- تفسير سهل بن عبد الله التستري، ط دار الكتب العلمية.

١٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر.ط الدار السلفية. الهند.

١٦- إحياء علوم الدين ومعه المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.

١٧- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.

١٨- الفتوحات المكية (أو – كما تُسمى – الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر .ط. دار صادر في أربعة مجلدات.

١٩- الكمالات الإلهية فى الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلي.ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.

٢٠- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٢١- قوت القلوب لمكي بن أبي طالب، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٢٢- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها (شرح على مختصر البخاري) للإمام الحافظ عبد الله بن أبي جمرة ط. دار الجيل.

٢٣- الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية لشيخ الإسلام الإمام عبد الغني النابلسي ط. دار الحقيقة – تركيا.

٢٤- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق لإمام الفريقين مدون أخلاق السنة المحمدية الشيخ عبد الوهاب الشعراني. (مخطوط دار الكتب المصرية علم التصوف).

٢٥- الأخلاق المتبولية للإمام العارف عبد الوهاب الشعراني. ط. دار الكتب العلمية بيروت- تحقيق المزيدي.

٢٦- سراج الطالبين على منهاج العابدين لمفتي الحرمين المحقق العلامة إحسان دحلان.ط. دار الفكر.

٢٧-البيان والمزيد (شرح حكم سيدي شيخ الشيوخ أبي مدين الغوث) للشيخ العارف أحمد باعشن، ومعه روح الكبريت الأحمر على حكم الشيخ الأكبر، ويليه حكم الإمام مصطفى البكري للعارف محمد بن محمود الداموني البكري.ط. دار الكتب العلمية بيروت- تحقيق المزيدي.

٢٨- الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للإمام الشعراني. ط. دار الكتب العلمية- تحقيق المزيدي.

٢٩- العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية لشيخ الإسلام الأستاذ المربي الإمام الصديقي مصطفى البكري ط. (دارة الكرز – الدار الجودية) بالقاهرة- تحقيق المزيدي.

٣٠- كتاب جامع أصول الأولياء وأنواعهم للشيخ أحمد النقشبندى ط. دار الكتب العلمية- تحقيق المزيدي.

٣١- مذكرة المرشدين والمسترشدين للعارف محمد أبو العزائم.ط دار الكتاب الصوفي. بالقاهرة.

٣٢- تنبيه المغترين ويليه الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين للإمام الشعراني والإمام حجة الإسلام الغزالي. ط. دار المعرفة – بيروت.

٣٣- تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول لإمام الحرمين المحقق العلامة دحلان ط. دار الكتاب الصوفي. بالقاهرة

٣٤- الهداية للإنسان ويليه الأسرار الخفية (شرح حكم سيدي شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث) لسيدي العارف علي البيومي. ط. أبناء الشيخ محمد إبراهيم سالم بالقاهرة.

٣٥- لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية للإمام العارف عبد الشعراني دار الكتب العلمية بيروت.

٣٦- جامع كرامات الأولياء للعلامة المحدث الصالح الشيخ يوسف النبهاني.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٣٧- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية. للفقيه العارف الشيخ عبد الله اليافعي. ط. مكتبة بالقاهرة.

٣٨- حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب للشيخ محمد بن الحسن الصوفي.ط. دار جوامع الكلم بالقاهرة.

٣٩- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال لسلطان العلماء وشيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ط. دار الكتب العلمية.

obeikandi.com

٤٠- السير والسلوك إلى ملك الملوك للشيخ قاسم الخاني. ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

٤١- معارج القدس فى مدارج معرفة النفس ومعه قانون التأويل لحجة الإسلام الإمام الغزالي.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٤٢- شرح الحكم الأكبرية للشيخ حسن بن موسى الكردي. ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٤٣- إيقاظ الهمم فى شرح الحكم للعارف أحمد بن عجيبة الحسني.ط. دار جوامع الكلم بالقاهرة.

٤٤- الطبقات الكبري للإمام الشعراني.ط. عدة طبعات، منها: دار الكتب العلمية بيروت.

٤٥- إحياء القلوب شرح الكردية للشيخ عبد القادر الرافعي، ط. دار الكتب العلمية (بتحقيقنا).

٤٦- قوانين حكم الإشراق إلى كل الصوفية بجميع الآفاق، لأبي المواهب محمد بن أحمد التونسي الشاذلي الوفائي، (بتحقيقنا)- ط دار الكتب العلمية.

٤٧- شرح الحكم الغوثية- لأمدين الغوث- قدس سره، لأحمد بن إبراهيم بن علان الصديقي النقشبندي الشافعي، طبع بتحقيقنا لأول مرة بالقاهرة.

٤٨- الفتوحات الإلهية والفيوضات الإلهية شرح الحكم والوصايا الكردية، للشيخ عبد الله الشرقاوي (بتحقيقنا).

٤٩- شرح الحكم العطائية للشيخ الشرقاوي، ط دار الكتب العلمية- بيروت.